نهاية الأرب
في
فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

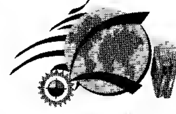
المتوفى ٧٣٣ هـ

٢٨-٢٩

تحقيق

الدكتور نجيب مصطفى فوّاز و الدكتورة حكمت كشلي فوّاز

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+981 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+981 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثاني عشر من القسم الخامس من الفن الخامس

أخبار ملوك الديار المصرية [الدولة الطولونية][1]

[توفي أماجور مُقْطع دمشق، وولي ابنه مكانه][2] فتجهز أحمد للمسير إلى الشام[3]، وسار في شوال سنة أربعٍ وستِّين لقَصْده[4]، واستخلف على مصر ابْنَهُ العبَّاس، وعضّده[5] بأحمد بن محَمَّد الواسطي. وكتب إلى عَليّ بن أمَاجُور وإلى أصحاب أبِيهِ الَّذين أقامُوه يذكُر أنَّ الخليفة[6] أقطعه الشام والثُّغور مضافاً إلى ما بيده. فأجابُوه بالسّمع والطَّاعة، وتلقّاه ابن أمَاجُور بالرّملة، فأقرَّه عليها. وسار إلى دمشق فملكَها وأقرَّ قوَّاد أماجور على إقطاعاتهم. وسار إلى حمص [فملكها][7] فتلقَّاه عيسى الكرخِيّ، وكان يتقلَّدُها، فشكاهُ أهلُها فعزله عنهم [وولاَّها يُمن التركي][8]. وملك حَماة وحلب.

وأرْسل إلى سيما الطَّويل بأنطاكية يدعُوه إلى طاعته ليُقَرَّ على ولايته، فامتنع،

(١) ما بين حاصرتين إضافة تناسب موضوع أخبار الدولة الطولونية.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٣١٦.

(٣) هو أحمد بن طولون؛ سيرة ابن طولون للبلوي، ص ٩١.

(٤) المقصود هنا علي بن أماجور. ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٣١٦.

(٥) عضده: ساعده، وآزره. ابن منظور: لسان العرب (عضد).

(٦) هو الخليفة العباسي أحمد المعتمد على الله، ولي الخلافة في الفترة من ٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ = تاريخ الدول الإسلامية لسليمان ص ١٢.

(٧) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٣١٦.

(٨) ما بين حاصرتين إضافة من سيرة ابن طولون للبلوي ليستقيم المعنى، ص ٩١.

فَعَاوَدَه، فلم يُطعه، فَسَار إليه، ودَلّوه على عَوْرة أنطاكية فنصب عليها المجانيق، وملك البلد عنوة، وقاتله سيما الطويل حتى قتل، فساء أحمد قتله لأنّه كان نصيحه قديماً[١]؛ وكان ذلك في المحرّم سنة خمس وستين ومائتين.

ورحل عن أنطاكيّة إلى طرسُوس[٢]، فدخلها في جَمْع عظيم، وعزم على المُقام بها ومُلازمة الغَزْو، فَغَلا السّعر وضاقَت بعَسَاكره، فركب أهلُها إليه بالمخيّم وقالوا له: لقد ضيَّقت علينا بلَدنا وأغْلَيت أسعارنا، فإما أقَمْت في عَدَدٍ يَسير وإمّا رحلت عنا، وأغلظُوا له في القول وشغَبُوا عليه[٣]، فقال لأصْحَابه أن ينهزموا عن الطرسوسيّين ويرتحلُوا عن البلد، ليَظْهر للعدُوّ أنّ ابنَ طولون على كثرة عساكره لم يَقْوَ لأهل طرسوس، وأنّه انْهزَمَ عنهم، لِتَقَع مهابتهم في قلوب العدوّ.

وعاد إلى الشام، فأتاهُ خبرُ ولدِهِ العبّاس أنّه عصى عليه بمصر وأخذ الأموال وسار إلى برقة، فلم يكترث أحمد لذلك، وقضى أشْغَاله، وحفظ أطرافَ بلادِه. وبعث إلى حَرّان[٤] أحمد بن جِيغَوَيْه في جيشٍ كثيف، ونزل غلامُه لؤلؤ بالرَّقَّة[٥] في جيشٍ كثيف، وكانت حرّان لمحمّد بن أتامش، فأخرجه أحمد بن جيغويْه عنها، وهزمه هزيمة قبيحة، فاتصل خبرُه بأخيه موسى بن أتامش، وكان شجاعاً بطلاً، فجمع عسكراً كثيراً، وسار بهم إلى نحو حَرّان. فاتَّصل ذلك بابن طولون، فأهمّه وأقلقه وأزعجه، فنظر إليه رجلٌ من الأعراب يقال له أبو الأغرّ، فقال له: أيها الأمير أراك مفكّراً منذ أتاك خبرُ ابن أتامش، وما هذا محلُّه، فإنه طائش قَلِق، ولو شاء الأمير أتيته به أسيراً. فغاظه قولُه[٦]، وقال: لقد شئت أن تأتيني به أسيراً [فقال الأعرابي][٧] فاضمُم إليَّ عشرين أختارُهم. قال: افعل. فانتقاهُم أبو الأغرّ، وسار بهم.

---

(١) كان أحمد بن طولون قد أوصى رجاله ألا يقتلوه، وألا يرموه، ولكن أهل أنطاكية رموه بالطوب والحجارة من منازلهم فقتل ولم يعلم أحد إلا بعد انتهائها. سيرة ابن طولون للبلوي، ص ٩٦. وابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٣١٧.

(٢) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٣) الشغب: تهييج الشر. ابن منظور: لسان العرب (شغب).

(٤) حرّان: هي قصبة ديار مُضر، وهي على طريق الموصل والشام والروم. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٥) الرّقة: بلدة على الفرات اتخذها بعض الخلفاء العباسيين مصطافاً لهم، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٨ ـ ٦٠.

(٦) يذكر البلوي أن الأمير الذي أغاظه هذا القول هو ابن جيغويه وليس أحمد بن طولون كما ورد في نهاية الأرب للنويري، والكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٣١٨. وسيرة ابن طولون، ص ١٠٤.

(٧) ما بين حاصرتين إضافة من سيرة ابن طولون للبلوي، ص ١٠٤.

فلمَّا قاربَ عسكرَ مُوسى، كَمَّن بعضهم، وجعل بينَه وبينهُم إشارةً إذا سمعُوها ظَهَرُوا.

ثم دَخَل العسكر فيمن بقِي معه على زِيّ الأعراب، وأصحابُ موسى على غرّة[١]، وقد تفرّق بعضهم في حوائجهم، فانْزَعَج العسكرُ وركِبُوا، فركب مُوسى، فانهزم أبو الأغر بين يَدَيْه، فاتَّبعه حتى أخْرَجَهُ من العسكر، واستَمرَّ حتّى جاوز الكمين، فنادى أبو الأغرّ بالإشارة التي بيْنَه وبينهم، فثاروا، وعطف أبو الأغرّ على مُوسى فأسره، وأخذُوه حتّى وصلُوا به إلى ابن جِيغَوَيْه وإلى ابن طولون فاعتقلاه، ورُفع إلى مصر. وكان وصُولُه إليها في سَنةٍ ستٍّ وستِّين[٢]..

ذكر عصيان العباس بن أحمد بن طولون على أبيه وما كان من أمره

وفي سنة خمسٍ وستّين ومائتين عصى العَبَّاس بن أحمد على أبيه، وسبب ذلك أنّ أباه لمّا استخلَفَه بمصر، كما ذكرناه، وخرج إلى الشّام، حسَّن للعبَّاس جماعةٌ كانوا عنده أخْذَ الأموال والانْسِرَاح إلى برقة، ففعل ذلك، وحمل معه أحمد بن محمد الواسطي كاتب أبيه، وأيمن الأسود مقيَّدَيْن.

فلمَّا رجع أحمد إلى مصر وجَدَهُ قد أخَذَ ألفي ألف دينار، واسْتَلَف من التُّجار ثلاثمائة ألف دينار، وأمرَ صاحب الخراج أنْ يضْمَنَها لهم، ففعل. فراسَلَ أحمد ابنه واسْتَعطفه، فَلَم يرجع، فخاف مَن معه وأشارُوا عليه بقَصْد إفريقية، فسار إليها، وكاتَب وُجُوه البربر، فأتاهُ بعضُهم وامتنع بعضُهم. وكَتَب إلى إبراهيم بن الأغلب[٣] يقولُ: إن أمير المؤمنين قلَّدَني إفريقية وأعمالَها، ورحل حتَّى أتى حصن لِبْدَة[٤]، ففتحه أهله له، فقابلهم أسوأ مقابلة، ونهبهم، فمضى أهلُ الحصن إلى إلياس بن منصور النَّفُوسِي، رئيس الإباضيّة هناك، فاستغاثُوا به، فغضب لذلك، وسار إلى العباس ليقابله.

وكان إبراهيم بن الأغلب قد أرسل إلى عامل طرابلس جيشاً[٥] وأمره بقتال

---

(١) غرّة: غفلة. ابن منظور: لسان العرب (غرر).

(٢) في ابن الأثير: الكامل. «سنة خمس وستين ومائتين» ج ٧، ص ٣١٨.

(٣) هو إبراهيم الثاني ابن أحمد بن محمد بن الأغلب، كان على رأس دولة الأغالبة التي استقلت بتونس عن الدولة العباسية، بقي في الحكم مدة تتراوح بين ٢٦١ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٧٥ ـ ٩٠٢ م. تاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ٤٦.

(٤) لَبْدَة: مدينة بين برقة وإفريقية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٠.

(٥) «وكان الأغلب قد أنفذ إلى محمد بن قرهب عامل طرابلس بخادم له يعرف ببلاغ في جمع من أهل =

العبّاس، فالتَقَوْا واقتتلوا قتالاً شديداً [قاتل العباس فيه بيده][١] حتى حجز بينهما اللّيل. فلمّا كان الغد وافَاهُم إلياس بن منصور الإباضي في اثني عشر ألفاً من الإباضيّة، فأجمع هو وعامل طرابلس على قتال العبّاس، فاقتتلوا، فقُتِلَ من أصحابه خلقٌ كثير، وانهزم أقْبَح هزيمة، وكاد أن يُؤْسر، فخَلَّصَه مولًى من مواليه، ونهبُوا سَوادَه، وأكثر ما حمله من مصر. فعاد إلى برقة أقْبَح عَوْد.

[وشاع بمصر أن العباس قد انهزم][٢] فاغتمّ أبُوه لذلك غمًّا شديداً، وسيَّر إليه العساكر، فقاتَلهم وقاتلوه، فانهزم، وكثُر القتل في أصحابه، وأُخِذَ أسيراً، وحُمِلَ إلى أبيه، فحبسه في حجرةٍ في الدَّار إلى أنْ قدم العسكر ببقيَّة الأسرى من أصحابه. فلمَّا قَدِموا أحضَرهم أحمد عنده، والعبّاس معهم، وأمره أن يقطع أيدي أعْيَانِهم وأرْجُلَهم، ففعل ذلك. فلمّا فرغ منهم وبَّخَه أبُوه وذنَّبَه. وقال له: هكذا يكونُ الرَّئيس والمقدّم! كان الأحسنَ أنّك ألْقَيت نفسك بين يديَّ وسألت الصَّفح عنك وعنهم، فكان ذلك أعْلَى لَمحلِّك. وكنت قضيت حقوقهم [وفارقوا أوطانهم لأجلك][٣]. ثم أمَرَ به فضربَه مائة مِقْرَعة[٤]، ودُمُوع أحمد تجري على خدِّه رِقَّةً على ولده، ثم رَدَّه إلى الحجرة واعتقله، وذلك في سنة ثمانٍ وستِّين ومائتين.

ذكر خلاف لؤلؤ على أحمد

كان سببُ ذلك أنّ الحُسَين بن مُهَاجر[٥] غلَب على أحمد بن طُولون، وحسَّن له جَمْع الأموال ومَنَع من سماحته وجَرْيه على عوائده الجميلة، فنَفَرت القلوبُ عن أحمد، وتغيَّرت الخواطرُ عليه، فتنكَّر له غلامُه لؤلؤ، وكان عمدته عليه، وكان في يده حَلب وحمص وقِنَّسرين وديار مُضَر. وكان أحمد إذا أنكر على لؤلؤ شيئاً أوْقَع بكاتبه محمّد بن سليمان، ويقولُ له. هذا منْكَ ليس منه، فحمل محمّدَ بن سليمان الخوفُ من أحمد على أنْ حسَّن لؤلؤ حَمْل جُملةٍ من المال إلى الموفّق[٦]، فحمَل ذلك إليه، وكتب إليه عن

= القيروان كثير» سيرة ابن طولون للبلوي، ص ٢٥٤.

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٣٢٤.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من سيرة ابن طولون للبلوي، ص ٢٥٥، والكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٣٢٥.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٣٢٥.

(٤) مقرعة: خشبة تضرب بها البغال والحمير. ابن منظور: لسان العرب (قرع).

(٥) في سيرة ابن طولون، ص ٢٧١. «الحسن بن مهاجر».

(٦) هو الموفق أبو أحمد طلحة، ويقال محمد بن المتوكل، ولي عهد أخيه المعتمد وله تسع وأربعون سنة، توفي سنة ٢٧٨ هـ/ ٨٩١ م. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ص ١٧٢.

لؤلؤ كتاباً يعرِّفه رغبتَه في المصير إليه، والتّصرُّف تحت أمره ونهْيه، والدُّخول في طاعته، فسُرَّ الموفَّق لذلك واستبشر، لِمَا في نَفْسه من أحمد، ورأى أنَّ ذلك من الفُرص الَّتي يتعيَّن انتهازُها، فأجابه بأحْسَن جواب، وأنْفَذَ إليه خِلعاً[(١)].

وكانت مع لؤلؤ طائفةٌ من خواصِّ أحمد، فلمَّا أنْكرُوا حالَه، واطَّلعوا على ما فعله، فارقُوه، والتحقُوا بأحمد، وأطْلَعوه على ما كان من أمْرِ لؤلؤ. فتألَّم لذلك، وأخَذَ في إعمال الحيلة والمخَادَعة لِلُؤلؤ والتلطُّف به، ومكاتبة محمّد بن سليمان، فلم يُفِدْ ذلك عنْدَه. فكتب أحمد إلى المعتمد على الله كتاباً يقولُ فيه: إنّي خائفٌ على أمير المؤمنين من سُوءٍ يلحقُه، وقد اجتمع عندي مائة ألف عِنانٍ أنْجاد، وأنا أرى لسيِّدي أمير المؤمنين الانْجذاب إلى مصر، فإنّ أمْرَه يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العزّ، ولا يتهَيَّأ لأخيه الموفق شيْءٌ ممَّا يخافه عليه. وجهَّز له قرين ذلك، سفاتج[(٢)] بمائة ألف دينار، وذلك في سنة ثمانٍ وستين ومائتين. وأظهر أحمد الخروج لهذا الأمر. فلمَّا وصل كتابُه إلى الخليفة، تجهَّز لقَصْده مصر، فكان من خُروجه ورُجُوعه إلى بغداد ما ذكرناه في أخباره.

وأمّا أحمد فإنَّه تجهّز إلى الشام، وأخَذَ معه ابْنَه العبّاس مقيّداً، واستخلف ابنَه خمارويه على مصر. فسَار، فوصَلَ إلى دمشق وهو يُظْهِر الانتصارَ للمعتمد، ويَقْصد لؤلؤاً غلامَه، فعِنْد ذلك الْتَحَق لؤلؤ بالموفَّق، وكان لحاقُه به في سنة تسعٍ وستين.

وانتهى إلى أحمد عَوْدُ المعتمد، وأنَّه ضُيِّق عليه، فأحضر أحمد قضاةَ أعماله وفيهم بَكَّارُ بن قُتَيبة[(٣)] والعُمري وأبو حازم، وغيرهم، وخلع الموفَّق، فكلُّهم وافقه على ذلك إلا بكَّار. وأسقط أحمدُ دعْوَة الموفَّق، وقلع اسمه من الطُّرُز. فلمّا بلغ الموفَّق ذلك أمَرَ بلَعْن أحمد بن طولون في المنابر في سائر الأمصار. ثم رجع الموفَّق عن ذلك، وأمر كاتبَه صاعدَ بن مخلَّد وجماعةً من خاصَّته بمكاتبة أحمد بن طُولُون وتوبيخه على ما فعله، فكتبوا إليه واستمالُوه، فعَلم أنّ ذلك عنْ رأيِ الموفَّق وإذْنِه لهم، فأجابهُم بأحْسَن جواب. فعرضُوا كُتُبه على الموفَّق، فسرَّهُ ما تَضَمَّنَتْه، وعلم أنَّ ابن طولون إنّما

---

(١) خِلعة من الثياب: ما خلعته فطرحته على آخر أو لم تطرحه. ابن منظور: لسان العرب (خلع).

(٢) السُّفتجة: أن يعطي مالاً لآخر أي حوالة مالية. الفيروزابادي: القاموس المحيط (سفج). السلوك للمقريزي، ج ٢، ص ٤٢٠.

(٣) هو بكار بن قتيبة بن أسد، أبو بكرة من بني الحارث، ولي القضاء بمصر للمتوكل العباسي سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م. وُلد عام ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م وتوفي عام ٢٧٠ هـ/ ٨٨٤ م. ترجمته في: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٩١، والزركلي: الأعلام، ج ٢، ص ٦٠ ـ ٦١، الولاة والقضاة للكندي، ص ٤٧٦.

فعل ذلك لمغالاته في المناصحة لهم. وكان الموفَّق كامل العقل، فسَكَّن ذلك منه ما كان في نفسه على أحمد، ومال قلبُه إليه، وكتب الموفَّق إلى أخيه المعتمد يُعْلمه برجوعِه عن أمْرِ أحمد ونَدَمِه على ما كان منه في حقِّه، وسأله أنْ يكتب إليه، فسُرَّ المعتمد بذلك، وكتب إلى أحمد كتاباً بخطّه، وأَمَرَه بالرجوع عمَّا هو عليه من أمْر الموفَّق، وبعث إليه كتاب الموفَّق برجوعه عن لَعْنه. وأَنْفَذ الكتاب مع الحسن ابن عطَّاف. فلمَّا بلغ الرَّقَّة بلغه وفاةُ أحمد بن طولُون[١]، فرجعَ إلى الحضرة.

وأما لؤلؤ فإنّه بلغـهُ أنّ مولاه أحمد باع أولاده وخدمه بسُوق الرَّقيق بمصر، وقبَض على أملاكه، فبلغ ذلك منه كلَّ مبلغ، وتقدَّم إلى الموفَّق وبكى، وسأله إنْفَاذ الجيوش معه، وضمِنَ له أخْذَ البلد من مولاه، وبسَطَ لسانه في سيرته، فخلع الموفَّق عليه، وحَمَله على دابّة، ووعَدَه، وأمر بتجريد الجيوش معه، كلُّ ذلك وهو يسخرُ به ويماطلُه إلى أن يعودَ جوابُ أحمد مع الحسَن بن عطَّاف، فقبض حينئذٍ على لؤلؤ وردَّه إلى مولاه، واستقبح ما فعله لؤلؤ في حقِّ سيدهِ، فلمَّا اتفق وفاةُ أحمد، أقامَ لؤلؤ في خدْمَة الموفَّق إلى سنة ثلاثٍ وسبعين، فقبض الموفَّق عليه، وأخذ منه أربعمائة ألف دينار، وكان لؤلؤ يقول: ليس لي ذنب إلاَّ كثرة مالي.

ولم تزل أمور لؤلؤ في إدْبار إلى أن افتقر، ولم يبْقَ له شيء، فعاد إلى مصر في آخر أيام هارون بن خُمارَويه[٢] بغلام واحد. وهكذا تكون ثمرةُ الغَدر وكفر الإحسان.

ذكر وفاة أحمد بن طولون وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته في نصف اللَّيل من ليلة الأحد لعشر ليالٍ خلوْن من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين.

قيل: وكان سببُ وفاته أن نائبَهُ بطرسوس[٣] وثب عليه يا زمان[٤] الخادم وقبض

---

(١) توفي أحمد بن طولون سنة ٢٧٠ هـ/ ٨٨٣ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٧٣، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٢، ص ١٥٧. وابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤٠٨.

(٢) هو الأمير أبو موسى هارون بن خُمَارَويه بن أحمد بن طُولون التركي الأصل المصري المولد. ولي مصر بعد قتل أخيه جيش بن خُمارويه في اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومائتين. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٨٣، وسليمان في تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٢٨.

(٣) كان نائب أحمد بن طولون بطرسوس أخوه موسى. البلوي: سيرة ابن طولون، ص ٣١٠.

(٤) في ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤٠٩ «بازمار». وفي ابن تغري بردي، يا زمان النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٧٨.

عليه، وأظهر الخلاف على أحمد. فجمَعَ أحمدُ العساكر، وسار إليه. فلمَّا وصل إلى أَذَنَة[١] كاتَبَه وراسَلَه واستماله، فلم يلتفت يا زمان الخادم إلى رِسالته. فسار أحمدُ إليه وحَصَره، فخرق يا زمان نهر البلد[٢] على مَنْزلة العسكر، فكاد النَّاس يهلكون. فرحَل أحمد حَنِقاً، وكان الزمان شتَاء، وكتب إلى يا زمان: إنني لم أحل إلا خوفاً أن تنْخَرق حرمةُ هذا الثَّغر، ويطمع العدو فيه. وعاد إلى أنطاكيَّة، فأكل من لبن الجواميس وأكْثَر منه، فأصابته هيضة[٣] واتّصلت به حتى صار منها ذَرَب[٤]. وكان الأطبّاءُ يعالجونه، وهو يأكلُ سرًّا غير ما يصفونه، فلم ينجع الدّواء فيه. فمات رحمه الله.

هكذا ذكر ابنُ الأثير الجزري في تاريخه الكامل في سبب وفاته[٥].

وأما صاحبُ الدّول المنقطعة[٦] فإنه قال: إنَّه رجع إلى مصر واعتلَّ بزلق للمعدة. واشتدّت به العلّة وطالت، فعهد إلى ابنه أبي الجيش خُمارَويه، وأطلَقَ ابنَه العباس من قيده، وذلك في القَعْدة سنةَ سبعين ومائتين، وخلع عليه وقلَّده جميع الأعمال الخارجة عن أعمال مصر من الشَّامات والثُّغور، وأوصاه بتَقْوى الله وطاعة أخيه. ثم تُوفّي رحمه الله وسِنُّه يومئذٍ خمسون سَنة وشهرٌ وثمانية وعشرون يوماً، ومدّة إمرته على مصر ستّ عشرة سنة وشهر واحد وسبعة وعشرون يوماً[٧].

وأما سيرته، فإنّه، رحمه الله، كان عادلاً شُجاعاً، كريماً متواضعاً، حَسَن السِّيرة، يُباشر الأمور بنفسه ويتفقَّد رعاياه، ويحبُّ أهل العلم، ويُدْني مجالسهم. وكان كثير الصَّدقات. وهو الذي بنى قلعة يافا، وكانت المدينة بغير قلعة.

أولاده ثلاثة وثلاثون[٨]. منهم[٩]: أبُو الفضل العبّاس، أبو الجيش خُمارَويه، أبو العشائر مُضَر، أبو الكرم ربيعة، أبو المقانب شيبان، أبو ناهض عياض، أبو معدّ عدنان، أبو الكراديس خزرج. أبو حبشون عديّ، أبو شجاع كندة، أبو منصور أغلب، أبو بهجة

(١) أذنة: مدينة بالشام بينها وبين المصيصة اثنا عشر ميلاً بناها هارون الرشيد. الحميري، الروض المعطار، ص ٢٠.

(٢) كانت تسميته «نهر البردان» ويعرف بنهر «قره صوره» أي النهر الأسود. البلوي: سيرة ابن طولون،ص ٣١٠.

(٣) فأصابته هيضة: إذا لم يوافقه شيء يأكله وتغيّر طبعه عليه. ابن منظور: لسان العرب (هيض).

(٤) ذرب: فساد المعدة. ابن منظور: لسان العرب (ذرب).

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤٠٩.

(٦) هو علي بن ظافر، جمال الدين المتوفى سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١ م. انظر أخبار الدول المنقطعة نشر أندريه فريد. القاهرة ١٩٧٢.

(٧) أخبار مرضه ووفاته في سيرة ابن طولون، ص ٣١٢، الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٣١.

(٨) «ذكر البلوي أن أولاده، فهم سبعة عشر ذكراً، وست عشرة أنثى. سيرة ابن طولون، ص ٣٤٩.

(٩) أوردهم النويري حسب رواية البلوي في سيرة ابن طولون ص ٣٤٩.

ميسرة، أبو البقاء هدى، أبو المفوض غسَّان، أبو الفرج مبارك، أبو عبد الله محمد، أبو الفتح مظفر.

والبنات ستّ عشرة: وهُنَّ: فاطمة، ولميس، وتعلب[١]، وصفية، وغالية[٢]، وخديجة، وميمونة، ومريم، وعائشة، وأم القرى[٣]، ومؤمنة، وعزيزة، وزينب، وسمانة، وسارة، وغريرة.

وخلّف من الأموال والعين والورق كثيراً، ومن الغلمان أربعةً وعشرين ألف غلام، ومن الموالي سبعة آلاف رجل، ومن الخيل سبعة آلاف وثلاثمائة وخمسين رأساً، منها: لركابه ثلاثمائة وخمسون، ومن الجمال ثلاثة آلاف جمل، وألف بغل، ومن المراكب الحربيّة الكبار مائتي مركب بآلتها، ومن الأمتعة والفُرُش والآلات والأواني ما لا يُحصى كثرة ولا يُعدّ اتّساعاً، وأنفق على الجامع مائة ألف وعشرين ألف دينار، وعلى البيمَارِسْتان ستّين ألف دينار، وعلى العينِ الّتي بالمعافِر مائة ألفٍ وأربعين ألفَ دينار، وعلى حِصْن الجزيرة مائة ألف دينار، وأنفق في بناء الميدان مائةَ ألفٍ وخمسين ألف دينار، وعلى مرمّات الثّغور وحِصْن يافا مائتي ألف دينار.

وكانت صدقاتُه في كلِّ شهر ألف دينار سِوى المرتّبات، وكانت له وظائفُ من خُبز ولحمٍ تجري على قومٍ مستورين، في كلِّ شهر ألفا دينار وكان يصنع في كلِّ جمعة من أصنافِ الأطعمة والحلو أشياء كثيرة يحضُرها النّاس من فقير، ومستُور، ومتجمِّل، ومحتاج، وكان إذا عاين ذلك وهو بمشترف عالٍ يسجدُ لله تعالى شكراً تارةً، ويصلّي تارةً، ويدْعو تارةً، ويبكي تارةً. فكانت سيرتُه رحمه الله أجمل سيرة، وفراسَتُه أعظم فراسة، بحيث إنّه كان ينظُر إلى الرّجُل فيدرك بفراسته غرضه، ولمّا مات ملك بعده ولده.

ذكر ولاية أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وهو الثاني من ملوك الطولونية

مَلَك بعد وفاة أبيه في يَوْم الأحد لعشرِ خلَوْن من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين، وهو ابن عشرين سنة وشهور، في خلافة المعتمد على الله. وذلك أنَّه لمّا تُوفّي والدُه اجتمع الأجنادُ وقتلوا وَلَده العباس الأكبر وولَّوْا خمارويه، فاستقلَّ بالأمر.

(١) تعلب: في الأصل وفي سيرة ابن طولون للبلوي ص ٣٤٩. يمكن أن تكون محرفة عن تغلب.

(٢) لم تذكر غالية في سيرة ابن طولون.

(٣) في سيرة ابن طولون للبلوي، ص ٣٤٩ ورد الاسم: «أم الهدى».

ذكر مسير إسحاق بن كنداجق[١] ومحمد بن أبي الساج إلى الشام

قال المؤرِّخ[٢]: لمّا توفي أحمدُ بن طولون كان إسحاق بن كنداجق على المَوْصل والجزيرة، وابن أبي السَّاج[٣] على أرمينية والجبال، فطمعا في الشّام، واستصغَرَا أولاد أحمد بن طولون، فكاتبا الموفَّق واستمدَّاه، فأمَرَهُما بقصد الشام، ووعَدَهما إنْفَاذ الجيوش، فجمَعَا وقصدَا ما يجاورُهما من البلاد فاستولَيَا عليها، وأعانَهُما نائبُ دمشق الّذي كان من قِبَل أحمد بن طولون ووعدَهُما الانحِياز إليهما، [فتراجع من بالشام من نوّاب أحمد][٤] وأظْهَرَ العِصْيان، واستولى إسحاق على حَلَب وحمص وأنطاكيّة ودمشق.

فلمَّا انتهى الخبر إلى أبي الجيش خُمارويه ندب العساكر المصريَّة إلى الشام، فملكُوا دمشق، وهرب نائبها. وسار عسْكَر خُمارويه من دمشق إلى شَيْزَر[٥] لقتال إسحاق وابن أبي السّاج، فطاولهم إسحاق ينتظر المدَدَ من العراق. وهجم الشّتاء على الطَّائفتين، وأضرَّ بأصحاب خُمارويه، فتفرَّقوا في المنازل بشَيْزَر. ووصَل العسكر العراقي إلى ابن كنداجق وعليهم أبو العبّاس أحمد بن الموفَّق، وهو المعتضد بالله. فلمَّا وصلَ سار مجِدًّا إلى عسْكَر خُمارَويه بشيزر، فكبسهم في المساكن ووضع فيهم السَّيف، فقَتَلَ منهم مقتلَةً عظيمة، وسارَ مَنْ سَلِم منهم إلى دمشق على أقبح صُورة. فسار المعتضدُ إليهم، ففَارقُوا دمشق وتوجَّهوا إلى الرّملة، وأقامُوا بها. ودخلَ أبو العبّاسِ المعتضد إلى دمشق في شعبان سنةَ إحدى وسبعين ومائتين. وكتَبَ عسكرُ مصر إلى خُمَارَويه، فخرج من مصر بعساكره.

ذكر وقعة الطواحين

وفي سنة إحدى وسَبْعين ومائتين كانت وقعة الطّواحين[٦] بين أبي العبّاس

(١) «ابن كنداجيق» في ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤٠٩. «ابن كُنداج» في الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٣٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٦٣. (طبعة دار الكتب العلمية).
(٢) أي ابن الأثير: انظر الكامل، ج ٧، ص ٤٠٩.
(٣) هو محمد بن ديواداد أبي الساج، الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٣٥.
(٤) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٤١٠.
(٥) شَيْزَر: بفتح أوله، قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٨٣.
(٦) الطواحين: موضع قرب الرملة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٥. وابن الأثير: الكامل =

أحمد بن الموفَّق، وهو المعتضد، وبين أبي الجيش خمارويه بن أحمد.

وكان سببُ هذه الوقعة أنَّ المعتضد لَمَّا ملك دمشق سار بعَسَاكره إلى الرَّملة لقَصْد عسكر خُمارَويه، فأتاه الخبر بوُصُول خمارويه إلى عسكره وكَثْرَةِ مَنْ معه من الجموع، فهمَّ المعتضد بالعَوْد، فلم يُمَكِّنه مَنْ معه من أصحاب ابن طولون الَّذين صارُوا معه. وكان المعتضِدُ قد أوْحَشَ ابن كنداجق وابن أبي السّاج ونسبها إلى الجبن، حيث انتظراه حتّى وصل إليهما ولم يناجِزَا عسكر خمارويه الحرب، ففَسَدَتْ نياتُهما.

قال: ورَحَل خُمارويه ونزل على الماء الّذي عليه الطواحين [عند الرملة][١] وملكه، فنسبت الوقعة إليه. ووَصَلَ المعتضد وقد عَبّأ أصحابه، وفعل خمارويه كذلك، وجعل كميناً عليهم سعد الأيسر، فحملت ميسرةُ المعتضد على مَيْمنة خُمارَويه فانهزمت. فلمّا رأى خُمارَويه ذلك، ولم يكن رأى مصافًّا قبله، ولّى منهزماً في طائفة من الأحداث الّذين لا عِلْمَ لهم بالحرب، ولم يقف دون مصر.

ونزل المعتضدُ إلى خيام خُمارَويه وهو لا يَشكُّ في تمام النَّصر، فخرج سعد الأيسر بالْكَمين وانضاف إليه مَنْ بقي من الجيش، ونادَوْا بشعارهم وحملُوا على عسكر المعتضد وقد اشتَغَلُوا بنَهْب السّواد، فوضع المصريُّون السَّيف فيهم. فظنَّ المعتضدُ أنّ خُمارويه قد عاد، فركِبَ وانهزم لا يَلْوي على شيء، ووصَل إلى دمشق فلم يفتح له أهلها، فمضى مُنْهزماً حتّى وصل طرسوس. واقْتَتَل العسكَران وليس لواحدٍ منهما أمير، وطلب سعد الأيسر خُمارَويه فلم يجده، فأقام أخاه أبا العشائر مُقامه. وتمّت الهزيمة على العراقيِّين، وقتل منهم خلق كثيرٌ، وأسر خلق كثير.

[وقال سعيد للعساكر: إن هذا أخو صاحبكم، وهذه الأموال تُنفق فيكم، ووضع العطاء، فاشتغل الجند عن الشغب بالأموال][٢].

وجاءت البشائر بالنَّصر إلى مصر، فسُرّ خمارويه بالظّفر، وخَجِل من الهزيمة، وأكثر الصَّدقة، وفعل مع الأسْرى ما لم يُسْبق إليه، وقال لأصحابه: هؤلاء أضيافُكم، فأكرموهم. ثم أحضرهم بعد ذلك وقال: من اختار المُقام عنْدَنا فله الإكرام والمواساة، ومَن أراد الرُّجوع جهَّزْنَاه وسيَّرناه، فمِنهم من أقام، ومنهم من عاد مكرَّماً. وسارَت عساكرُ خُمارَويه إلى الشَّام ففتحه أجمع، واستقر ملك خُمارَويه[٣].

= في التاريخ، ج ٧، ص ٤١٤. «هذا الموضع على نهرِ أبي فطرس»، الكندي الولاة والقضاة، ص ٢٣٥، في ابن تغري بردي: هذا النهر معروف بالطواحين النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٦٢، إضافة من ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤١٤.

(١) و(٢) ما بين حاصرتين إضافة في الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٤١٥.

(٣) انظر ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤١٤ ـ ٤١٥.

وفي سنة اثنتين وسبعين ومائتين زُلْزِلت مصر في جُمادى الآخرة زلزلَةً شديدة أخْربَت الدُّور والمسجد الجامع، وأحْصي بها في يومٍ واحدٍ ألف جنازة.

ذكر اختلاف محمد بن أبي الساج وإسحاق بن كنداجق والخطبة لخمارويه بالجزيرة

وفي سنة ثلاثٍ وسبعين ومائتين فسَدت الحالُ بين محمد بن أبي الساج وإسحاق ابن كنداجق، وكانا قبل ذلك متّفقين بالجزيرة.

وسببُ ذلك أنَّ ابن أبي السّاج نافَسَ إسحاق في الأعمال وأراد التقَدُّم، فامتنع إسحاق عليه، فكاتَب محمَّدُ بن أبي الساج خُمارَويه وانضمَّ إليه، وخطب له بأعماله، وهي قِنَّسرين، وسير ولده دِيَوذَاد إلى خمارويه رهينةً، فأرسل خُمارَويه إلى الشّام، واجتمع هو وابن السّاج ببالِس[١] وعبر ابنُ أبي السّاج الفرات إلى الرَّقَّة[٢] فلقيه إسحاق، وكان بينهما حرب انجلت عن انهزام إسحاق، واستولى ابنُ أبي الساج على ما كان معه. وعبر خُمارَويه الفرات ونزل الرَّافِقَة[٣]، وانهزم إسحاق إلى قلعة مَارِدِين[٤]، فحصره ابنُ أبي السّاج بها، وسار عنها إلى سنجار[٥]، وأوْقَع بطائفةٍ من الأعراب. وسار إسحاق إلى الموصل فلَقِيَه ابنُ أبي الساج ببَرْقَعِيد[٦]، وكَمَّن له، واقتتلُوا، فخرج الكمينُ على إسحاق، فانهزمَ وعاد إلى مَارِدِين. فقَوي ابنُ أبي السّاج وظهر أمره، واستولى على الجزيرة والمَوْصِل، وخطب لخمارويه فيها، ثمّ لنفسه بعده.

وفيها أيضاً ثار السُّودان بمصر، وحصَرُوا صاحبَ الشّرطة[٧]، فركِب خُمارَويه بنفسه، وبيده سيفٌ مسلول، وقصد دَارَ صاحبِ الشُّرطة، فقَتَل مَنْ لَقِيَه من السُّودان، فهُزِموا، وكثر القتل فيهم، وسكنت مصر.

---

(١) بالِس: بلد بالشام بين حلب والرقة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٢) الرَّقة: مدينة بالعراق مما يلي الجزيرة. الحميري: الروض المعطار، ص ٢٧٠.

(٣) الرافقة: بلدة متصلة البناء بالرقة على الفرات. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٥ ـ ١٦.

(٤) ماردين: قلعة على قمة جبل بإقليم الجزيرة. ومنازلها متدرجة على سفح الجبل. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٩.

(٥) سُنجار: بلدة في لحف جبل عال، قرب الموصل، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٦) برقعيد: بلدة من أعمال الموصل، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

(٧) هو موسى بن طونيق الذي صرف في سنة ٢٧٤ هـ/ ٨٨٧ م. الكندي، الولاة والقضاة ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨.

ذكر الاختلاف بين خمارويه ومحمد بن أبي السّاج والحرب بينهما

وفي سنة أربع وسبعين ومائتين خالف محمّد بن أبي الساج على خُمارَويه، فسار خمارويه إلى الشّام، فقَدِمَها في آخر السّنة، وسار ابن أبي السّاج إليه، فالتَقَوْا عند ثنيّة العقاب[١]، على مرحلةٍ من دمشق إلى جهة حمص. واقتتلوا في المحرّم سنة خمسٍ وسبعين، فانهزمت ميمَنةُ خُمارَويه، وأحاط عسكَرُ خُمارويه بابن أبي السّاج، فانهزم، واستُبِيحَ عسكرُه.

وكان قد خلَّف بحمص أموالاً كثيرة، فندب خُمارَويه إليها قائداً من قوّاده في جيشٍ جريدةٍ[٢] فسبقوا ابنَ أبي السّاج إليها ومنعُوه من الدّخول والاعتصام بها، واستولوا على أمواله الّتي بها. فمضى إلى حلب، ومنها إلى الرَّقَّة، فتبعه خُمارَويه، ففارقَها. وعبر خمارويه الفرات وسار في أثرِه، فوصل إلى مدينة بَلَد[٣]، وسبقه ابنُ أبي السّاج إلى الموصل، ثمّ فارقها إلى الحديثة[٤]، وأقام خمارويه ببَلَد، وعُمِلَ له سريراً طويلَ الأرجُل، وكان يجلس عليه في دجلة.

ذكر الدعاء لخمارويه بطرسوس

وفي سنة سبعٍ ومائتين دعا يا زمان بطرسوس لخُمارَوَيه، وسببُ ذلك أنَّ خمارويه أنْفَذَ إليه ثلاثين ألفَ دينار، وخمسمائة ثوب، وخمسمائة مطرف، وسلاحاً كثيراً، فلمَّا وصل ذلك إليه، دَعَا له، ثمّ وجَّه إليه خمسين ألف دينار.

ثم توفي يا زمان في جُمادى الآخرة سنةَ ثمانٍ وسبعين، فخلفه ابنُ عجيف، وكتب إلى خُمارَويه بوفاة يا زمان، فأقرَّهُ على ولاية طرسوس، وأمدَّه بالخيل والسّلاح والذخائر، ثمّ عزله، واستعمل عليها ابنَ عمِّه محمَّد بن موسى بن طولون.

ذكر الفتنة بطرسوس

وفي سنة ثمانٍ وسبعين ومائتين ثار النَّاسُ بطرسوس بالأمير محَمد بن موسى، فقبضوا عليه. وسببُ ذلك أنَّ الموفق كان له خادم من خواصه يقال له رَاغِب؛ فلمَّا

---

(١) ثنية العقاب: بالضم، تشرف على غوطة دمشق، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٨٥.

(٢) الجريدة: الجماعة من العسكر الفرسان، ابن منظور: لسان العرب (جرد).

(٣) بَلَد: المقصود هنا بليدة من نواحي دجيل قرب الحظيرة من أعمال بغداد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٨١ ـ ٤٨٢.

(٤) الحدثية: كورة من كور الموصل، مدينة على شاطىء دجلة. الحميري: الروض المعطار، ص ١٩٠.

مات الموفَّق اختارَ راغب الجهاد، فسار إلى طرسوس على عَزْم المقام بها، فلمَّا وصل إلى الشّام سيَّر ما مَعه من دَوابٍّ وآلات وخيام وغير ذلك إلى طرسوس، وسار هو جريدة إلى خُمارَويه ليزُورَه ويعرِّفَه ما عزم عليه، فلَقِيَ خُمارَويه بدمشق، فأكرمه خمارويه وأنِس به وأحبَّه، فاستحْيَا راغب أن يَطْلُب منه المسير إلى طرسوس، فطال مُقامُه عنده. فظنَّ أصحابه أنَّه قَبَض عليه، وأذاعوا ذلك، فاستعْظَمه الناس، وقالوا: يَعْمَد إلى رجلٍ قصد الجهاد في سبيل الله فيقبض عليه، فشغَبُوا على أميرهم، وقبضوا عليه، وقالوا: لا تزالُ في الحبس حتى يُطْلِق ابنُ عمِّك خمارويه راغباً، ونهبوا دارَه، وهتكُوا حرمه.

وبلغ الخبر خُمارَويه فأطْلَع راغباً عليه، وأذِن له في المسير إلى طرسوس. فلمَّا دخلها أطلق أهلُها أميرهم محَمد بن موسى، فسار عنها إلى البيت المقدّس. ولمَّا سار عنها وَلِيَها أحمد العجيفي، وكان يليها قبل ذلك[1].

ذكر زواج المعتضد بالله بابنة خمارويه بن أحمد بن طولون

قال: ولمَّا توفي المعتمد على الله[2] وتولَّى المعتضد بالله[3] بادَرَ خُمارَويه إليه بالهدايا الجليلة على يد الحسَين[4] بن عبد الله بن منصور بن الجَصَّاص الجوهري، فأقرَّه المعتضد بالله على ما بيده من الأعمال. وسأل خُمارَويه المعتضد أن يزوّج ابنته قطر الندى[5] للمكتفي بالله وليّ العهد، فقال المعتضد بل أنا أتزوجها [وكان ذلك][6]

(١) انظر ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤٥٠.

(٢) «وفي رجب سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م. توفي المعتمد على الله أحمد بن المتوكل على الله جعفر العباسي، وله خمسون سنة وكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة ويومين. انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٢، ص ١٧٣. وابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤٥٥.

(٣) المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل. ولي الخلافة العباسية في بغداد في الفترة بين ٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م. تاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ١٢. كانت وفاته سنة ٢٨٩ هـ/ ٩٠٢ م. مدة خلافته ٩ سنوات و٩ أشهر و١٣ يوماً. الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ١٤٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٣، ص ١٤٠، ابن العماد الحنبلي شذرات الذهب، ج ٢، ص ١٩٩.

(٤) وهو الحسين بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن الجصاص، التاجر الجوهري توفي يوم الخميس، ثاني شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٦ = ٩٠٨ م، تاريخ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٧٧، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٢، ص ٢٢٢.

(٥) قَطر الندى: واسمها أسماء، توفيت سنة ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م. وابن خلكان: وفيات الأعيان:، ج ٢، ص ٢٥٠.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها سياق الكلام.

في سنة ثمانين، وحُمِلَت إليه في سنة إحدى وثمانين ومائتين، وأصْدَقها ألف ألف درهم.

وقيل: إنّ المعتضد بالله إنَّما قَصَد بزواجها إفقارَ الطُّولُونيَّة، وكذلك كان، فإنَّ خمارويه جهَّزَها بجهاز لم يسمع بمثله[١]، حتى قيل إنَّه كان لها ألف هاون من ذهب، وشرط المعتضد على خُمارَويه أنْ يحمل في كلِّ سنة مائتي ألف دينار، بعد القيام بجميع وظائف مصر وأرزاق الجند، فأجاب إلى ذلك.

ذكر مقتل أبي الجيش خمارويه

كان مقتلُه في ليلة الأحد لثلاثٍ بَقينَ من ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وقيل[٢] في ذي الحجة منها بدمشق.

وكان سببُ قتله أنَّه قيل له إنَّ جواري داره قد اتَّخذَت كلُّ واحدةٍ منهنّ خَصِيًّا وجعلته لها كالزّوج، وقال له النّاقل إنْ شئت [أن][٣] تعلم صحَّة ذلك فقَرِّرْ بعضَ الجواري بالضّرب، فكتب مِن وَقْتِه إلى نائبه بمصر يأمرُه أنْ يسيِّر إليه الجواري، فاجتمع جماعةٌ من خَدَم الخاصّة وتواعدوا على قتله، فذبحوه على فراشه ليلاً. فلما قُتِل من خَدمه الّذين اتُّهِموا بقَتله نيّفٌ وعشرون نفساً.

وحُمل خُمارَويه إلى مصر فدفن بجبل المقطّم. وكانت مدّة ملكه ثنتي عشرة سنة وأياماً.

ذكر ولاية أبي العشائر جيش ابن أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وهو الثالث من الملوك الطولونية

ملك بعد وفاة أبيه في يوم الأحد لثلاثٍ بقين من ذي القَعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين. وذلك أنّ خُمارَويه لمّا قُتل اجتمع القوّادُ على ابنه أبي العشائر وبايعوه، وكان مع أبيه بدمشق، وهو أكبر ولده، ففرّق فيهم الأموال، ورجع إلى مصر، وكان صبيًّا غِرًّا.

ذكر عصيان دمشق على جيش وخلاف جنده وقتله

وفي سنة ثلاثٍ وثمانين ومائتين خرج جماعةٌ من قوّاد جيش بن خمارويه

---

(١) ذكر جهازها في المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١، ص ٣١٩، وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١، ص ٤٠٤، ج ٢، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ٧٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤٧٤.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة تتفق وسياق الكلام في الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٤٧٥.

وجاهرُوه بالخلاف، وقالوا: لا نرضى بك أميراً، فاعْتَزَلْنا حتى نولّي الإمارة[١] عمّك.

وكان سببُ ذلك أنه لـمّا وَلِي قَرَّبَ الأحداث والسَّفل[٢]، وأخلد إلى سماع أقوالهم فغيّروا نِيّته على قواده وأصحابه، فصار يقَعُ فيهم ويذمُّهم، ويُظهر العزمَ عَلى الاستبْدَالِ بهم، وأخْذِ نعمهم وأموالهم، فاتّفقوا على قَتْله وإقامة عَمّه. فبلَغَهُ ذلك فلم يَنْتَهِ، وأطلق لسانه فيهم، ففارقه بعضُهم، وخلعه طُغْج بن جُفّ[٣] أمير دمشق.

وسار القوّادُ الذين فارقوه إلى بغداد، وهم: محمّد بن إسحاق بن كنداجق، وخاقان المفلحي، وبدر بن جُفّ أخو طغج، وغيرهم من قوّاد مضر[٤]. فسلكوا البرِّيَّة وتركوا أموالَهم وأهليهم، فتاهوا أيّاماً، ومات جماعةٌ منهم من العطش، وخرجوا فوق الكوفة بمرحلتين، وقَدِمُوا على المعتضد، فخَلَعَ عليهم، وأحسن إليهم. وبقي سائرُ الجند بمصر على خلافِهم، فسألهم كاتبُه علي بن أحمد الماذرائِي أن ينصرفوا يومهم ذلك، فرجعوا، فقتل جيش عمَّيْن من عمومته[٥]، فثار الجند إليه، فرمَى لهم بالرّأسَيْن، فهجم الجند عليه وقَتلُوه، ونهبوا داره، ونهبُوا مصر وأحرقوها[٦]. وكانت ولايتُه تسعة أشهر، وقيل ثمانية، والله أعلم.

ذكر ولاية أبي موسى هارون بن أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وهو الرابع من ملوك الدولة الطولونية

ملك بعد مقتل أخيه في سنة ثلاثٍ وثمانين ومائتين، وهو ابن عشر سنين، فاختلَّت الأحوال، واختلف القوّاد وطمعوا، فانحلّ النظام، وتفرَّقت الكلمة، ثم اتَّفقوا على أن جعلوا أبا جعفر بن أبي التُّركي مدبّر الدولة، وكان مقدَّماً عند أبيه وجدّه. فأصلح الأحوال جَهْد طاقَتِه. وجَهز جيشاً إلى دمشق عليه بدر الحمامي والحسَن بن

---

(١) «فتنحَّ عنّا حتى نُولّي عمَّك نصر بن أحمد بن طولون، فخرج إليه كاتبه علي بن أحمد الماذرائي وسألهم أن ينصرفوا عنه يومهم فانصرفوا»، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٠٦، أو في ابن الأثير الكامل ج ٧، ص ٤٧٨، «فاعتزلنا حتى نُولّي عمك الإمارة».

(٢) السَّفل: الأرْذال من الناس. ابن منظور: لسان العرب (سفِل).

(٣) قلّده أبو الجيش خمارويه دمشق وطبرية. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٥٧.

(٤) انظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٣٧٤. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٠٨.

(٥) «قبض جيش على عمّيه وشَيْبَان ابني أحمد بن طولون». انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٠٧.

(٦) انظر: تاريخ الطبري ج ٨، ص ١٧٤ ـ ١٧٥، الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٤٢. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ١٠٨.

أحمد الماذرائي، فأصلحا حالَهَا، وقرَّرَا أمور الشّام، واستعملا على دمشق طُغج بن جُفّ الفَرْغاني، وهو والدُ الإخشيد، ورجَعَا إلى مصر، وفي الأمور اختلالٌ، والقوّاد قد تغلَّبُوا، وضمّ كلٌّ منهم إلى نفسه طائفةً من الجند، ولم يزل الأمر على ذلك إلى سنة إحدى وتسعين ومائتين.

ذكر انقراض الدولة الطولونية

كان انقراضها في يوم الخميس لِلَيْلَتَين بقيتا من صفر، سنةَ اثنتَيْن وتسعينَ ومائتين.

وسببُ ذلك أن الخليفة المكتفي بالله[١] ندب محمّد بن سُليمان كاتب الجيش في سنة إحدى وتسعين ومائتين، وخلع عليه وعلى جماعةٍ من القوّاد، وأمرَهُم بالمسير إلى الشّام ومصر وانتزاعهما من هارون بن خُمارَويه، لِمَا ظهر من عَجْزه واختلاف أصحابه عليه.

فسار عن بغداد في شهر رجب، هو وعشرة آلاف، ووصل إلى حُدود مصر في المحرَّم سنة اثنتين وتِسْعين ومائتين، ووجَّه المكتفي أيضاً دميانة الرّومي غلام يَا زمان بالمراكب، فوصل إلى تنّيس[٢] ودخل نهر النّيل، فوجه إليه هارون جماعةً من القوّاد، فالتَقَوْا، فهزمهُم دميانة، وزحف محمّد بن سليمان بالجيوش في البرّ حتى دَنَا من مصر، وكاتب مَنْ بها من القوّاد، فكان أوّل مَنْ خرج إليه والتحق به بدر الحمامي، وهو رئيس القوّاد ففتّ ذلك في أعضاد المصريّين. وتَتَابَع القوّاد إليه. فلمّا رأى هارون ذلك خرج بِمَن بقي معهُ من القوّاد لقتال محمّد بن سليمان، فكانت بينهم حُروبٌ، ثمّ وقع بين أصحاب هارون في بعض الأيّام، فاقتتلُوا، فخرج هارون ليسكّنَهم، فرماهُ بعضُ المغاربة بِمِزْرَاقٍ[٣] فقتله، وقيل بل فَعَل ذلك عمُّه شيبان، وذلك لاثنتي عشرة ليلةً بقيت من صفر، سنةَ اثنتين وتسْعِين ومائتين.

وكانت مدة ولايته نحواً من تسع سنين تقريباً.

فبايع الأجناد عمّه أبا المقانب شيبان بن أحمد بن طولون، وهو الخامس من ملوك الدَّولة الطُّولُونية، وعليه انقرضت.

---

(١) هو علي (المكتفي بالله) بن أحمد المعتضد ابن الموفق ابن المتوكل، أبو محمد ٢٦٣ ـ ٢٩٥ هـ/ ٨٧٦ ـ ٩٠٨ م. ولي الخلافة العباسية ببغداد من ٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ/ ٩٠٢ ـ ٩٠٨ م، ترجمته وأخباره في: سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢، الزركلي: الأعلام، ج ٤، ص ٢٥٣.

(٢) تنّيس: في المدن المصرية القديمة، ما بين الفرما ودمياط، وهي جزيرة ببحيرة المنزلة، محمد رمزي: القاموس الجغرافي. القسم الأول، ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٣) المِزرَاق: رمحٌ قصير. ابن منظور: لسان العرب (زرق).

قال: ولمّا بويع بذل الأموال للجند فأطاعوه[١]، وقاتلوا معه قتالاً شديداً، ثم لم يلبثوا أن وافتهم كُتُب بدر الحمامي يدعوهم إلى الأمان فأجابوه إلى ذلك. وسار محمّد ابن سليمان إلى مصر، فدخلها في يوم الخميس لِلَيْلَتَين بقِيَتَا من صفر، سنة اثنتين وتسعين ومائتين، فأرسل إليه شيْبَانُ يطلب منه الأمان، فأمّنه، فخرج إليه ولم يعلم به أحدٌ من جنده، فلمّا أصبحوا قصدُوا دَار الإمارة[٢] فلم يجدوه، فبقُوا حَيَارى.

واستولى محمّد بن سليمان على مصر، وعلى منازل آل طولون وأموالهم وقبض عليهم كلِّهم، وهم عشرون رجلاً، فقيدهم وحبسهم، واستصفى أموالهم. وكتب بالفتح إلى الخليفة[٣] فأمره بإشخاص آل طولون وأشياءهم[٤] من مصر والشام إلى بغداد، فحملهم وأتباعهم وأَنْقَاض قصورهم، وعاد إلى بغداد، وولّى معونة[٥] مصر عيسى النوشري[٦].

وانقرضت الدّولة الطُّولونيّة، وكانت مدّتُها من لَدُنْ ولاية أحمد بن طولون وإلى آخر أيام أبي المقانب سبعاً وثلاثين سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام، وملك منهم خمسة نفر.

---

(١) «فأطلقوه» ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٥٣٦.

(٢) «قصدوا داره» ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٥٣٦.

(٣) يقصد المكتفي بالله. ابن الأثير: الكامل، ص ٥٣٦.

(٤) «وأسباهم» في الأصل: «وأسبابهم»، في تاريخ الطبري، ج ٨، ص ٢٣٤. وابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٥٣٦.

(٥) معاوية في الأصل والتصحيح من ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٥٣٦.

(٦) انظرالولاة والقضاة للكندي، ص ٢٥٨. وهو عيسى بن محمد، الأمير أبو موسى النّوشري، ولاّه الخليفة المكتفي من بغداد على مصر. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٦٢.

ذكر أخبار من ولي مصر بعد انقراض الدّولة الطولونية وإلى قيام الدّولة الإخشيديّة من الأعمال وملخّص ما وقع في أيامهم من الحوادث

لمَّا انقرضت الدولة الطولونية كما ذكرنا، كان أول من ولي مصر عيسى النوشري، رتَّبه في ولاية معونتها محمّد بن سليمان الكاتب، فلما سار محمد إلى العراق ظهر بمصر رجل يسمى إبراهيم الخليجي وتغلب عليها.

ذكر إبراهيم الخليجي[1] وما كان من أمره

كان إبراهيم هذا من القوّاد الطُّولونية، وكان قد تخلّف عن محمّد بن سليمان[2]، فاستمال جماعة وخالف على السُّلطان وكثر جمعه. وعجز النوشريّ عنه، فسار إلى الإسكندرية، ودخل الخليجي مصر. وكتب النوشريّ إلى المكتفي بالخبر، فندب إليه الجنود مع فاتك مولى المعتضد، وبدر الحمّامي، فساروا في شوّال سنة اثنتين وتسعين ومائتين، ووصلوا إلى نواحي مصر في سنة ثلاث، فتقدم أحمد بن كيغلغ[3] في جماعة من القوّاد، فلقيهم الخليجي بالقرب من العريش، فهزمهم أقبح هزيمة، فندب من بغداد جماعة من القوّاد فيهم إبراهيم بن كيغلغ[4] فخرجوا في شهر ربيع الأول، واتَّصلت الأخبار بقوة الخليجي حتى برز المكتفي بالله إلى باب الشماسيّة على عَزْم المسير إلى

---

(١) ورد اسمه «إبراهيم الخليجي» في تاريخ الطبري، ج ٨، ص ٢٣٤. «وابن الخليج» في الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٥٩، و«محمد بن علي الخلنجي» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ١٧٠. و«محمد بن علي الخليج» في المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١، ص ٣٢٧. و«الخلنجي» في الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٥٣٦.

(٢) انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٧١. وتاريخ اللأمم والملوك للطبري، ج ٨، ص ١٣٤.

(٣) ترجمته في، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ١، ص ٤٤٠. ذكر ابن عساكر أن أحمد كان أديباً شاعراً. ولي حكم مصر مرتين سنة ٣١١ هـ = ٩٢٣ م، ٣٢١ هـ = ٩٣٣ م، الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٧٩ و٢٨٢. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٤) ذكر ابن خلكان أن وفاته كانت في مستهل ذي القعدة سنة ٣٠٣ هـ. وفيات الأعيان ج ٥، ص ٦٣.

مصر، ثم التقى القوّاد بالخليجي، واقتتلوا قتالاً شديداً عدة دفعات، كان آخرها أن انهزم الخليجي ودخل فسطاط مصر، واستتر عند رجل من أهلها، ودخل عسكر الخليفة فظفروا به وأخذوه هو والذي استتر عنده[1] وحبسوهما، وكتبوا بذلك إلى الخليفة، ووجه فاتك إبراهيم الخليجي إلى بغداد، فدخلها هو ومن معه في شهر رمضان، فحبسهم المكتفي.

واستقر عيسى النوشري بمصر إلى سنة سبع وتسعين ومائتين، فتوفي في شعبان منها، وحمل إلى البيت المقدس فدفن به.

واستعمل المقتدر[2] على مصر تكين الخاصّة[3] في منتصف شهر رمضان من السّنة.

وفي سنة ثلاثمائة ندب تكين عسكراً وجعل مقدمه أبا النمر[4] أحمد بن صالح، فمضى إلى برقة والتقى مع عسكر حُباسَة قائد المهْدِي، وأبلى بلاء حسناً، ثم صرفه تكين وولي حر المنصوري فمضى إلى برقة فوجد أبا النمر موافقاً لحباسة، فلمّا علم أبو النمر بعزله تخاذل حنقاً على تكين، فاغتنم حباسة الفرصة وحاربهما، فكسرهما، وعادَا إلى مصر.

ذكر استيلاء حُباسَة على الإسكندريّة

وفي المحرم سنة اثنتين وثلاثمائة سار حباسة[5] قائد المهدي من برقة ودخل الإسكندرية وملكها، فوصل من بغداد أحمد بن كيغلغ، وأبو قابوس محمود بن حمد، والقاسم بن سيما، في جمع من القوّاد والعساكر، وكان وصولهم في العشرين من صفر، فخرج بهم تكين إلى الجيزة في يوم الاثنين لسبعٍ خلَوْن من جمادى الأولى فعسكر بها، وسار حباسة من الإسكندرية بعسكر مستوفى، ونودي في فسطاط مصر بالنّفير في

---

(1) كان ذلك في سنة ٢٩٣ هـ. الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٦٢.

(2) هو جعفر بن أحمد بن طلحة، أبو الفضل، المقتدر بالله، ولي الخلافة العباسية في بغداد في سنة ٢٩٥ إلى سنة ٣٢٠ هـ. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٢.

(3) «ولي مصر ثلاث مرات، وتوفي بها في المرة الثالثة يوم السبت لست عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة» ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٦٢.

(4) هو «أبو النمر» في كتاب الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٦٨، و«أبو اليمن» في المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١، ص ٣٢٧، و«أبو اليمن» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ١٩٢.

(5) أخباره في: تاريخ الطبري، ج ٨، ص ٢٥٦. وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ١٩٢ (الحاشية) و٢٠٤.

العشرين من الشهر، فخرج الناس إلى الجيزة، ولم يتخلف أحد من الخاصّة والعامّة، وتقدم حباسة في جيوشه والتقى الفريقان وكثرت القتلى بينهم، فقُتِل أكثرُ رجال حباسة، وانهزم بمن بقي معه.

ثم قدم مؤنس الخادم من العراق في منتصف شهر رمضان من السّنة، ومعه جمع من الأمراء، وأمر أحمد بن كيغلغ بالمسير إلى الشام، وصرف تكين الخاصّة عن ولاية مصر لأربع عشرة ليلة خلت من ذي القعدة. فكانت مدة ولايته خمس سنين وشهرين.

وفي سنة ثلاث وثلاثمائة قدم أبو الحسن ذكا الأعور الرومي أميراً على مصر، وذلك لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر، وخرج مؤنس بجيوشه إلى العراق لثمان خلون من شهر ربيع الأول، وخرج ذكا إلى الإسكندرية لإصلاحها، وجعل فيها ولده مظفراً وتتبَّع من كان يُذكر بمكاتبة المهدي، فحبس جماعةً منهم، وقطع أيْديَ جماعةٍ وأرجلَهم.

ذكر وصول أبي القاسم بن المهدي[1] إلى الدّيار المصريّة واستيلائه على الإسكندرية والفيّوم[2] والأشمونين[3]

وفي سنة سبع وثلاثمائة، في الثاني من صفر، وصل أبو القاسم بن المهدي بجيوش المغرب إلى الإسكندرية وملكها. وهي الدّفعة الثّانية، فإنه كان قد قدم في سنة إحدى وثلاثمائة وملكها أيضاً، ثم عاد إلى إفريقية.

ووافق وصوله الآن والجند مخالفون لِذكَا أمير مصر، فتقاعدوا عن الخروج معه للقاء عسكر المهدي، فخرج إلى الجيزة في عسكر قليل في النّصف من صفر، وابتنى حصناً بالجيزة، واحتفر خندقاً على عسكره، ثم صُرِف ذُكا، وتُوفّي للَيلةٍ خلت من شهر ربيع الأول من السنة، وكانت مدة إمارته أربع سنين وأياماً.

وقدم أبو قابوس محمود بن حمد أمير الشام بعساكره نُصْرةً لعساكر مصر، فكان قدومُه لثمان خلون من شهر ربيع الأول، ونزل الجيزة، ثمّ قدم إبراهيم بن كيغلغ لسبع بقين من شهر ربيع الآخر. ودخل تكين الخاصّة متولّياً لإحدى عشرة ليلةً خلت من

---

(١) هو محمد بن عبيد الله، أبو القاسم القائم ابن المهدي العبيدي الفاطمي. ويسمى نزاراً. وهو ثاني ملوك الدولة الفاطمية العبيدية ٢٧٨ ـ ٣٣٤ هـ = ٨٩١ ـ ٩٤١ م. الزركلي، الأعلام، ج ٦، ص ٢٥٩. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢١٩.

(٢) الفيوم: في البلاد المصرية، وهو نظر كبير فيه قرى كثيرة. الحميري: الروض المعطار، ص ٤٤٥.

(٣) الأشمونين: مدينة قديمة بالبر الغربي من النيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٠٠.

شعبان سنة سبع وثلاثمائة، ونزل الجيزة، وحفر خندقاً ثانياً، وأَقبلت مراكب المهدي صاحب إفريقيّة، وهي مائة مركب حربيّة[(١)]، وعليها سليمان الحاكم[(٢)]، فبعث تكين إلى بَمَال الخادم أمير طَرَسُوس أن ينجده، فحضر إليه في مراكبه[(٣)]، وانتهى إلى ثغر رشيد، والتقت مراكبه بمركب المهديّ لعشرٍ بقين من شوال من السنة، وكان بينهم حرب شديدة، وهبّت ريح على مراكب المهديّ فألقتها إلى البر، وتكسّر أكثرُها وأُسر مَن فيها، وقتل منهم خلق كثير، ودخل من بقي منهم إلى الفسطاط، وهم سبعمائة نفر، فقُتلوا عن آخرهم.

وقدم مؤنس الخادم من بغداد في الخامس من المحرم سنة ثمان وثلاثمائة[(٤)]، وتولّى إمرة مصر من بغداد هلال بن بدر، ودخلها في السّادس من ربيع الآخر سنة تسع وثلاثمائة، وأقام إلى سنة[(٥)] عشرة، فشغب[(٦)] عليه الجند، وكثر النهب والقتل والفساد بمصر فصُرف هلال عن مصر في شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وثلاثمائة. فكانت مدة ولايته نحو سنتين.

وتولى مصر أحمد بن كيغلغ[(٧)] فقدمها في شهر رجب من السنة، فأقام بمنية الأصبغ[(٨)]، وأحضر الجند، ووضع العطاء فيهم، وأسقط كثيراً من الرَّجالة، فسعت الرجال عليه، وخرجوا لقتاله، فانتقل إلى فاقوس وأقام بها إلى أن قدم رسول تكين الخاصّة بولاية مصر، وذلك في ذي القعدة من السّنة.

وقدم تكين من العراق لعشر مضين من المحرم سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة، فكان

---

(١) ذكر المقريزي: «وهي ثمانون مركباً» في أتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٧١.

(٢) هكذا بالأصل، أما في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٧١، فقد ورد «عليها سليمان الخادم ويعقوب الكنافي»، وانظر أيضاً:الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٧٦.

(٣) «أمر الخليفة المقتدر إرسال مراكب طرسوس. انظر: اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٧١.

(٤) «وصرف تكين عن مصر يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة تسع وثلاثمائة، وولي مؤنس عليها أبا قابوس محمد بن حمك، فأقام عليها أياماً، ثم رد تكين عليها يوم الجمعة لخمس بقين من ربيع الأول فأقام أربعة أيام». الكندي، الولاة والقضاة، ص ٢٧٨.

(٥) في الأصل: «وأقام إلى ست عشرة». وجاء التصحيح من الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٧٩.

(٦) ورد في الأصل: «فشعت» وما أثبتناه عن الكندي، الولاة والقضاة، ص ٢٧٩.

(٧) هو أحمد بن إبراهيم بن كيغلغ أبو العباس: من أمراء العصر العباسي، تركي الأصل، الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ٨٥، وانظر ترجمته وأخباره في ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٣٢، والكندي: الولاة والقضاة ص ٢٧٩ ـ ٢٨٦.

(٨) منية الأصبغ: هي اليوم قرية الدمرداشي شرقي القاهرة خارج باب الفتوح. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٣٢. وانظر أيضاً محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ١ ـ ص ٤٢٨، حيث يقول: «وعرفت في العصر الفاطمي بقرية الخندق».

بها إلى أن توفي في السادس من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وحمل إلى بيت المقدس فدفن هناك، فكانت مدة ولايته هذه تسع سنين وأربعة أشهر إلا أربعة أيام، واستخلف ابنه محمد، وكان الوزير بمصر والمتولّي لخراجها يومئذٍ محمد بن علي الماذرائي[1] فوقع بينه وبين محمد بن تكين فتنة لأربع بقين من الشهر، وانتشرت حتى قامت الحرب بينهما، وقتل فيها جماعة من الفريقين وأحرق دور الماذرائي الوزير وجماعة من أصحابه.

وخرج محمد بن تكين هارباً من مصر، ودُعي بمصر لمحمَّد بن طُغج بن جُفّ الإخشيدي في يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان من السَّنة، ثم دُعِي لأحمد بن كيغلغ[2] في شوال من السنة، ثم رجع محمد بن تكين إلى مصر في يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من صفر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، وأقام بالجيزة أياماً، ودخل دار الإمارة بمصر، واستقر بها لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول، ودُعِي له بالإمارة ثمّ وقع بينه وبين عرب المغاربة حرب انجلت[3] عن انهزامهم إلى الصَّعيد، وأقام محمد بن تكين ثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً، ثم هرب مع جماعة من أصحابه لخمس خلون من شهر رجب. ودخل أحمد بن كيغلغ في يوم السّبت السّادس من الشهر، ثم رجع محمد بن تكين لقتاله لثلاث بقين منه، وكان بينهما حرب انجلت[4] عن انهزام محمد بن تكين، ثم نفي بعد ذلك إلى الصعيد، فلم يزل هناك إلى أن جاء محمّد بن طُغج.

---

(١) في الأصل، وعقد الجمان للعيني «المارداني»، وفي المواعظ والاعتبار للمقريزي «المادراني» و«الماذرائي» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ٢٣٢. وأيضاً: في الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٤٤.

(٢) في الأصل: محمد بن كيغلغ، وما أثبتناه عن الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٨٢، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٣٢.

(٣) و(٤) في الأصل: «أجلت» والتصحيح يقتضيه سياق الكلام، وما ورد في الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٨٢.

ذكر أخبار الدولة الإخشيدية وابتداء أمر من قام بها وكيف كان سبب ملكه وقيامه ومن ملك بعده إلى أن انقرضت أيامهم

كانت هذه الدَّولة بمصر والشام، وهي من الدُّول المشهورة، وأول من ولي من ملوكها الإخشيد أبو بكر محمد بن طغج. واسم طغج عبد الرحمٰن بن جُفّ بن يَلْتَكين ابن فُوري[1] بن خاقان الملك، وهو من فرغانة، وكان طغج من القواد الطّولونيّة، وتولّى لخمارويه بن أحمد بن طولون[2] دمشق والشام. ولما مات طُغج ترك من الأولاد أبا بكر محمداً الإخشيد، وأبا القاسم عليًّا، وأبا المظفر الحسين، وأبا الحسن عبيد الله، وكان أبو بكر أكبرهم فتولّى الولايات وتنقل في المراتب إلى أن ملك مصر والشام.

وكان ابتداء ولايته الدّيار المصرية والدعاء له بها في يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر رمضان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، كما قدمناه، ولم تثبت ولايته هذه. ثم دُعي لأحمد بن كيغلغ، وكان ما ذكرناه، ثم وَلِيَ مصر في سنة ثلاثٍ وعشرين وثلاثمائة في خلافة الرّاضي بالله[3].

وكانت هذه الولاية مفتعلة في ابتدائها، وذلك أن التقليد من دار الخلافة ببغداد خرج باسم محمد بن تكين الخاصّة، وكان ابن طغْج بالسّاحل فقبض على الرّسول الواصل من دار الخلافة وأخذ منه التقليد وكشط[4] «تكين» وكتب «طغج» وأنفذ التقليد إلى مصر فورد في يوم السبت لثلاث عشرة ليلةً خلت من شعبان، فاعتزل أحمد بن

---

(١) «ابن قروي» في الأصل، وما أثبتناه من وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٥٦، رقم ٦٨٩. ترجمته وأخباره في: ابن الأثير، الكامل في التاريخ (صفحات متفرقة من ج ٨) وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٣٧، والكندي: الولاة والقضاة: ٢٨١، ٢٨٦، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٢، ص ٣٣٧.

(٢) فرغانة: في خُراسان، بينها وبين سمرقند ثلاثة وخمسون فرسخاً. الحميري: الروض المعطار، ص ٤٤٠.

(٣) هو أحمد بن جعفر المقتدر بالله، أبو العباس الراضي بالله، ولي الخلافة العباسية في بغداد في الفترة من ٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ = ٩٣٤ ـ ٩٤٠ م، سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٢.

(٤) كشط: نزع. ابن منظور: لسان العرب (كشط).

كيغلغ النّظر، وامتنع محمد بن علي الماذرائي الوزير من التسليم له، وكان غالباً على أمر أحمد [بن كيغلغ][١]، وعزم على قتال محمد بن طغج، فبلغه ذلك، فبعث صاعد بن كلملم بمراكب كثيرة من ساحل الشام، وسار هو في البرّ، فقدمت عساكره مصرَ برًّا وبحراً، ووصل صاعد إلى الجيزة في يوم الخميس لخمس بقين من شعبان، وأقام خمسة أيام، وأحرق الجسر، ووصل الإخشيد إلى مصر فلقيه محمد بن علي الماذرائي الوزير وأحمد بن كيغلغ ومحمد بن عيسى النوشري وبرزوا لقتاله. فلما تصافُّوا للقتال انحاز أحمد بن كيغلغ وانضم إلى الإخشيد، وقاتل الماذرائي وابنُ النوشري قتالاً شديداً، ثم انهزما إلى الفيوم.

ودخل الإخشيد مصر بعد القتال في يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان من السنة، فندب صاعداً لقتال الماذرائي وابن النوشري، فوقع بينهما حرب انجلت[٢] عن قتل صاعد وهرب النوشري إلى برقة، وراسل القائِم[٣] صاحب إفريقية يطلب نجدة، فسير إليه عسكراً عليه أبو تازرت[٤] فدخلوا الإسكندرية وملكوها، فخرج إليهم أبو المظفر الحسين بن طغج ومعه صالح بن نافع، ووقع بينهم القتال، فانهزم النوشري وعسكر المغاربة، وقتلوا أبو تازرت، وأسر عامر المجنون، وجماعة منهم. وأما محمد بن علي الماذرائي الوزير فإنه استتر، ودام استتاره إلى أن دخل الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابة وتلقاه الإخشيد، وزينت له مصر، فأخرجه. ثم وصل التقليد من دار الخلافة لمحمد بن طغج في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

وفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة نعت الخليفة الراضي بالله محمَّد بنَ طُغج بالإخشيد بسؤالٍ منه في ذلك. ومعنى الإخشيد ملك الملوك.

وفي سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة خرج الإخشيد إلى الشام، واجتمع بالخليفة المتقي[٥] بالله بالرَّقة، وخدمه، ومشى بين يديه، وسأله المسير معه إلى مصر وخوَّفه من توزون التّركي، فلم يقبل منه، فضمَّ إليه الإخشيد عسكراً وقائداً من قُوّاده ورجع الإخشيد إلى الشام، ثم إلى مصر. وولاَّه المتقي مصر والشام والحرمين، وعقد لولديه

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) هو الخليفة الفاطمي الثاني بالمغرب وهو القائم بالله أبو القاسم محمد، ولي الخلافة بالمغرب في الفترة في ٣٢٢ ـ ٣٣٤ هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٥. سليمان، تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٣٣.

(٣) في الأصل: «أبو بارزت» وما أثبتناه عن الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٨٨.

(٤) في الأصل الملتقي بالله، وهو تحريف.

(٥) المتقي بالله: هو أبو إسحاق إبراهيم المتقي بالله، سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٢.

من بعده، أَنُوجُور[١] وعلي، على أن يكفلهما[٢] كافور الخصيّ. وكان عوْدُ الإخشيد إلى مصر في يوم الأحد الثالث عشر من جمادى الأولى، وأخذ البيعة على الناس لولده أبي القاسم أنوجور لليلتين بقيتا من ذي القعدة منها.

ذكر مسير الإخشيد إلى الشام ووفاته وشيء من أخباره وسيرته

وفي خامس شعبان سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة خرج الإخشيد إلى الشام والتقى بأصحاب ابن حمدان[٣] عَلَى لدّ[٤]، وهزَمَهم. ثم سار إلى حمص وقاتل سيف الدولة ابن حمدان، ومضى إلى حلب. ثمّ وقع الصلح بينهما، وتسلم الإخشيد من سيف الدّولة حلب وحمص وأنطاكيّة[٥]، وتزوج سيف الدولة بنت عبيد الله بن طغج أخي الإخشيد، ثم عاد الإخشيد إلى دمشق فتوفّي[٦] بها في يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجّة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وكان عمره ستّاً وستين سنة وخمسة أشهرُ وسبعة أيّام، وكانت مدة ولايته الثانية[٧] من لدُن دخوله إلى مصر وإلى حين وفاته إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر إلاّ يوماً واحداً.

قال التنوخي[٨]: وكان الإخشيد حازماً شديداً، يتيقّظ في حروبه، حسنَ التّدبير، مكرماً للأجْناد، أيّداً[٩] في نفسه، لا يكاد يجرّ قوسه الأفذاذ من النّاس لقوته، حسن

(١) «هو أنو جور بن الإخشيد محمد بن جُفّ، الأمير أبو القاسم الفرغاني التركي. وأنوجور اسم أعجمي، ومعناه باللغة العربية محمود. وفي هذا الاسم اختلاف في رسمه إذ يقال: أنو جور، وأونوجور، وأنجور، وما أثبتناه عن عقد الجمان الذي ضبطه بالعبارة: بفتح الهمزة وضم النون والجيم بعدها وقبلها واو ساكنة وفي آخره راء ساكنة»، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٣٣٤.

(٢) في الأصل يكلفهما، وهو تحريف.

(٣) هو علي بن عبد الله بن حمدان، سيف الدولة، أبو الحسن حكم حلب في الفترة بين ٣٣٣ ـ ٣٥٦ هـ = ٩٤٤ ـ ٩٦٧ م، سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٢٤٤.

(٤) لُدّ: بالضم والتشديد. من مدن فلسطين بالشام. الحميري: الروض المعطار، ص ٥١٠.

(٥) عن ذكر ملك سيف الدولة مدينة حلب وحمص وصراعه مع الإخشيد، انظر: الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٤٥، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٩، والولاة والقضاة للكندي، ص ٢٩٢ ومصر في عصر الإخشيديين لسيدة إسماعيل كاشف، ص ٣٦٧ ـ ٣٧٢.

(٦) «فتولى بها» في الأصل، وهو تحريف، وما أثبتناه عن الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٩٣.

(٧) في الأصل: «الأولى» وما أثبتناه يقتضيه سير الأحداث.

(٨) هو القاضي أبو علي التنوخي المحسن بن أبي القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم داود ابن إبراهيم بن تميم التّنوخي، ولد سنة ٣٢٧ هـ. وتوفي ٣٨٤ هـ. له كتاب «الفرج بعد الشدة»، وكتاب المستجاد من فَعلات الأجواد. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٥٩ ـ ١٦٠، رقم ٥٥٧.

(٩) أَيّداً: أيد: اشتد وقوي وصلب، الفيروزابادي: القاموس المحيط.

السيرة في رعيّته، وكان جيشه يحتوي على أربعة آلاف رجل، وله ثمانية آلاف مملوك، يحرسه في كل ليلة منهم[١] ألفا مملوك. وكان إذا سافر يتنقّل في الخيام عند النّوم حتى كان ينام في خيمة الفرّاشين. قال وترك الإخشيد سبع بيوت مال، في كل بيت مال منها ألف ألف دينار من سكّةٍ واحدة.

أولاده: أبو القاسم أنُوجُور، أبو الحسن علي.

كُتّابه: أبو جعفر بن المنفق، وابن قوماقس، وابن الرودباري.

ولما مات ملك بعده ابنه أنوجور.

ذكر ولاية أبي القاسم أنُوجُور

ومعنى أنوجور محمود، ابن أبي بكر محمد بن طغج، وهو الثاني من ملوك الدّولة الإخشيديّة.

كانت ولايته بالشام بعد وفاة أبيه لثمان بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وبويع له بمصر عند ورود الخبر بوفاة الإخشيد في اليوم الثاني من المحرّم سنة خمس وثلاثين، وعمره يومئذٍ اثنتا عشرة سنة. وقام ببيعته الوزير أبو بكر محمد بن علي بن مقاتل[٢]. وكان أبو المظفّر الحسن بن طغج بمصر فقبض على الوزير محمد بن علي المذكور في ثالث المحرّم، وعزله، وولّى الوزارة[٣] محمد بن علي الماذرائي، وحبس ابن مقاتل، فلم يزل في الاعتقال إلى أن قدم كافور بالعسكر من الشام فأفرج عنه. وكان قدوم كافور بالعسكر في يوم الثلاثاء لثمان مضين من صفر سنة خمس وثلاثين.

ثم خرج كافور بالعسكر إلى الشام ومُقَدّمه أبو المظفّر بن طغج، أخو الإخشيد، وذلك لسبع بقين من شهر ربيع الأوّل. وكان سبب خروجه أن سيف الدّولة بن حمدان طمع في ملك الشام لمّا تُوُفّي الإخشيد، فسار إلى دمشق وملكها، ثم سار إلى الرّملة فلقيه كافور بها وقاتله، وكانت الهزيمة على ابن حمدان. واستعاد الإخشيديّة ما كان سيفُ الدولة استولى عليه، وأقام كافور بالشّام.

---

(١) في الأصل: «منها»، والتصحيح يتفق والسياق لأن الضمير عائد على ثمانية آلاف مملوك.

(٢) هو صاحب خراج مصر. الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٩٤. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٣٣٤.

(٣) في ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة «وولي مكانه على الخراج»، ج ٣، ص ٣٣٤. وفي الكندي: الولاة والقضاة، «وجعل مكانه»، ص ٢٩٤.

ذكر قيام أبي نصر غَلْبُون بن سعيد المغربي وما كان من أمره

كان قيامه في سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، وكان يتولى عمل أسيوط وأخميم من صعيد مصر، فعزله كافور عنهما وهو بالشام، فامتنع، وطمع لخُلوّ البلاد من الأستاذ كافور، فندب إليه عسكراً فهزمهم غَلْبُون[١] وهزم عسكراً ثانياً، وتقوّى بما أخذه منهم. ثم سار إلى الشّرقيّة في أواخر السّنة ثم سار منها ونزل على بركة الحبش[٢] فخرج إليه جماعةٌ من الإخشيديّة فهزمهم. فرحل عند ذلك أبو القاسم أنوجور وأخوه وأهلهما[٣]، والوزير إلى الشام، وأخليت دارُ الإمارة، فدخل غَلْبون مصر وسَيَّر عسكراً إلى أبي القاسم فتبعه إلى مسجد تبر[٤]، ومُسِك الوزير محمّد بن الماذرائي وجيء به إلى غلبون، فلما رآه أطلقه.

وسار أبو القاسم نحو الشّام، فلقيه مرتاح الشّرابي في أثناء الطَّريق، وقدْ قدم مِنْ قِبَل كافور في جماعة من الإخشيديّة، فردّه. وعاد أبو القاسم إلى مصر بالعسكر فوجدُوا غلْبون وقد تفرّق عنه أصحابُه في البلد، فحاربهم في نفرٍ يسير، فانهزم. ودخلوا دار الإمارة، فوجدوا الوزير ابن الماذرائي، فهمُّوا بقتله، فأخذه القائد منجح وخبأه عنده، ونُهبت دُورُه وأحرق بعضُها.

ووصل الخبر إلى كافور بالشّام فقبض على ولده، واستوزر عوضاً عنه أبا الفضل جعفرَ[٥] بن الفرات المعروف بابن حنزابة، ثم قدِم الأستاذ كافور من الشّام في شهر رمضان، سنة ست وثلاثين، فأطلق الوزير ابن الماذرائي وأكرمه، وردَّ عليه ضِياعَه وأملاكه، واستوزر محمد بن علي بن مقاتل.

---

(١) هو متولي الريف: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٣٣٥.

(٢) بركة الحبش: من أجل متنزهات مدينة الفسطاط، وكانت تعرف ببركة المغافر والحمير، وتعرف بإصطبل قامش، وكانت في عهد أبي بكر محمد بن علي الماذرائي. المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٢، ص ١٥٢.

(٣) في الأصل: «وأهليهم» وما أثبتناه يقتضيه سياق الكلام.

(٤) مسجد تبر: خارج القاهرة، وعرف قديماً بالبئر والجميزة. وتبر أحد الأمراء الأكابر في أيام كافور. المقريزي: المواعظ والاعتبار ج ٢، ص ٤١٣.

(٥) هو جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات، المعروف بابن حنزابة. توفي سنة ٣٩١ هـ/ ١٠٠٠ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٤٦، رقم ١٣٣. انظر ترجمته في: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج ٥، ص ٢٧٥، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، ج ٧، ص ١٦٣. والمغرب (قسم مصر) ص ٢٥١. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٢٠٤، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ١٣٥.

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة لِستٍّ خلون من صَفر زُلْزِلَتْ مصر، وتتابعت الزّلازلُ بها، فتهدَّمَ أكثرُ دُورها، وسقط من الجامع العتيق بمصر قطعة، وتوالت الزّلازل في سنة أربعين أيضاً ثلاثة أيامٍ متوالية، وخُسفَ بعضُ القرى وهلك من كان بها.

فقال محمد بن عاصم[١] من قصيدة مدح بها كافور جاء منها: [من البسيط]

ما زُلْزِلَت مِصرُ منْ سُوءٍ يُرادُ بها وإنَّما رَقَصتْ مِنْ عدْلِه فَرحَا

وفي سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة انْقضَّت نارٌ من السَّمَاء فأحرقت أكثرَ دُور مصر.

ذكر وفاة الوزير أبي بكر محمد بن الماذرائي وشيء من أخباره ومآثره

وفي شوال من سنة خمس وأربعين وثلاثمائة مات الوزير أبو بكر محمد بن علي بن أحمد بن إبراهيم الماذرائي، وزر لخمارويه[٢] بن أحمد ولغيره من أمراء مصر، ومولدُه بالعراق سنة سبعٍ وخمسين ومائتين، وكان له ضِياعٌ وأملاكٌ، قيل إن مقدار ارتفاعها[٣] في كل سنة أربعمائة ألف دينار. وواصل الحجَّ من سنة إحدى وثلاثمائة إلى سنة اثنتين وعشرين، وكان ينفق في كل حجة مائة ألف وخمسين ألف دينار، وكان يحمل معه أحواضاً من الخشب على الجمال، مزروعٌ فيها الخضراوات، وكان لا ينصرف عن الحجاز إلا وقد استغْنَى فقراؤه. ثم واصل الحج من سنة نيِّفٍ وعشرين إلى سنة أربعين. وقام أربعين سنةً يصوم.

وقال المسبّحي في تاريخه[٤]: حَبَس هذا الوزير على مكة والمدينة ضياعاً ارتفاعها نحو مائة ألف دينار في كل سنة، منها كورة سيوط، ومنها نوير، ومنها بركة الحبش، وحبس أيضاً عليهما بالشام. وقال في كُتُب وقفه: منْ بدلها فرسُولُ الله ﷺ خصمه. رحمه الله تعالى.

وفي سنة ثمانٍ وأربعين وثلاثمائة خالف شبيب العقيلي، وكان والياً على الرّملة والساحل، وسار إلى دمشق وفتحها، ودخل إليها من باب الجابية، فوقع عن فرسه ميّتاً،

---

(١) هو محمد بن عاصم الموقفي ويقال له ابن عاصم، من شعراء اليتيمة، مصري توفي عام ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م. الزركلي: الأعلام، ج ٦، ص ١٨١.

(٢) «وزير» في الأصل، وما أثبتناه يقتضيه السياق.

(٣) ارتفاعها: إيرادها.

(٤) هو محمد بن عبيد الله بن أحمد، الأمير المختار عز الملك المسبحي، المتوفى سنة ٤٢٠ هـ = ١٢٠٩ م. صاحب كتاب أخبار مصر. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٧٣.

واخْتُلِفَ في موته، فقيل إن امرأةً أرْخَتْ عليه حجرَ طاحون، وقيل بل مات حَتْف أنفه، واتَّصل الخبرُ بالأُستاذ كافور فسكن بعد قلق عظيم. والله أعلم.

ذكر وفاة أبي القاسم أنوجور ووِلاية أخيه أبي الحسن علي بن الإخشيد

كانت وفاتُه لِسبع[١] خلَوْن من ذي القعدة سنة تسع وأربعين وثلاثمائة، وكانت مدّة وقوع اسم الملك عليه أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وأيّاماً. وكان كافور هو الغالب على أمره والحاكم في دولته، وليس لأبي القاسم معه إلا مجرّد الاسم.

ولما مات عُقِدت البيعة بعده لأخيه أبي الحسن عليّ في يوم الأحد لثمانٍ خلَوْن من ذي القعدة، فجرى الأستاذ كافور معه على قاعدته مع أخيه، وزاد على ذلك بأنْ حجبَه ومَنَعهُ من الظُّهور إلى النّاس إلاّ معه.

ولم يزل الأمر على ذلك إلى أنْ تُوُفِّي لإحْدَى عشْرَةَ ليلةً خلت من المحرّم سنةَ خمسٍ وخمسين[٢] وثلاثمائة، وكانت مدة ملكه خمس سنين وشهرين وأيّاماً، وقيل: إنّ وفاته كانت في هذا التاريخ من سنة أربع وخمسين، وكان مولده لأربع بقين من صفر سنة ستّ وعشرين وثلاثمائة، وخلّف ولداً واحداً وهو أبو الفوارس أحمد.

ذكر ولاية أبي المسك كافور الخصيّ الإخشيدي واستقلاله بملك مصر دون شريك ولا منازع

كانت ولايته بعد وفاة أبي الحسن علي، ابن سَيده، لإحدى عشرة ليلةً خلَتْ من المحرّم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة. وقيل في هذا التاريخ من سنة أربعٍ وخمسين.

قال الفرغاني المؤرخ: لمّا توفي عليّ بن الإخشيد استدعاني كافور وقال لي: ما ترى أن أصنع؟ فقلت له: أيها الأستاذ إنّ للمرحوم عندك صنائعَ وآثاراً تقتضي أن يُنْظَر لعقبه؛ والرأيُ عندي أن تنصب أحمد ابن الأمير عليّ مكان[٣] أبيه، وتدبر أنت الدولة كما كنت. فاعتذر بصغره، فقلت: قد عُقد لأبيه ولم يبلغ سِنَّهُ، وأجاز ذلك ثلاثة أئمّة:

---

(١) لثمانٍ في الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٩٦.

(٢) هذا التاريخ مذكور في الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٩٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ٤.

(٣) في الأصل ورد: «ما كان» والتصحيح يقتضيه السياق.

المتّقي والمستكفي[١] والمطيع[٢]. فقال: ننظر في ذلك. وانصرفت. فبلغني أنّه قال بعدي: أبو محمد لا يُشَكّ في ولائه[٣] لكنه يميل إلى الفَرْغَانِيَّة، ثم لم يقبل ما أشار به الفرغاني، بل وثب على الأمر وأنزل اسم مواليه عن المنابر، وأقام كذلك إلى أن تُوُفِّي في يوم الثلاثاء لعشرين بَقِينَ من جُمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة.

وكان سبب وفاته أنه سُمَّ في لوزينج[٤] قدمته له إحدى جواريه وقد أتى من الميدان وهو جائع، فأكله ومات، وقُتِلت الجاريةُ بعده، وكانت قد وُضعت لذلك. ومات وله من العمر خمس وستون سنة على التَّقدير، فإنه جُلِب في سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة وعمره أربع عشرة سنة، وبيع باثْنَي عشر ديناراً[٥].

قال المؤرخ: وكان لكافور معروف في كل سنة للحاج أكثر ما[٦] يُنْفِذُ معهم مالاً وكُسوة وطعاماً، ويبعث معهم صندوقين من كُسوة بَدَنِهِ تُفرّق على الأشراف. وكان له الغلمان الأتراك ألف وسبعون غلاماً يغلق عليهم باب داره، وتمام الألفي غلام روم، سِوَى الْمُوَلَّدين والسُّودان، يكون عدّةُ غلمانه أربعة آلاف غلام. وكان راتبه في مطبخه في كل يوم ألف وسبعمائة رطل لحماً سوى الدّجاج والفراريج والخراف المشويّة والحلوى وغير ذلك. وخُطب له بالحرمين الشريفين، ونَفَذَ حكمه في الشّام والحجاز وطَرَسُوس. وكانت له خزانة شراب يُفرَّق منها في كل يوم خمسون قرابة[٧] من سائر الأشربة في الحاشية. ولما مات كافور خلّف في خزائنه عيناً وجوهراً وثياباً وسلاحاً

---

(١) هو أبو القاسم عبد الله المستكفي بالله بن علي المكتفي بن المعتضد، من خلفاء الدولة العباسية في العراق بويع له بعد خلع المتقي لله سنة ٣٣٣ هـ. ولقّب نفسه «إمام الحق»، ولد سنة ٢٩٢ هـ، وتوفي سنة ٣٣٨ هـ. وكان خلعه سنة ٣٣٤ هـ. الزركلي: الأعلام ج ٤، ص ١٠٤، ترجمته وأخباره في: الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ١٣٧ ـ ١٤٨، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٠. وتاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ١٢.

(٢) هو أبو القاسم الفضل المطيع لله، ابن جعفر (المقتدر بالله) ابن المعتضد العباسي من خلفاء الدولة العباسية بويع بالخلافة بعد خلع المستكفي بالله سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م وولد سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٣ م. وتوفي سنة ٣٦٤ هـ/ ٩٧٤ م الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ١٤٧، ترجمته وأخباره في: الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ١٤٨ ـ ٢١٠ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، ج ٢، ص ١٢٥، وتاريخ الدول الإسلامية، ص ١٢.

(٣) في الأصل: «في ولايته» والتصحيح يتفق والسياق.

(٤) لوزينج: نوع من الحلوى.

(٥) اشتراه الإخشيد من بعض رؤساء مصر. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٤ و٦.

(٦) «في كل سنة لحاج أكثر»، في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٧) قرابة: من الآنية: ما قارب الامتلاء. راوية الماء التي تصنع من جلد الحيوان وتستعمل لنقل الماء، ابن منظور: لسان العرب (قرب).

بمبلغ ألف ألف دينار.

وحكي عنه أنه كان في ابتداء أمره قبل اتصاله بالإخشيد لحقه جرب حتّى كان لا يقاتِل فطرده سيِّدُه، وكان يمشي في سوق بني جاسة، وفيه طبّاخ يبيع الطبيخ، فطلب كافور منه أن يطعمه، فضربه بالمغرفة على يده، وهي حارَّة، فسقط مغشيًّا عليه؛ فأخذه رجل من المصريّين وداواه حتى وجد العافية فأتى إلى سيده فقال له سيِّدهُ: خُذ أجرة ما فعلت. فأبى؛ وقال: أجْرِي على الله. وكان كافور كلما عزَّتْ نفسُه يذكِّرها بضرب الطّبّاخ بالمغرفة، وربما يركب ويأتي ذلك الخُطّ وينزل ويسجد شكراً لله عز وجل.

وحكى أيضاً أنه اجتاز يوماً بالنحَّاسِين وهو في موكبه فوقف على حانوت هرَّاس[1]، وكان إلى جانبه الوزير ابن الفرات فبكى كافور بكاءاً شديداً، وكان يقول في بكائه: فاز الجمال فاز الجمّال، وساق وهو على تلك الحال، فلمّا استقرّ بمكانه وسكن، سأله الوزير عن سبب بكائه، فقال: لمّا طلعتُ من المركب من بحر الحجاز، وكان يومئذٍ سيدي الذي جلبني إبراهيم البلوقي، فركب الجمل وقصدنا قُوص ونزلنا في بعض الأيام وجلستُ مع الجمّال ورجلٍ آخر كان معنا قد وصل من الحجّ، فقال الرجل: أشتهي على الله قِدْر هريسةٍ قدّامي. فقلتُ: أنا أشتهي على الله ملك مصر، فقال الجمّال اشتهيتُ على الله الجنّة. وغاب عني هذا الحديث. فاتَّفقَ أنّ سيّدي إبراهيم باعني لمحمد بن هاشم، ثمّ باعني لأبي أحمد بن عيّاش، فوهبني لجاريةٍ له، ثمّ وهب أبو أحمد الجاريةَ بعد مدّةٍ الإخشيدَ، فطلبني تكين الخاصّة من الإخشيد، فأهداني إليه، فلم أزل إلى أن ملكت مصر. وصاحبُ الحانوت الذي وقفتُ عنده هو الذي أشتهى الْقِدْر الهريسَة؛ فعرفت أنّ ذلك الوقت وهب الله لكلٍّ منّا ما اشتهى، ففاز الجمّال بالجنة.

وحكى أبو جعفر المنطقي قال: دعاني كافور يوماً وقال لي: أتعرف مُنَجِّماً، كان يجلس عند دار فلان؟ فقلت: نعم. قال: ما صنع؟ قلت: مات منذ سنين كثيرة. فقال: مررتُ عليه يوماً فدعاني وقال: أَنْظُر لك؟ قلت: افعل. فنظر، ثمّ قال: سَتَمْلك هذه المدينة وتأمر فيها وتنهى. وكان معي دِرْهمين فدفعْتُهما إليه، وقلت: ما معي غيرهما. وقال: وأزيدُك؛ سَتَمْلك هذه المدينة وغيرَها وتبلغ مبلغاً عظيماً، فاذكرني. فانصرفت. فلمّا نمتُ البارحَة رأيتُه في منامي وهو يقول لي: ما على هذا فارقتني. وأريد أن تمضي وتسأل عن حاله، هل له ورثة؟ فسألتُ عنه فقيل: له ابنتان إحداهُما بكر والأخرى متزوّجة، وأعلمته؛ فاشترى لهما داراً بأربعمائة دينار، ودفع للبكر مائتي دينار تتجهز بها.

وقال الحسن بن زولاق المصري المؤرخ: كان الشريف عبد الله بن أحمد

---

(١) هراس: أي بائع الهريسة. وهي نوع من الحلوى. ابن منظور: لسان العرب (هرس).

الحسيني، وهو ابن طباطبا، يرسل إلى كافور في كل يوم جامين[(١)] حلوى[(٢)] ورغيفاً في منديل مختوم، فخُوطِب كافور في الرّغيف وقيل له الحلوى حَسَنٌ فما تصنع بالرغيف؟ فأرسل إليه وقال: يُجْرِيني الشريفُ في الحلوى على العادة، ويعفيني من الرغيف، فركب الشّريف إليه وقال: أيّدك الله، أنا ما أنفذ الرغيف تطاوُلاً، ولا تعاظُماً وإنّما هي صبيّة حَسَنِيّة تعجنُه بيدها وتخبزه، فأرسله[(٣)] على سبيل التبرّك؛ فإذا كرهتَه قطعناه. فقال: لا والله، ولا يكون قُوتِي سِواه.

وقيل: إنه ركب يوماً في موكبه والشّريف أبو جعفر[(٤)] نقيب الطالبين يسايره، فوقعت مقرعته، فنزل الشريف فناوله إياها، فتذمّم كافور من ذلك وتأوّه وبلغ منه مبلغاً عظيماً. فلمّا نزل إلى داره أرسل إلى الشّريف جميع ما كان يملكُه في موكبه من مماليك ودوابّ وآلة واعتذر منه. قال التنوخي في نشوار المحاضرة: وكان قيمة ما سيّره إليه خمسة عشر ألف دينار[(٥)].

وفي سنة سِتٍّ وأربعين وثلاثمائة قدم عليه أبو الطيب المتنبي[(٦)] فأكرمه وخلع عليه، وأنزله بدار، وحمل إليه ألوفاً من المال، فقال أبو الطيب قصيدته التي أولها: [من الطويل]

كَفَى بِكَ داءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ[(٧)] المَنَايَا أَنْ تَكُونَ[(٨)] أمانِيا

تَمَنَّيْتُهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أَنْ أَرَى[(٩)] صَدِيقاً، فَأَعْيَا أَوْ عَدُوّاً مُدَاجِيَا[(١٠)]

وجاء منها في مدح كافور:

فَجَاءَتْ بِه[(١١)] إنسانَ عَيْنِ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بَيَاضاً خَلْفَهَا ومَآقِيَا

---

(١) الجام: إناء من فضة. الفيروزابادي: القاموس المحيط (لجم).
(٢) في الأصل: حلوا.
(٣) في الأصل: «فيرسله» والتصحيح يقتضيه السياق.
(٤) هو مسلم بن عبيد الله بن طاهر العلوي النسابة، أبو جعفر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٥.
(٥) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٥ ـ ٦.
(٦) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكندي الكوفي، أبو الطيب المتنبي، الشاعر، المشهور، توفي سنة ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢٠ رقم ٥٠.
(٧) في الأصل: «وحب» والتصحيح في ديوان المتنبي، ج ٤، ص ٢٨١.
(٨) في ديوان المتنبي، ج ٤، ص ٢٨١، (إن تكُنَّ).
(٩) في ديوان المتنبي، ج ٤، ص ٢٨٢ (أن ترى).
(١٠) المتنبي، ديوانه، ج ٤، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.
(١١) «فجاءت نبا» في ديوان المتنبي، ج ٤، ص ٢٨٧، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٩.

فحَسُن موقعُه عند كافور، ثمّ هرب منه وهَجَاهُ بما هو مسْطُورٌ في ديوانه[١].

ولما مات كافور قام بالأمر بعده أبو الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد محمد بن طغج بن جُفّ، كانت ولايته بعد الأستاذ كافور لعشر بقين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. وذلك أن القواد والغلمان الإخشيديّة اجتمعوا وتحالفوا ألاّ يختلفوا، وعقدوا الرئاسة له، وهو ابن إحدى عشرة سنة، وجعلوا الخليفة عنه الحسن[٢] بن عبد الله بن طغج، وهو ابن عم أبيه؛ وردُّوا تدبير العساكر والرجال إلى شمول[٣] الإخشيدي، وتدبير الأموال إلى جعفر بن حنزابة[٤] الوزير؛ وذلك كلّه قبل دفن كافور؟

وأقام الأمرُ على ذلك ثلاثة أشهر وثمانية عشر يوماً، واشترك معه ابنُ عمّ أبيه الحسن بن عبيد الله بن طغج، وكان يخطب لهما جميعاً بمصر والشّام والحرمين، يُبْدأ في الخطبة بأبي الفوارس ويُثنّى بأبي محمد الحسن.

ثم سار الحسن إلى الشام لقتال القرامطة، وصادر الوزير جماعةً من المصريين، وقبض على يعقوب بن كلّس وصادره على أربعة آلاف وخمسمائة دينار؛ وقبض على إبراهيم بن مروان النّصراني، كاتب أنوجور وعلى ابني الإخشيد وصادره على عشرة آلاف دينار. ولم يقدر الوزير على رضا الإخشيديّة والكافوريّة لتباين أغراضهم؛ فاضطرب التدبير على الوزير، واستَتَرَ مرّتين، ونُهبت داره ودُورُ أصحابه، فكتب جماعة من وُجوه البلد إلى المعز[٥] بإفريقية يستدعون منه إنفاذ العساكر.

---

(١) قال المتنبي في يوم عرفة سنة خمسين وثلاثمائة قبل مفارقته مصر بيوم واحد قصيدته الدالية التي هجا كافوراً فيها. ومطلعها: [من البسيط]

عيد بأية حال عدت يا عيد ... بما مضى أم لأمر فيك تجديدُ

ومنها:

من علّم الأسود المَخصيّ مَكْرُمةً ... أقومُه البيض أم آباؤه الصِّيدُ

أم أذنه في النخاس دامية ... أم قدرُه وهو بالفَلْسَين مردودٌ

انظر ديوان المتنبي، ج ٢، ص ٣٩، وص ٤٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٠.

(٢) في الأصل: «حسين» و«حسن» في ابن خلكان، وفيات الأعيان: ج ٣، ص ٣٦٢، وج ٥، ص (٦٠ ـ ٦٢)، ذكره ابن خلكان باسم الحسن في (ترجمة الحسن بن عبيد الله) وباسم الحسين في ترجمتي جعفر بن حنزابة، ج ١، ص ٣٤٧ رقم ١٣٣، وجوهر الصقلي، ج ١، ص ٣٧٦، رقم الترجمة ١٤٥. وذكره ابن تغري بردي: باسم الحسن بن عبيد الله في النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١١. وانظر أيضاً ترجمته في الزركلي الأعلام، ج ٢، ص ١٩٨، حيث توفي سنة ٣٧١ ـ ٩٨٢ م.

(٣) في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١١، «سمول».

(٤) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١١.

(٥) هو أبو تميم معد، الملقب المعز لدين الله، ابن المنصور القائم بن المهدي عبيد الله، ولد سنة ٣١٩ وتوفي ٣٦٥ هـ. انظر ترجمته في ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٢٢٤، رقم ٧٢٧.

وكان بمصر في هذه السّنة غلاء شديد وفناء عظيم، فإن النيل انتهت زيادته في سنة ست وخمسين وثلاثمائة إلى اثني عشر ذراعاً وتسعة عشر أصبعاً، ولم يوف في السنة التي قبلها، فاشتد الغلاء، وكثر الوباء.

نقل بعضُ المؤرخين أنه أحصى من كُفِّن ودُفن خارجاً، عدا من رُمِي في البحر، ستمائة ألف إنسان.

وفي سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة قدم الحسن بن عُبيد الله من الشّام منهزماً من القرامطة، ودخل مصر، وقبض على جعفر بن الفرات الوزير، واستوزر الحسن بن جابر الرياحي، ثم أطْلق الوزير بن الفرات، بوسَاطة أبي جعفر مسلم الحسيني الشريف، وفَوّض إليه الوزارة، ثم سار الحسن بن عُبيد الله إلى الشّام في مستهل شهر ربيع الآخر، وخرج جماعة من الأولياء والكتاب والأشراف إلى الشام، وخرج يعقوب[١] بن كلّس إلى الغرب مستتراً، ثمّ صار منه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ثمّ تواترت الأخبار في جُمادى الآخرة سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة أن المعزّ صاحب إفريقية قد جهّز عساكره مع غلامه جوهر إلى مصر، فجمع الوزيرُ القوّاد ووقع رأيهم على تقديم نحرير سويران فاستدعوه من الأشْمُونين وعقدُوا له الرئاسة عليهم.

ووصل الخبر بوصول جوهر إلى برقة، فاجتمع رأي الجماعة على أن بعثوا الشريف أبا جعفر مسلماً الحسَني وأبا إسماعيل بن أحمد الزينبي وأبا الطيب العباس بن أحمد العباسي والقاضي أبا ظاهر، وغيرهم، لتقرير الصلح بينهم وبين جوهر على تسليم البلاد له، فساروا في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة فلقوه على تَرُوجَة[٢]، فأكرمهم وأجابهم إلى ما طلبوه ثم بعد انفصالهم اجتمع القواد على إبطال المصالحة وتجهّزوا للحرب، ورجع أولئك النّفر بكتاب الأمان، فلم يقبل القواد ذلك، وخرجوا إلى الجيزة بأجمعهم.

ووصل جوهر وابتدأ القتال يوم الخميس الحادي عشر من شعبان من السّنة، ثمّ

---

(١) هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلّس وزير العزيز نزار بن المعز العبيدي صاحب مصر. توفي يعقوب سنة ٣٨٠ = ٩٩٠ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٧، ص ٢٧ رقم ٨٣١. انظر أيضاً ترجمته في: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢. وابن منجب، الإشارة إلى من نال الوزارة ص ١٩، وابن أيبك الدواداري: كنز الدرر ج ٦، ص ٢٢٦، وما بعدها. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٦٠.

(٢) تروجة: من القرى المصرية القديمة من أعمال البحيرة، مكانها اليوم كوم تروجة بمركز أبو المطامير بمحافظة البحيرة. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ق ١، ص ١٩٠.

سار جوهر بعد ذلك إلى منية شَلَقَان[١] وملك المخايض، فبعث المصريون مزاحِم بن أرتق لحفظها فلم يحفظها، وخامر عليهم، وعدى[٢] جوهر، وانهزم الإخشيديون، ودخل جوهر مصر بعد العصر من يوم الثلاثاء لثلاثَ عشرة ليلةً بقيت من شعبان منها، وندب القائد جوهر المعزّيُّ بعد ذلك جعفرَ بن فلاح إلى الشام. والتقى هو والحسن بن عبيد الله على الرملة في شهر رجب سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، واقتتلا[٣] فانهزم الحسن وأُسر، وملك جعفر الشّام أجمع.

وانقرضت الدّولة الإخشيدية، وكانت مدتُها خمساً وثلاثين سنة، وتسعة أشهر، وأيّاماً.

(١) منية شلقان: من القرى المصرية القديمة، من أعمال القليوبية، وحالياً تبع مركز قليوب، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ق ٢، ص ٥٦.

(٢) في الأصل: «عدا».

(٣) في الأصل: «واقتتلوا».

ذكر أخبار الدولة الْعُبَيديّة التي انتسب ملوكها إلى الشرف وألحقوا نسبهم بالحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما

هذه الدّولة من الدُّول التي امتدَّت أيامُها واتّسعت ممالكُها، واستولت مُلوكُها على كثيرٍ من الممالك المشهورة شرقاً وغرباً، ببلاد المغرب، والدّيار المصرية، والبلاد الشاميّة، والثُّغور والعَواصم، وغير ذلك.

وكان ابتداءُ ظهور هذه الدّولة ببلاد المغرب، وإنّما أوردناها في أخبار ملوك الدّيار المصرية، وألحقنا ملوكها بملوك هذا الوادي لأن الدِّيار المصرية قاعدةُ ملكهم وبها قام أكثر ملوكهم.

ولنبدأ بذكر أخبار ملوك هذه الدّولة وابتداء أمرهم، وما قيل في نسبهم وإلى من ينسبون، وكيف تنقَّلَتْ[1] بهم الحال إلى أن ملكوا البلاد واستولوا على الأقاليم. ولهذه الدّولة أسبابٌ ولوازمُ وشِيعة، هم الذين مهّدوا لهم البلاد، ووطّنوا الممالك. وهزموا الجيوش، وفتحوا الأقاليم، وأبادُوا الأبطال، حتّى استقر المُلك لملوك هذه الدّولة وتسلّمُوه عَفْواً صفْواً.

لا بُد لنا أن نبتدىء بذكر أخبارهم، وما فتحُوه واستولوا عليه قبل ظُهُور المهْديّ الّذي هو أوّل ملوك هذه الدّولة، ثم نذكر عاقبة أمر مَن قرر لهم الملك معهم، ونذكر مَنْ ملك مِنْ ملوك هذه الدولة واحداً بعد واحد إلى أن انقرضت دولتهم وبادت أيّامُهم.

فنقول وبالله التوفيق:

أوّلُ من ملك منهم عُبَيْد الله المنعوت بالمهديّ، ونسب نفسَهُ أنه: عبيد الله بن الحسن بن عليّ بن محمد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وأهل العلم بالأنساب من المحقّقين يُنكرون ذلك وينْفُونَه عن[2]

(١) في الأصل: «تنقلب».

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: ذكر ما قيل في أنساب خلفاء الفاطميين، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٢ وما بعدها.

الشّرف، ويقولون: اسم عبيد الله سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله القدّاح[١] بن أبي شاكر ميمون بن ديصان بن سعيد الغضبان، صاحب كتاب «الميدان في نصر الزّندقة»، وهو من أهل رَامَهُرْمُز[٢]، كورة من كور الأهواز، وكان من خُرَّمِيَّة المجوس[٣]، ومن المؤرخين من زعم أن الحسين بن أحمد زوج أم سعيد وأن أبا سعيد يهودي.

وقال القاضي أبو بكر بن الطيّب[٤] في كتابه المسمّى بكشف الأسرار وهتك الأستار: إنّ سعيداً هذا كان قد رباه عمّه محمد بن أحمد المكنى بأبي الشلغلغ وكانُوا دُعاةً لمحمّد بن إسماعيل بن جعفر الصّادق، يأكلون البلاد باسمه ويدَّعون أنّه حيٌّ يُرزق إلى زمانهم، وفيه عمل ابن المُنَجِّم قصيدته التي يقول فيها: [من الطويل]

فإنّك في دعواك أنّك منهم ... كمن يدَّعِي أنَّ النُّحاس من الذّهب

متى كان مولى الباهليّين ملحَقاً ... بِآل رسُول الله يوماً إذا انتُسب

ولما ملك بهاءُ الدّولة أبو نصْر بن[٥] عضد الدّولة فناخسروا بن بُويه، بغْدادَ جمع الطالبيّين من آفاق العراق، وسألهم عنهُم، فكلُّهم أنكرهُم ونفاهم، وتبرّأ منهم؛ فأخذ خُطُوطَهم بذلك. وكان ممن شهد الشّريفان الرّضِيّ[٦] والمرتضى[٧] وأبو حامد

(١) في الأصل: «القراح».

(٢) رامهرمر: في الروض المعطار رامهرمز: من كور الأهواز، وبالقرب من واسط وهي خوزستان. الحميري: الروض المعطار، ص ٢٦٦. انظر أيضاً معجم البلدان لياقوت الحموي.

(٣) الخرمية: نسبة إلى بابك الخرميّ، حركة دينية تعتقد بتناسخ الأرواح، وتعود إلى الأصل المجوسي. ابن الأثير: الكامل، ج ٦، ص ٣٢٨.

(٤) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني البصري صاحب التصانيف في علم الكلام. توفي عام ٤٠٣ هـ/ ٩٨٨ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٣٤. انظر أيضاً: ترجمته في العبر للذهبي ج ٣، ص ٨٦.

(٥) «بن» إضافة تتفق والسياق. هو بهاء الدولة أبو النصر فيروز بن عضد الدولة، أبو شجاع فناخسرو. توفي عام ٣٧٢ هـ ببغداد. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٢٩٠، وانظر ترجمته في ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٥٠، رقم ٥٣٢، أخباره في: تاريخ ابن الأثير، ج ٨، ص ٩. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٤٦. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٧٨، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٢١.

(٦) هو محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم، الشريف الرضي أبو الحسن، توفي ببغداد سنة ٤٠٦ هـ. وابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤١٤، رقم ٦٦٧.

(٧) هو علي بن الحسين بن موسى، أخو السابق، توفي ببغداد سنة ٤٣٦ هـ. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٣١٣، رقم ٤٤٣.

الأسفراييني[١]، وأبو الحسين القُدُوري[٢]، وغيرهم[٣]، وذلك في سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة[٤] بأمر القادر بالله[٥] العباسيّ.

هذا مع ما ينسب إلى بني بويه من التشيُّع. فلنذكر ابتداء أمرهم وأول من قام منهم.

ذكر ابتداء أمرهم وأول من قام منهم

قال أبو محمد عبد العزيز بن شدّاد ابن الأمير تميم بن المعزّ بن باديس في كتابه المترجم بالجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان: أوّل من قام منهم أبو شاكر ميمون بن ديصان بن سعيد الغضبان، وكان مِمّن صحبَ أبا الخطّاب محمّد بن أبي زينب[٦] مولى بني أسد، فألقَوْا إلى كلّ من اختصُّوا به أنّ لكل شيءٍ من العبادات باطناً، وأنّ الله تعالى ما أوجب على أوليائه صلاةً ولا زكاةً ولا صَوْماً ولا حجًّا؛ ولا حرّم عليهم شيئاً من المحرمات؛ وأباح لهم نكاح البنات والأخوات. وإنما هذه العباداتُ عذابٌ على الأمّة وأهل الظّاهر، وهي ساقطةٌ عن الخاصّة. يقولون ذلك لِمَنْ يثقون به ويسْكنُون إليه. ويقولُون في آدمَ وجميع الأنبياء: كذّابُونَ محتالُونَ طلابٌ للرّئاسة.

فاشتدّت شوكَةُ هؤلاء في الدّولة العبّاسيّة، وتفرقوا في البلاد شرقاً وغرباً، يُظهرون التقشُّف، والزّهد، والتصَوّف، وكثرَة الصّلاة والصِّيام، يُعرِّفون الناس بذلك وهم على خلافه، ويذكرون أبا الخطاب إلى أنْ قامت البيِّنة بالكوفة أنّ أبا الخطاب أسْقَطَ العبادات وأحلّ المحارم، فأخذه عيسى[٧] بن موسى الهاشمي، مع سبعين من أصحابه، فضَرَبَ

---

(١) هو أحمد بن محمد الإسفراييني الشيخ أبو حامد، الفقيه الشافعي، توفي ببغداد سنة ٤٠٦ هـ. وابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٧٢، رقم ٢٦.

(٢) هو أحمد بن محمد بن أحمد، أبو الحسين القدوري، الفقيه الحنفي. توفي ببغداد سنة ٤٢٨ هـ. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٧٧، رقم ٣٠.

(٣) الأسماء الذين وقعوا على المحضر الذي كتب ببغداد هم كثيرون انظرهم في الكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٢٣٦، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٤) في الكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٢٣٦. وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي السنة التي كتب فيها المحضر كانت سنة ٤٠٢ هـ/ ١٠١١ م.

(٥) هو أبو العباس أحمد القادر بالله، ولي الخلافة العباسية ببغداد في الفترة من ٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ = ٩٩١ ـ ١٠٣١ م سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢.

(٦) هو محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع مولى بني أسد الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١، حتى ١٧٩.

(٧) هو عيسى بن موسى بن محمد بن علي العباسي، ولي عهد السفاح بعد أخيه المنصور. توفي سنة ١٦٨ هـ = ٧٨٤ م. الذهبي: العبر، ج ١، ص ٢٥٣.

أعناقَهم، فتفرّقَ بقيَّةُ أصحابه في البلاد، فصار قومٌ مِمَّن كان على مذهبه إلى نواحي خراسان، وقومٌ إلى الهند، وصار أبو شاكر ميمون بن سعيد إلى بيت المقدس مع جماعةٍ من أصحابه، وأخذوا في تعلم الشعبذة[١] والنارنجيات[٢] والْحِيَل ومعرفة الرّزق من صنعة النّجوم والكيمياء، ويحتالون على كلّ قوم بما يتّفق عندهم، وعلى العامَّة بإظهار الزُّهد والورع، ونشأ لأبي شاكر ابنٌ يقال له عبد الله القدّاح، علّمه الحِيَل وأطْلعه على أسرار هذه النِّحلة، فتحذَّق وتقدّم، وكانوا يظهرون التشيع والبكاء على أهل البيت ويزيدون أكاذيب اخترعوها يخدعون بها ضعفاء العقول.

وكان من كبار الشّعوبيّة[٣] رجل يسمى محمد بن الحسين بن جهار نجار الملقب دندان[٤] وهو بنواحي الْكَرَج[٥] وأصفهان له حالٌ واسعة وضِياع عظيمة، وهو المتولّي على تلك المواضع، وكان يبغض العرب ويذمُّهم، ويجمع معايبهم، وكان كلُّ من طَمِع في نوالِه تقرَّب إليه بذمٍ العرب، فسمع به عبدُ الله بن ميمون القدّاح وما ينتحله من بُغْض العرب وصَنْعة النّجوم، فسار إليه، وكان عبد الله يتعاطى الطّب وعلاج العين، ويقدَحُ الماء النّازل فيها، ويُظهر أنه إنما يفعل ذلك حِسْبَةً وتقرّباً إلى الله عز وجلّ، فطار له هذا الاسمُ بنواحي أصفهان والجبل، فأحضره دندان وفاتحه الحديث، فوجده كما يحبّ ويَهْوَى، وأظهر له عبد الله من مساوىء العرب والطعن عليهم أكثر مما عنده، فاشتدّ إعجابُه به، وقال له: مثلُك لا ينبغي أن يطبّ، وإنّ قدرَك يرتفع ويحلّ عن ذلك، فقال: إنّما جعلت هذا ذريعةً لما وراءه ممّا أُلقيه إلى الناس وإلى من أسكن إليه على رفقٍ ومَهَل، من الطَّعن على الإسلام، وأنا أشير عليك ألاّ تُظهر ما في نفسك إلى العرب، ومَن يتعصّبُ لهذا الدّين، فإنَّ هذا الدّين قد غلب على الأديان كلّها فما يطيقُه ملوك الرّوم، ولا الترك، والفرس، والهند، مع بأسهم ونجدتهم، وقد علمت شدَّة بابَك صاحب الْخُرَّمية[٦] وكسرةَ عساكره، وأنّه لما أظهر ما في نفسه من بُغْض الإسلام وتَرك

(١) الشعبذة والشعوذة: خفة في اليد وأخذ كالسحر يُرى الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين. والشعوذة: السرعة. وقيل: هي الخفة في كل أمر. ابن منظور: لسان العرب (شعذ).

(٢) النارنجيات: أخذ تشبه السحر. ابن منظور: لسان العرب (نرج). أخبار أصحاب الحيل والنارنجيات في الفهرست لابن النديم ص ٤٢٩ ـ ٤٣٥.

(٣) في الأصل: «الشعتية».

(٤) اختلفت المصادر في رسم الاسم، والتعريف به. انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٣٩، هامش ٥.

(٥) الكرج: مدينة بين أصفهان وهمذان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٤٦.

(٦) بابك الخرمي: هو قائد حركة تعتقد بمذهب التناسخ، وهي قائمة على المجوسية بدأت سنة ٢٠١ هـ = ٨١٦ م، وانتهت سنة ٢٢٣ هـ/ ٨٣٧ م. انظر أخباره في الكامل لابن الأثير، ج ٦، ص ٣٢٨، وص ٤٧٧.

التستُّر بالتشيّع[(١)] كما يقول أوّلاً قُلِع أصله، فاللّهَ اللّهَ أن تُظهر ما في نفسك، والزم التشيُّع والبكاء على أهل البيت، فإنّك تجدُ مَنْ يساعدُك على ذلك من المسلمين، ويقول: هذا هو الإسلام [وسُبَّ أبا بكر وعمر][(٢)] وادَّع عليهما عَدَاوَةَ الرّسول وتغيير القرآن وتبديلَ الأحكام، فإنك إذا سَبَبْتهما سبَبْتَ صاحبهما[(٣)]؛ فإذا استوى لكَ الطّعنُ عليهما فقد اشتفيتَ من محمّد، ثم تُعْمِلُ الحيلة بعد ذلك في استئصال دينه. ومَنْ ساعدَك على هذا فقد خرج من الإسلام من حيث لا يشعر، ويتم لك الأمر[(٤)] كما تريد، فقال دنْدان[(٥)]: هذا هو الرأي.

ثم قال له عبد الله القدّاح: إن ليَ أصْحاباً وأتباعاً أبثُّهم في البلاد فيُظهرونَ التقشُّف والتصوّف والتشيع، ويدعُون إلى ما تريده بَعْد إحكامِ الأمر. فاستصْوبَ دنْدان وسُرَّ بِه، وبذل لعبد الله القدّاح ألفي ألف دينار. فقبل المال وفرّقه في كُور الأَهواز والبصرة وسواد الكوفة، وبطالقان، وخراسان[(٦)]، وسَلَمْيَة من أرض حمص.

ثم مات دنْدان فخرج عبد الله القدّاح إلى البصرة وسواد الكوفة، وبثّ الدعاة، وتقوى بالمال، ودبّر الأمر.

وحكى الشّريف أبو الحسين محمّدُ بن علي الحسَين المعروف بأخي محسن[(٧)] في كتابه أن عبد الله بن ميمونٍ هذا كان قد نزل عسكر مُكْرَم[(٨)] فسكن بساباط أبي نوح، وكان يتستَّر بالتشيُّع والعلم، فلمّا ظهر عنه ما كان يضمرُه ويُسِرُّه من التّعطيل والإباحة، والمكر والخديعة، ثار النّاس عليه، فأول من جاءه[(٩)] الشيعة، ثم المعتزلة وسائر النّاس، وكبسوا دارَه، فهرب إلى البصرة ومعه رجل من أصحابه يعرف بالحسين الأهوازي، فنزل بِبَاهلة على موالٍ لآل عقيل بن أبي طالب، وقال لهم: أنا من ولد عقيل، وداع[(١٠)]

---

(١) في الأصل: «ترك السير بالتشيع». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها سياق الكلام.
(٣) يقصد الرسول ﷺ.
(٤) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.
(٥) في الأصل: «ديدان» والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٣٩.
(٦) في الأصل: «بطالقان خراسان». والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٤٠.
وطالقان: مدينة بخراسان بين مرو وبلخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٦ ـ ٨.
(٧) هو علوي عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. صاحب مجلد يحتوي على أنساب الخلفاء الفاطميين. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٢.
(٨) مُكرم: من نواحي خوزستان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٨٠.
(٩) ورد في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ١٩. «فأول من ثار عليه».
(١٠) في الأصل: ورد «داعي» والتصحيح من كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ١٩.

إلى محمّد بن إسماعيل بن جعفر، فلمّا أقام وانتشر خبرُه طلبه العسكريُّون فهرب وأخذ طريق الشام ومعه الحسين الأهوازي، فلما توسطا الشام عَدَلا إلى سَلَمْية[١] ليَخْفَى أمرهُما فأقام بها عبد الله وخفي أمره.

نرجع إلى قول ابن شداد. قال: ثم مات عَبد الله، وكان له جماعة من الولد فخلفه منهم ابنه[٢] أحمد، فقام مُقام أبيه، وجرى على قاعدته، وبثّ الدُّعاة، واستدعى رجلاً من أهل الكوفة يقال له أبو الحسين رستم بن الكرخيين بن حوشب بن زادان النجار؛ وكان هذا الرجل من الإماميّة الذين يقولون بإمامة موسى[٣] بن جعفر، فنقله إلى القول بإمامة إسماعيل[٤] بن جعفر. وكانوا يرْصُدون مَن يَرِدُ من المشاهد وينظرون إليهم، فمن كان فيه مطْمَعٌ وجهالة استدعَوْه، ولا يستدعُون إلا الجُهَّال ومَنْ له بأسٌ وجلَد، وعشيرة ومال، وعزّ ومنعة، ويتجنّبون الفقهاء والعُلماء، والأدباء والعقلاء.

وكانوا يطلبون أطراف البلاد، فقال لهم بعض من ورد عليهم: إن بجَيْشان[٥] والمدحرة والْجَنَد[٦] من أرض اليمن رجلاً جَلْداً كثير المال والعشيرة، يتشيّع، وبهذه الناحية شاعرٌ يقال له ابن خيران يسبُّ في شعره أبا بكر وعمر، والمهاجرين والأنصار، على مثل سبيل الحميري الشاعر، فورَدَ ذلك الرّجل المذكور، وهو أبو الخير محمد بن الفضل من أهل جَيْشَان من اليمن، ودخل إلى الحيرة، فرأوه يَبْكي على الْحُسَيْن بن علي، فلما فرغ من زيارته أخذ الدّاعي يدَه وقال له: إنّي رأيت ما كان منك من البكاء والقلق على صاحب هذا القبر، فلو أدْركتَه ما كنتَ تصنع. قال: كنت أجاهد بين يديه، وأجعل خدّي أرضاً يطأ عليها، وأبذل مالي ودمي دونه. فقال له: أتظنّ أنْ ما بقي لله حجّة بعد صاحب هذا القبر؟ قال: بلى، ولكن لا أعرفُه بعينه، قال: فتريده؟ قال: إي

---

(١) سلمية: بفتح أوله وثانيه وسكون الميم: بليدة من أعمال حماه، وكانت من أعمال حمص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

(٢) في الأصل «أبيه»، والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٦.

(٣) هو أبو الحسن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. أحد الأئمة الاثني عشر. توفي سنة ١٨٣ هـ = ٧٩٩ م. ترجمته: في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٠٨، رقم ٧٤٦، والملل والنحل للشهرستاني، ج ١، ص ١٦٨. والأئمة الاثنا عشر لابن طولون، ص ٨٧، وعبر الذهبي، ج ١، ص ٢٨٧.

(٤) هو إسماعيل بن جعفر الصادق، وتنسب إليه الفرقة الإسماعيلية. الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١، ص ١٦٧.

(٥) جيشان: بالفتح ثم السكون. نواحي باليمن: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٠٠.

(٦) الجند: بالفتح ثم السكون: أحد أقسام اليمن الثلاثة في العصر الإسلامي الأول وهو أعظمها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

والله. فسكت عنه الدّاعي. فقال له محمد بن الفضل: ما قلتَ لي هذا القول إلا وأنت عارفٌ به. فسكت الداعي، فقوِيَ ظنّ ابن الفضل أن هذا الرجل يعرف الإمام والحجّة، فألحّ عليه وقال له: اللَّهَ اللَّهَ في أمري، اجْمع بيني وبينه، فإني خرجت إلى الحجّ وجئت إلى هذه الزيارة أريدُ الله تعالى، فسكت الدَّاعي، وازدادت رغبةُ ابن الفضل، فصار يتضرع إليه، ويسأله، ويُقبّل يده. فقال له الدّاعي: اصبر، ولا تَعْجَل، وأقِمْ، فهذا الأمر لا يتمُّ بسرعة، ولا بدَّ له من صبر ومهلة. فقال ابن الفضل لأصحابه ومَنْ كان معه من جيْشان: انصرفوا فلِي بالكوفة شغل، فانصرفوا، وأقام هو واجتمع بالدّاعي، فقال له: ما عملْتَ في حاجتي؟ فقال: انتظرني حتى أعود إليك، فانصرف عنه ومضى إلى أحمد بن القدّاح وعرّفه حال ابن الفضل وحرْصَه على لقاء الحجَّة وإمام الزمان، وبقي الدّاعي يَرْقُبُه ويراه لا يكاد يبرح من المسجد من غير أن يعلم ابن الفضل به، فلمّا كان بعد أربعين يوماً أتاه إلى المسجد وهو جالس، فقال له: أنتَ بَعْدُها هنا؟ فقال: نعمْ؛ ولولا تحثّني لأقمت في هذا المسجد إلى أن أموت. فعلم الدّاعي أنه قد قصده، فأخذه وجمع بينه وبين أحمد بن عبد الله بن ميمون.

وحكى الشريف أبو الحسين محمد بن علي بن الحسيني في كتابه الّذي صرّح فيه فنفى هؤلاء عن النّسب إلى الحسين بن عليّ، رضي الله عنهما، واستدلّ على ذلك بأدلة يطول شرحها ـ أنّ أحمد بْنَ عبد الله بن ميمون لـمّا قام بالأمر بعد أبيه عبد الله بعث الحسين الأهوازي[1] من سَلَمْيَة داعيةً إل العراق، فلمّا انتهى إلى سواد الكوفة لقي حَمْدَانَ بن الأشعث، وهو قَرْمَط الذي يُنْسَب إلى القرامطة، فصحبه، واتبعه قرمط، وتابعه كثير من النّاس. فلما مات الأهوازي أسند الأمر من بعده إلى حمدان بن الأشعث، قرمط، وقد ذكرنا هذه القصّة في أخبار القرامطة.

نرجع إلى قول ابن شداد. قال: وكان أحمد يقول للحسن بن حَوْشب الكوفي النّجار: يا أبا القاسم هل لك في غُرْبَةٍ في الله؟ فيقول: الأمر إليك يا مولاي، فلمّا اجتمع بابن الفضل قال له: قد جاء ما كنتَ تريدُ يا أبا القاسم، هذا رجلٌ من أهل اليمن، وهو عظيم الشأن، كثير المال، ومن الشيعة، قد أمكنك ما تريد، وثَمَّ خَلْقٌ من الشيعة، فاخرج وعَرّفهم أنك رسُول المهديّ، وأنه في هذا الزّمان يظهر في اليمن. واجمعْ المال والرّجال، والزَم الصوم والصّلاة والتقشف، واعمل بالظاهر ولا تظهر الباطن، وقل لِكلّ شيءٍ باطنٌ، وإنْ ورد عليك شيء لا تعلمُه فقل لهذا مَنْ يعلمه، وليس هذا وقت ذكره. وجَمَع بينه وبين ابن الفضل، وخرجا جميعاً إلى أرض اليمن.

---

(١) في الأصل: «إلى هواري» والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٦.

ونزل ابن حَوشب بعدن، وكان فيها قومٌ من الشيعة يعرفون ببني موسى، وخَبَرُهم عند ابن ميمون، فنزل ابن حَوشب بالقُربِ منهم، وأخذ في بيع ما معه من القماش، ولزم الزّهد والتقشف. فقصده بنو موسى وقالوا له: فيما جئت؟ قال: للتجارة. قالوا: لستَ بتاجر، وإنما أنت رسول المهديّ، وقد بلغنا خبرك. وعرّفوه بأنفسهم، فأظهر أمره عليهم، وسار إلى عدن لاَعَة[1]. وسار ابن الفضل إلى بلده. ولما وصل ابن حَوشب إلى عدن لاَعَة قوّى عزائمهم وقرّب أمرَ المهديِّ عليهم، وأنه من عندهم يخرج، وأمرهم بالاستكثار من الخيل والسلاح.

ولم يزل أمرُ ابن حَوشب يقْوَى وأخبارُه ترد على مَنْ بالكوفة من الإمامية وطبقات الشيعة، فيُبادرون إليه، ويقول بعضهم لبعض: دارَ الهجرة، فكبر عددُهم واشتدَّ بأسُهم، وأغار على من جاوره ونهب وسبى، وجبى الأموال، وأنفذَ إلى مَنْ بالكوفة من ولد عبد الله القدّاح أموالاً عظيمة، وهدايا وطُرَفاً، وكذلك لابن الفضل.

وكانوا نفذوا إلى المغرب رجلين، أحدهما يعرف بالحلواني والآخر بأبي سفيان[2]، وتقدّموا إليهما بالوصول إلى أقاصي المغرب، والبعد عن المدن والمنابر، وقالوا لهما: ينْزلُ كلُّ واحدٍ منكما بعيداً من الآخر، وقُولاَ: لكلِّ شيء باطن، ونحن فقد قيل لنا اذهبا فالمغرب أرض بُور فاحْرُثاها واكْرُباها حتى يأتيَ صاحب البذر، فنزل أحدهما بأرض كُتامة[3] بمدينة مرمجنة[4] والآخر سوق[5] حمار، فمالت قلوب أهل تلك النّواحي إليهما، وصار يحملان التّحف التي تُحمل إليهما إلى ابن القدّاح، ثم ماتا على قُرْبٍ بينهما بعد أن أقاما سنين كثيرة.

فقال ابن حَوشب لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن زكريا الشيعي، وكان قد هاجر إليه، يا أبا عبد الله أرض كتامة من المغرب قَدْ حرثها الحلواني وأبُو سفيان وقد ماتا، وليس لها غيرُك، فبادر إليها فإنها موطأة ممهدة لك، فخرج أبو عبد الله وأخرج ابنُ حَوشب معه عبدَ الله بن أبي ملاحف، وأمدّه بمال، وأوصاه بما يعمل وكيف يحتال.

---

(١) عدن لاعة: قرية قرب مدينة لاعة في جبل صبر باليمن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٧.

(٢) هما أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد وأخوه العباس محمد بن أحمد بن محمد. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٦.

(٣) في الأصل: «كنانة» والتصحيح في ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٧٣ وكُتامة بلاد بالمغرب.

(٤) مرمجنة: مرماجنّة: بالفتح ثم السكون: قرية بإفريقية (تونس) لقبيلة هوارة من البربر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٠٩.

(٥) هكذا في الأصل، وفي الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٣١. وسوق حماد في اتعاظ الحنفا: «سوجمار» وفي افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٢٩.

وكان أبو[١] عبد الله قد شاهد أفعال ابن حَوشب وعرف تدبيره، فسار إلى مكة، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وأما أحمد بنُ عبد الله بن ميمون فإنه لما قوي أمره، وكثرت أمواله، ادّعى أنه من ولد عقيل بن أبي طالب، وهم مع هذا يستُرون أمرهم، ويُخفون أشخاصهم، ويُغيِّرون أسماءهم وأسماءَ دُعاتهم، ويتنقلون في الأماكن. ثم مات أحمد فخلفه محمّد. وكان لمحمد ولدَان، أحمد والحسين، فمات أحمد وصار الحسين إلى سلمية وله بها أموال من ودائع جدّه عبد الله القدَّاح، ووكلاء، وأتباع، وغلمان. وبقي ببغداد من أولاد القدّاح أو الشلغلغ[٢]، وهو محمد بن أحمد بن عبد الله بن ميمون بن ديصان، وهو مؤدب بآداب الملوك.

وكان الذي بسلمية يدّعي أنه الوصيّ وصاحب الأمر دون بني القدّاح، ويكاتب الدّعاة، ويراسلونه من اليمن، والمغرب، والكوفة. واتفق أنه جرى بحضرته بسلمية حديث النّساء فوصفوا امرأةَ رجلٍ يهودي حداد مات عنها زوجها، وأنها في غاية الجمال، فقال لبعضٍ وكلائه: زوِّجني بها، فقال إنها فقيرة ولها ولد، فقال: ما علينا من الفقر، زوّجني بها فأَرْغِبْها وأبذل لها ما شاءَت، فتزوَّجها وأحبّها، وحَسُن موقعُها عنده، وكان ابنُها يماثلها في الجمال، فأحبّه وأدبه وعلّمه، وأقام له الخدم والأصحاب فتعلّم الغلام، وصارت له نفس كبيرة وهمّة عظيمة.

فمن العلماء من أهل الدّعوة من يقول: إن الإمام الذي كان بسلمية من ولد القدّاح مات ولم يكن له وَلَد، فعَهِد إلى ابن اليهودي الحدّاد، وهو عبيد الله الذي نُعِت بالمهديّ، وأنه عرَّفه أسرار الدّعوة من قولٍ وفعلٍ؛ وأعطاه الأموال، وتقدّم إلى أصحابه ووكلائه بطاعته، وخدمته ومعونته، وعرّفهم أنه الإمام والوصيّ، وزوجه ابنة عمّه أبي الشلغلغ.

هذا قول ابن القاسم الأبيض العلوي وغيره من العلماء بهذه الدعوة.

وبعضُ الناس، وهم قليل، يقولون إن عبيد الله هذا، المنعوت بالمهديّ، من وَلَد القدّاح.

ومنهم من يقول فيه قولاً آخر، نذكر إن شاء الله عزّ وجلّ.

فهذا ما حكي في ابتداء أمرهم، فلنذكر أخبار الشيعيّ ببلاد المغرب، والله أعلم.

---

(١) في الأصل: «ابن عبد الله».

(٢) «الشلعلع»: في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٦.

ذكر أخبار أبي عبد الله الشّيعي[(١)] داعي المغرب وما كان من أمره وكيف ظهر وما فتحه من بلاد المغرب

قال أبو إسحاق إبراهيم[(٢)] بن القاسم الكاتب المعروف بابن الرّقيق، في تاريخ إفريقية، وغيرُ ابن الرّقيق ممَّن ذكر أخبار هذه الدّولة[(٣)]: كان أبو عبد الله الشيعي من أهل الكوفة، وقيل من أهل صنعاء، واسمه الحسين بن أحمد بن محمّد بن زكريّا، فاتصل بالذي يدّعي أنه الإمام، وهو ابن القدح الّذي ذكرناه المختلف في نسبه، فأرسله إلى أبي القاسم الحسن بن حَوشب[(٤)] الكوفي النجار، وهو المعروف بالصَّناديقي، داعيتهم باليمن وكتب إليه أن ينصره ويرشده، وقال لأبي عبد الله: امتثل سيرته، وانظر[(٥)] إلى مخارج أفعاله فاعمل بها، ثم اذهب إلى المغرب، فخرج حتى انتهى إلى أبي القاسم، فأنزله وأكرمه، وأقام عنده من وقت انصراف الحَاجِّ من مكة إلى اليمن إلى وقت خروجهم في العام المقبل، فخرج أبو عبد الله مع الحاجّ إلى مكة.

فلما قضى الناس حجّهم واستقرُّوا بمِنًى جعل الشّيعي يمشي بمِنًى وينظر إلى الناس، فمرّ بجماعة من كتامة وهم في رحالهم، وكانوا من الشّيعة الّذين تشيّعوا بسبب الحلواني وفيهم حُرَيْث الجِيمِلِي وموسى بن وجاد[(٦)] فسمعهما الشيعي يذكرَانِ لأصحابهما فضائل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فجلس إليهما وذكر من ذلك شيئاً، وأقبل على القوم وحدَّثهم طويلاً، ثم نهض ليقوم فقاموا معه، ومشَوْا بمشيه، وعرفوا مكانه. ثم أتَوْا من الغد فأوسَعَ لهم في الحديث، فزادهم ذلك فيه رغبةً، وعليه إقبالاً. ثم صحبهم في طُول الطريق بعد انصرافهم من الحج إلى أنْ وصلوا إلى مصر، وهم يُبالغون في خدمته، ويرحلون برحيله، وينزلون بنُزوله، وهو يسألُهُم عن بلادهم في خلال ذلك، وعن طاعتهم لملوكهم، فيقولون ما علينا طاعةٌ لهم، وهو لا يُعَرّض لهم

---

(١) «الشعبي» في الأصل. انظر ترجمة الشيعي في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٢، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم القروي الكاتب القيرواني الملقب بابني الرقيق. توفي سنة ٣٨٣ هـ/ ٩٩٢ م. وله تاريخ القيروان. إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين، ج ١، ص ٧.

(٣) اعتمد النويري في هذا الجزء على كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان ولكنه لجأ إلى الاختصار أحياناً، وأحياناً إلى نقل صفحات متتالية. وكتاب افتتاح الدعوة نشر في بيروت سنة ١٩٧٠ تحقيق وداد القاضي وبعنوان رسالة افتتاح الدعوة، ثم نشر في تونس سنة ١٩٧٥.

(٤) «إلى أبي القاسم رستم بن الحسن»: في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٥٥.

(٥) في الأصل: «وانتظر» والتصحيح وارد من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣٠.

(٦) في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان: «وموسى بن مكارم» ص ٣٤.

بقَصْده ولا رغبته في بلادهم. فلما أتَوْا مصر أظهر أنه يُريد الإقامة بها، فتألَّموا لفراقه، وقالوا: ما الذي تقصد بمُقامِك مصر؟ قال: التعليم. فسألوه أن يصحبهم إلى بلادهم وأنهم يوجِبُون له على أنفسهم أجرةً في كلّ سنة، وما أَوْجَب. ولم يُجبهم إجابةً كلّية، ورغبتُهم كلَّ يوم تزيد فيه، فأجابهم إلى الخروج معهم، ففرحوا بذلك واستبشروا، وجعلوا يزيدون في بِرِّه، ويقولون له: عندنا كثيرٌ من إخوانك ومَنْ يذهبُ إلى مذهبك، ولو رأوْكَ ما رضُوك إلاّ إلى شيوخهم، فضلاً عن صبيانهم؛ ولسنا نخلِّيك للتعليم بل نُعدُّك لما هو أعظم منه.

فلما عزم على المسير معهم جمعُوا له دنانير وأتوْه بها، فامتنع مِنْ قبولها، وقال: لم يكن مني ما يوجب ذلك، فعظُم في أنفسهم، وزادت هيبته في صدورهم، وخرجُوا به من مصر، وساروا حتى إذا كان بسوجمار[1] من أرض سماتة، تلقاهم رجالٌ من الشيعة، فأخبروهم بخبر الشّيعي، ونظروا إلى تعظيم الكتاميين له؛ فرغب كلُّ واحدٍ منهم أن يكون نزولهُ عنده، حتى رَموْا عليه السهام، فخرج سهم أبي عبد الله الأندلسيّ فنزل عنده، ونزل كل واحد على صاحبه. وأصاب أبو عبد الله عندهم من علم الشيعة أصلاً قويًّا، فزادَ في الكلام معهم، فأجَلُّوه.

ثم سار القوم فدخلوا كتامة يوم الخميس النّصف من شهر ربيع الأول سنة ثمانين ومائتين، ومعهم أبو عبد الله الأندلسي وأبو القاسم الوَرْفَجُومي، فأراد كلُّ واحد من الكتاميين نزول الشِّيعِيّ عنده، وتنازعوا في ذلك حتى خيّروه في النزول، فقال: أيّ موضع عندكم فجّ الأخيار؟ فقالوا: عند بني سكتان فقال: فإيّاهُ نقصد، ثُم نأتي كلَّ قومٍ منكم في موضعهم. ونزورهم في بيوتهم، ولا نجعل لأَحدٍ منكم حظًّا من نفسي دون أحد إن شاء الله تعالى، فأرضاهم كلَّهم بذلك، وسار كلُّ قوم إلى جهتهم، وسار الشّيعي مع موسى بن حريث وأبي القاسم الورفجومي وأبي عبد الله الأندلسي إلى إيكجان[2] موضع موسى من بني سكتان. قال: ولما نزل عبد الله بإيكان ومضى كل معه من الحجيج إلى مرافقهم أخبروا من قدموا عليه من أصحابهم بخبَرْ، ووصفوه لهم مع النّاس، فتسامع النّاس به، وأقبلوا إليه من كل ناحية؛ فكان يجلس لهم ويحدثهم [بظاهر][3] فضائل علي رضي الله عنه.

---

(١) ذكرت من قبل على أنها سوق حمار. والتصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٤٠.

(٢) إيكجان: انكجان: بالياء أو النون من بلاد كتامة بالمغرب سماها أبو عبد الله الشيعي دار الهجرة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٧٣. في الكامل لابن الأثير: «وسار إلى جبل يقال له إنكجان وفيه فج الأخيار»، ج ٨، ص ٣٣.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من افتتاح الدعوة، ص ٤٩ ليستقيم المعنى.

قال: فاتصل خبر الشيعي بإبراهيم[١] بن أحمد صاحب إفريقية، فكتب إلى مُوسى ابن عَيّاش[٢] يسأل عن خبره فضعَّف موسى أمره فكتب إليه ثانياً وأرسل ابن المعتصم المنجم؛ وأمر إبراهيم بنُ أحمد موسى بْن عيّاش أن يتلطَّف في اتصاله إلى أبي عبد الله، وأن يختبر أحواله، ويأتيَه بصحيح خبره، وأوصاه بوصايَا أمره أن يذكرها له.

فلمّا وصل إلى موسى أرسل إلى بني سكتان يخبرهم أن إبراهيم قد بعث برجل إلى أبي عبد الله ليجتمع به. فرُفع ذلك إلى أبي عبد الله، فأذن له. فلمّا انتهى إليه قرّبه وأقبل عليه، فقال له ابن المعتصم: إن الأمير إبراهيم بن أحمد وجّهني إليك برسالة، فإن أذِنْتَ لي أدَّيتُها. فقال له: أدِّ رسالتك قال: وأنا آمن؟ قال: نعم. فقال: يقول لك الأمير: ما حَمَلَك على التعرُّض لسخطي، والوثوب في ملكي، وإفساد رعيّتي، والخروج عَلَيَّ؛ فإن كنت تبتغي عَرَضاً من أعراض الدنيا فإنّك تجدُه عندي، وإن أنت تلافَيْت أمرك، ورجعت عن غيّك، فَصِرْ إليَّ وأنت آمن؛ فإن أردتَ المقام ببلدنا أقمت، وإن أحببت الانصرافَ انصرفت. وإن كان قصدُك قصْدَ من سَوّلت له نفسُه الخلاف على الأئمة، واستفْسَادَ جَهَلَة الأمة، فلقد عرفتَ عواقب من تُمنِّيه نفسُه أُمنيتك، وسوّلت له ما سوّلت لك، من الهلاكِ العاجل، قبل سوء المصير في الآجل. ولا يَغُرَّنَّكَ ما رأيتَ من إقبال هؤلاء الأوباش عليك، واتّباعهم إياك، فإني لو صرفت وجهي إليك لأَسْلَمُوك، وتبرّؤوا منك. واعلم أني إنّما أردت الإعذار إليك، لاستظهار الحجّة عليك، وهذا أوّل كلامي[٣] وآخره، لا أقبل لك بعد هذا توبة، ولا أقيلُك عثرة، ولا أجعل جواب ما يمكن منك إلا النُّهوض إليك بنفسي، وجميع أبطالِ رجالي، وأنصار دولتي، وجملة أهل[٤] مملكتي فعند [ذلك][٥] تندم حين لا ينفعُك النّدم، ولا تقبلُ منك التّوبة. فانظر في يومك لغدك، وقد أعذر إليك من[٦] أنذر.

فقال له أبو عبد الله الشيعي: قد قُلت فاسْمَعْ، وبلّغْت فابْلَغ: ما أنا ممّن يُروَّع بالإيعاد، ولا ممّن يَهُوله الإبراق والإرعاد. فأما تحويفُك إيايّ برجال مملكتك، وأنصار

---

(١) هو إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب: من أمراء الأغالبة أصحاب إفريقيا (٢٣٧ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٥٢ ـ ٩٠٢ م). الزركلي: الأعلام، / ١، ص ٢٨. وانظر أيضاً: تاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ٤٦.

(٢) «موسى بن العباس»: في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٥٤.

(٣) في الأصل: «كلامك» والتصحيح في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان ص ٥٧.

(٤) في الأصل: «أهل علي»، وما أثبتناه في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٥٧.

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٥٧.

(٦) انظر افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٥٦ ـ ٥٧ حيث نقل النص بتصرف.

دولتك، أبناءِ حطام الدّنيا، الّذين يقتادون لكل سائق، ويجيبون كلّ داع وناعق، فإني في أنصار الدّين، وحُماة المؤمنين، الذين لا تروعهم كثرة أنصار الباطل[١]، مع قول الله تعالى، وهو أصدق القائلين: ﴿...كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. فأمّا ما أطْمَعَ به من دُنياه وعَرَضَه من زَبَدِها وحُطامها، فلستُ من أهل الطّمع فأميل إليه، ولا ممن يرغب فيما عنده فيأتيه. وإنما بعثت[٢] رسولاً لأمرٍ قد حمّ وقرب، فإن سوّلت له نفسه ما وعد به، ودعته[٣] إليه، فسوف يعلم أنّ الله عز وجل من ورائه ولن تغني عنه فئةٌ شيئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِين[٤] فهذا جوابُ ما جئت به، فبلّغه إن شاء الله.

قال[٥]: ولما اشتهر أمرُ الشّيعي ببلد كتامة، ونظر رؤساء القبائل وولاة البلدان فلم يَرَوْا في إبراهيم بن أحمد نهضة في أمر، وخافوا على زوال الرئاسة من أيديهم، وتقديم مَنْ يُسارع إلى أمرِه عليهم، ممّن كانوا يَرَوْنه دُونهم، كتب بعضُهم إلى بعض في ذلك، فاجتمعوا وتعاقدوا. وكان ممن سعى في ذلك موسى بن عياش صاحب مِيلَة[٦]، وعلي بن عسلوجة صاحب سَطِيف[٧] وحي بن تميم صاحب بلزمة[٨] وكلُّ هؤلاء أمراء هذه المدن، وعندهم العِدّة والعُدّة والأموال الكثيرة والنّجدة، والقوّة، ومن مُقَدَّمي كتامة وكبارِهم ووُلاةِ أمورهم: فتح بن يحيى المشالي[٩]، وكان يقال له الأمير، ومهدي بن كنارة[١٠]، رئيس لهيصة، وقرح بن خيران[١١] رئيس أجّانه، وثميل بن فحل[١٢] رئيس لطاية، واستعملوا آراءهم في أخذ الشّيعي فعلموا، أنهم لا يقدرون عليه عنوةً من أيدي

---

(١) «أنصار الظالمين»: في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٥٧.

(٢) «يبعث»: في الأصل، والتصحيح من افتتاح الدعوة اللقاضي النعمان ص ٥٨.

(٣) في الأصل: «وعدته» وما أثبتناه من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٥٨.

(٤) الجملة مقتبسة من الآية ١٩ من سورة الأنفال: ﴿...وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٥) المَقصود هو القاضي النعمان مؤلف كتاب افتتاح الدعوة الذي يأخذ عنه النويري.

(٦) ميلة: مدينة صغيرة بأقصى إقليم إفريقيا (تونس) بالقرب من قسطنطينية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٤٤.

(٧) سطيف: مدينة صغيرة في كتامة بين تاهرت والقيروان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٢٠.

(٨) بلزمة: مدينة صغيرة قرب بحيرة بادغوس البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص ٥٠.

(٩) «المسالتي» في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٨٠.

(١٠) «كناوة» في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٨٠.

(١١) «بن جيران» في افتتاح الدعوة، ص ٨٠.

(١٢) «وتميم بن فحل» في افتتاح الدعوة، ص ٨٠.

بني سكتان لأنّهم يمنعونه، ويجتمع عليهم جيملة وغيرها من قبائل كتامة، فتفرّق ذات البين، ويكون ذلك داعيةً إلى أن يجعلوا له أنصاراً، وتصير كتامة فريقين، ولم يأمنوا سوء العواقب، فقصدوا بنان[1] بن صقلان، وهو من وُجوه بني سكتان، ولم يكُن له يومئذٍ دخْلٌ في أمر الشيعيّ، وأرسلوا جماعةً منهم إليه، وبعثوا له أربعة أفراسٍ وأغْنُماً، وهديّة، وقالوا له: إن هذا الرجل قد بدّل الدّين، وفرّق الجماعة، وشتّتَ الكلمة، وأدخل الاختلاف بين الأقارب وقد قصدناك في أمْرِه، وأمْلَكناك في قطع هذا المكرُوه بأنْ تقبضَ على الشيعيّ وتخرجه من بلدنا، وتنفيَه عنّا إنْ كرهت قتله، ونجعل لك بعد ذلك التَّقْدمة على جميع كتامة والعرب، فيكون لك شرف الدنيا وفخرها، ثواب الآخرة وأجرها، وتزيل عن أهل بيتك مكروهاً، وتقطع عنهم شرًّا. وأخذوا معه في ذلك وحذّروه عواقب السلطنة.

فقال لهم بنان: هذا رجلٌ صار بين أظْهُرنا، وهو ضيفٌ عندنا، كيف ينبغي أن نفعل فيه مثل هذا الفعل، فتنازعُوا في ذلك طويلاً، وكان آخر خطاب بنان لهم أنْ قال: الرأي أن نَجمع العلماء إليه فيناظرهم، فإن كان على حقٍّ فما أولانَا وإيّاكُم بنُصرته واتّباعه، وإن كان على باطلٍ عرَّفْنا من اتّبعه أنْ يرجعوا عنه.

فانصرفوا إلى أصحابهم وأخبروهم بما كان من بنان، فخافوا أن تقوم حُجّته، ويستحكم أمره، فتزول رئاستُهم بسببه. فأجمعوا على أن يَمضوا في جماعة ويُظهروا أنهم أتَوْا بالعلماء، فإذا خرج إليهم قتلوه، وانصرفوا على حميّة.

فاجتمعوا في عددٍ عظيم الخيل والرَّجْل؛ فلمّا رآهم بنو سكتان ركبوا خيولهم؛ والتقى الجمعان. فقالوا لبنان إنما أتَيْنَاك لِمَا كان بيْننا وبينك. فقال: إنّما كان بيننا أن تأتُوا بالعلماء، وقد أتيتم بالزّحف والعُدَّة، وعَلاَ الكلامُ بينهمْ، فالتحم القتال، وتداعت جيْمَلَة من كلّ مكان؛ فانهزم القوم، وانصرف عنهم بنو سكتان. وكان الشيعيّ قدْ سُيِّر في مبادىء هذا الأمر، وخاف عليه أصحابه.

ثم راسل الجماعة بناناً مرّةً ثانية، وقالوا: قد كُنّا أخطأنا فيما أتَيْنا به من الجمع، ولم يكن ذلك عن قصد، ولكن تسامَعَ النّاسُ بنا فتبعونا. وقد رجَوْناك لإصلاح جَماعتنا، وقدَّمناك، واخترناك لأنفسنا، لتحْقِنَ دِماءنا، وتجمع ما تبدَّد من شملنا، فقد عَادَى من أجل هذا الرَّجُل الأخُ أخَاه، والابنُ أباه، والقريبُ قريبه؛ وهذه فتنةٌ قد بَدَتْ، ورِدَّةٌ قد ظهرت. وهذا الرجل من أهل المشرق، وهُمْ كما علمت شياطين، وعُلماؤُنا

---

(١) «بيان بن صقلان» في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٨٠.

بَرْبر، وقومٌ ليست لهم تلك الأذهان؛ فإنهم [إنْ][(١)] ناظرُوه يظهر عليهم ولم يجدُوا حجّة. يحتجون بها عليه. وقالوا له: أتُرى نحن وآباؤنا والنَّاسُ كلُّهم في ضَلاَلة، وهذا وحدَه على الحقّ والهُدَى. وكرَّرُوا عليه ما وعدُوه به من التَّقْدِمة عليهم؛ فأصغى إليهم وَوَعَدَهم أن يتلطَّفَ في إخراجه. فجعل يتكلم في ذلك ويحجّ على أهل بيته، ويخوّفهم العواقب؛ فاتصل كلام بنان بالشيعيّ فانتقل عنهم.

ذكر انتقال أبي عبد الله الشّيعي عنْ بني سكتان إلى بني عصمة بتازرارت[(٢)]

قال: واتّصل هذا الخبرُ بالحسن بن هارون العصمي[(٣)]، وكان قد دخل في هذا الأمر، وهو معروفٌ بالأدب وكثرة النّعمة، وهو مطاع في قومه، فأتى الشّيعي ورغب إليه في الانتقال إلى مكانه، وَوَعَده بالذَّبِّ[(٤)] عنه، والمدافعة بنفسه وأهله وماله؛ وذكر ذلك لأصحابه فأشاروا عليه به، وعظم ذلك على بني سكتان وكرهوه، وقالوا له: نحن ندافع عنك بأنفسنا حتى نُقتَل كلُّنا دونك. فشكر قولهم، وانتقل إلى الحسن ابن هارون إلى تازرارت فتلقاه مَنْ بها من أصحابه وغيرهم. وقام[(٥)] العصميون[(٦)] بما احتاج إليه الشيعيُّ وأصحابُه، وقاسموه أموالهم. وأقبل أصحابُ الشيعي من كلّ ناحيةٍ، وكلٌّ منهم يأتي بما يملكه، ويبذُلُه بين يديه. فاجتمع أمره، وامتنع جانبُه، واجتمعت عصمان على نُصْرَته، وخلقٌ كثيرٌ من قبائل كتامة، وندم بنان بن صقلان على ما كان منه في حقه، وعَظُم شأنُ الحسن بن هارون بفعله.

وكان للحسن أخ هو أَسَنُّ منه، اسمه محمود، فوَجَد في نفسه من ذلك، وكان قبلَ ذلك مُقْدِماً على أخيه لسِنّه، وكان أيضاً مُطاعاً في أهل بيته، فنَكَلَ، بذلك، وفشا[(٧)] عنه

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة تتفق والسياق. «وإن ناظروه ظهر عليهم». في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٨٠.

(٢) «تازررت» في الأصل، والتصحيح من المغرب في ذكر بلاد إفريقيا للبكري ص ١٦١. وتازرارت تقع قرب جبل درن الذي يعترض الصحراء متصلاً بجبل نفوسة وجبل أوراس. البكري: المغرب، ص ١٦٠ ـ ١٦١، وهي تازروت في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٨٧.

(٣) في افتتاح الدعوة «العشمي». القاضي النعمان، ص ٨٧ ـ ٨٨.

(٤) الذّب: الدفاع. ابن منظور: لسان العرب (ذبّ).

(٥) في الأصل: «أقام» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٦) «وقام الغشمانيون» في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٨٨ ـ ٨٩.

(٧) «فشق ذلك عليه، وتكلم به، وفشا عنه» في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٨٩ ـ ٩٠.

هذا والحسن يُدَاريه ويستَعطِفُه، خوفاً من أن يفترق جماعةُ عصمان.

فلمّا صار أمر الشيعيّ، بتازرارت إلى ما صار إليه وانتهى ذلك إلى القوم الّذين كانوا تعاقدوا عليه أولاً، فسقط في أيديهم، وعظم أمره عليهم، فرجوا أن يصلوا من محمود بن هارون إلى ما يريدونه من أمر الشّيعي. فاجتمعوا إلى مهدي بن أبي كتامة اللهيمي[١]، فذكروا له ما بلغهم عن محمود، وقالوا له: هذا جارُك وصديقُك، فلعلَّك أن تستميله فتُفَرِّقَ به جماعةَ عصمان، فيمكننا ما تريد.

فركب مهدي إلى محمود، وذكر له اجتماعُ وجوه كتامةَ وأنهم أرسلوه إليه وقالوا إنّه قد أجحف أخوك بنفسه وأهلِ بيته وجاء إلى عصمان ببَلِيَّة قد تَعَافَى منها بنو سكتان، وتخلَّصوا من شَرِّها وجعل يخوفه من سوء العواقب، ووعده عنهم[٢] بالتَّقْدِمة على أنفسهم. فاستمالَهُ بذلك مع ما داخله[٣] من الحسد لأخيه والغَيْرَة منه.

فقال: القولُ في ذلك ما قُلتَ، ولكنَّه قد تمكَّن وقَوِي وَكَثُرت أتباعُه، وليس هو الآن كما كان في بني سكتان، وقد أجابته عصمان وكثيرٌ من عامَّة كتامة، فهم يقاتلُون دونه؛ فمتى دعوتُ من يطيعني من عصمان إلى أخْذِه صرنا فريقين، وأهلَكَ بعضُنا بعضاً، وما أرى في أمره إلاَّ ما رأى لي بنان[٤]: أنْ يأتي بالعلماء إليه فيناظروه، فإن قامت حجّتُهم عليه وجدنا السّبيل إليه، وإن كانت الأخرى دبَّرنا رأياً آخر إن شاء الله تعالى.

وانصرف مهدي إلى القوم فأخبرهم. فقالوا: من الذي يُناظرُه من عُلمائنا وأنت تَرى الواحدَ من جُهَّالنا إذا دخل في أمره ناظرهم فقطعهم، فكيْفَ به فقال: قد رأيتُ من محمود شهوةً في قتله ومال إلى ما وعدناهُ به من التّقدِمة، مع ما داخَله من الحسد لأخيه؛ ولم أجد عنده غيرَ ما فارقتُه عليه. وما علينا أن نَأتِيَ بالعلماء فإذا هُم أخرجُوه وقعنا[٥] عليه أسْيَافنا فقتلناه، ويكون بعدُ ما عساه أن يكون. فأرسَلُوا في طلب العلماء من كلِّ ناحيةٍ، وقالوا لا نأتيه في احتفال كما فعلنا ببني سكتان.

واتصل الخبر بالحسن بن هارون، وبالشّيعيّ، فقال لهم لِيَجْتمِعْ جماعةُ عصمان إلى محمود فيلاطفوه ويذكرُوا له ما اتصل بهم، ويُحَذِّرُوه الْعَارَ، والنَّقص، وسُوءَ

---

(١) «مهدي بن كناوة اللهيصي» في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٩٠.

(٢) «ووعدهم عنه»: في الأصل، والتصحيح يقتضيه سياق الكلام وجاء في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٩١، و«يعده عنهم».

(٣) «ما دخله»: في الأصل، والتصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٩١.

(٤) «إلا ما رآه بيان» في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٩١.

(٥) في الأصل «وضعنا» أما في التصحيح فجاء في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٩٠.

العواقب، ويقدِّمُوه على أنفسهم، ويعظّموه، ويرفعُوا من شأنه. ففعلوا ذلك؛ ووافاه أخوه الحسن وجماعةُ عصمان، وقالوا: نحن أهلُ بيتك وعشيرتك وأنت أميرُنا ومقدَّمنا، وهذا الرّجُل ضيفُك وضيفُنا، وقد رأيتَ ما لحق ببني سكتان من النَّقْض في إخراجه، وأنّهم نَدِمُوا عليه، وأن بنانا حاول رَدّهُ إليه ليصلح ما أفسده على نفسه، فلم يجبه إلى ذلك. فلا تجعَلْ علينا عاراً ولا نقصاً. وحلَفُوا له وقدَّموه على أنفسهم فمال إليهم.

فلما علم محمود أن أولئك القوم قَرُبوا من تازرارت ركب في جماعةٍ وأركب الشِّيعيُّ أصحابَه معه وقال لهم: إن قَدَرْتم أن تلحموا الحرب[1] فافعلوا. فلمّا التَقوْا قالوا لمحمود: هؤلاء العلماءُ قد جئنا بهم؛ وعزلوهم ناحية: فقال لَهُم محمود: انصرفُوا ودعُوهمْ عندنا حتى نجمعَ بينهم وبين الرّجل، مع عشرة رجالٍ مِن وُجُوهِكم وخياركم، في مجلسٍ، فننظر ما يكون بينهم، فانحَلَّ ما عقَدُوه. فقالوا: وما عليكم أن تُخرِجُوه إلى ها هنا ونشهد ما يكونُ منه ومن العلماء، فيكون ذلك أشهرَ وأقْطَعَ للأمر: فقال لهم محمود قد بَلَغنا عنكم أنّكُم عقدتُم أمراً وطمِعتم أن تنزعوا ضيفَنا مِنْ أيدينا بالتَّغلُّب.

فردُّوا عليهم، فحمل عليهم هو وأصحابه، والتحم القتال، وقاتل محمود قتالاً شديداً فجرِح، ثم افترقوا، فمات محمود من جِرَاحه، فسُرّ أَخُوه والشِّيعيُّ بموته، وأظهرُوا الطَّلب بِدَمِهِ، واجتمعت عصمان أَلْباً واحداً وصَحَّت الرئاسةُ للحسن بن هارون وولاّه الشِّيعي أعنّة الخيل، وقَوّدَه وعَوَّدَه على جميع أصحابه.

واشتعلت الحرب بين عصمان ولهيصة بسبب قتل محمود. واجتمع أمراء بلزمه وأكثر القبائل للشِّيعيّ وأظهر نفسه، وكان يشهدُ الحرب ويباشرها. وطالت الحرب بينهم، ثمّ اصطلَحَت لهيصة وعصمان بعد أن قتل مهدي، وانضمُّوا كلهم إلى الشِّيعيّ، واشتدَّ أمرُه، وحاربوا مَنْ بينهم من القبائل، وشنُّوا الغارات على مَن بَعُدَ منهم. وبعث الشيعيّ خيلاً مُغيرةً إلى مزاتة ورئيس مزاتة[2] يومئذٍ يوسف القنطاسي، وكان قدم على إبراهيم بن أحمد فوصله وحيّاه، وكساه، وأعطاه جاريةً؛ فكبستْهُ خيل الشّيعي، وأخذوا جميعَ ما كان له، وسَبَوْا الجارية، وقتلُوا مَنْ قدروا عليه من أصحابه، واختفى هو فنجا، ووصلوا إلى الشِّيعيِّ بالغنيمة فاصطفى الجارِيةَ لنفسه وهي أمّ ولده.

فلما رأت القبائل ظُهور الشّيعي واجتماع لهيصة له، وقتل مهدي، مشى بعضهم إلى بعض، وأرسلوا إلى مزاتة، فاجتمع رأيهم على أن يدخلوا إليه بعِيالاَتِهم ويُحيطوا به من كلّ جانب، فتُسْلِمَه عصمان ولهيصة ومَنْ مَعَهُم ويستأصلوهم. فانتهى الأمر إلى

(١) جاء في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٩٣، «أن تلقحوا الحرب».
(٢) تسكن في نواحي قفصة وقسطيلية. البكري: المغرب، ص ١٤.

الشيعيّ، فجمع أصحابه كلَّهم بتازرارت، وجاءت كتامة من أطرافها وأحاطوا به، فخندق على نفسه، وأشار عليه وُجُوه أصحابه أن يعتزل الحرب وهم يقاتلون. فشكرهم على ذلك، وأبى أن يقبَلَه، ووعدهم النّصر، وحثّهم على القتال، فأخرج كلُّ واحدٍ ما عنده من مالٍ وسلاحٍ وكراعٍ، وتشاوروا فيه، وكمَّلوا عِدّتهم وعُدّتهم، فبلغوا سبعمائة فارس، لا يزيدون ولا ينقصونَ، وألْفَى راجل. والتَقَوْا بعد مراسلةٍ لم تُجْدِ شيئاً واقْتَتَلُوا قتالاً شديداً، ودامَ القتال بينهم ثلاثةَ أيّام، ودام في اليوم الثّالث إلى العصر، وكان الظَّفرُ لأَصحاب الشيعي، وانهزم أولئك، وتبعوهم وقد امتلأت أيدي أصحابه من الغنائم والأموال؛ وتفرّق ذلك الجمع. قال: فبيع الجِمَالُ كُلُّ عشرة بدينارٍ والحمارُ بعشر بصلات، وغنموا من الخيل مَا لا يُحصى[1].

وانصرف الشيعيّ إلى تازرارت وابتنى بها قصراً يسكنه، واتخذها دار مُقامه؛ وأقطعَ أصحابَه دُوراً حَوْل قصره، وارتحل إليه أصحابُه من كلّ ناحية، وابتَنَوْا وسكنُوا، وقَوِي أمرُهم. واستَأْمَنَ إليه كثيرٌ من القبائل؛ وشنّ الغارات، وداوم الحرب، فأقبل النّاس إليه من كل جهة.

ولحق فتح بن يحيى بإفريقية[2] فقدم على أبي العبّاس بن[3] إبراهيم بن أحمد، وهو يومئذٍ بتونس بعد خروج أبيه إبراهيم إلى صقلّية، فوصله وأدناه، وأكرمه، وسأله عن الشّيعيّ، فضَعَّفَ أمره، فقال: أليس قد اجتمعتُم عليه في عساكر عظيمةٍ فلم تَقدروا عليه؛ فقال: ليس أمرُنا من أمرِك في شيء، إنّما نحنُ مُقاتلةٌ بغير رأس، ونقاتل مَنْ يعرفنا من أهل بلدنا، ولو جاءه عسكرٌ من قِبَلك لكانت هيْبَتُه في صدور النّاس. فأطمعه أبو العباس، ثم أمسك عنه.

قال: واستولى الشيعي على جميع بلد كتامة، وظهرت دُعاتُه في كلّ ناحية منها، وغلب عليها؛ وكانت وقائع كثيرة ببلد كتامة.

وأقام بعد انهزام الجمع نحو سنتين وهو يشنّ الغارات، ويَغْنم الأموال، حتّى أجابُوه، وسلّموا الأمر إليه. ولم يبق إلاّ المدينة الحصينة ومَنْ فيها من أمَرائها ومَنْ انضَمّ إليها من القبائل.

---

(١) انظر افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٠٣ ـ ١٠٩.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٠٣ ـ ١٠٩.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١١٤، وهو أبو العباس عبد الله (الثاني) بن إبراهيم (الثاني) الذي ترأس دولة الأغالبة سنة ٢٨٩ هـ. تاريخ الدولة الإسلامية لسليمان، ص ٤٦.

ذكر تغلُّبِ أبي عبد الله الشيعي على مدينة مِيلَة[١]

قال ابن الرقيق: كان سبب ذلك أن قيس بن أبي جرير[٢] من وُجوه أهل مِيلَة، وهم [من][٣] ربيعة وكان رئيسُهم يومئذٍ حسن بن أحمد، فوصل إلى الشيعيّ سراً وأطْلعه على أمْر المدينة، فتقدَّم الشيعيّ إليها وقاتلَ مَنْ بها، وغَلَب على جميع أرضها، فدخل جميعُ مَنْ كان بها إلى الحصن، ثم سألوا الأمان، فأمّنهم مَا لَم يُحدثوا حدثاً، ففتحوا أبواب المدينة ودخلها أصحابُ الشيعي، وخرج إبراهيم بن موسى بن عيّاش مع جماعةٍ منهم في الليل، فهَربُوا إلى إفريقية، إلى أبي العبّاس بن إبراهيم، فأخبرُوه بالخبر، وضعَّفُوا عنده أمر الشيعيّ، وسألوه في إخراجِ عسكر إليه، وضَمِنوا أمره. فأمر بالحشد، وجَمَع وجوه رجاله، وأمّر عليهم ابنه محمّداً المعروف بأبي حوال[٤] فاجتمع لهُ عساكر عظيمة انتقى منْها اثني عشَر ألف فارس. واتَّصل الخبر بالشّيعيّ فاستعدَّ للّقاء.

ذكر الحرب بَين أبي عبد الله الشّيعيّ وبَين أبي حوال محمد بن أبي العباس

قال[٥]: وخرج أبو حوال بالعَسكر الّذي اختاره مِن مَدِينة تونس، في سَنة تسْع وثمانين ومائتين، وكلّ مَنْ مرّ عليه من القبائل، بدأَهمْ بالعَطاء وخلع على وجُوههم، وقصد إلى سَطِيف[٦]، فلم يصلْ إليها حتّى زاد في عسكره مثله. وتلقّاهم بنو عُسْلوجة أصحابُ سطيف[٧]، وبنو تميم أصحابُ بلزمه، ومنْ حولَهم ممّن لم يدْخل في طاعة الشيعيّ، فقتل من وجوههم قتلاً ذريعاً، وانتهب أموالهم، وسَبَى نساءهم وذرارِيهم، وقصَد الشيعي بتازرارت، واتصل به الخبر، فبرز إليه بِمَن معه، والتَقَوْا ببلد بلزمة.

---

(١) ميلة مدينة على أربع مراحل من قلعة حماد. الحميري: الروض المعطار، ص ٥٦٨.

(٢) ورد في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٣٥، «وكان بنو خنزير من وجوه أهل ميلة» وفي الأصل: «أن قيس بن أبي جرير من وجوه أهل ميلة».

(٣) ما بين حاصرتين إضافة أثبتناها من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٣٥.

(٤) في الأصل: «أبي جوال»، والتصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٣٥. في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٣٤. وفيه إشارة إلى أن هذا هو ابن إبراهيم بن أحمد. وهذا تحريف لأن القائد أبو حوال أو الأحول هو حفيد إبراهيم بن أحمد وليس ابنه.

(٥) المقصود القاضي النعمان صاحب كتاب افتتاح الدعوة.

(٦) سطيف: مدينة أو حصن بينها وبين ميلة مرحلة، وهي قديمة أزلية. الحميري: الروض المعطار، ص ٣١٨.

(٧) انظر ذكر تغلب أبي عبد الله الشيعي على مدينة سطيف.

واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الشّيعيّ وأصحابه، واتّبعهم أبو حوال إلى الليل، ثم أصبح فلقُوه واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الشيعيّ ثانيةً إلى تازرارت وجاءهُم ثلج عظيم، فحال بينهم.

ولم ير الشيعيّ أن تازرارت تحصّنهم، فأخذوا ما قَدَرُوا عليه، وانضموا إلى إيكجان. فلمّا ارتفع الثلج تقدَّم أبو حوال إلى تازرارت فأَخْرَبَها وهدَم قصر الشيعي وسار إلى مِيلَة، ثم التقى هو والشّيعيّ واقتتلوا إلى الليل، فانهزم أبو حوال إلى تونس، ورجع الكتاميّون إلى مِيلَة، واعتلَّ الحسنُ بن هارون فمات بإيكجان، وسكنها الشيعيّ وابْتَنَى بها قَصْراً.

وجاء الخبر إلى الشيعيّ بوفاة إبراهيم بن أحمد وأنَّ ابنة أبا العباس ولِيَ الأمرَ بعْدَه[1]، وجلَس في المسجد وردَّ على الناس ظُلامَاتهم، وأنّه يجلسُ على حصير وبين يديه الدِّرَّة، فاغتمَّ لذلك لأن العوامَّ مالت إليه، ثم أتاهُ الخبرُ بقتل أبي العبّاس، وأنّ ابنَه زيادَة الله[2] قتله ووَلِيَ مكانه، وأنه شرب الخمور وارْتَكَبَ المحارم، وعكف عَلى الملاهي، فسرَّه ذلك، وقال لهم: قَدْ زال عنكُمْ ما كنتم تخافونه، وهذا آخرُ ما تُحاربون، وسيصير الأمر إليكم.

قال: ثم خرج أبو حوال بالعساكر ثانيةً قبل وفاة أبيه، فهزمه الشيعيّ واستولى على مِيلَة، وعاد أبو حوال إلى بلاده وقد ملَك زيادةُ الله، فقتله زيادة الله وقتل إخوته، والله أعلم.

ذكر تَغلُّب أبي عبد الله الشيعيّ على مدينة سَطِيف

كانت مدينة سَطِيف لعليّ بن حفْص، المعرُوف بابن عسلوجة، وكان قد زحف مع أبي حوال لقتال الشّيعيّ. فلمّا استَقام أمرُ الشيعيّ وأخذ مِيلَة ذهب بجُموعه إلى سَطيف وأقام عليها أربعين يوماً وهو يقاتله، ثمّ انصرف إلى إيكجان فأقام بها شهراً، وجَمَعَ[3] مَنْ قَدر عليه، وعَاد إلى مدينَة سَطيف فأحاط بها، وقاتلهُ عليّ بن عسلوجة، فهزمهُ الشيعيّ فتحصَّنَ بالمدِينَة. وأقام أيّاماً يُحاصرُه، فمات علي بن عسلوجة، هو وأخوه أبو

---

(١) توفي إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب سنة ٢٨٩ هـ/ ٩٠٢ م. انظر ترجمته في الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ٢٨. وولي بعده ابنه عبد الله أبو العباس أمير تونس والقيروان. وهو الحادي عشر من أمراء الدولة الأغلبية. توفي عام ٣٩٠ هـ/ ٩٠٣ م. الزركلي: الأعلام، ج ٤، ص ٦٣.

(٢) هو عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب، أبو مضر، زيادة الله الثالث، توفي عام ٢٩٦ هـ. انظر أخباره في: الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٢٠، ٢١، و٢٢ وص ٣٥.

(٣) في الأصل: «وجميع» والتصحيح يقتضيه السياق.

حبيب. في أيَّامِ قلائل فاستَوْلى الشيعيّ عليها[١].

ذكر خروج إبراهيم بن حنبش إلى بلد كتامة

قال[٢]: لمّا اتصل بالأمير زيادة الله أخبارُ الشيعيّ، وظهورُه على بلد كتامة، وافتتاحُه مِيلَة، ووصل إلى زيادة الله مِنْ كتامَة من خاف على نفسه، وعرّفوه أنّه إنْ لم يُعاجِل الشيعيّ زاد أمرُهُ، أخذ زيادة الله عند ذلك في الاحتشاد وَزَادَ في العطاء. فاجتمعت له عسَاكر عظيمة، فقدَّم عليها إبراهيم بن حنبش[٣]، فبلغت عدّة مَنْ خرج معه أربعينَ ألفاً، مِنْ فارسٍ وراجلٍ. وأخْرَج معه أموالاً جليلة وسلاحاً كثيراً، وعُدَداً عظيمة، وأمر ببَذل الأموال، وأخرج معه وُجُوه رجاله ومَنْ وصل إليهم من كتامة.

فسار إبراهيم بن حنبش حتى أتى قسطنطينية[٤]، وبينها وبين أيكجان الّتي بها الشيعيّ نحو مَرْحلتين، وأردفه زيادة الله بسديد بن أبي شدّاد[٥]، فاجتمع معه نحو مائة ألف. وأقام بقسطنطينية ستّةَ أشهر لا يتقدّم إليه الشيعي، فلمّا رأى ذلك زحف بعساكره كلِّها، فندب الشيعيّ خيلاً اختارها من كتامة ليختبرُوا بُرُوز حنبش، فأتوه. فلمّا رأى الخيْلَ قصدها بنفسه. هذا والأثقال على الدوابّ؛ فانتشَبَت الحرب، واقتتلوا قتالاً شديداً. واتّصلَ الخبر بأبي عبْد الله الشيعيّ، فزحَفَ بِمَن معه، فوقَعَت الهزيمَة على ابن حنبش وأصحابه، وأسْلموا الأثْقال، وتبعهم أصحابُ الشيعيّ يومَهُم ذلك إلى الليل، ومن الغَد، يقتلُون ويغنَمُون. فقتَلُوا منهم كثيراً وغنمُوا من الأمْوال والأمتعَة والسّلاح والكراع ما لا يُحصى كثرة.

ووصل ابن حنبش إلى باغاية[٦] وكتب كتاباً بخطّه إلى زيادة الله يخبرُه بالخبر. ثم قدِم إلى إفريقية، فاضطربت وماجت بأهلها، وعظُم أمرُ الشيعيّ ثم غلب على مدينة

---

(١) لمزيد من التفصيل راجع كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٦٥ وما بعدها.

(٢) يقصد القاضي النعمان صاحب كتاب افتتاح الدعوة. انظر صفحة ١٦٨ وما بعدها.

(٣) هكذا في الأصل، اختلف رسم اسمه في المصادر. في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٠، رسم اسمه «خَنْتَش». وفي افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٦٨ هو «حبشي»، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٦٢.

(٤) هكذا في الأصل، والكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٠. وافتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٦٨. أما في العبر للذهبي وديوان المبتدأ لابن خلدون، ج ٤، ص ٣٥ فهي «قُسَنْطِيْنَةُ» وما زالت تعرف بالاسم الأخير حتى الآن. وهي مدينة على هضبة صخرية مرتفعة يحيط بها الوادي من جميع الجهات. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٤٩.

(٥) هكذا في الأصل «وشيب بن أبي الشداد» في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٧٠.

(٦) في الأصل: «بالآية» والتصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٧٢.

طُبْنَة[١] ثم على مدينة بلزمة، ثم مدينة تَيْجَس[٢]، ثم مدينة بَاغَاية[٣]، ثم قَفْصَة[٤]، وقَصْطِيلِيَة[٥]، ثم مدينة الأُرْبُس[٦]. وكان له في خلال هذه الفتوحات وقائعُ كثيرة كان آخرُها مع إبراهيم بن أبي الأغلب لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة، سنة ستّ وتسْعين ومائتين، فانهزَم إبراهيم إلى جِهَة القيْروان، واتّبعهُم أصحابُ الشيعيّ يقتُلُون ويغنَمون ويأسرون[٧].

ذكر هرب زيادة الله إلى المشرق

قال[٨]: ولمّا وَصل خبر هذه الهزيمةَ إلى زيادة الله وهو برَقَّادَة[٩]، وكان قد علم أنّه لا يقومُ له أمر إذَا انْهزم إبراهيم، لأنّه آخر ما جمع من الجيوش واستنْفَذَ فيه الوُسْع والطّاقة، فلمّا جاءه خبر الهزيمة أظهر أنّه جاءه الفتحُ، وأرسل إلى السُّجون فأحضرَ رجالاً منها فضرب أعناقهم، وأمر أن يُطافَ برُؤوسهم في القيروان، وأخذ في تجهيز أثقاله، وحَملها وحَمل أموالَه، وأنْذر خاصّته وأهلَ بيته بالخُروج معه، وعرَّفهُمْ بالخبر؛ فأشارَ عليه ابنُ الصّائغ[١٠] بالمُقام، فأبى ذلك، وخرج إلى مصر، كما ذكرنَاه[١١] وأقبل النَّاس في صبيحة يومِ هربِ زيادة الله وانتَهبُوا رقَّادَة. والله أعلم.

---

(١) طُنْبَة: مدينة كبيرة من أعظم بلاد الزاب. الحميري: الروض المعطار، ص ٣٨٧. وياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢١.

(٢) تيجس: مدينة على الطريق من القيروان إلى قسنطينية، مكان عليها سور صخر رومي، البكري: المغرب ص ٦٣.

(٣) باغاية: مدينة بن مجانة وقسنطينة، قرب جبل أوراس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٥. البكري: المغرب ص ٥٠.

(٤) قَفْصة: بالفتح ثم السكون: بلدة صغيرة من عمل الزاب الكبير. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

(٥) قصطيلية: قسطيلية: بالفتح ثم السكون وكسر الطاء، مدينة كبيرة من أرض الزاب الكبير. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٤٨.

(٦) للتفصيل انظر افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٧٣ ـ ٢٤٠.

(٧) يقصد النويري القاضي النعمان. انظر افتتاح الدعوة ص ٢٤٣.

(٨) رقّادة: مدينة بإفريقية. ويقال: إن إبراهيم بن أحمد الأغلبي هو الذي بناها. ثم خربت وانتقل عنها الناس، ولم يبق لها أثر. الحميري: الروض المعطار، ص ٢٧١، انظر أيضاً ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٥ ـ ٥٦.

(٩) هو عبد الله بن الصائغ الذي ولي الوزارة والبريد لزيادة الله. نهاية الأرب للنويري، ج ٢٤، ص ١٤٥.

(١٠) انظر ما ورد في الحديث عن دولة الأغالبة في نهاية الأرب، ج ٢٤.

(١١) «سبتة» في الأصل، وهو تحريف. والتصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٢٤٣. والكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٦.

ذكر رجوع أبي عبد الله الشّيعيّ إلى إفريقية

قال: ولمّا وافاهُ الخبر بهرب زِيادَة الله أمير إفريقية، وهو بناحية سَبِيبة[1]، رَحَلَ لِوَقته، وخرج إليه شُيوخ القَيْروان، وتلقَّوْه، فأكرمهم ودخل أبو عبد الله الشيعيّ رَقّادة في يوم السّبت غرّة شهر رجب، سنة ست وتسعينَ ومائتين، ونزل ببعض قُصورها، وفرَّق دُورَها على كتامة، ولم يكن قد بقي بها أحدٌ من أهلها، وأمر مُناديه فنادى في القَيْروان بالأمان، فرجع النّاس إلى أوطانهم، وغيَّر المنكَرات، ووَلَّى قضاءَ القيروان محمّد[2] بن عمر المرْوَزيّ، وأمره، ورتّب الخطباء وأمرهم أن يصلُّوا على: رسول الله ﷺ، وعليّ، والحسن والحسَيْن وفاطمة، وأمر بضَرب السّكّة، وأن يُنْقش على الوجه الواحد «بلغت[3] حجّة الله». وعلى الوجه الآخر «تفرّق أعداءُ الله»، ونقش على السلاح «عُدَّة لسَبيل[4] الله»، ونقش على خاتمه الّذي يَطْبع به الكتب: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[5] ورسم في جلال الخيل[6] «المُلْك لله».

ذكر خروج أبي عبْد الله الشّيعيّ إلى سجلماسة[7]

قال[8]: ولمّا استقرّ أبو عبد الله الشيعي برَقّادة، أتاه أخوه أبو العبّاس محمد بن

---

(١) سبيبة: بفتح أوله وكسر ثانيه، ناحية من أعمال القيروان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٨٦. أما سبتة: فهي في أقصى بلاد المغرب في مواجهة جزيرة الأندلس، وهي بعيدة عن الأحداث المذكورة في هذا الجزء من نهاية الأرب للنويري.

(٢) هو محمد بن عمر بن يحيى بن عبد الأعلى المروزي. أصله من خراسان، وتوفي سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م. القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص ٢٤٧. انظر أخبار وفاة المهدي حيث ورد شيء من أخباره. في الصفحات القادمة من هذا الجزء (نهاية الأرب).

(٣) في الأصل: «بلقب» والصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٢٥٠، والكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٧.

(٤) في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٢٥٠، والكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٧ ورد «عُدّة في سبيل الله».

(٥) سورة الأنعام: من الآية ١١٥ وتتمتها: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

(٦) جُلُّ الدابة وجلُّها: الذي تُلبَسه لتُصاب به والجمع جِلال وأجلال. ابن منظور: لسان العرب (جلل). ورد في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٢٥١، «ووسم الخيل الملك لله». وورد في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٧، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٦٤، «ووسم الخيل على أفخاذها».

(٧) سِجلْماسة: بكسر أوله وثانيه وسكون اللام. وبعد الألف سين مهملة: مدينة عظيمة، محدثة بنيت سنة أربعين ومائة. أسسها مدرار بن عبد الله. وهو رجل من أهل الحديث. الحميري: الروض المعطار، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٧. وانظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٩٢.

(٨) يقصد المؤلف القاضي النعمان صاحب افتتاح الدعوة، انظر ٢٦٩.

أحمد، فَسُرَّ بمقدَمه، وكان أَسَنَّ من أبي عبد الله وَأَحَدَّ ذِهناً، وكان الشيعيّ يعظّمه، فإذا دخل قام إليه. وإذا دخل هُو على أبي العبّاس قبَّل يده ووقف حتى يأمرَهُ بالجلوس فيجلس.

ولما وصل أبو العباس أراد أن يَنْفِيَ من القيْروان من خالف مذهبه، فقال له أبو عبد الله إن دَوْلتنا دولَةُ حجّة وبيانٍ، وليْسَت دولةَ قهرٍ واستطالة، فاترك النّاس على مذَاهبهم فَتركهُم.

وأخذ أبو عبد الله في الخروج إلى سِجِلْمَاسَةَ، فرحلَ إليها في النّصف من شهْر رمضانَ من السّنة، في جيوشٍ عظيمة، واستخلف على إفريقية أبا زاكي تمام بن معارك وأخاه[1] أبا العباس.

قال: ولمّا خرج اهْتَزّ الغربُ لخروجه وزَالَت زنَاتَة[2] والقبائلُ عن طريقه، وأوْقَع بقبائلَ عرضتْ له في الطّريق حتّى إذا قرُب من سِجِلْمَاسة رَاسَل أميرها الْيَسَع بن مدْرَار[3]، وكان مِنْ أمره مَعَهُ ما نذكره بعْدُ في أخبار المهْدي عُبيد الله إن شاءَ الله.

فهذه أسبَابُ ظهورِ هذه الدّولة وقيامها وخبرُ شيعتها. فلنذكُر أخبارَ المهديّ وما كانَ مِنْ أمره، وخروجَه من بلاد الشام، وما اتفق لهُ في مَسيره إلى أن تسلم المُلك من أبي عبيد الله الشيعيّ، بعْد أن مهّدَ له القواعد وفتح البلاد. ثم نذكر في أخبار عبيْد الله، المنعوت بالمهديّ، تتمَّة أخبار أبي عبد الله الشيعيّ إلى أن قُتِل هو وأخُوه أبو العبّاس محمد بن أحمد. فنقول وبالله التوفيق.

ذكر ابتداء الدّولة العُبَيْديّة وأخبار المهدي عبيْد الله[4] وما كان من أمره منذ خرجَ من الشّام إلى أن ملك البلاد وتَسلم الأمر منْ أبي عَبد الله الشيعيّ

كان ابتداء ظهور هذه الدولة وقيامها ببلاَد المغرب في سنة ستّ وتسعينَ ومائتين،

---

(١) هكذا في الأصل، وفي الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٧، وفي افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٢٧٥، أما في اتعاظ الحنفا فلم يذكر المقريزي، أبا زاكي تمام. بل ذكر أخاه أبا العباس، ص ٦٥.

(٢) زناتة: قبيلة كبيرة من البربر، ينتسبون إلى زنا بن يحيى بن ضري بن زجيك بن مادغس. العبر وديوان المبتدأ: لابن خلدون ج ٦، ص ٩١.

(٣) قُتل على يد عبد الله المهدي سنة ٢٩٧ هـ/ ٩٠٩ م، وكان قد ولي سجلماسة في سنة ٢٧٠ هـ/ ٨٨٣ م. انظر أخباره في هذا الجزء من نهاية الأرب في ذكر رحيل عبيد الله من الشام ووصوله إلى سجلماسة.

(٤) ترجمته وأخباره في: الأعلام للزركلي، ج ٤، ص ١٩٧. حيث عرّفه بالمهدي الفاطمي. عبيد الله بن =

عند ظُهور عبيْد الله بن الحسَن المنعُوت بالمهديّ، وخَلاَصِه من سِجْنِ سِجِلْمَاسَة وقَتْله الحسن بن مِدْرَار. ومنهم من يَجعل ابتداءَها عند وُصول عبيْد الله إلى رَقَّادة في يوم الخميس لعشر بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبْع وتسعينَ ومائتين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ولنبدأ بأخبار المهْديّ في رحْلته إلى المغرب.

ذكر رحيل عبيْد الله من الشام ووصوله إلى سجلماسة

وكان سببُ ذلك أن المعتضدَ بالله أبا العبّاس العباسيّ طلب عبيْد الله هذا طلباً شديداً، فخافَ على نفْسه إنْ هو أقام بالموضع الذي هُو فيه مِنْ أرْض الشام، فخرج بنَفْسِه وبولَده أبي القاسم محمّد، وهو يَوْمئذٍ غلام حَدَث وعُبيدُ الله شابّ، وخرج معه خاصّته ومَوَاليه، يريدُون المغرب، وذلكَ في خلافة المكتفي بالله العباسي، وأمير إفريقية يومئذٍ زيادةُ الله بن أبي العبّاس بن إبراهيم بن أحمد.

فلما انتهى عبيد الله إلى مصر أرادَ أن يقصد اليمن، وكان بها أبو القاسم الحسن ابن حوشب الكُوفي الدّاعي كما ذكرْنا، وقد استَقَامَ له الأمْر ومَلك أكثر البلاد، ثم بعث بعدَه عليّ بن الفضل فاستحلّ المحارِمَ ودعا الناس إلى الإباحات، فلما اتّصل ذلك به كَرِهَ دُخول اليمن على هذه الحال، وبلَغهُ ما فعل الشيعيّ بالمغرب، وما فُتح على يَدَيْه فأَقام بمصر مستتِراً في زيّ التُّجار، وعامل مِصرَ يومئذٍ عيسى النُّوشَري بعد انقراض الدَّولة الطُّولونيّة؛ فأتَتْه الكُتب بصفته، وأُمِرَ بالقَبْض عليه.

وكان بعض خاصّة النُّوشَري يتشيع، قيل إنّه ابْن المدبّر، فبادَرَ إلى عبيْد الله وأخبره، وأشار عليه بالمسير؛ فخَرَج منْ مِصْر بمن صحِبَه، ففرّق النُّوشَري الرّسُل وذكر لهُمْ صفَته، ثم خرج بنفسه فأدركه وقدْ رحل من تَروجة، وهي على مَرحلةٍ من الإسكندرية، فمشَى النُّوشَري في القافِلَة التي عُبيد الله فيها، وجعلَ ينظر إلى وُجُوه القوْم، حتّى رأى عبيْد الله على هيئته التي وُصفت له، فقبض عليه وعلى منْ كانَ مَعَهُ، وأطلق الرِّفقة وعاد به إلي بِبُسْتَانٍ فنزل به، وأنزل عُبيد الله ومَنْ معه بمُفْرَدهم ووَكل بهم. ثم خَلاَ بِهِ وقال له: أصْدقني عن أمْرك فإني ألطف في خلاصك، فقد جاءت صفتُك مِن قِبَل أمير المؤمنين وأمر بطلبك، وذكر أنّك تَرُومُ الخلافة. فقال عبيد الله[1]

= محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم الفاطمي العلوي من ولد جعفر الصادق مؤسس دولة العلويين في المغرب. ولد عام ٢٥٩ هـ/ ٨٧٢ م. وتوفي عام ٣٢٢ هـ/ ٩٣٣ م. وفي الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٩٠، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٧، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ٢٧٢، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ١٨٧.

(١) في الأصل: «أبو عبد الله» والتصحيح يقتضيه السياق.

إنما أنا رجُلٌ تاجر، ولست أعلم شيئاً ممّا تقول، وأنت غنيٌّ عن تقلُّد إثمي، فما زال يلاطِفُه يَوْمَه وليْلَته حتّى أطلقه وقال: امْضِ إلى سبيلك وأنا أبعثُ معَك خيلاً تشيِّعك. فشكره وقال: أنا أستغني بنفْسي وبمن مَعِي، وانصرف. فرجع أصحابُ النُّوشَري عليه بالملامَة، وقالوا له: مَاذَا صنعته بنفسك! عمدت إلى بُغْيَة أمير المؤمنين وطلبته فأطلقته. فنَدِم على إطلاقه وهمّ أن يبْعَث إليه خيلاً تردُّه.

فلمَّا سار عبيْدُ الله أميالاً افتقد أبو القاسم ابنُه كلبةَ صيدٍ كانت له، فبكى عليها فعرّفه عبيدة[1] أنهُم تركُوها بالبُسْتَان، فرجع عبيدُ الله في طلبها، فرآهم النُّوشَري، فقال: مَنْ هؤلاء؟ فقال بعْض أصحابه: الرّجل قَدْ رجع. فبعَث غِلمَانه فسألوا أصحاب عبيْد الله عن سَببِ رجوعه، فقالوا: افْتقد وَلَدُ سيدنا كلبةً، وهو عزيز على أبيه، فعادَ معه في طَلبها بعد أن قطع أمْيالاً كثيرة. فقال النُّوشَرى لأصحابه، قبّحكم الله! أردْتم أن تحملوني على رجلٍ حالُه مثلُ هذه الحال اعْتقِلهُ بشُبْهَةٍ. لو كان مرتاباً لطَوَى المراحل وما عَادَ إلينا مِنْ مسافةٍ بعيدةٍ في طلب كلبةِ صيْدٍ.

ورجع النُّوشَري مِنْ وقته إلى مِصر، وعاد المهديّ ولحق برفقته. فلمّا انتهى إلى مدينة طرابلس، فارق مَنْ كان معَهُ من التُّجَّار، وقدَّم أبا العبَّاس محمّدَ بن أحمد بن محمّد بن زكريا، أخا أبي عبْد الله الشيعيّ إلى القَيْروان ببعض ما كان معه، وأمره أن يلحق بكتامة. فلما وصل أبو العبّاس إلى القَيْروان وجدَ الكتُب قدْ سبقت إلى زيادة الله في أمر عبيْد الله فأحضر الرّفقة وسألهم عنه، فأخبروه أنه تَخلَّفَ بطرابلس وذكرُوا أنّ أبا العبّاس من أصحابه؛ فأُخِذ وقُرِّرَ، فأنكر، فحُبس.

واتصل الخبر بعبيْد الله بطرابلس فصادف رِفْقَةً خارجةً إلى قَصْطيلية، فخرج معهم، وأتى كتابُ زيادةَ الله إلى طربلس بصفته وطَلَبه، فكتب إليه عاملُها أنه خرج مِنْ عَمله، وسار عُبيد الله حتى وَصل إلى قصْطِيلِيَة، ثم منها إلى سِجِلْمَاسة، وصاحب سجلماسة يومئذٍ اليَسَعُ بن مدرار، فهَادَاه عبيْد الله، فأكرمه الْيَسَع وعظّمه. فلم يزل كذلك إلى أن أتاه كتابَ زيادةَ الله يخبرُه أنه هو الّذي يدعُو إليه الشّيعيّ، فتغير الْيسَع عند ذلك عليه إلاّ أنه لم يكن منْه في حقه ما يكره.

ثم كان من تغلُّب الشيعيّ ما قَدّمناه، وعَلِمَ بمكان عبيْد الله، وكان يُكاتبه في السِّرّ. فلمّا هَزَم الشيعيُّ جيشَ إبراهيم بن حنبش كتب إلى عبيد الله يخبرُه بالفتح، فأرسل إليه مالاً مع رجالٍ من قِبَلِه من كتامة، وكان ذلك أول فتح ورد على عبيْد الله،

(١) في الأصل: «أبوه» وما أثبتناه من الكامل لابن الأثير ج ٨، ص ٣٨.

فسُرّ به. ثم استولى الشيعيّ على ما ذكرناه، وهرب منهُ زيادة الله، وملك رقّادَة والقيروان، وسار إلى سجلماسة فلما انتهى خبرُه إلى الْيسَع بن مدرار وقرب من سجلماسة سأله فحلف أنه ما اجتمع بالشيعيّ ولا رآه قطّ ولا عرفه، وقال: إنما أنا رجل تاجر فأغلظ له في القول فلم [يغير][1] كلامَه الأوّل ولم يخرج عنه، فجعله في دارٍ وجعل عليه حرساً، وجعل ابنه أبا القَاسم في دارٍ أخرى، وفرَّق بينهما، واختبر كلَّ واحدٍ منهما فلم يجِد بينهما خلافاً، وامتَحَن رجالاً كانوا معهُما بالعذاب ليُقرُّوا فلم يعترفوا بشيء.

واتصل الخبر بالشّيعيّ فعظُم عليه، وأرسل إلى الْيَسَع بن مدرار يؤمِّنُه جانِبَه ويذكر أنّه إنّما قصد سِجِلْمَاسَة لحاجَةٍ ويعِدهُ الجميلَ والبرَّ والإكْرام، وأكد ذلك وبالغ فيه فلما وصلت رسل اليسع رَمَى بالكتب وقتل الرُّسل، واتّصل ذلك بالشيعيّ فعاوَدَه ولاَطَفَه؛ كُلُّ ذلك خوفاً منه أن يكون منه في حقِّ عبيد الله ما يكرهه؛ فقتل الرُّسُل أيضاً فلمّا رأى الشيعيّ إصرارَه عبّأ عساكرُه ودنا منَ المدينة فخرج إليه اليسعُ بمن مَعه، فناوشهم القتال. فقُتل من أصحابه جماعة وكانَ ذلك في آخر النّهار، فحجز بينهما اللّيل.

فلما جَنّ اللّيل هرب اليسعُ بنُ مدرار مع أهل بَيْته، وبات الشيعيّ ومَنْ معه في غم ٍعظيمٍ تلك الليلة، لا يعلم ما صُنِع بعبيد الله وابنه، ولم يُمَكِّنْه دخولُ المدينة، وما علم بهرب اليسع، حتى أصبح، فخرج إلى الشيعي وُجُوه أهلِ المدينة وأعلموه بهرب الْيَسَع، فدخل إلى المكان الذي فيه عُبيد الله فأخرجه وأخرج ولده أبا القاسم، وقرَّبَ لهما فرسين وحَفّت بهما العساكر، وسار الشّيعيُّ والدُّعاة بين يدَي عبيْد الله وهُو يقول: هذا مَولاي ومَوْلاكُم، حتى انتهى عُبيد الله إلى فُسطاطٍ ضُرب لهُ، فدخله، وهو إذا ذاك شابٌّ لم ينبذه الشّيب، وابنه حر طَرّ شَارِبُهُ.

هذا ما حكاهُ إبراهيم بين الرّقيق في تاريخه.

وقال غيره إن اليسع بن مدرار لمّا أراد الخروجَ من سِجِلْمَاسَة، أحضر الشخص الذي اعتقله وقتله قبل هروبه، وأن الشيعي لمّا دخل وعَلِم بقتل عُبيد الله خاف من كتامَة لأنه كان يَعدُهم بخُروج المهديّ ومِلكه الأرض على زعمه، وخَشِي أن يفتضح فيهلِك ويزُول ما حصَل في يده، فأخرج لهم رجلاً يهوديًّا كان يخدم الشّخص المقتول، وقال هذا إمَامُكم وإمامُ الإسماعيلية، وأرْكبه ومشى في رِكابه وانْسَلَخ له من الأمر، وهذا فيه بُعْدٌ، وأرَاهُ من التَّغالي في نَفْيهم عن النّسَب؛ والذي حكاهُ ابنُ الرّقيق أشبه. فلنرجع إلى ما حكاه إبراهيمُ بن الرّقيق.

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها سياق الكلام.

قال: ولما اسْتَقرّ عبيدُ الله بالفسطاط أمر بطلب الْيَسع بن مِدْرَار حيث كان، فخرجَت الخيلُ في طلبه، فأدركوه ومن معهُ مِن أهل بيته، فأخَذُوهم وأتَوْا بهم إلى عبيد الله، فأمرَ بضَرْب الْيَسع بالسياط، فضرب وطيف به في بلاد سجلْمَاسَة؛ ثم أمر بقَتْلِه فقُتل هو وكلٌّ من هرب معه من أهل بيته وغيرهم. وأمَّن الناسَ بعد ذلك وسكّنهم، واسْتَعملَ عليهم عاملاً، وأتَتْه القبائل من كلِّ ناحية فأكرمهم، ووعدهم بكل جميل.

وأقام بسجلْمَاسَة أربعين يوماً، ثم سارَ يُريد إفريقية. فلما حازى بلاد كتامَة مال إليها، ووصل إلى إيكجان، وأمر بإحضار الأموال التي كانت مع الشيعيّ والشيوخ، فأحضرها وشدّها أحمالاً وقدِم بها. وكان وُصُوله إلى رَقَّادَة في يوم الخميس لعشرٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين.

وفي هذه السنة زال ملْكُ بني الأغلب وكان له بإفريقية مائة سنة واثنتا عشرة سنة. وزال بزواله ملْكُ بني مِدْرار وكان له بسِجلمَاسَة وما حَوْلها مائةُ سنة وستون سنة. وزال ملكُ بني رُسْتَم من تاهرت[١] وما حولَها، وله مائة سنة وثلاثون سنة[٢].

قال: ولما قارب عبيْد الله القيروان تلقَّاه شُيوخها ومشَوْا بين يديه، فجزاهم خيراً ونزل عبيْد الله بقصْرٍ من القُصور برَقَّادَة، وأنزل العساكر بدُورِها ودُعي له بالخلافة في يَوم الجمعة لتِسْعٍ بقينَ من شهْر رَبيع الآخر من السّنة برَقَّادَة والقَيْروان والقصر القديم[٣]، وأنْفذَ رسُله ردُعاتِه وأتَتْه وفود البلدان.

قال: ثمّ عرض عليه الشيعيّ جَوَارِيَ زيادة الله فاصطفى منْهنّ لنفسه وأعطى ولدَه، وفرّقَ أكثرهُنّ على وُجُوه كتامةَ؛ وقسّم عليهم أعمال إفريقية، واستعْمَلَ وُجُوهَهم على مُدنها، وأمرهم بالتجمُّل وحُسْن اللّباس، فلبِسوا الثّياب الفاخرة وركِبوا بالسُّروج المحلاَّة. ورتَّبَ الدّواوين وأنعم على النّاس، فرفع إليه صاحبُ بيت المال ما أخرجه من الصِّلاتِ في شهر رمضان، فبلغ مائة ألف دينار واستكْثَره صاحبُ بيْت المال فقال عبيْد الله: لو بلغتُ ما أؤمِّلُه ما رضيتُ بمثلِ هذا المال لرجلٍ واحد من أوليائي[٤].

---

(١) في الأصل: «تهرت» والتصحيح من معجم البلدان، ج ٢، ص ٧ ـ ٩.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر نهاية الأرب للنويري ج ٢٤. ما يتعلق بمدة حكم هذه الدول.

(٣) القصر القديم = قصر قيروان. مدينة عظيمة أسسها إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م. وجعلها عاصمة لدولته. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٦٢.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح المعنى، من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣٠٤.

ذكر أخبار أبي عبيد الله الشيعيّ وأخيه أبي العبَّاس
وما كان من أمرهما بعْدَ قيام عُبيْد الله المهْديّ إلى أن قتلهما

قال: لمّا استقامت الأمور لعبيْد الله المهديّ داخل أبا العبّاس محمداً أخا الشيعيّ فساد دينه[١].

وسبب ذلك أنّ أخاه أبا عبْد الله كان يعظّمه ويقومُ له عَنْ مجلسه ويقبّل يده كما قدّمْناه، وكان لأبي عبْد الله من الرئاسةَ وَنُفُوذ الكلمة والغَلَبة على الأمر كلِّه ما ذكرناه[٢]. فلمّا صار الأمر لعبيْد الله المهديّ زالتْ تلك الرئاسةُ عن أبي عبد الله وأخيه، فداخَلَه الحسَد، فجعل يُزْرِي على عُبيد الله عند أخيه وأبو عبد الله ينكر ذلك على أخيه، وأبو العبّاس لا يَرْعَوِي، ويؤكّد أسبابَ النّفاق. ثم قال أبو العبّاس لأخيه: لقد ملكتَ أمراً عظيماً وانطاع لك النّاس، فجِئتَ بمَن أزَالكَ عنْه وأخرجَك مِنْه، وكان الواجبُ عليه ألاّ يهتَضِمَك هذا الاهْتِضَام. ولم يَزَلْ يُغْريه بمثلِ ذلك إلى أنْ أثّر ذلك فيه، وَحَمله على مُشَافَهَة عُبيد الله المهديّ ببُغضه، وأشارَ عَلَيْه بتفويض الأمُور إليه والانقطاع في قصْره والاحتِجاب عَن الناس، وقال هذا أَهيَبُ لك وأشدُّ لأمرك، فردَّ عليه ذلك ردًّا لطيفاً. وكان قد بلغ المهديّ ما هُو عليه، فحقَّقه ولم يُرِه أنّه اطّلع على شيءٍ من ذلك. وعَمَدَ أبو العبّاس إلى الدُّعاة، وكانوا يعظّمونه لِما يَروْن من تَعظيم أخيه أبي عبيد الله له، فجعل يرمز لهم، ثم صرَّح، وطعن في عبيْد الله، وأدخل فيه الشُّبهة، وكلُّ ذلك يبلُغ عبيدَ الله فيُعْرِض عنه ويُغضي عليه، هذا والشيعيُّ في ذلك مُدَارٍ لم يبلُغ حد النِّفاق إلى أن فشا أنّ حال أبي العبّاس قد أنْهيت إلى عُبيد الله.

وما زال أبو العبّاس يتخيّل إلى أنْ قال للدُّعاة إنّ الإمام هو الّذي يأتي بالآيات والمعجزات ويُختم بخاتمه في البلاط، فأمّا هذا فقد شككْنَا فيه، فعند ذلك أرْسَل هارونُ بن يونس[٣] أحد المشايخ إلى عبيْد الله يقولُ: قد شككنا في أمرك فأْتِنَا بآيةٍ إن كنتَ المهديّ كما قلت. فتعاظَم ذلك وقال: ويْحكُم إنكم كنتُم قد أيْقَنْتُم والشكُّ لا يُزيل اليقين، فأبيتم ألاَّ الإصْرار! ثمّ أمر مَنْ قلته. فلمّا علم أبو العبّاس والقومُ الذين اسْتزلَّهم[٤] بقتله جعلوا ذلك سبباً لِمُبايَنةِ عبيد الله وأجمعوا على النَّقض والإبْرَام في دَار

---

(١) ورد في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٥٠ «داخل أبا العباس الحسد»، وكذلك في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٦٧.

(٢) أي ما ذُكر في الأصل.

(٣) «بن يوسف» في الأصل. والتصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١١١، و٣١٠.

(٤) استزلهم: أي حملهم على الخطأ والذنب. أي الذين أغواهم. ابن منظور: لسان العرب (زلل).

أبي زاكي بن مُعارك، وعزموا على الفتْك بعُبيد الله. واجتمع كتامَة إلاّ قليلاً منهم؛ وكان عزوية[١] بنُ يوسف يأتي بأخبَارِهِمْ لعُبيد الله، فجمع عبيْد الله إليه مَنْ سَلِم من النِّفاق والعَبيد واستعدَّ لَهُم، على كثرتهم وقلَّة المبايعين له، فجمعوا له الجُموع وأحاطوا بقصْره ليُوقِعُوا به، وهو في ذلك جالسٌ منتصبٌ غير مكترث، فقذف الله في قلوبهم الرُّعبَ على كثرتهم وقلَّة مَنْ معه، حتّى كانوا يَعبُرون وقد عزموا على الفَتْك به، فإذا قابَلُوه مَلأت الهيبَةُ قلوبَهم فإذا انصرفوا ندِموا على تَركه ﴿...لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا...﴾[٢].

فنظر عُبيْد الله في بعض الأيام إلى أبي عُبيد الله الشيعيّ وقد لَبس ثوبَه مقْلُوباً، ودخل عَليه ثلاثةَ أيّام وهُو على تلك الحال، فقال له في اليَوم الثّالث: يا أبا عبْد الله؛ ما هذَا الأمرُ الّذي شَغَلَك وأذْهَلَك عن أمر نفسك؟ فقال: وما هُو يا مولاي؟ قال: إنّ ثوبك مقلوبٌ عليك منذ ثلاثة أيّام ما اهتَديْت له، وما أحْسِبُك نزَعْته. فنظر إليه وقال: والله يا مَوْلاَيَ ما علمتُ به. فقالَ: إنّ هذا لشُغُل عظيم؛ فأين تَبِيت مُنْذ كذا من اللّيالي؟ فسكَت. فقال: ألَستَ تبيتُ في دَار أبي زاكي، قال له: بلى. قال: وما أخْرجَك مِنْ دَارِك التي أنزَلتُكَ بها؟ قالَ: يا مولايَ خِفت. قال: وما يخافُ المرءُ إلاّ من عدُوِّه، والمؤمن لا يخافُ وليَّه[٣]. فسكت أبو عبْد الله وأيقن أنّ عورتَه قد بَدَت لعبيْد الله، ووجَبت حُجَّتُه عليه، وحلَّ له قتلُه. فانصرف وأعْلَمَ القومَ بما جَرى بينهُما، فأمسكُوا عن الدّخول إلى عبيْد الله وخافُوا على أنفُسهم مِنه. ثم جاؤوه بعدَ ذلك وأظهرُوا البراءةَ مما قِيل فيهم، واعتَذَرُوا؛ فردَّ عليهم ردًّا جميلاً، وأخرج جماعةً منهُم إلى البُلدان، فتفرَّقت جماعتُهم. وأخرج فيمن أخرج أبا زاكي بنَ مُعَارك[٤] إلى طرابلس، وكان غزوية بن يوسف والياً عليها[٥]، فلمّا وصل إليه كتب إليه عبيد الله، فقتَلَه وبعث برأسه إليه، وقُتل جماعةٌ منهم كذلك في البلدان بصنوفٍ من القتل.

وخرج أبو عبْد الله في بَعْض الأيام هو وأخوه أبو العبّاس يُرِيدان قصْر عبيْد الله على العَادة، فحمل غزوية بن يوسُف[٦] على أبي عبيْد الله، وحمل خير بن

(١) في الأصل: «عروبة» أيضاً في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٥٢، وأخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٩، والتصحيح هنا من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣١٢.

(٢) سورة الأنفال، من الآية ٤٤ وتتمتها: ﴿...وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

(٣) في الأصل: «عدوه» وما أثبت من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣١٤.

(٤) في الأصل: «بن معادل» والتصحيح مما سبق ذكره.

(٥) ورد في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣١٥ وأخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ١٠، «وكان عمه أبو يوسف عاملاً عليها».

(٦) في الأصل: «فحمل ابن غزويه بن أبي يوسف» والتصحيح مما سبق ذكره. وافتتاح الدعوة للقاضي النعمان ص ٣١٦.

ماشيت[١] على أبي العبّاس. فقال أبو عبد الله لابن غزوية: يا بُنيّ لا تفعلْ. فقال: الّذي أمَرْتنا بطاعته أمَرنا بقتلك، وقَتلاهما فيما بين القَصْرَين؛ وذلك في يوم الاثنين، النّصف من جُمادى الآخرة سنة ثمانٍ وتِسعين ومائتين؛ وأمر عبيْد الله بدَفْنهما.

قال: وهذا اليَوْم هو الْيومُ الّذي قُتل فيه أبو زاكي بطرابلس.

قال: ولما قتل أبو عبْد الله وأبو العبّاس ثار جماعةٌ من بني الأغْلَب وأصرُّوا على النِّفاق، وكانوا بالقصر القديم، فأخرجُوا منه الكتاميّين وقتلُوا جماعةً منهُم، فأحاط به مَنْ حوله من كتامة، فقاتلهم بنُو الأغلب، وقُتل من الطَّائفتين قتلى كثير. فبلغ ذلك عبيْد الله فردَّ كتامة وأنكر عليهم، فتفرَّق بنو الأغلَب وانصرفوا إلى دورهم، فتركهم عبيْد الله ثم قبض عليهم فقُتلوا على باب رقَّادَة؛ ثم تتبّع مَنْ بقي منهم فقتلهم. ولمّا استقامت الأمور لعُبَيْد الله عَهِد إلى ولده أبي القاسم، وخرجَتْ كتبُه: مِنْ وَلِيّ عهد المسلمين محمد بن عبيد الله.

ذكر أخبار مَن خالف على عُبَيْد الله وما كان من أمرهم

قال: وبقيت[٢] بقيّة من المنافقين علَيه، فسارُوا[٣] إلى بلد كتامة، فأقامُوا غلاماً حَدَثاً من جبل أُورَاس من جهة أورسَّة[٤]، وزعموا أنه المهديّ، ثم نحلُوه النُّبوَّة، وزعموا أنّ الوحي يأتيه، وقالوا: أبو عبد الله حيٌّ لم يمت؛ وأباحُوا الزّناء، وأحلُّوا المحارم. وزحفوا إلى مِيلَة فأخذوها. فبلغ ذَلك عبيدَ الله[٥] فأخرج إليهم وليَّ العهد في عسكرٍ فحاصَرها مدَّة، ثم قاتلُوه فهزمَهُم حتى انْتهى بهم إلى البحر، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأخذ الغُلامَ الّذي نصَبُوه فأتَى به إلى أبيه، فأمَر بقتله، فقُتل.

وخَالَف علَيه أهلُ طرابلس، فأخرج إليهم عسكراً مع أبي يوسف، فحاصرها، ثمّ انْصَرف عنها ولم يفتحها، فخرج إليها بعْد ذلك أبُو القاسم، وقد قدّموا على أنفسهم ابنَ إسحاق القُرشي، فكان خُروجُه يومَ الأحد لِلَيْلَتَيْن خَلَتا من جُمادى الأولى سنة ثلاثمائة. فحاصَرها وضَيَّق على مَنْ بها حتى أكلوا الجِيَف، ففتحُوا في آخر شهر رجب من السّنة، فعفا عنهم، لكنّه غرّمهم جميع ما أنفَق من مالٍ وغيرِه، وكانت جملته ثلاثمائة ألف

(١) ورد في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣١٦ «حبر بن تماشت» وفي أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ١٠ «حبر بن القسم».

(٢) ورد في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣٢٤. «وتغيب».

(٣) في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣٢٤: «فصاروا».

(٤) أو سنة: في الأصل. والتصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٠٧، ص ٣٢٤.

(٥) في الأصل: «أبو عبيد الله»، والتصحيح يقتضيه السياق.

وأربعين ألف دينار، وحمل وُجُوه رجالِهم معه إلى رَقَّادَة رهائن، واستخْلَفَ عليها، وانصرف.

ذكر بناء مدينة المهديّة

وفي سنة ثلاثمائة[١] خرج عبيْد الله إلى تونس وقرطاجنة وغيرها، يرتاد لنفسه موضعاً على ساحل البحر يبتني به مدينة، فاختْار مَوْضِع المهديّة، فأمرَ ببنائِها وتَحصينها بالسُّور وأبواب الحديد المحْكم، فجُعل في كلِّ مصراعٍ من الحديد مائةُ قنطار. وكان ابتداءُ الشُّروع في بنائها في يوم السَّبت لخمْسٍ خَلَوْنَ من ذي القَعدة[٢] من السنة. وانتقل إليها في سنة ثمانٍ وثلاثمائة، قال: ولمّا عزم على الانتقال إليها ثَقُلَ ذلك على جنده، فقال: نحن ننْتَقِل إليها ونَدعُكُم بمكَانِكم، وعمّا قليلٍ ستنتقلون، ففعَلُوا ذلك، فما كان إلاَّ أَنْ أرسل الله عليهم أمطاراً غزيرة، فهَدَمَت مساكنَهم، فسألوه النُّقلة إليها فأذن لهم.

وفي سنة ثلاث وثلاثمائة خرج وليّ العهد أبو القاسم إلى الدّيار المصريّة. وكان خروجه من رَقَّادة لستٍّ بَقِينَ من جُمادى الآخرة منها؛ وكان من أمره وأمر حباسة بن يوسف ووصولهما إلى الإسكندرية ما قدّمناه في الحوادث فيما كان بين الدّولة الطُّولُونيّة والدّولة الإخشيدية.

ولما وصل حباسة إلى عبيد الله أمر بقَتله على ما كان من انهزامه.

ثم خرج أبو القاسم بابنه إلى الديار المصرية، وكان خروجُه يوم الاثنين غُرّة ذي القَعدة، سنة ستٍّ وثلاثمائة. ووَصلَ إلى الإسكنْدَرية في شهر ربيع الآخر سنة سبعٍ وثلاثمائة[٣]، فخرجَ عنها عامل المقتدر، وملكها أبو القاسم. ثمّ ملَك الفَيّوم والأشمونين، وغير ذلك. وأقام نحو سنتين. ثمّ وقع الفَنَاء في عسكره، وماتت خيلُهم؛ وجاء مؤنس من بَغداد واجتمعت عليه العساكر كما ذكرنا، فعجز عن قتالهم، فرجع إلى إفريقية. وكان وصوله إلى المهديّة لعشر ليالٍ مضيْنَ من شهر رمضان سنة تسع وثلاثمائة.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ١١. أما في المصادر الأخرى فهي سنة ٣٠٣ هـ. وذلك في الأعلام للزركلي ج ٤، ص ١٩٧ حيث ورد: «وعاد إلى المغرب فاختط مدينة «المهدية» سنة ٣٠٣ هـ. واتخذها قاعدة لملكه» وفي الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٩٤، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٧٠.

(٢) في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ١١، «يوم الخميس».

(٣) ورد هذا الحدث في الكامل لابن الأثير، حوادث سنة ٣٠٦ هـ، ج ٨، ص ١١٣. ذكر إرسال المهدي العلوي العساكر إلى مصر.

ذكر خروج أبي القاسم إلى بلاد المغرب وبنائه مدينة المسيلة

قال: وفي سَنة خمْس عشرة وثلاثمائة خرج أبو القاسم، وليّ العَهد، إلى بلاد المغرب في عسكرٍ عظيم وكان خروجه من المهديّة في يوم الخميس لسَبع مضَيْن من صَفر منها، ففتح مزاته، وهوارة، ومطماطة، ولماية، وكل من خالطهم من الصُّفْريّة[١] والإبَاضِيّة[٢] وبلغ إلى ما وَرَاءَ تاهرت[٣]. ولمّا انصرف من سفرته اختط مدينة الْمَسِيلة[٤] برمحه، وأمر عليّ بن حمدُون الأويسي ببنَائها، واسْتعمله عَلَى المحمدية فبناها وحصَّنها، وكان خطَّةً لبني كملان فأخرجهم منها، وأمرهم أن يرتفعوا إلى فَحْص[٥] القيروان، وانتقل الناس إليها وعظم أمرها.

ذكر وفاة عُبَيْد الله المهْديّ وشيء من أخبَاره

كانت وفاتُه ليلة الثّلاثاء، النّصف من شهْر ربيع الأول[٦]، سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة؛ وهو ابنُ ثلاثٍ وستّينَ سنة. وكانت إمارتُه منذُ وصل إلى رَقَّادَة إلى يوم وفاتِه أربعاً وعشرين سَنة وعشرة أشهر[٧] وعشرين يوماً.

قال: ولمّا مات كَتَمَ ابنُه أبو القاسم موتَه سنَةً حتى دبَّر أمره.

أولاده: أبو القاسم عبد الرحمٰن، وليُّ عهده وتسمَّى بالمغرب محمداً.

أبو عليّ أحمد، مات بمصر للنِّصف من ذي القعدة سة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ودفن بالقصر.

أبو طالب موسى، مات بمصر في ذي القعدة سنة ثلاثٍ وستين وثلاثمائة ودفن بالقصر.

---

(١) الصفرية: أصحاب زياد بني الأصفر. الملل والنحل للشهرستاني، ج ١، ص ١٣٧.

(٢) الأباضية: جماعة عبد الله بن أباض. الملل والنحل للشهرستاني، ج ١، ص ١٣٤.

(٣) في الأصل تهرت. والصواب تاهرت.

(٤) المسيلة: بالفتح ثم الكسر، مدينة بالمغرب وتسمى «المحمدية» ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٣٠.

(٥) الفَحْص: ما استوى من الأرض، والجمع فحوص، ابن منظور: لسان العرب (فحص).

(٦) ورد في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٢٨٤ «في هذه السنة (أي ٣٢٢ هـ) في شهر ربيع الأول، توفي المهدي، وأخفى ولده أبو القاسم موته سنة لتدبير كان له». ولعل هذا هو السبب في الاختلاف على تاريخ وفاة المهدي، وفي افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣٢٩، ضُبطت الوفاة في شهر جمادى الآخر بدلاً من رَبيع الأول.

(٧) يذكر القاضي النعمان في افتتاح الدعوة ص ٣٣٠ «شهراً واحداً» وفي الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٢٨٤، و«شهراً» انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج، ص ٧٣.

أبو الحسين عيسى، تُوفِّي برَقّادة في سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة.

أبو عبد الله الحسين، تُوفّي بالمغرب في أيّام القائم.

أبو سليمان داود، تُوفّي بالمغرب في أيام القائم.

وكان له سبعُ بنات، ومن السَّراري أمّهات الأولاد ستّة.

قضاته: أبو جعفر محمّد بن عمر[١] المروروزي، مات بعد أن عُزل في سنة ثلاثٍ وثلاثمائة، ثم إسحاق بن المنهال، ثمّ محمّد بن محفوظ المصمودي، مات في المحرم سنة سبعٍ وثلاثمائة، ثم محمدّ بن عمران النفطي، مات في سنة عشرٍ وثلاثمائة، ثم إسحاق بن المنهال ثانياً.

حاجب جعفر بن علي.

حامل مظلّته: مسعود الصقلبي، ثم غرس الصقلبي[٢].

ذكرُ بيْعة القائم بأمْر الله[٣]

هو أبو القاسم محمّد، وقيل أبو العبّاس، ويدعى نزاراً، وكان اسمُه بالمشرف عبد الرحمٰن فتَسمى محمّد بن عبيد الله المهديّ، وهو الثّاني من مُلوك الدّولة العُبَيْدِيَّة؛ بايعَ لَهُ أبوه بولاية العهد كما تقدَّم، ثم جُدِّدت لهُ البَيْعَةُ بعدَ وفاة أبيه بسنة، فإنَّه كتَم وفاتَه سنةً كاملةً، حتّى مَهَّد قواعدَ دَولته، ثم أظهرَها. واستقلَّ بالأمر وهو ابنُ سبعٍ وأربعين سنة، فقام مقَام أبيه، واقتفى آثارَه، وأظْهَرَ عليه من الحزن ما لم يُسْمَع بمثله ووَاصَلَ الْحُزْنَ لفَقْده، ولم يَرْقَ[٤] سريراً، ولا ركب دابةً منذ أفْضى إليه الأمر إلى أن ماتَ إلاّ مَرّتين، مرَّةً صلّى على جنازة، ومرَّةً صلّى بالنّاس العيد، وافتُتِحَت في أيَّامه مدائنُ كثيرةٌ من مُدُن الروم، وثارَ عليه عدَّة ثُوَّار فتمكّن منهُم؛ فكان مِمّن ثار عليه ابنُ طالوت القُرَشيّ، فسارَ إلى ناحية طرابلس وزعَمَ للبربر أنّه المهديّ فقامُوا معَه واتبعُوه، فزحَفَ

---

(١) في الأصل «عمار» والتصحيح من الأحداث السابقة.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ١٣ والمظلة: قد يعبر عنها بالجز (بجيم مكسورة قد تبدل شيناً معجمة، وتاء مثناة فوق) وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب، تحمل على رأسه في العيدين. وهي من بقايا الدولة الفاطمية. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤، ص ٧ و٨.

(٣) ترجمته وأخباره في: الأعلام للزركلي، ج ٦، ص ٢٥٩. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ٣٣٠. وأخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لمحمد بن علي بن حمادة، ص ١٢ حيث أشار إلى الاختلاف في اسمه. ورجح أن صحة الاسم محمد.

(٤) في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣٣١ «لم يرقد سريراً».

بهم على مدينة طرابلس في عددٍ عظيم، ثم تبيَّن للبربر أمره فقتلُوه، وأَتَوْا برأسه إلى أبي القاسم.

قال: وأوّلُ ما بدأ به أنه أمر باتّخاذ أنواع السّلاح في سائر البلاد، وأخرج ميسور[١] الصقلبي في عددٍ عظيمٍ إلى المغْرب، فانتهى إلى مدينةِ فَاس، وهزَم ابن أبي العافية، وأخذ ابْنَه الثوري أسيراً، وأخرج بعدَ ذلك يعْقُوب بن إسحَاق على أسْطُولٍ عظيم إلى بلد الرُّوم، ففتح بلد جنوة.

وكان مِمّن خرج عليه أبُو زيد مُخَلَّد بن كَيْداد[٢]، في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، وهو رَجُلٌ إباضيّ، يُظهر الزُّهد، وأنَّه إنما قام عليهم غضَباً لله. وكان لا يَركَب غير حِمار، ولا يلْبَس إلاّ الصُّوف. وكان بَيْنَهُما وقائعُ كثيرة، فملك أبو زيد جميع مُدُن الْقَيْروان، ولم يَبْق للقائم غير المهديّة، فحاصرها أبو زيد إلى أن هلك القائم. وكان بيْنَه وبين ابنه المنصور ما نذكُره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة القائم بأمر الله وشيء من أخباره

كانت وفاته بالمهديّة في يوم الأحد الثّالث عشرَ من شوّال سنة أرْبعٍ وثلاثين وثلاثمائة. ومولده بسَلَمِيّة التي بالقُرب من مدينة حماه من الشّام في المحرّم سنَةَ ثمانين ومائتين[٣]. وكان عُمره أربعاً وخمسين سنة وتسعة أشهر، ومدة ملكه ثنتي عشرة سنةً وستّة شهور وأيّاماً.

أولادُه: كان لهُ من الأولاد الذّكور سبعة، وهم: أبو الطاهر إسماعيل قام بالأمر بعده؛ وأبو عبد الله جعفر، تُوفّي في أيّام المعزّ؛ وحمزة، وعدنان. وأبو كتامة قَضَوْا بالمغرب؛ ويوسف، مات ببَرقة سنة اثنتين وستّين وستّمائة، وأبو القَرَان عبد الجبار، تُوفّي بمصر في سنة سبعٍ وستّين وثلاثمائة، وأربعُ بنات وسبْع سَرَارٍ.

قضاته: إسحاق بن أبي المنهال إلى أن تُوفّي؛ ثم أحمد بن بحر إلى أنْ قتله أبو زيد[٤] لمّا فتح إفريقية في صفر سنة ثلاثين؛ ثم أحمد بن الوليد، ولَّتْه الرَّعِيَّةُ فأقره.

حاجبُه: جعفر بن علي حاجب أبيه.

---

(١) في الأصل: «منشوراً الصقلبي، والتصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣٣٢.

(٢) هو من قبيلة زناتة من مدينة توزر، اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٧٥ وفيه «أبو يزيد مخلد».

(٣) في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ١١٠ «ولد بسلمية سنة سبع وسبعين ومائتين، وقيل: ولد في المحرم سنة ثمان وسبعين».

(٤) «أبو يزيد» في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١٧.

ذكر بيعة المنصور بنصر الله[(١)]

هو أبو الطّاهر إسماعيل بن القاسم بأمر الله بن عبيْد الله المهديّ، وهو الثالث من ملوكهم. بايع له أبُوه القاسم بأمْر الله في حياته، وولاَّهُ حرْبَ أبي[(٢)] زيد؛ وهَلك أبُوه القائم بأمر الله، فأخْفى إسمَاعيل موته، وناصب أبا زيد حتّى رجَع إلى المهْديّة؛ وتوجَّه أبو زَيد إلى سُوسَة فحاصرَها، فأدركه المنصورُ إسماعيل فطرده عنها؛ ووَالَى عليه الهزائم إلى أن أسَرَه في يوم الأحد لخمَسٍ بَقِين من المحرَّم سنة ستٍّ وثلاثين وثلاثمائة؛ فماتَ بَعْد أسره بأربعة أيّام من جِراحةٍ كانت به. فأمَر المنصُور بسَلْخِه، وحَشَى جِلْدَه قُطناً وصَلبَه، وبنى مدينَته المسمَّاة بالمنصوريّة في موضع الْوَقْعةِ، واستوطنها في سنة سبعٍ وثلاثين وثلاثمائة.

وكان المنصُور شجاعاً بليغاً يرتجِلُ الخطب. حكى الْمرورُوذيّ قال: خرجت مع المنصورُ يومَ هُزم أبو زيد، فسَايرَتُه وبيده رمحان[(٣)] فسقط أحدهما مراراً وأنا أمسحُه وأناوِلُه إيّاه وتفاءلْت له بذلك. فأنشدت:

فألْقَت عصاها واستَقرَّ بها النّوى كما قَرَّ عيناً بالإياب المسَافِر

فقال: ألاَ قلتَ ما هُو خيرٌ من هذا وأصدق: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: ١١٧ ـ ١١٩].

ذكر وفاة المنصُور بنصْر الله وشيء من أخباره

كان وفاتُه في يوم الجمُعة آخرَ شوّال سنةَ إحدى وأربَعين وثلاثمائة. وكان سببُ وفاتِه أنّه خرج في شهْر رمضانَ من السَّنة إلى جَلُولاء[(٤)] ومعه جاريتُه قضيب، وكان يحبُّها، فجاءَ مطرٌ عظيم وَريحٌ شَديدةٌ بجلولاء واشْتدّ البردُ بها؛ فخرجَ منها على فرسٍ وقَضِيبُ في غمازيه وهو يريد المنصُوريّة، ودَامَ عليه المَطَر والبرْد.

---

(١) انظر ترجمته وأخباره في: الأعلام للزركلي ج ١، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣. ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ٢٣٤ رقم ٩٨. والعبر وديوان المبتدأ والخبر، لابن خلدون، ج ٤، ص ٤٣. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ٣٥١.

(٢) «ابن» في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) في الأصل: «ريحان» والتصحيح من أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ١٩. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٨٨.

(٤) جلولاء: مدينة بإفريقية وردت أيضاً جلولا: الحميري: الروض المعطار، ص ١٦٨، انظر أيضاً: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

قال أبو الرَّقِيق: أخبرني مَنْ كان معَهُ، قال: كنَّا ننظُر إلى العبيد السُّودَان على الطريق قُعوداً فتأمّلُهم فنجدُهم موتَى، وقد جَفُّوا من البرد. ووصل المنصور إلى قَصره آخرَ النّهار، فدخل الحمّام، فاعتَلَّ لِوَقْتِهِ. وصلّى العَيدَ بالنَّاس في مَبادِىء علّته، ثم اشْتَدّت به، فماتَ في التّاريخ [المذكور][1]، وأوصى ابنه أنْ يمنع من النَّوْح علَيه.

وكان مولدُه بالقَيْروان، في سنة اثنَتين وثلاثمائة، وكان عمرُه أربعين سنة.

وقال ابنُ الرّقيق: إنّه وُلد برَقَّادَة في سنة إحْدَى وثلاثمائة، وكان عمرُه أربعين سنة تقريباً. ومدَّة ملكه سَبْعُ سِنين وأيّام[2].

أولاده الذكور خمسة، وهم: أبو تميم معدّ، وهاشم، وحيدرة، ماتَ بمصر سنة اثْنَتَين وثمانين وثلاثمائة، وأبو عبد الله الحسين، وأبو جعفر طاهر. وكان له خمسُ بنات، وثلاثُ أمّهات أولاد.

قضاته: أحمد بن محمد بن الوليد، ثم محمد بن أبي المسطور، ثم عبد الله بن هاشم، ثم علي بن أبي شعيب، عَلَى المنصُوريّة، ثُم أبو محمد زُرارة بن أحمد، ثم أبو حَنيفَة النّعمان[3] بن محمّد التّيْمي.

حاجبه: جعفر بن علي، حاجب أبيه وجدّه.

ذكر بيعة المعزّ لدين الله[4]

هو أبو تميم معدّ بن المنصُور بن القائم بن المهديّ، وهو الرّابع من مُلوك الدّولة العُبَيْدِيّة، وأول من مَلَك مصر والشّام منهم.

صار الأمرُ إليه ببلاد المغرب بعد وفاة أبيه المنصور، في آخر شوال سنة إحدَى وأربعين وثلاثمائة، فدبَّر الأمُور وأحكمَها إلى يوم الأحد السّابع مِنْ ذي الحجة من السنة، فجلَس على سرير الملك، ودل عليه الخاصّة وكثيرٌ من العامَّة فسلّموا عليه

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ١٩.

(٣) هو أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن أحمد بن حيون صاحب كتاب افتتاح الدعوة. وابن خلكان: فيات الأعيان:، ج ٥، ص ٤١٥.

(٤) انظر ترجمته وأخباره في: ووفيات الأعيان لابن خلكان:، ج ٥، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٨، رقم ٧٢٧. والمنتظم لابن الجوزي، ج ٧، ص ٨٢. والدرة المضية لابن بكر بن أيبك الدواداري، ص ١١٩، وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون، ج ٤، ص ٤٦. والكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٦٦٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١١٣. وعبر الذهبي، ج ٢، ص ٣٣٩، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٥٢.

بالخَلافَة، وتلقَّب بِالمعزّ لدين الله. ولم يُظْهر على أبيهِ حُزْناً؛ وكان عمرُه يوم وَلِيَ أرْبَعاً وعشرين سنة. وأرسل إلى جميع مَنْ بالمهديَّة من عُمُومَتِه وعُمُومة أبيه، فأتَوْه وسلَّموا عليه بالإمارة، فأخذ عليهم البيعة، ومشَوْا بين يديه رجَّالَةً، وأرضاهم بالمصلاّة. واستقام له الأمر. وصلّى بالنّاس عيد الأضحى، ثم صرفَهُم إلى المهديّة.

ودخل في طاعته مِنَ العُصاةَ مَنْ عَصى على غيره ممّن كان بجبل أوراس من بني كملان ومليلة، وهما من قبائل هَوّارة.

ثمّ بعث القائدَ جوهراً في يوم الخميس لِسبعِ خلَوْن من صَفر سنة سبع وأربعين وثلاثمائة. في جيش عظيم إلى المغرب، فسار حتّى بَلَغ البحر المحيط، فأمر أن يُصَاد من سَمَكِه، وجعلَهُ في قُلَّةٍ وجعل فيها الماء، وحملَها إلى المعزّ صُحْبة البريد؛ وجعل في باطن كتابه من ضريع البحر. وعاد وفَتَح فاس يوم الخميس لعشرٍ بَقِينَ من شهر رمضان سنة ثمانٍ وأربعين وثلاثمائة؛ واستخْلَف عليها وعلى سجِلْمَاسة وتاهرت وعاد جوهرٌ من المغرب إلى رَقَّادَة يوم الجمعة لاثنَتَيْ عشرة [ليلة][1] بقيت من شعبان.

وفي سنة خمسين[2] وثلاثمائة، في النّصف من المحرّم، غلبت الرّوم على جزيرة إقريطش[3]، ففتحوا المدينَة وقتلوا مِنْ أهلها مائتي ألف رجل وسَبَوْا من النساء والصِّبيان مثل ذلك، وحرَّقوا المصَاحف والمساجد؛ وكانُوا قد أتَوْا في سبعمائة مركب.

وفي سنة إحدى وخَمْسين وثلاثمائة بعثَ المعزّ لدين الله عُمّاله من بَرْقة إلى سِجلْمَاسَة، إلى جزيرة صقلّية، وأمرهم أن يكتُبوا جميعَ الأطفال الذين في أعمالِهِمْ من الخاصَّة والعامّة لِيُخْتَنوا مع أوْلاده، فبلغُوا عدَّةً لا تُحصى. فلمّا كان في أولَ يَومٍ مِنْ شهر ربيع الأول من هذه السنة ابتدأ بطُهور أولاده وأهْل بيته وأولاده خاصَّته من الكُتَّاب ورِجال الدّولة وغيرهم، وأعطاهم الصِّلات والكساوي. قال: وازْدَحَم النّاس في يوم الاثنَين لإحدَى عشرةَ [ليلةً][4] خلت من شهْر ربيع الأول فمات من الرّجال مائة وخمسون نفساً.

وفي سنة خمسٍ وثلاثمائة أمر المعزّ لِدين الله بحَفْر الآبار في طريقِ مِصْر وأن

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة ليستقيم المعنى. ولمزيد من التفصيلات حول فتوحات جوهر بالمغرب. انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٢١ ـ ٢٣، والكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩، ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

(٢) في الأصل خمس، والتصحيح يقتضيه سير الأحداث.

(٣) إقريطش: بفتح الهمزة وتكسر. جزيرة في بحر المغرب. وهي حالياً جزيرة كريت بالبحر المتوسط. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٣٦.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

يُبنى لَهُ في كلِّ موضع يُقيم به قُصور، فأخذُوا في عمل ذلكَ، حتّى تمّ، وفي يوم الجمُعة لِلَيْلَةٍ بقِيَت من جُمادى الآخرة، سنةَ سبعٍ وخمسين، وردت النُّجُبُ من مِصْر بوفاة كافور الإخشيدي، وكانت وفاتُه لعشرٍ بقينَ من جُمادى الأولى. كما تقدم.

ذكر خبر إرسال القائد جوهر الكاتب بالعساكر إلى الدّيار المصرية

وفي سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة قَدِم القائدُ جوهر من المغرب بعَسْكرٍ عظيم من كتامَة والجند والبربر؛ فأمرهُ المعزُّ بالاستعداد والخُروج إلى مصر. فأقام بقصر الماء بالقُرب من المنصُوريَّة ليجتمع إليه الحشود؛ وفتح المعز بيْتَ المالَ ووَضَع العطاء. وحَشَدَ من إفريقية من الكتاميين والزويليين والجند والبربر، وأعطى من مائة دينار إلى عشرين ديناراً حتى عمّهم بالعطاء، وتصرفوا في القيروان وصبره في ابتياع ما يحتاجُون إليه، ثم أمر المعزُّ بالرَّحيل، فرحل في يوم السّبت لأرْبَع عشرةَ ليلةً خلت من شهر ربيع الأول منها. وفارقه خمسمائة فارس من البربر، فجرَّد خلفَهُم عدّةً من الوُجوه فلم يَرْجعوا؛ فقال المعز: الله أكرَمُ أن ينصرَنا بالبَرْبَر، ثم سار جوهر بجميع مَنْ معه من العساكر، ومعه ألف حمل من المال، ومن السلاح والعُدَد والكراع ما لا يوصف، وأَغَذَّ السير حتى أقبل على الدّيار المصرية.

ذِكر خبر وصُول جَوْهر القائد بالعسَاكر إلى الدّيار المصرية وما كان بينه وبين الإخشيدية والكافورية من المراسلة في طلب الأمان وتقريره الصّلح ونكثهم وقتاله إياهم إلى أن ملك الدّيار المصرية واختط القاهرة

قال ابن جلب[1] راغب في تاريخ مصر: وفي جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة وردَت الأخبار إلى مصر بقدوم القائد جوهر، فاضطرب المصريون لذلك اضطراباً شديداً، ووقع اتّفاقُ أرباب الدّولة بحَضْرة الوزير جَعفر بن الفَضل على مُراسَلَته في الصُّلح وطلب الأمان، وإقْرارِ ضِيَاعهم وأعمالِهم في أيديم. فراسَلُوه في ذلك. واشْتَرط نحرير سويران[2] ألاَّ يجتمع مع القائِد جَوْهر، وأن يكون له الأشْمونين إقطاعاً،

---

(١) هو محمد بن علي بن يوسف المعروف بابن ميسر، توفي ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م. له كتاب أخبار مصر. الزركلي: الأعلام ج ٦، ص ٢٨٢. وكتابه أخبار مصر نشر حديثاً بالقاهرة بتحقيق أيمن فؤاد سيد، وصدر عن المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٨١ بعنوان «المنتقى من أخبار مصر».

(٢) في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ٣٧٨: «نحرير الشويزاني»، وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٣١: «الشويزاني».

وتَقَلُّدَ مكة والمدينة، ويَتَوَجّهُ فيقيم بالحجاز، وسألوا الشّريف أبا جعفر مُسلم الحسَني في المسيرِ برِسَالَتهم إلى جَوْهر، فأجابهم، وشَرَط أن يكون معَهُ جماعةٌ من الأَعْيَان، فجهَّزوا معه أبا إسماعيل إبْراهِيمَ بن أحمد الزّينبي، وأبَا الطيّب العباس بن أحمد العبّاسي والقاضي أبا طَاهر، وغيرهم. وكتبَ الوزير كتاباً بما يُريد.

وسار أبو جعفر بمَنْ مَعهُ في يوم الاثْنَين لاثْنَتَيْ عشرة لَيلَةً بَقِيَتْ مِن شهْر رجب من السَّنة، وقيل لِلَيْلَةٍ بقيت منه، فلَقِي القائدَ جوهراً قد نزل بتَرُوجَة فاجتَمَعُوا به فبالغ القائدُ في إكرام الشّريف، وأدى الشّريف إليْه الرسَالة وأعطاه كُتب الجماعة، وعرَّفَه ما التمسوه، فأجابَهُم إلى ذلك، وكتب كتاباً بالأمان نُسخَتُهُ.

«بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيم، هذا كتابٌ من جوهر الكاتب، عبد أمير المؤمنين المعزّ لِدِين الله صَلَوات الله عليه، لجماعة أهل مصرَ منَ السّاكنين بها وبغَيْرِها[١].

إنّه قد وَرَد منْ سألتمُوه الترسُّل إليَّ والاجتماع مَعي، وهم[٢]: أبو جعفر الشّريف أطال الله بقاءه، وأبو طاهر إسماعيل الرئيس[٣] أيّده الله، وأبو الطيب الهاشميّ، أيّده الله، والقاضي أبو طاهر[٤] أعزه الله، وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله.

فذكرُوا عنكم أنّكم التمستُم كتاباً يشتملُ على أمانِكمْ في أنفُسِكم وأموالكم، وبِلادِكم ونَعَمِكُم[٥] وجميع أحوالكم؛ فعرَّفتهُم ما تقدَّم به أمْرُ مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين، صلواتُ الله عليه، مِن نَصْرِه لكم[٦].

لتَحْمَدوا الله[٧] تعالى على ما أوْلاَكم وتحمدُوهُ على ما حباكم[٨]، ولْتَدْأَبُوا[٩] فيما يلزمكم، وتُسَارِعُوا للطّاعة[١٠] العَاصِمة لكم، العائدة بالسَّعادة عليكم، المقْضِيَة بالسلامة لكم[١١]، وهو أنّه صلواتُ الله عليه، لمْ يكُنْ إخراجُه هذه العَساكر[١٢]

---

(١) ورد في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣ «أهل مصر الساكنين بها، من أهلها، ومن غيرهم».
(٢) في الأصل: «وهو» والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣.
(٣) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣، «الرسِّي».
(٤) لم يرد «أبو طاهر» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣.
(٥) لم ترد لفظة «نعمكم» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣.
(٦) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣ «وحسن نظره لكم».
(٧) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣ «فلتحمدوا الله».
(٨) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣ «وتشكروه على ما حماكم».
(٩) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣ «وتدأبوا».
(١٠) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣ «إلى طاعته».
(١١) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣ «العائدة بالسلامة لكم، وبالسعادة عليكم».
(١٢) في اتعاظ الحنفا «للعساكر» ص ١٠٤.

المنصُورة، والجيوش المظفّرة، إلا لِمَا فيه إعزازُكم وحِمايتُكم، والجهادُ عنكم؛ إذْ قد تخطفتكم[١] الأيدي، واستطال عليكم الْمُشرك[٢]، وأطمعَتْه نفسُه بالاقتدار على بلادكم[٣] [في هذه السنة، والتغلب عليه، وأسر من فيه][٤] والاحتواء[٥] على نَعَمِكم وأمْوالِكُم، حسب ما فعله في غَيْركم مِنْ أهلِ بلدان المَشْرق، وتأكّدَ عزمُه واشتدَّ كلبه، فعاجَله مَوْلانا وسيّدُنا أمير المؤمنين، صلواتُ الله عليه، بإخراج العساكر المنصورة وبادَرَه بإنفاذ الجيوش المظفَّرة لتقاتله[٦] دُونكم، وتجاهِدَهُ[٧] عَنكم وعن كافّة المسلمين ببَلَد المشرق، الّذين عمَّهم الخزي، وعَلتْهم[٨] الذِّلَّة، واكْتَنَفَتْهُمْ المصائب، وتتابعت لَدَيْهم[٩] الرَّزايا، واتَّصلَ عندهُم الخوف، وكثُرت اسْتغاثتهم، وعظم ضجيجهم، وعَلاَ صياحهم[١٠] ولم يُغِثْهم[١١] إلاَّ مَنْ أَرْمَضَهُ[١٢] حالُهم، وأبكى عَنه ما نَالَهُم، وأسْهَره[١٣] ما حلّ بهم، وهو مولانا وسيِّدُنا [فَرَجا بفضل الله، وإحسانه لديه، وما عوّده وأجراه عليه، استنقاذ من أصبح منهم في ذلٍّ مقيم وعذاب أليم][١٤]. أميرُ المؤمنين، صلوات الله عليه، وأن يُؤمِّن من استولى عليه المهل[١٥] ويفرخ رَوْعَ مَنْ لم يزل في خَوْفٍ ووَجل. وآثر إقامَة الحجّ الذّي تعطَّل، وأهمَل العبادُ فروضَه وحقوقه، لِلْخوفِ[١٦] المستولي عليهم، و[إذ][١٧] لا يأمنون على أنفسِهم ولا على أموالِهم،

---

(١) في الأصل: «تخطفكم» والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤.
(٢) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «المستذل».
(٣) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «بلدكم».
(٤) ما بين المعكوفين إضافة أثبتناها من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤.
(٥) في الأصل: «والأحتما» والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤.
(٦) لم ترد لفظة «لتقاتله» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤.
(٧) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «ومجاهدته».
(٨) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «وشملتهم».
(٩) لم ترد لفظة «لديهم» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤.
(١٠) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «صراخهم».
(١١) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «فلم يغثهم».
(١٢) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤، إلا من أرمضه أمرهم، ومضه حالهم».
(١٣) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «وأسهرها».
(١٤) ما بين حاصرتين إضافة أثبتناها من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤.
(١٥) هكذا في الأصل، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي «الوهل» التي هي بمعنى الفزع، ابن منظور: لسان العرب (وهل).
(١٦) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «الخوف».
(١٧) ما بين حاصرتين إضافة من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤.

و[١] إذ قَدْ وقعَ[٢] بهم مرّةً بعد أخرى، فسُفكت دِماؤُهم.

وأطال جوهر في كتابه[٣]، وحضّهم على الطّاعة، وأشْهد عليه الشُّهُود فيه، وخَلَعَ على الجماعة، وحملهم.

قال: ولما توجّه الشريف وَمَنْ معه إلى القَائد جوهر، اضطرب بعْدَه البلدُ اضطراباً شديداً، وأَخذت الإخشيدية والكافوريّة في إخراج مضارِبهم، وقام رجل من أهلِ بَغْداد، يعرف بابن شعبان، يومَ الجمعة في المسجد قبْل الصّلاة فقال: أيّها النّاس قد أظلَّكُمْ من أخْرَب فَارس وسَبَى أهلها، وذكر ما حلَّ بأهل بلاد المغرب منه، وقال: القوا الرّجل القليلَ المعرفة، يعني الوزيرَ ابن حنزابة، فإنّه قد شَرَعَ في إتلاَف بَلَدِكم وسَفْك دمائكم بمراسلة هذا الرّجل، يعني القائدَ جوهراً، فسمع النّاس كلامَه، ورجعوا عما سألُوه من الأمان، وبلغ الشّريفَ ومَنْ معه انتقاضُ الإخشيديّة والكافورِيَّة، وعزمُهم على القتال، فكتموه عن القائد جوهر خوفاً أن يعتقلهم، وبادَرُوا بالعَوْد وساروا، فبلغَ القائدَ ذلك بعد رحِيلهم، فردَّهم، وقال: قد بلغني أنّ القوْم قد نقضُوا ورجعوا، فردُّوا عليَّ خطِّي فرفقوا به وداروْه، وقالوا: إذاً يُظْفِرُك الله وينصرُك. فقالَ لِلقَاضِي: ما تقولُ فيمن أراد [أن][٤] يشقّ مدينةَ مصر فيجعلها طريقاً لجهاد المشركين والحج إلى بيت الله الحرام؟ فمنعُوه، من الجواز له أن يقابلهم. فقال: نعم، اكتب خطّك بذلك[٥].

ثم سار الشريف ومَنْ معَه إلى مِصر فوصلوها لسبعِ خلَوْن مِن شعبان، فركب الوزيرُ والنّاس إليهم، واجتمع الإخشيديّة والكافوريّة وغيرهم، فقرأ عليهم السّجل الذي كتبه القائد، وأوصل إلى كلِّ واحدٍ جوابَ كتابه بما أرادَ من الأمان والولاية والإقطاع. فلما قرؤوا الكتب خاطبوا الشّريف بخطابٍ طويل؛ فقال نحرير ما بيننا وبينه إلاّ السيف فقدَّمُوا عليهم نحرير سويرَان، وعبؤوا عساكرهم، وعدّوا إلى الجيزة والجزيرة، وحفِظُوا الجسور.

ووصل جَوْهَر، وابتدأ القتال بيْنَهم في حادي عشر شعبانَ. ثمّ مضى القائدُ جوهر بعدَ ذَلك إلى مُنْيَة الصّيادين[٦]، وأخذ المخاضة بمُنْية شلقان واسْتَأْمَن إليه جماعةٌ من

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة أثبتت من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤.

(٢) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «أوقع».

(٣) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ ـ ١٠٧.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها سياق الكلام.

(٥) فقال: ما تقول فيمن أراد العبور إلى مصر ليمضي إلى الجهاد لقتال الروم فمنع، أليس له قتالهم؟ فقال له القاضي: نعم، فقال: وحلال قتالهم؟ قال: نعم» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٨.

(٦) منية الصيادين: من القرى القديمة في مصر. محمد رمزي القاموس الجغرافي، ج ٢، ق ٢، ص ٦٥.

أهل مصر وغلمانهم في مراكب، ووَقَع القتال، وزحف جَعْفر بن فَلاح[١] بالرجال، وقاتل عساكِرَ مصر، ووقَعَ القتلُ في الإخشيدية والكافوريّة فانهَزَمُوا ليلاً، ودخلوا مِصْر وأخذوا مَا في دُورِهم وسارُوا إلى الشّام.

قال: ولما انْهزَم ركِبَ الناس إلى دار الشّريف أبي[٢] جعفر مسلم وسألوه كِتاباً إلى القائد جَوْهر بإعَادَةِ الأمان عليهم، فكتب كتاباً إليه يهنئُه بالفتح، وسأله إعَادَة الأمان للمصريّين؛ فكتب القائدُ أماناً وبعثه إلى الشّريف، فقرأه على النّاس، وهو:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. وصل كتاب الشّريف، أطال اللّهُ بقاءَه وأدَامَ عِزَّهُ وتأييدَه وتمكينَه[٣]، يهنّىءُ بما هيأَهُ الله[٤] من الفتح المبارك[٥]، «وهو، أيَّده الله، المهنأ بذلك لأنها دَوْلتُه ودولة أهله، وهو المخصُوص بذلك»[٦] وأمّا ما سأل من الأَمان وإعادَةِ الأمان الأول، فقد أُعيدَ إليه ما طلب، وجعلت إليه عن مولانا وسيدِنا أمير المؤمنين، صلواتُ الله عليه، أن يُؤمّن النّاس كيف شاء بما شاء. وقد كتبتُ إلى الوزير، أيّده الله، بالاحتياط على بيوت الهاربين إلى أنْ يدخلوا في الطّاعَة، وما دَخَلت فيه الجماعة، ويعمل الشّريف أيّده الله، على لقائي في يوم الأحد لأربعَ عشرةَ ليلةً تخلو من شعبان بجماعة الأشراف والعُلماء والثناء، وأهل البلدان إن شاء الله تعالى».

فقرأ الشريف الكتاب على الناس وسكَّنَهم وهدّأهم، ففتحوا البلد، وأخذ النّاس في التجهُّز إلى لقاء القائد جوهر، وقتل نحرير وميسر وبلال ويمن الطويل، وجيءَ برُؤُوسهم إلى القائد.

قال: وخرج النّاسُ إلى الجيزة والْتَقَوْا القائد، فنادى منادٍ ينزل النَّاسُ كلُّهم إلا الشَّريف والوزير، ففعلُوا ذلك، وسلَّموا عليه واحداً واحداً، وأبو جعفر أحمد بنُ نَصر يعرِّفُه بالنّاس، والشَّريف أبو جعفر مسلم عن يمينه، وأبو الفضل الوزير عن يساره.

---

(١) هو أبو علي جعفر بن فلاح الكُتامي، كان أحد قواد المعز بن تميم معد بن المنصور العُبيدي صاحب إفريقية. قتله الحسن بن أحمد القرمطي المعروف بالأعصم سنة ٣٦٠ هـ. وابن خلكان: وفيات الأعيان: ج ١، ص ٣٦١ ـ ٣٦٢، رقم ١٣٨. ترجمته في: عدة مواضع من اتعاظ الحنفا للمقريزي، وصفحات متفرقة من الدرة المضية ج ٦، والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي ص ٣٠ ـ ٣٢. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٦٢.

(٢) في الأصل: «ابن» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٠ «وعلوه».

(٤) «وهو المهنأ بما هنأ به» اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٠.

(٥) «الفتح الميمون»، هكذا في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٠.

(٦) ما بين المزدوجتين ساقط من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٠.

فلمَّا فرغ السّلام انصرف النّاس، وابتدأ العسكرُ في الدُّخول منذُ زوال الشّمس، فعبرُوا الجسْر بالدُّرُوع والجواشن[١]، ودخل القائدُ جوهر إلى المدينة بعد العصر من يوم الثلاثاء لاثنتي عشرةَ ليلةً بقيت من شعبان، سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة، والبنود[٢] والطّبول بين يديه، ونزلَ الموضعَ الذي اختطّ فيه القاهرة واختط القصر.

وأصبح المصريُّون حضَرُوا إليه للهناء، فوجدوه قد حفر أساس القصر في تلك اللّيلة. قال: ولم يكن في المكان عمارة ألْبَتَّة إلاَّ بستان كافور. ولم يزل هذا البستان على حالتِه إلى سنة خمسٍ وأربعين وستمائة فعمر مكانه مساكنُ وهو الخطّ الذي يُعْرف الآن بالكافوريّ[٣].

قال صاحب كتاب خطط[٤] مصر: لمَّا دخل جوهر القائد واختطّ القاهرةَ قرّر كلَّ جانب منها على أميرٍ من أمراء عَسْكره وأرصدَهُ لبناء تلك[٥] الحارة حَسْبما أمره المعزّ لدين الله فسميت كلُّ حارةٍ باسم مُقَدَّمها أو الطّائفة التي نَزَلَت بها. وابتدأ بالعَمارَة في شهر رَمَضَان من السنة.

قال المؤرخ: ودخل القائدُ جوهر مِصْر، وبين يديه ألفٌ ومائتا صندوق مالاً[٦] وأقام عسكرُه يَدْخُل سبعةَ أيّام. وبعث إلى مولاه المعزّ لدين الله بيشّرُهُ بالفتح.

قال: ولما دخل القائدُ مِصر كان الغلاءُ بِها، فنادَى مُنادِيه: مَنْ عِنْدَه قمح فَلْيُخرجْه. وفرّق الصّدقات على النّاس، وأقرّ أبَا الفضل على الوزارة، وجهّز جعفر[٧] ابن فَلاحٍ إلى الشّام.

---

(١) الجواشن. جمع جوشن: وهو اسم الحديد الذي يُلبَس من السلاح، ابن منظور: لسان العرب (جشن). وهو مثل الزرد يلبس على الظهر، والفرق بينه وبين الزرد أن الزرد يكون في حلقة واحدة فقط، والجوشن يكون حلقة حلقة يتداخل فيها صفائح رقيقة من التنك. القلقشندي، صبح الأعشى ج ٣، ص ٤٧٣.

(٢) البنود: جمع بند، العلم الكبير، فارسي معرّب، من أعلام الروم يكون للقائد، يكون تحت كل علم عشرة آلاف رجل أو أقل أو أكثر. ابن منظور: لسان العرب (بند). القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٦، ص ٥٩. ويذكر ابن خلكان أن هذا البند كان أبيض اللون، وفيات الأعيان ج ١، ص ٣٧٩.

(٣) بستان الكافوري: أنشأه الأمير محمد بن طغج الإخشيد. وعرف ببستان كافور. المقريزي المواعظ والاعتبار ج ٢، ص ٢٥.

(٤) هو أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي، مؤرخ الديار المصرية أصله من بعلبك، توفي سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م. من تآليفه كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» ويعرف بخطط المقريزي، والسلوك في معرفة دول الملوك». الزركلي: الأعلام ج ١، ص ١٧٧.

(٥) في الأصل: «ذلك» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٦) يذكر المقريزي «أن المال كان في ألف وخمسمائة صندوق» اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ١١١.

(٧) انظر أحداث سنة ٣٥٨ في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٥٩١.

ذكر إقامة الخُطبة، وضرب السكة بمصر، للمعزّ لدين الله وما قيل في الدعاء له على المنبر، وما نقش على السِّكة

وفي يوم الجمُعة لعشر بَقِينَ من شعبان من السّنة ركب القائدُ جوهر إلى المسجد الجامع العتيق[١] لصَلاة الجمعة، ولإقامة الدعوة، في عسْكرٍ كثير. وخطب هبةُ الله بن أحمد خليفةَ عبد السميع بن عُمير العبّاسي، لغيبة عبد السميع، فخطب وعليه البياض، ودعا للمعزّ لدِين الله، وقال في دُعائه في الخطبة الثّانية:

اللّهم صلِّ على عَبْدك ووَليّك، ثمرة النُّبوَّة، وسليل[٢] العِتْرة[٣] الهادِيَةِ المهديَّة، عبد الله الإمام مَعدّ أبي تميم المعزّ لدين الله، أمير المؤمنين، كما صلَّيت على آبائِهِ الطاهرين وأسلافه المُنْتَجَبين[٤]، الأئمَّة الراشدين. اللهم ارفع دَرَجته، وأَعْلِ كلمته، وأوضِحْ حُجَّتَه، واجْمَع الأمَّة على طاعته، والقلوبَ على مُوالاَتِه [وصحبته][٥]، واجعَل الرَّشاد في مُوافقته، وَورِّثْه مشارقَ الأرضِ ومغارِبها، وأَحْمِدْهُ مبادىءَ الأُمور وعواقِبَها، فإنك تقولُ وقولُك الحق: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥] فلقد امْتَعَضَ لِدينكَ، ولما انْتُهك من حرمتك[٦]، ودَرَسَ من الجهاد في سبيلك، وانقطع من الحجِّ إلى بَيْتك، وزيارةِ قبرِ رسُولِك صلى الله عليه [وسلم][٧] وأعدَّ للجهاد عُدَّته، وأخذ لكل خطْبٍ أُهْبَتَه فسيَّر الجيوشَ لِنَصرك[٨]، وأنفق الأموال في طَاعَتِك، وبَذَلَ المجهود في رضاك، فارْتَدَع الجاهل، وقَصرُ المُتَطَاول، وظَهَرَ الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ، فانصُر اللّهم جُيُوشه التي سيَّرها، وسراياه التي انْتَدَبَها لقتال المشركين [وجهاد الملحدين، والذب عن المسلمين، وعمارة الثغور والحرم][٩] وإزالَةِ الظُّلْم والتُّهَم، وبَسْطِ العَدل في الأمم. اللّهم اجْعَل رَاياتِه عاليةً منشُورة[١٠] وعساكرَه مُؤَيَّدةً منصُورة، وأَصْلِح به وعلى يَديه، واجعل لنا منه واقيةً عليه.

(١) الجامع العتيق: هو جامع عمرو بن العاص بالفسطاط. المقريزي المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٤٦.
(٢) سليل: الولد. ابن منظور: لسان العرب (سلل).
(٣) العِترة: أهل البيت. الأسرة. ابن منظور: لسان العرب (عتر).
(٤) لم ترد لفظة «المنتخبين» في اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ١١٤.
(٥) ما بين حاصرتين إضافة من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٥.
(٦) في الأصل: «حريمك» والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٥.
(٧) ما بين حاصرتين إضافة أثبتناها من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٥.
(٨) «لنصرتك» من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٥.
(٩) ما بين حاصرتين إضافة أثبتناها من اتعاظ الحنفا ج ١، ص ١١٥.
(١٠) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، الصفحة نفسها «مشهورة».

وضُربت السّكة على الدّنانير، وكان على الوجه الواحد لا إلٰه إلا الله محمَّدٌ رسولُ الله، عليٌّ خيرُ الوصيِّين، ووزيرُ خَيْر المرسَلِين، محمد رسول الله أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِه الْمُشْرِكُون، وعلى الوجه الآخر دعاء الإمام معدّ، لتوحيد الإلٰه الصَّمد، المعزّ لدين الله، أمير المؤمنين. ضرب بمصر في سنة ثمانٍ وخمسين [وثلاثمائة][1].

قال: وأشْرَكَ القائدُ جوهر في الدَّوَاوين المصريِّين والمَغَارِبة، فجعل في كلِّ مكانَ مصريًّا ومغربيًّا.

وفي ذي الحجّة من السنة تكامل بمصر من الإخشيدية وقوّادهم خمسةُ آلاف فارس استأمنوا للقائد جوهر، فيهم أربعة عشر رئيساً فأمَّنهم، ثم قبض عليهم واعتقلهم، ثم سَيَّرهم إلى المعزّ بإفريقية.

وفي سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، في يوم الجمعة لثمانٍ خلَون من شهر ربيع الآخر[2]، صلّى القائدُ جوهر في جامع ابن طولون وأذَّن «حيّ على خَيْر العمل»، وهو أوّل ما أُذّنَ به بمصر. ثم أُذِّنَ بذلك بالجامع العتيق بمصر في الجمعة الثانية.

ذكر خروج تبر الإخشيدي والقبض عليه

وفي شعبان سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ثار تبر الإخشيدي[3] بناحية أسْفل الأرض، ودعا للخليفة المطيع لله، وكتب اسمه على البنود، فراسَلَه جوهر، فلم يَقْبل؛ وكان معه أبو القاسم العلوي الأقطيني. فأنفذ القائد جوهرٌ العساكر لقتاله برًّا وبحراً، وكان قد كَبَس صَهْرَجت[4] ونهبها، فأمَرَ القائد بِنَهْبِ دُورِه بمصر. وقَبَضَ على صهرِهِ فأغار تبر، ونهب ضياعاً، فوافَتْهُ العساكر بصَهْرجت، فانهزم إلى تِنّيس، وركب البحر الملح يُريد الشام، ثم إلى الروم، فأنْفَذَ القائدُ جوهرٌ أسطولاً خلفه، فلما بلغ صُور[5]

(١) ما بين حاصرتين إضافة من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٦.

(٢) في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٥٩٠، ورد «هـ في جمادى الأولى» كذلك في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٢٠، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ١٢٥. وأخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٤١٣.

(٤) صهرجت: قرية قديمة تابعة لمحافظة الدقهلية بالقرب من ميت غمر. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ٢، ق ٢، ص ١٧٣، ص ٢٥٧.

(٥) صُور: بضم أوله وسكون ثانيه، مدينة مشهورة، على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وتقع حالياً جنوب لبنان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

دخل بها الحمّام، فقُبض عليه وجماعةٌ من أتباعه وغلمانه، وذلك في شهر رمضان منها، وحُمِل إلى مصر، فقدِمَها لأربع عشرة ليلةً خلت من شوال، فأدخل على فيل وبين يديه رجلٌ وخَلْفه رجلٌ، وغلامه عجيبٌ على جملٍ خلفه، ومعه قرد وخلفه غلامُه سرور على جمل، وجماعةٌ على جملٍ منكسِي الرؤوس، ثم اعتُقِلوا واستَصْفَى القائدُ أمواله وودائعه، وطُولب بالأموال، فلمّا اشتد عليه الطلب جرح نفسه فماتَ بعد أيّامٍ فسُلخ جَلْدُه وحُشي تِبناً وصُلبَ جلده، وضُرِب شلوه[١].

ذكر فتوح الشام

قد ذكرنا أن القائد جوهراً جهَّز جعفر بن فلاح إلى الشام بالعساكر في سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة، فسارَ جعفر ولَقِي الحسن بن عبد الله بن طُغج بالرَّملة، وهو يومئذٍ صاحب الشام، فهزمه جعفر بن فَلاح وأسره، وبعث به إلى مصر، ثمّ سار إلى دمشق فملكها في سنة تَسع وخمسين بعد حَرْب شديدةٍ. فكتب إلى القائد جوهر بالفَتْح، واستأذنه في المسير إلى غزو أنطاكية[٢]، فأذن له القائد فسار نحوها في نحو عشرين ألف فارس، فأقام مدةً وكثُرت جُموعُه وعساكره وانبسطت يدُه، ودانت له البلاد فحاصر أنطاكية مدة إلى أن اتَّصل به مسير مَدَدِ الرُّوم إليها، فعاد عنها إلى دمشق[٣].

ذكر مقتل جعفر بن فلاح واستيلاء القرامطة على دمشق

وفي سَنة ستين وثلاثمائة[٤] وصَل الحسنُ الأعصم القَرْمطيّ إلى دمشق. وقيل: إنه إنَّما قدم بأمر الخليفة المطيع فخرج إليه جَعْفر بن فَلاَح وقاتله، وكان عليلاً فقُتل وانهزم أصحابه ونُصب رأسُه على دمشق.

وملك القَرمطيُّ[٥] دمشق والشام، وسار إلى الرَّملة فانحاز عنه سعادة بن حَيان[٦]

---

(١) شلو: عضو. الفيروزابادي: القاموس المحيط (شلو).

(٢) ورد في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٦٠٣، أن الروم قد ملكوا مدينة أنطالية في سنة ٣٥٩ هـ.

(٣) يذكر المقريزي أن جعفر بن فلاح لم يسر بنفسه إلى أنطاكية. اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ١٢٦. انظر أيضاً كنز الدرر للدواداري ج ١، ص ١٣٣.

(٤) ورد في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٦١٤، أن جعفر بن فلاح قد قُتل في ذي القعدة من سنة ستين وثلاثمائة.

(٥) هو الحسن بن أحمد القرمطي المعروف بالأعصم. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٦١. وابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٦١٥. وردت لفظة الأعظم بصور مختلفة في عدة مواضع. مثل: الأعسم، الأغشم، انظر أيضاً المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ١٣٠.

(٦) كان والياً على الرملة منذ شوال ٣٦٠ هـ/ ٩٧٠ م المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ١٢٨. وابن =

إلى يافا وتحصن بها، فسارَ إليه وحاربه، ثم سار يُريد مصر، فتأهب القائدُ جوهر لذلك، وحَفَر خندقاً[١]، وبنى عليه باباً كبيراً، وركّب عليه الباب الحديد الذي كان على الميدان الإخشيدي، وبنى عليه بابين آخرين، وبنى القنطرة على الخليج، وجعَلَها ممرًّا لِمَن يريد المقس[٢].

وكاد القَرمطي يأخذ القاهرة، ثمَّ رجَع عنها بغير سبب عُلِم[٣] وكبس الفرما، ثم قاطَع أهْلَها على مالٍ فحملوه إليه، وأخذ عاملَها عبد الله بن يوسف، وقيل إنّه كان مَعَهُ خمسة عشرة ألف بغل تحمل صناديق الأموال وأَوَانِيَ الذَّهب والفضَّة والسّلاح، سوى ما تحمل المضارب والخيام والأثقال[٤].

وفي سنة ستّين وثلاثمائة أيضاً بنى جوهرٌ سوراً على القُصُور التي بناها في سنة ثمانٍ وخمسين وجعلها بلداً وسماها المنصورية، ولما استقرَّ المعزّ سمّاها القاهرة.

وفي سنة إحدَى وستّين وستمائة، في المحرَّم، كبس يارُوق الفرما وأخرج منها ابن العُمر القَرمطيّ، وأرسل إلى مصر رؤوساً وأعلاماً وغيرَ ذلك. وفي هذا الشّهر عصى أهل تنيس وغيّروا الدَّعوة، ودَعَوْا للمُطِيع والقرامطة، وحاربوا ياروق. وفي صَفَر وصل ياروق مُنْهَزِماً من الْقَرامِطة وهم في إثره، وأقبلت عساكر القرامطة حتى بلغوا عين شمس واستعدَّ القائد [جوهر][٥] لِلِقَائِهِم، وأغلق الأبواب التي بناها.

وفي مُسْتَهَلِّ ربيع الأول جاءت مقدِّمة القرامطة ووقفوا على الخندق، فقاتلهم القائدُ، واشتدَّ القتال، وقُتل من الفريقين قتلى كثيرة، وأصبح النّاس متكافئين للقتال، وسار الأعصم القَرمطيّ بجميع عسكره، ووقَعَ القتالُ على الخندق والباب مُغْلق، وعمل القائد جوهر الحيلَة فانْهَزَم عن القَرمطيّ، ودام القتال إلى الزَّوال، ثم فتح القائد البَاب وانْتَصَبَ للقتال، وخرجت العبيدُ والمغَاربة إلى القرامطة، واشتدَّ القتالُ واضْطَرَبَ النّاسُ في المدينة وكثُرَت القتلى من الفَريقين. وانهزم الأعصم القرمطي، وأراد المغاربةُ اتّباعه

= أيبك الدواداري، كنز الدرر ج ٦، ص ١٣٥.

(١) سماه المقريزي «خندق السري بن الحكم» المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٣٧ - ١٣٨.

(٢) المقس: قرية قديمة على شاطىء النيل. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢١ - ١٢٢. والمقس، والمكس، والمقسم، وأم دنين: كلها أسماء مترادفة لقرية كانت واقعة على شاطىء النيل. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٥٦.

(٣) ورد في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٣٠ أن القتال خارج الخندق دام ثلاثة أيام بينما ابن أيبك الدواداري يذكر أن القتال استمر ثلاثة أشهر. كنز الدرر، ج ٦، ص ١٤٣.

(٤) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٢٥.

(٥) ما بين حاصرتين إضافة ليستقيم المعنى.

فمنعهم[١] القائدُ جوهر لِدُخول اللَّيل، وخشيةً من مَكيدةٍ أو كَمِين. ونُهِبَت صناديق القَرمطيّ ودفاتِره، وفارقَ القرمطيَّ من كان معه من الإخشيدية والعرب. وقيل: وهذه أوّلُ هزيمةٍ كانت للقرامطة.

ثم وصل بعد الكسرة بيومين أبو محمد الحسنُ بن عمّار بمَدَدٍ معه من جهة المعزّ، وهرب القرمطيُّ الذي كانَ بتنّيس وعادت الدّعْوة المعزّيةُ بها.

وفي شهر ربيع الآخر قبض القائدُ على أربعمائةٍ وأربعين رجلاً من الإخشيديّة والكافوريّة وقيّدهم وحبَسهم.

وفي شعبان منها وَرَدَ على القائد جوهرٍ رسولٌ من ملك الرّوم برسالته وهديته.

وفي شهر رمضان لسبعٍ خَلَوْن منه كَمُل بناءُ الجامع بالقاهرة، وجُمِعَت فيه الجمعة.

وفي شوّال منها ابتدأ القائد جوهرٌ بحفرِ الخَنْدَق الذي كان عبد الرحمٰن بن جحدم[٢]، خليفة عبد الله بن الزبير[٣] حفره قبليّ مصر، ثم شَقَّ الخندق حتى بلغ قبر الإمام الشّافعي رحمه الله، فعَدَل به عنه، ثم شقَّه مُشَرِّقاً إلى الجبل على المقابر، أراد بذلك أن يحفظ طريق الحج من ناحية القلزم.

وفي ذي القَعدة منها خرج أبو محمد الحَسن بن عمّار إلى تنّيس، فسار إليه أسطولُ القرامطة فواقعهُ وأسَرَ منه سَبْعَ مراكب، وسيَّرها إلى مصر ومعها خمسمائة رجل منهم[٤].

ذكر خروج المعز لدين الله من بلاد الغرب إلى الديار المصرية وما رتَّبه ببلاد المغرب قبل مسيره

وفي يوم الاثنين لثمانٍ بقينَ من شَوَّال سنة إحْدى وستِّين وثلاثمائة، رحَل المعزّ

---

(١) في الأصل فمنعه. والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) في الأصل «بن محدر» والتصحيح من الولاة والقضاة للكندي ص ٤١. وهو عبد الرحمٰن بن عتبة بن جحدم ولي مصر من قبل عبد الله بن الزبير فدخلها في شعبان سنة ٦٤ هـ/ ٦٨٣ م، وذلك لمدة تسعة أشهر.الولاة والقضاة للكندي، ص ٤١ ـ ٤٢.

(٣) هو أبو حبيب عبد الله بن الزبير بن العوام بويع له بمكة سنة أربع وستين وبايعه أهل العراق. وبنى أبي الزبير الكعبة وأدخل فيها الحجر. انظر ترجمته في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ١، ص ٤٤٥. والعقد الثمين لتقي الدين مكي، ج ٥، ص ١٤١، وغاية النهاية لابن الجزري، ج ١، ص ٤١٩.

(٤) «فواقعهم وأسر منهم سبع مراكب وسيرهم إلى مصر ومعهم خمسمائة رجل منهم» في الأصل. وتصحيح الضمائر يقتضيه السياق.

لِدِين الله من المنصورية إلى سِرْدَانية[١] ومعه يُوسُف بن زَيْرى[٢] بن مناد فسلَّمَ إليه إفريقية، وأعمَالَها وسائر أعمال المغْرب، وذلك في يوم الأربعاء لسبع بَقِين من ذي الحجة منها، وأمر الناس بالسَّمع والطَّاعَة لَه، وفوّض إليه أمُور البَلاد كلِّها إلاّ بلاد جزيرة صقِليَّة وطرابلس. وأقام المعز بسردانية أربعة أشهر، ورَحل منها لخمس خَلَوْنَ من صفر سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وسار حتى أتى قابس، ثم وصل إلى طربلس فأقام بها أيَّاماً، ورحل منها في يوم السّبت لثلاثَ عشرةَ ليلة بَقِيتْ من شهر ربيع الآخر منها، وسار فوصل إلى الإسكندرية في يوم الجمعة لستٍّ خَلْون من[٣] شعبان، ونزل تحت المنار، وأنزل النَّاسَ حولها، وأتاه أهلُها فسلَّمُوا عليه، ووافى يوم الأحد أبو طاهر[٤] قاضي مصر، ومعه العُدُول وقدم أبو عبد الرحمٰن بنُ أبي الأعز في بني عَمِّه وغيرهم من العرب، فركب لهُم المعزّ فسلّموا عليه وانصرفوا.

ثم رحل من الإسكندرية يوم الاثنين لثلاثٍ بقين من شعبان. فلما كان يومُ السّبت لليلتين خَلَتَا من شهر رمضان نزل المنية بساحل مصر، وهي بُولاق، فأقام بها إلى يوم الاثنين؛ وخرج إليه الشريف أبو جعفر مُسلم الحَسني قبل وُصُوله في جَمَاعَة الأشراف وَوُجُوه البلد، فرأى المعزّ وهو سائرٌ والمظلّة على رأسه، فنادى منادٍ: يتقدّمُ الشّريف أوّل الناس، فتقدّم وسلّم على المعز. ثم تقدّم النّاسُ كلّهم وسلّموا عليه واحداً بعد واحد حتى فرغوا، وهو واقف على دَابَّتِه؛ ثم سارَ والشريف يحادثه.

قال: وأخذ الناس في التَّعْدِية بِعِيَالاَتِهم وأَثْقَالهم في هذه الأيام إلى ساحل مصر، وتفرّق النّاسُ في الدُّور بمصرَ والقاهرة، وأكثرهم في المضارب فيما[٥] بين القاهرة ومصر.

---

(١) سردانية: جزيرة على طرف في البحر الشامي. وهي كبيرة كثيرة الجبال قليلة المياه. الحميري: الروض المعطار، ص ٣١٤. وانظر أيضاً البكري: المغرب ص ٣٢.

(٢) هو أبو الفتوح بُلُكِّني بن زيري بن مناد الحميري، الصنهاجي، ويسمى أيضاً يوسف وهو الذي استخلفه المعز بن المنصور العبيدي على إفريقية سنة ٣٦١ هـ/ ٩٧٢ م. توفي سنة ٣٧٣ هـ/ ٩٨٤ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٨٦، رقم ١١٩. وانظر أخباره في: ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١، ص ٢٢٨ وفي سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) «لست بقين من شعبان» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٣٤، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٢٢٧.

(٤) هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن نجير، أبو الطاهر الذهلي، ولي قضاء مصر منذ عهد كافور، سنة ٣٤٧ هـ/ ٩٥٨ م. وحتى سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م. توفي في سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م، ذيل كتاب الولاة والقضاة ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤، ٥٨١.

(٥) في الأصل: «فيمان».

ثم عبر المعزُّ لدين الله إلى القاهرة يوم الثلاثاء لخمس خَلَوْن[١] من شهر رمضان، سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، ولم يدخل إلى مِصْر ودخل إلى قصره.

فلما انتهى إلى الإيوان الكبير خرَّ ساجِداً للَّهِ تعالى، وجلس على سرير الجَوْهر[٢] الذي صنعه لهُ القائدُ جوهر، وقَبِلَ الهناء، ومدحه الشعراء.

قال: وكان تَلَقِّي القائد جوهر له عند جَوَازه من الجسر الثَّاني، فكانت مُدة تدبير جوهر الديار المصرية إلى أن قدم المعز، أربع سنين وعشرين يوماً.

وحكى بعض المؤرخين أنَّه لما وصل المعزُّ وخرج الأشرف للقائه، قال له أبو [محمد][٣] عبد الله بن أحمد بن طَبَاطَبَا الحسيني، من بينهم يا مَوْلانَا، إلى مَنْ تنتسب؟ فقال المعزُّ: سنقعُدُ لكم ونجمعُكم ونسرد عليكم نسبَنا. فلما استقرَّ في قصره جمعَ النّاس في مجلسٍ عام وقال: هل بَقِي من جَمَاعَتِكم أحد؟ فقالوا: لم يبق مِنَّا مُعْتَبر فجرَّدَ عِنْد ذلك سيفه إلى نصفه وقال هذا نَسَبِي وفرَّق المال وقال: هذا حَسَبِي. فقالوا: سمعنا وأطعنا. وكان الخليقَ بما قيل:

جَلَوْا صارماً وَتَلَوْا باطلاً ... وقالُوا: صَدَقْنا؟ فقلنا: نَعَمْ!

وقال ابن جلب راغب في تاريخه: إنّ المعزّ لمّا قدِم صَعِد المنبر وخطبَ خُطبة بليغة، وذكر نسبه إلى عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، فكتب إليه بعض المصريين ورقةً ولصقها بالمنبر فيها: [من السريع]

إنّا سمعْنَا نسباً مُنكرا ... يُتْلَى على المِنْبَر في الجَامع
إنْ كُنتَ فيما تَدَّعي[٤] صادقاً ... فاذكر أباً بعد الأبِ الرّابع
أو فَدَع[٥] الأنْسَاب مستُورَةً ... وادْخُل بنا في النَّسب الواسع
أو كُنتَ فيما تدّعي صادقاً ... فانْسُبَ لنا نفْسَك كالطّائع[٦]

---

(١) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٣٤. «السبع خلون» وفي وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٢٢٧ «لخمس خلون من شهر رمضان».

(٢) «سرير الذهب» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٣٦. ويقصد به العرش.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح. هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن علي بن الحسن بن إبراهيم طَباطَبا، الحجازي الأصل. ولد سنة ٢٨٦ هـ/ ٨٩٩ م، وتوفي سنة ٣٤٨ هـ/ ٩٥٩ م، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٨١ ـ ٨٣. رقم ٣٤٢.

(٤) «فيما قلته» في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٢٧.

(٥) «اولا دع» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٧٣. وفي أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٢٧.

(٦) يقصد هنا الخليفة العباس الطائع لله، أبو بكر عبد الكريم الذي ولي الخلافة العباسية في الفترة من =

قال: وكان يتظَاهَرُ بذكر الْماجَرَيَات قبل وقُوعها لاطلاعه على علم النَّجامة ولِكتْب كاتب عنده يَسْتَدلُّ، فكتَب إليه بعضُ المصريين ورقةً وطرحَها في مجلسه، فيها: [من البسيط]

بـالـظـلـم والْـجَـوْرِ قـد رضـيـنـا ... ولـيـس بـالـكُـفْـر والـحَـمـاقَـةِ

إنْ كُـنـتَ أُوتِـيـتَ [١] عِـلْـمَ غـيـبٍ ... فـقُـلْ لـنـا كـاتـبَ الـبطـاقـة

وقال بعض المؤرخين: لمّا قدم المعزُّ إلى مصر أحضر معه توابيت آبائه. وكان معه خمسة عشر ألف رجل تحمل صناديق الأموال والسّلاح وغير ذلك، وكان معه مائة جمل تحمل شِبْه الطّواحين من الذهب، وثلاثة آلاف جمل على كل جمل صُنْدوقان وألف وثمانمائة بختي محملة، وثلاثمائة جمل تحمل الخركاهات وجملان يحملان [٢] الإكسير الذي يصنع به الكيمياء وثلاثة آلاف شيني وغراب [٣] في البحر تحمل الموجود. ومن الرجل المقاتلة منْ قَبِيلة كتامة مائةُ ألف، ومن البربر أربعون ألفاً، ومن الرموح ستون ألفاً، وغير هؤلاء من قبائل العرب والمغاربة، وهو مع ذلك شديدُ الخوف من القرمطيّ.

قال ابن زولاق [٤] في تاريخ مصر: ولما انقضى شهرُ رمضَان ركب المعزّ لصلاة الصيد وصلّى بالناس، وكان القاضي ابنُ النعمان [٥] يبلِّغ عنه في التكبير، وقرأ في الأولى بَعْد الفاتحة: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغاشية: ١]، وفي الثانية بعد الفاتحة بسورة الضُّحَى، ثم صعد المنبرَ وخَطَبَ بعد أن سلَّم على الناس يميناً وشِمالاً، وذلك

= ٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ/ ٩٧٤ ـ ٩٩١ م. سليمان تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٢. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٧١، رقم ٧٥٩. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٢٠، حيث ذكر كل منهما هذه الأبيات في ترجمة العزيز بالله.

(١) «إن كنت أعطيت» في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٢٧ ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٧٤.

(٢) في الأصل: «تحمل» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) شيني أو شاني، أو شينية، أو شونة: والجمع شواني: سفينة حربية كبيرة، ومن أسمائها غراب: وجمعها أغربة. درويش النخيلي، معجم السفن الإسلامية ص ٨٣، ص ١٠٤.

(٤) هو أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن زولاق الليثي كان فاضلاً في التاريخ، وله فيه مصنف جيد وله كتاب في خطط مصر، و«كتاب أخبار قضاة مصر» توفي عام ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٩١، رقم ١٦٧.

(٥) هو علي بن النعمان، أشرك المعز الخليفة الفاطمي بينه وبين أبي طاهر محمد بن أحمد ابن أسامة الذهلي، قاضي مصر في الحكم. ولم يزالا مشتركين فيه إلى أن توفي المعز. توفي القاضي علي بن النعمان سنة ٣٧٤ هـ/ ٩٨٤ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٤١٧.

بالمصلى الذي بناه القائد جوهر[١].

قال: وأقام المعزُّ بعد مَقْدَمِه أيَّاماً وعزل القائد جوهراً من جميع ما كان إليه من النَّظَر على الدَّواوين وجباية الأموال، وتدبير الأمور، وغير ذلك، والله أعلم[٢].

ذكر مكاتبةِ المعزِّ لدين الله القَرمطيَّ وجواب القرمطيّ له

قال بعض المؤرخين: لما استقر المعز بالقاهرة أهمه أمر الأعصم القرمطيّ فرأى أن يكتب إليه كتاباً يُعْلِمُه فيه أن المذهب واحد، وأن القَرامِطَة [منهم][٣] استمدُّوا وهم سادتُهم في هذا الأمر، وبهم وصَلُوا إلى هذه الرتبة، فكتَب إليه المعز كتاباً مشحوناً بالمواعظ وضمَّنه من أنواع الكفر ما لا يصْدُر إلا عن مارقٍ من الدين.

كان عنوان الكتاب:

«من عَبْد الله ووَليِّه، وخِيرته وصفيِّه، معَدّ أبي تميم بن إسْمَاعِيل، المعزّ لدينِ الله أمير المؤمنين، وسُلاَلَة خَيْر النَّبيين، ونَجل [علي][٤] أفضل الوصيّين إلى الحسن بن أحمد».

وأول الكتاب:

«رُسُومُ النطقاء، ومذاهبُ الأئمة والأولياء[٥]، ومسالكُ الرُّسل والأنبياء[٦]، والسّالف منهم والآنف، صلى الله[٧] علينا وعلى آبائنا أُولِي الأيْدي والأبْصَار، في متقدِّم الدهور والأكوار، وسالف الزمان والأعصار، عند قيامهم بأحكام الله وانتصابهم لأمر الله، الابتداءُ بالإعذار، والانتهاء الى الإنذار[٨]، قبل نفاذ الإنذار[٩] في أهل الشقاق والإصرار[١٠]، ولتكون الحجَّة على مَنْ خالف وعَصَى والعقوبة على من بَايَنَ وغوى، حَسْبَما قال الله تعالى[١١]: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ

---

(١) يسمى الجامع الأزهر، وجامع القاهرة. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٧٣.
(٢) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر، ص ١٦٣.
(٣) ما بين حاصرتين إضافة زيادة في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ١٤٨.
(٤) ما بين حاصرتين إضافة في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ١٤٩. واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٨٩.
(٥) في كنز الدرر، وفي اتعاظ الحنفا «والأنبياء».
(٦) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، «الأوصياء». وفي كنز الدرر لابن أيبك الدواداري «والأصفياء».
(٧) في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي، «صلوات الله».
(٨) في كنز الدرر للدواداري، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي «بالانذار».
(٩) في كنز الدرر للدواداري، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي «قبل إنفاذ الأقدار».
(١٠) في كنز الدرر للدواداري، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي «والآصار».
(١١) في كنز الدرر للدواداري، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي «قال الله عز وجل».

﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقد ذكرنا في أخبار القَرامطة جُملةً من مواعظ هذا الكتاب على ما نقف عليه هناك. ومن جملة ما لم نذكره هناك.

أمَا عَلِمت أنّي[1] ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝﴾ [الهمزة: ٦ ـ ٧] أعْلم ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝﴾ [غافر: ١٩].

وحشاه بأنواعٍ من الكفر وحَضّه[2] على اقتِفاءِ آثار آبائه وعُمومته ومُوَالاتهم، فقال: إن آباءك كانوا أتباع آبائي. ثم قال فيه بعد الإطالة: وكتابُنا هذا من فُسطاطِ مصر، وقد جئناها على قَدَر مقدُور، ووقتٍ مذكور، لا نرفَعُ قدماً ولا نضع قدماً، إلا بعلم مصنُوع، وعلم مجموعٍ، وأَجَلٍ معلُوم. ثم قال فيه: «وأما أنت أيّها الغادر [الخائن][3] النَّاكثُ المُبَايِنُ[4] عن هدى[5] آبائه وأجداده، المنسلخ من دين أسْلافه وأنداده، المُوقِدُ لنار الفتنة، الخارجُ عن الجماعة والسُّنَّة، لم أُغْفِل أمرك، ولا خَفِيَ عليَّ خبرك، وأنّك منّي بمنظرٍ وبمسمع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٢٠]، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝﴾ [مريم: ٢٨]. فعرِّفْنا على أيِّ رأيٍ ضللت[6] وأيّ طريقٍ سلَكْت.

وقال في فصل منه: «إنّا لسنا مُهْمِلِيك ولا مُمْهِلِيكَ إلاّ رَيْثَما يَردُ به كتابُك والوقوف على مجرى جوابك، فانظرْ لنفسك ما يبقى ليومك ومعادك، قبل انْغِلاقِ باب التّوبة، وطول وقت النَّوْبة. حينئذ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[7]. ثم ختمه بأن قال: «فما أنت وقومُك إلاّ كمناخ نَعَم، أو مَراحِ غنم» فَإِمَّا ﴿نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾[8] [يونس: ٤٦]، ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤٢]. هكذا رأيت والتّلاوة في سُورة يونس[9] ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾[10]. فعِنْدها تخسر ﴿ٱلدُّنْيَا

---

(١) في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري «وانا»، ج ٦، ص ١٥٢.

(٢) «وحظه» في الأصل. والتصحيح يقتضيه السياق. ومن أخبار الدول المنقطعة لسليمان ص ٢٦.

(٣) ما بين حاصرتين من كنز الدرر لدواداري، ج ٦، ص ١٥٢.

(٤) في كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ١٥٢ «البائن».

(٥) في الأصل: «عن هوى»، والتصحيح من كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ١٥٢.

(٦) في كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ١٥٣ «على أي رأي أنت».

(٧) سورة الأنعام، من الآية ١٥٨، وتتمتها: ﴿...قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

(٨) سورة يونس، من الآية ٤٦، وتتمتها: ﴿...فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾.

(٩) في الأصل: «القصص»، والتصحيح من القرآن الكريم.

(١٠) سورة يونس من الآية ٤٦ وتتمتها: ﴿...ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾. وهو يكمل ما جاء في الحاشية رقم ٨.

وَٱلْآخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]. وأنذرتُهم ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾ [الليل: ١٤ ـ ١٦]، ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. فليتدبَّر من كان ذَا نذير، وليتفكَّر من كان ذَا تَفكير؛ وليَحْذَرْ يوم القيامة، يوم الحسرة والنّدامة ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[1] [الزمر: ٥٦]. و﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾[2] [الأنعام: ٣١]. ويا لَيْتَنَا ﴿نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾[3] [الأعراف: ٥٣]، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧]. وسَلم من عواقب الرّدى. وهو حَسْبُنَا ونعم الوكيل.

قال: فلما وقف الحسن[4] بن أحمد القرمطي [على][5] هذا الكتاب المطوّل[6] كتب جوابه بعد البَسْملة: «وصل كتابك الّذي كثُر تَفصيلُه وقلَّ تحصيلُه؛ ونحن سائرون [إليك][7] على إثره. والسَّلام»[8].

وقيل: إنّه كتب: «والجوابُ ما تراه دون ما تسمعه»[9].

وقيل إنّه كتب إليه: [من البسيط]

ظنّت رجالُ الغَربِ أنّ سُهولتي ... بمحالها، أخو المِحَال ذليلُ

إنْ لم أروِّ النيلِ مِن دَمِهم، فلا ... نلت المُرادَ، ولا سقاني النيل

وفي سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، في شعبان، بلغت تقدمةُ القرامطة إلى أرياف مصر وأطراف المحلة[10]، فنهبوا، واستخرجوا الخراج، واشتهر الأعصَم القرمطيّ ببلبيس فتأهَّب المعزُّ لِلقائه، وعرض العساكر، وفرّق فيهم الأموال والسّلاح.

وسَيَّرَ جيشاً قدَّم عليه ولدَه الأمير عبْد الله[11]، فالتقى معَ الأعصَم، فانهزم

---

(١) سورة الزمر، من الآية ٥٦ وتتمتها: ﴿...وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾.

(٢) سورة الأنعام، من الآية ٣١، وتتمتها: ﴿...فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

(٣) سورة الأعراف من الآية ٥٣. وتتمتها: ﴿...قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

(٤) في الأصل: «الحسين»، وهو تحريف، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٦) انظر تفاصيل هذا الخطاب في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٨٩ ـ ٢٠١، وكنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ١٤٩ ـ ١٥٦.

(٧) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٦٣٨.

(٨) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٠٢، كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ١٥٦.

(٩) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٢٦.

(١٠) المحلة: في المحافظة الغربية. ابن ميسر. المنتقى من أخبار مصر، ص ١٦٥.

(١١) توفي الأمير عبد الله سنة ٣٦٤ هـ = ٩٧٤ م. اختلف في يوم وفاته في ٢٣ من جمادى الأولى في =

القرمطيّ وأسر جماعةً من رجاله، وجهّز جيشاً آخر قدّم عليه ريان الصقلبي في أربعة آلاف فارس، فأزال القرامطة عن المحلة ونواحيها.

وفي هذا الوقت ورد الخبرُ من الصّعيد الأَعْلَى أن عُبَيْد الله(١) أخَا الشريف مسلم أوغل في الصّعيد واستخرج الأموال، وقتل ألفاً من المغاربة.

وفي هذه السنة، في المحرّم منها، انْبَسَطت المغاربة في نَواحي القَرافة، ونزلوا في الدُّيُور، وأخرجوا النَّاس من أمَاكنهم، وشرعُوا في السّكن في المدينة، وكان المعزّ أمَرهم أن يسكنوا أطراف المدينة، فاستغاث النّاس إلى المعزّ فأمرَ أنْ يسكُنوا نَواحِيَ عين شمس، وركب بنفسه وشاهد المكان، وأخبرهم بالبناء فيه، وهو الموضع المعروف الآن بالخندق(٢)، وجعل لهم والياً وقاضياً، ثم سكن أكثرُهم بالمدينة مخالطين للناس.

ذكر فتوح طرابلس الشام

كان فتوحها في سلخ ربيع الآخر سنة أربع وستّين وثلاثمائة، على يد ريَّان الخادم غُلام المعز، وهرب ابن الزَّيَّات بعد أن كان نصب عليها الصّلبان وجعلها للرُّوم.

وفي جُمادى الأولى منها سار نصير الخادم غلام المعزّ في عسكر كثير، ودخل إلى بيروت، وتواقع مع الرّوم على طَرَابلس وهزمهم، وكانت الوقعة في نصف شعبان.

وفي هذا الشّهر وصل الخبر إلى المعز بوصول أفتكين التركي من بغداد إلى دِمَشْق بقَصْد مصر. فشرع المعزّ في تجهيز العساكر.

وفي شهر رمضان منها كثرت الأراجيف بمسير الرُّوم إلى الشام لأن أفتكين التُّركي كاتب ابن السنهسكي(٣) فسار بالرّوم إلى بَيْروت، فلقيهم نصير غلام المعزّ فهزموه وأسَرُوه، وتوجَّهوا إلى صيدا فخرج إليهم أفتكين التُّركي وقبَّل الأرض لابن السنهسكي وهادَنَه على دمشق؛ وسار ابن السنهسكي إلى طرابلس، فخرج إليْه رَيّان الخادم بعساكر المعزّ فقاتله وهزَمه، وقتل مقْتَلة عظيمة مِن عامّة عسكره. وانصرف ابن السنهسكي مغْلُولاً، فسُرّ المعزّ بذلك، وهنأه الناس بهذا الفتح، ومدحه الشّعراء.

= المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر، ص ١٦٦. وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢١٧. وفي التاسع من جمادى الأولى في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٢٦.

(١) ورد اسم «عبد الله بن عبيد الله» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

(٢) ورد «خندق العبيد» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٤٥. والخندق: خارج باب الفتوح واشتهر بالخندق لمرور الخندق الذي حفره جوهر بالمنطقة التي تسمى منية الأصبغ. انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي ج ٢، ص ١٣٦. والقاموس الجغرافي لمحمد رمزي، ج ١، ق ١، ص ٥٦.

(٣) ورد اسم «السمسيق» في اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٣٠.

ذكر وفاة المعز لدين الله وشيء من أخباره

كانت وفاتُه بالقاهرة لسبعٍ خلَوْن من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة؛ وقيل في يوم الجمعة لاثنَتَيْ عشرةَ ليلةً بقِيَت من الشهر[(١)]. وكانت مدة حياته خمساً وأربعين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام، ومدّة مقامه بمصر سنتين وسبعة أشهر وأيّاماً.

وكان نقش خاتمه: بِنَصر العزيز العَليم ينْتصر الإمام أبو تميم. وقيل: كان لتوحيد الإلٰه الصّمد دعاء الإمام[(٢)] معَدّ. وقيل: لتوحيد الإلٰه العظيم دعاء الإمام[(٣)] أبو تميم.

أولاده: أبو المنصور نزار تميم الظّاهر، وبه كني، توفّي بمصر في ذي القعدة سنة أربعٍ وسبعين وثلاثمائة؛ الأمير عقيل، توفّي في شعبان من السنة؛ وسبع بنات.

قضاته: قاضيه الواصل معه من المغرب أبو حنيفة النعمان بن محمّد الدّاعِي، مات بمصر في سلِخ جُمادى الآخرة سنة خمس وستّين وثلاثمائة، ولم يَلِ القضاء بها؛ واستَقْضَى بالمغرب أبا طالب أحمد بن القائم بن محمد بن المنهال؛ ولمّا وصل إلى مصْرَ وجد القائد جوهراً قد استخلف على القضاء أبا طاهر محمّد بن أحمد بن عبد الله الذهلي البغدادي، وهو القاضي على أيام كافور، فأقرَّه، وكان أبو سَعيد عبْد الله بن محمّد بن أبي ثوبان حكم بمصر بين المغاربة الجند والتجار إلى أن مات في شهر ربيع الأول سنة خمس وستين؛ فتولّى القضاء أبو الحسَن عليّ بن النعمان على قاعدته إلى أنْ مات أبو طاهر، فقضى أبو الحسَن على الجميع.

كتّابه: كان جوهر قد فوض تدبير الأموال في أيامه إلى عليّ بن العرمرم وأبي محمد الروذباري، ورجاء بن صولات، وعبد الله بن عطاء الله، وأبي الحسن الكرجي؛ وردَّ تدبير هؤلاء الكتاب إلى الوزير أبي الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات. واستقرّ الأمر بعد وُصُول المعزّ على عسلوج، ويعقوب بن يوسف.

---

(١) اختلفت المصادر في تحديد يوم وفاة المعز لدين الله. في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٨١ «توفي يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وثلاثمائة. ويرى الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور طه أحمد شرف في كتابهما «المعز لدين الله» أنه لا ينتمي إلى بيت عبيد الله المهدي وإنما ينتسب إلى جده القائم وأبيه المنصور، وهما من سلالة أئمة الاستقرار عند الإسماعيلية. انظر حاشية الصفحة نفسها رقم ٣. وفي وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٢٢٨ «توفي يوم الجمعة الحادي عشر من شهر ربيع الآخر. وقيل الثالث عشر، وقيل لسبع خلون من سنة خمس وستين وثلاثمائة بالقاهرة».

(٢) و(٣) في الأصل: «الإله» والتصحيح من أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٣٠.

ومِمّن وزر للمعزّ يعقوب بن كلِّس، وهو أول وزراء دَوْلتهم بمصر، وهو من جملة كتاب الدّوْلة الإخشيدية، وسنذكر خبره إن شاء الله مُستَوفًى في أخبار العزيز.

حاجبه: جعفر بن عليّ إلى أن تُوفّي، فوَلِيَ عمّار بن جعفر، والله أعلم بالصواب.

ذكر بيعة العزيز بالله

وهو أبو المنصور[(١)] نزار[(٢)] بن المعزّ بن المنصور بن القائم بن المهديّ، وهو الخامس من ملوك الدولة العُبَيْدِيّة، والثاني من ملوك مصر والشام منهم.

كان قد وَلِيَ الْعَهد منْ أبيه في حياته، ثم بَايَعه النّاس في يوم وفاة أبيه، لِسَبعِ خلَوْن من شهر ربيع الآخر سنة خمسٍ وستّين وثلاثمائة.

حكى الرئيس ابن القلانِسي في تاريخ الشام في سبب بيعة العزيز الأولى أن أباه المعزّ كان مُغرماً بعلم النُّجوم والنّظر فيما تقتضيه أحكام مولده، فحكم له بقطع، فاستشار منجمه فيما يزيله عنه، فأشار عليه أن يعمل له سرداباً تحت الأرض ويتوارى فيه مدّة إلى حين زوال ذلك القطع. فصنع ذلك وأحضر وُجوه دولته، وقال لهم: إنّ بيني وبين الله عهداً وَعَدْنِيه قد قرب أوانه، وقد جعلت عليكم ولدي نزاراً، ولقّبته بالعزيز بالله، واستخلفته عليكم وعلى تدبير أحوالكم مدّة غيبتي، فالزمُوا الطّاعة والمناصَحَة له. فقالوا: نحنُ عبيدُك وخدمُك. فأخذ البَيْعة له ووَصّاه بما أراد، وجعل القائد جوهراً مدبِّراً لأموره، ونزل السِّرداب الّذي اتخذه وأقام به سنة. فكانت المغاربة إذا رَأَوْا سحاباً ترجّلوا على الأرض وأوْمَوْا بالسّلام عليه. [فغاب سنة][(٣)] ثمّ خرج بعد ذلك، وجلس النّاس، فدخلوا على طبقاتهم وسلّموا عليه؛ ولم يلبث بعد ذلك إلاّ مدّةً يسيرة، واعتلّ فمات.

ذكر الحرب بين أفتكين التركي وعساكر العزيز بالله

ولنذكر ابتداء أمر أفتكين[(٤)] لتأتي أخبارُه بسياقه.

---

(١) في الأصل: «ابن منصور»، والتصحيح من كتاب التراجم التالية:

(٢) انظر ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٧١، رقم ٧٥٩، أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٣١ ـ ٣٢، المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر، ص ١٦٨ ـ ١٦٩، كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ١٧٤ ـ ١٧٥. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧، المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١١٦ ـ ١١٧، الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٦٦٤.

(٤) «هفتكين» من كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ١٧٥. أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٣١، =

هو أبو المنصور أفتكين المعزّي، أحد مماليك معزّ الدولة بن بويه[١] وكان سبب وصوله إلى الشام أنه لما وقعت الفتنة بين الترك والديلم ببغداد وخلع المطيع[٢] كما ذكرناه، وتوالت تلك الفتن، انفصل أفتكين عن بغداد في سنَة ثلاثٍ وستّين وثلاثمائة في ثلاثمائة غلام، وسار حتّى قَدِم حمص فأقام أياماً يسيرة، وسار منها إلى دِمَشْق، فوجد أحْدَاث البلد قد تحكّموا فيها والفتن بين أهلها وبين عسكر المغاربة. فخرج إليه شيوخ دمشق وأظهروا السُّرور به، وسألُوه أن يتَولّى عليهم، ويكفّ أيْدي المفسدين، وتَوثّقوا منه وتَوثّق منهم بالأيْمان، ودخل البلد وأصلح أمره، وأحسن السّيرة، وكفّ المفسدين، فاستقام له الأمر وثبت قدمُه. فاضطر إلى مكاتبة المعزّ لدين الله بمصر فكاتبه وخادعه، وغالطه، وأظهر الانقياد إليه والطاعة لأمره. فأجابه المعزّ يستدعيه إلى حَضْرته ليشاهدَه، ويصطَفِيَه لنفسه، ويُعيدَه إلى ولايته؛ فلم يثق إلى ذلك وامتنع من الإجابة. ووافق ذلك علّةَ المعزّ ووفاتَه.

وكتب أفتكين في أثناء هذه القضيّة إلى مولاه ببغداد يقول إنّ الشام قد صفا في يدي، فإن سيَّرت إليَّ عسكراً ومالاً وسلاحاً فتحتُ ديار مِصْر، فبعث إليه الجواب: غرك عزك فصارَ قُصار ذلك ذُلّك فَاخْشَ فاحِشَ فِعْلك، فَعَلَّك تهدأ بهذا. فلما أَيِس أفتكين من إنفاذ العساكر إليه من بغداد اضْطُرّ عند ذلك إلى مُكَاتبة القرامطة، فقصدوه ووافوه في سنة خمسٍ وستّين وثلاثمائة؛ وكان الذي أتاه منهم إسحاق، وكسرى، وجعفر؛ فنزلوا بظاهر دمشق، ووافاه معهم كثيرٌ من العجم. فأكرمهم أفتكين وحمل إليهم الميرة، فأقاموا أيّاماً وتوجّهوا إلى الرّملة، فخرجت إليهم عساكر السّاحل، واقتتلوا، فهزمهم أفتكين، وقتل منهم مقتلةً عظيمة[٣]. وكان على السّاحل ظالم بن موهوب العقيلي، فانهزم إلى صُور. وأحصيت القتلى فجاؤوا أربعة آلاف فارس. فكاتب العزيزُ بن المعزّ أفتكين واستماله ووعَدَه إنْ وَطِيءَ بساطَه أنْ يرفع منزلته. فأبى إلاّ مخَالفَته، وأغلظ له في الجواب. فاستشار العزيزُ وزيره يعقُوب بن كلّس فيما يفعله فأشار عليه بإخراج جوهر القائد إليه بالعساكر؛ فشرع العزيز في ذلك وجهّز جوهر، فلما سمع أفتكين ذلك عاد

= «الفتكين» في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ١٧، والكامل في التاريخ لابن الأثير، ج ٨، ص ٦٥٦، «وأفتكين» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٣٨.

(١) هو معز الدولة أبو الحسين أحمد، حكم العراق، سنة ٣٢٠ هـ/ ٩٣٢ م. سليمان، تاريخ الدول الإسلامية، ص ٢٩٠.

(٢) خُلع المطيع لله في سنة ٣٦٣ هـ/ ٩٧٤ م، في منتصف ذي القعدة. وكان به مرض الفالج، وقد ثقل لسانه وتعذّرت الحركة عليه. انظر الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٦٣٧.

(٣) «وقتل منهم نحو أربعة آلاف قتيل. ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٦٥٧.

إلى دمشق واستشار أهلها، وقصَد التَّوَجُّه لبلاد الرّوم؛ وكان أهل دمشق يَكرهُون المغاربة لمخالفتهمْ لهُم في الاعتقاد، فطمأنُوه، وثَبَّتُوه لِلقاء عساكر مصر. وخرج جوهر في العساكر العظيمة بعد أن استَصْحب أماناً من العزيز لأفتكين.

فلما وصل جوهر إلى الرّملة كانت أفتكين ولاَطَفَه، وعرَّفه ما مَعَهُ له من الأمان؛ فلاطفه أيضاً أفتكين في الجواب واعتذر إليه بأهل دِمَشق، فعلم جوهر أنّه لا بدّ من الحرب. فسار إليه ونزل بالشماسية[1] فبرز إليه أفتكين، ونشبت الحرب بين الفريقين مُدّة شهرين، وقتل من الطائفتين عدد كثير. وظهر من شجاعة أفتكين ما عظُم به قدره في النّفوس، فأشار عليه أهل دمشق بمكاتبة أبي محمد الحسن بن محمد القرمطيّ واستدعائه لدفع عساكر مصر، فكاتبه فأتاه القرمطيّ، فعلم جوهر أنه إنْ أقام اسْتظهر أفتكين عليه، فرجَعَ إلى طبريّة وتبعه أفتكين والقرمطيّ فقاتلاه؛ فانهزمَ إلى عسقلان فتبعه أفتكين وحَصَره بها حتى أشرف جوهر على الهلاك، فصالحه، ووقع الصُّلح بينهما على أن يخرج جوهر وأصحابه حُفاة عُراةً لا شيء يسترُ عوراتِهم[2].

وكان العزيز قد خرج من الدّيار المصريّة لإغَاثةِ جوهر، فلقيه في الطريق على تلك الحال، فأخبره جوهر أن كتامة خذلوه. فقبض عليهم، ثم أظهر الغضب على جوهر وعزله عن الوزارة.

ذكر حرب أفتكين وأسره

وفي سنة ثمانٍ وستّين وثلاثمائة في المحرّم منها، وصل العزيز بالله إلى الرّملةِ، وأفتكين وعسكره بالطَّوَاحين، ووقع المصَافّ بينهُما، ونشبت الحرب في يوم الخميس سابع الشهر. فانهزم أصحاب أفتكين وقتل عامتهم وشوهد العزيزَ في هذا اليوم وقد انفرد عن عسكره وصلى على الأرض وهو يقول: اللَّهم ارحمني وارحم مَنْ وَرَائِي من هذه القبلة، وانصرني، فما أَسْتَمدُّ النّصر إلاّ منك، وهو يعَفّر وجهه على التراب ويبكي، ثمّ ركب وقد انتصر عسكَرُه، وجِيءَ إليه بأفتكين أسيراً، أسره مفرج بن دغفل بن الجرّاح الطائي أمير طيىء، فجاء به وفي عنقه حبل، فأحْسن إليه العزيز لِمَا رأى من شجاعته، ومَنّ عليه، ورجع به إلى مصر؛ فأقام بها إلى أن مات في سنة سبعين وثلاثمائة، والحجَّاب، والأكابر يركبون إلى داره.

(١) الشماسية: محلة بدمشق، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٦١.

(٢) انظر ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ١٧، والكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٦٥٩، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٤١، وأخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٣١.

ولما رجع العزيز هنأه الناس بهذا الفتح، ومدحه الشعراء، فمنهم الحسين بن عبد الرحيم الزلالي بقصيدته التي أولها: [من الخفيف]

لاَحَ لِلحقِّ شهابٌ فوقَدْ ... فرأى قاصدُه أيْنَ قصد

بالعَزيز بنِ المعزّ اعْتَضَدت ... دولَةُ الحقّ، وبالله أعتضد

يا أميرَ المؤمنين المرتَضَى ... وعمادَ الدّين، والرّكن الأسدّ

بنزار بنِ معدٍّ، وهما ... خير أبناء نزارِ بن معد

ومنها: [من الخفيف]

أصْلح الشّامَ بما دبَّره ... وتَلافَاه، وقدْ كانَ فَسَد

أطفأ الفتْنةَ فيه، بعدما ... أبْرق التركيُّ فيها ورَعد

وكان عَوْد العزيز إلى مصر ووصولُه إليها في يومَ الاثنين لست بقين من شهر ربيع الأول سنة ثمانٍ وستين وثلاثمائة.

وفي سنة تسع وستين وثلاثمائة، في ثامن عشر شهر ربيع الأول، تزوّج العزيز بابنة[1] عمه، وأمْهَرَهَا مائتي ألف دينار عيناً.

ذكر فتوح اللاذقية

وفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة، في حادي عشر شهر ربيع الأول، ورد كتاب نزال[2] يذكر فيه أنه وَاقَع الرُّوم بساحل الشّام، وكَسَرَهُم. وأخذ اللاذقية. ثم ورد نزال من الشّام في العاشر من جُمادى الآخرة، ومعه نحو خمسمائة نفر من الرّوم أسرى في السّلاسل.

وفي هذه السّنة وصل من تنّيس[3] رجل وامرأة بمولودة لها رأسان ووجهان وأربع أيدٍ كاملة الخلق في جسد واحد، وسنها دون العشرين.

وفيها كان النّوْرُوز لِسبعٍ خلَوْن من شهر ربيع الأول وأكل الناس الرُّطب[4] قبل

(١) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، «وعقد العزيز على امرأة» ج ١، ص ٢٥٢.

(٢) نزال والي طرابلس من قبل الخليفة الفاطمي، تكملة تاريخ ابن البطريق ليحيى بن سعيد الإنطاكي، ص ١٦١.

(٣) تنّيس: من مدن مصر وهي مدينة كبيرة فيها آثار كثيرة، وأهلها ذوو يسار وثروة، الحميري: الروض المعطار، ص ١٣٧.

(٤) الرُّطب: نضيج البُسر قبل أن يُتمر. واحدته رُطبة. والرُّطب من التمر معروف. نقول وتمر رطيب. ابن منظور: لسان العرب (رطب).

النَّوْروز على عادتهم، وأصرمت النَّخل[١]، ولم يَبْقَ عليها شيء ألبتّة، ثم حمل النخل ثانياً، فأكل الناس البلح والبُسْر مرةً ثانية؛ ولم يتّفق مثل ذلك في زمنٍ من الأزمنة.

ذكر فتح قِنّسرين وحمص

وفي سنة ثلاثٍ وسبعين وثلاثمائة، في شهر ربيع الأول منها، دخلت عساكر العزيز إلى قنّسْرين وحمص، وأقاموا الدعوة لهُ بها.

وفيها في ثامن شوّال صرَف العزيزُ وزيرَه يعقوبَ بن كلّس واعتقله وحمل من مالِه خمسمائة ألف دينار؛ ثم أفرج عنه بعد ذلك، وأعاده إلى الوزارة، في سنة أربع وسبعين، ووهب له العزيز مالاً كثيراً وألفاً وخمسمائة غلام تكون في خدمته، وإليهم تنسب حارة الوزيرية[٢] بالقاهرة.

وفي هذه السّنة اشتد الغلاء بمصر وبلغت حملة الدّقيق الجُشكار[٣] أحد عشر ديناراً والعلامة اثني عشر ديناراً والحملة ثلاثمائة رطل بالمصري.

وفيها في العشرين من ذي القَعدة ورد الخبر أنّ ابن حَمْدان[٤] خطب للعزيز بحلب والجزيرة كلِّها.

وفي سنة ستٍّ وسبعين وثلاثمائة خُطب للعزيز بمعرّة النّعمان.

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وثلاثمائة استجدّ العزيز في جامع مصر[٥] العين الفوّارة، ودامت إلى أيّام العاضد، فخربت في الحريق في سنة أربعٍ وستين وخمسمائة؛ ثمّ جدَّدَها الملكُ العادلُ أبو بكر بن أيوب وفيها لاَعَنَ القاضي محمّد بن النُّعمان بين رجل من لدن عقيل وامرأته.

وفي سنة ثمانين وثلاثمائة اختطَّ العزيز الجامعَ بالقاهرة، وهو الجامعُ المعروف بالحاكم[٦] بباب الفتوح.

---

(١) أصرم النخل: حان له أن يصرم أي يقطع، الفيروزابادي: القاموس المحيط (صرم).

(٢) انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٥.

(٣) الجشكار: أردأ أنواع الدقيق، والعلامة أجود أنواعه، وهذان الاصطلاحان متداولان في الريف المصري.

(٤) هو سعد الله أبو المعالي شريف بن سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي الأمير صاحب حلب. توفي سنة ٣٨١ هـ/ ٩٩١ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٦٣. انظر أيضاً تاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ٢٤٤.

(٥) وهو جامع عمرو بن العاص. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٥١.

(٦) أكمل الحاكم بالله بناء هذا الجامع فعرف باسمه. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٧٧.

وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة خرج منير والي دمشق على العزيز بالله[(١)]، وقتلَ ابن أبي العَواد[(٢)] الكاتب، ولحقه بشارة الإخشيدي، فسار نزال والي الرَّملة إلى دمشق، فحاربه منير، فهزمه نزال. وكانت الوقعة بمرج عذراء[(٣)] في تاسع شهر رمضان وهرب منير يريد حلب، فأخذه العرب وأحضروه إلى دمشق لنزال، فوجدُوا منجوتكين[(٤)] قد وصل إليها فأخذ منيراً وحرسه على جمل وإلى جانبه قرد وعليه طرطور.

وأقام منجوتكين بدمشق بقية سنة إحدى وثمانين. وأمده العزيز في سنة اثنتين [وثمانين][(٥)] بخمسمائة فارسٍ وخزانة وسلاح صحبة صالح بن علي وجيلين التركي، فاشتمل عسكر منجوتكين على ثلاثة عشر ألف فارس فطمع في ملك حلب بحكم وفاة صاحبها سعيد الدولة[(٦)] بن حمدان فحشد وخرج إليها في ثلاثين ألف فارس ونازلها، وفتحها في شهر ربيع الآخر. وبقيت القلعة بيد أبي الفضل بن سعيد الدولة بن حمدان ولؤلؤ، فكاتبا بسيل[(٧)] ملك الروم، فكتب لصاحب أنطاكية، وهو من قِبَله، بأنْ يجمع العساكر ويتوجَّه إلى حلب لنُصْرة صاحبها، ودَفْعِ المغاربة عنها، فسار إليها في خمسين ألف رجل.

وقال المسبّحي[(٨)]: كان عسكر الرّوم سبعين ألفاً وعسكر منجوتكين خمسة وثلاثين ألفاً.

فنزل الرّوم على جسر الحدِيد بين أنْطاكية وحلب، فأشار أصحاب منجوتكين عليه

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٦٩.

(٢) كان على الخراج بدمشق، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٦٩.

(٣) مرج عذراء: بالشام بالقرب من دمشق بينهما اثنا عشر ميلاً. الحميري: الروض المعطار، ص ٥٣٦. ونسبة إلى قرية عذراء بغوطة دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٠١.

(٤) منجوتكين: كان أحد الغلامين اللذين اصطفهما العزيز بالله من الأتراك. أما الغلام الآخر فهو بازتكين. وكانا أمردين. أخبارهُ في ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٢١. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٦٩.

(٥) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٦) في الأصل: سيف. وهو تحريف. هو سعيد الدولة أبو الفضائل سعيد الذي حكم حلب في الفترة من ٣٨١ ـ ٣٩٢ هـ/ ٩٩١ ـ ١١٠٢ م. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٤٤.

(٧) هو الأمبراطور البيزنطي باسيل الثاني الذي ولي عرش الامبراطورية البيزنطية في الفترة من ٩٧٦ ـ ١٠٢٥ م. أوروبا في العصور الوسطى لعاشور.

(٨) هو المختار المُسبِّحي صاحب التاريخ المشهور «أخبار مصر»، انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٢٧.

بقَصْد الرّوم، فتوجه نحوهم[١] وانضم إليه جماعة من بني كلاب، فالتَقَوْا فانكسرت عساكر الرُّوم، وغَنِم منجوتكين ومن معه الغنائم الجزيلة، وجمع من رؤوس الرُّوم مقدار عشرة آلاف رأس، فسيَّرها إلى مصر.

وتبع منجوتكين الرّوم إلى أنطاكية، وأحرق ضياعاً، ونهب رساتيقها[٢]، ورجع إلى حلب. فعمل لؤلؤ مقدم حلب على رجوع منجوتكين عن بلده، فكاتب أبا الحسن ابن المغربي وزير منجوتكين وخواصَّه أن يحسّنُوا[٣] له الرجوع إلى دمشق والعَوْد إلى حلب في العام المقبل، وَعَدَهم على ذلك بالأموال الجزيلة. فذكروا ذلك لمنجوتكين فصادف هذا الرأي منه موقعاً لسَوْقه إلى دمشق، فرجع عن حلب.

ولمّا بلغ العزيز رجوعُه عنها انزعج لذلك وعلم أنه بتدبير وزيره ابن المغربي، فعزله عن وزارة منجوتكين، وولى صالح بن علي الرّوذباري.

وفي سنة ثلاثٍ وثمانين وثلاثمائة ظهر من الجراد والكمأة[٤] على جبل المقطم بمصر ما لم يعهد مثله، فخرج النّاس إليه وجعلوا يدخُلون القاهرة ومصر في كلِّ يوم، فبيع الجراد أربعة أرطال بدرهم، والكمأة سبعة أرطال بدرهم.

وفيها في يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة احترقت صناعة الإنشاء[٥] بمصر بما فيها من المراكب الحربية وآلات السلاح وغير ذلك. فاتُّهم الأمراءُ بذلك، فقتل منهم مائة وسبعة نفر، ثم أحضر عيسى بن نسطورس مَنْ بقي من الرُّوم فاعترفوا بذلك، فأمر العزيز: بالله أن تُنْهَب كنيسة الرّوم، فنهبت وأخذ منها ما ينيف عن تسعين ألف درهم.

ذكر وفاة العزيز بالله وشيء من أخباره وأخبار وزيره يعقوب بن كلّس ومَنْ وَلِي بعده

كانت وفاةُ العزيز بالله بعد الظهر من يوم الثلاثاء لِلَيْلَتَيْن بقيتا من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة بمدينة بلبيس في مسلخ الحمام بعلتي القولنج والحصاة[٦].

---

(١) في ا لأصل: «نحوهم إليهم».

(٢) رستاق، رسداق، رساتيق، ومنها رزداق، ورزداقات: القرى وما يحيط بها من الأراضي، فارس معرب. الفيروزابادي: القاموس المحيط (رستق).

(٣) في الأصل: «إن يسحنا له» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) الكمأة: واحدها كمٌّ: نبات ينقِّض الأرض فيخرج كما يخرج الفُطر. والجمع أكمؤ. ابن منظور: لسان العرب (كمأ).

(٥) صناعة الإنشاء: أي صناعة السفن، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٩٠.

(٦) في الأصل: الحصى، والتصحيح يقتضيه السياق.

وكان مولده بالمهديّة في يوم الخميس لأربعَ عشرةَ ليلةً خلت من المحرّم سنة أربعٍ وأربعين وثلاثمائة.

وكانت مدّة حياته اثنتين وأربعين سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً، ومدّة ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً[١].

وكان أسمر، طويلاً، بديناً، أشْهَل[٢]، أَعْيَن، أَصْهَب الشّعر[٣]، عريض المنكبين. وكان لا يُؤْثر سفك الدماء.

قال المؤرخ: وجُدّد في أيام العزيز من الأبنية قصر الذّهب[٤]، وجامع القرافة[٥] والفوَّارة وبستان السردوس[٦]، وقصور عين شمس، والمصلى الجديد بالقاهرة. وهو أوّل من بنى دار الفطرة[٧]، وقرر الرَّواتب، وسنَّ إعطاء الضَّحايا للأولياء. وكان قريباً من الناس، بصيراً بالخيل والجوارح والصّيد.

ولده: أبو علي المنصور، وهو الحاكم بأمر الله.

ذكر أخبار الوزير يعقوب بن كلسّ[٨]

وكُنيتُهُ أبو الفرج؛ وهو أوّل من خوطب بالوزارة في دولتهم، وكان يهوديًّا من أهل بغداد، فهاجر منها إلى الشام ونزل الرّملة، فجلس وكيلاً للتُّجَّار بها، فاجتمع عنده مالٌ فاكتَنَزَه، وسافر إلى مصر، واتَّصل بخدمة كافور، فتاجر في متاعٍ كان يُحيله بِثَمَنِه على

---

(١) في الأصل: «وعشر» والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر، ص ١٧٥. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٩٢. وفي كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٢٣٨، «وعشرة أيام».

(٢) أشهل: الشهلة في العين أن يشوب سوادها زرقة، رجل أشهل العين. ابن منظور: لسان العرب (شهل).

(٣) أصهب الشعر: أشقر. ابن منظور: لسان العرب (صهب).

(٤) قصر الذهب: قاعة الذهب، وكان يقال لها قصر الذهب، أحد قاعات القصر الكبير الذي هو قصر المعز لدين الله. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٣٨٥.

(٥) جامع القرافة: كان موضعه يعرف عند فتح مصر بخطة المغافر. أنشأته والدة العزيز بالله السيدة تغريد. في سنة ٣٦٦ هـ (في شهر رمضان) المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٣١٨.

(٦) السردوس: قرية قديمة، واسمها اليوم باسوس. وهي بمحافظة القليوبية. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ص ٦٩.

(٧) دار الفطرة: هي مخزن لجمع أنواع الحلوى التي تفرق في شهر رمضان. أنشأها العزيز بالله خارج قصره. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٢٥.

(٨) ترجمته وأخباره في: المنتظم لابن الجوزي، ج ٧، ص ١٥٥. والكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٧٧، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٩٧. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٦٠، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٧، ص ٢٧ ـ ٣٥.

الضياع، فكان إذا احتيل على عملٍ بمالٍ لا يخرُج منه حتى يعلم مستخرجه ونفقته وارتفاعه، فعلم أحوال ديار مصر، فأُخبر كافور به، فقال: لو كان هذا مسلماً لصلح أن يكون وزيراً. فبلغه ذلك، فأسلم على يَدَي كافور، في يوم الجمعة في الجامع العتيق، في سنة خمسين وثلاثمائة.

ثم تعلّقت به مُطَالبات ديوانيّة في الدولة الإخشيدية فهرب بسببها من مصر، فلقي العسكر المغربيّ قاصداً مصر فعاد في صحبته، فلمّا ملك القائد جوهر مصر تصرَّف ابن كلِّس في الأمور الدِّيوانيَّة مدّة أيام المعز. ثم انتقل إلى خدمة ولده العزيز، فاختصّ به وتمكّن منه، وأفتى الأموال، فاستوزره في يوم الجمعة ثامن عشر شهر رمضان سنة ثمانٍ وستين[١] وثلاثمائة؛ وأقطعه بمصر والشام في كلِّ سنة ثمانية آلاف دينار ـ وبسطَ يدَه في الأموال، وكتب اسمه على الطُّرُز[٢]، وابتدأ بنفسه في المكاتبات والعُنْوانات. من يعقوب ابن يوسف وزير أمير المؤمنين.

وتمكن من الدولة حتى أسْقَطَ المغاربة، واستخدم المشارقة، في سنة سبعين وثلاثمائة، من التُّرك والإخشيدية. وأذل جوهراً الرُّومي غلامَ المعزّ وجعله على المرّمة، وكان [جوهر][٣] يقول: قبح الله طُول هذا العمر الذي أحْوج لمثل هذا.

ثم نكبه العزيز النكبة التي ذكرناها في سنة ثلاث وسبعين، ثمّ أطلقه وأعاده إلى الوزارة، وقال له: عُزِلتَ بالإغراء، ورُدِدْت بصمم الآراء. ووهب له ألفاً وخمسمائة غلام كما ذكرنا[٤].

ولم يزل ابن كلس على ذلك إلى أن توفي لِسِتٍّ خلَوْنَ من ذي الحجة، سَنَة ثمانين وثلاثمائة.

ولمَّا مرض مَرْضته التي مات فيها ركب العزيز إليه، وعَادَهُ، وقال له: وَدَدْتُ أنّك تباع فأبتاعك بملكي «وولدي»[٥] [أو تفدى فأفديك فهل من حاجة توصي بها][٦].

---

(١) في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٦٠. «سنة خمس وستين» وأيضاً في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣٢. وكنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ٢٢٧.

(٢) الطرز: البزّ: أو الرداء لفظ فارسي، وأصله ترز والطراز: ما ينسج من الثياب للسلطان: فارسي أيضاً. ابن منظور: لسان العرب (طرز). انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١، ٤٠٩.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة للتوضيح.

(٤) انظر ما سبق. ذكر فتح قنسرين وحمص.

(٥) «وولدي» كلمة ساقطة من الكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٧٧ وفي المنتظم لابن الجوزي، ج ٧، ص ١٥٥.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من المنتظم في تاريخ الملوك، والأمم لابن الجوزي، ج ٧، ص ١٥٥.

ولـمّا مات أمر العزيز أن يُدفن في داره في قُبة كان بنَاها لنفسه؛ وحضر جنازته وصلّى عليه، وألحده في قبره.

وبلغ قيمة الكفن الذي أنْفَذَه العزيزُ له، وهو خمسون ثوباً مثقلة سبعة آلاف دينار، وانْصَرَف من دفنه، وأظهر الحُزن وأغلق الدّواوين ثمانية عشر يوماً، وعطّل الأعمال أياماً، واشتملت تركته على مال عظيم.

ولم يستوزر [العزيز][1] بعده أحداً بل ضمن أموال الدّولة بجماعةٍ من المستخدمين وجعل الغالبَ عليهم عيسى بن نسطورس النّصراني، فمال إلى النَّصارى وقلدهم الأعمال. واستناب بالشام منشا بن إبراهيم اليهوديّ فقدَّم اليهود ومال إليهم، واطَّرَح المسلمين، فوقَفَت للعزيز امرأة بيدها قصّة ـ مكتوبٌ فيها: يا أمير المؤمنين بالّذي أعزّ النّصارى بابن نسطورس وأعزّ اليهود بمنشّا بن إبراهيم وأذّل المسلمين بك إلا ما نظرت في أمْري وكشفت ظُلاَمتي[2]! فقبض العزيز على عيسى، وكتب بالقبض على منشّا بالشام، ثم شفعت ستّ الملوك ابنة العزيز في عيسى فردّه إلى ما كان عليه، وحمل إلى الخزانة ثلاثمائة ألف دينار، وشرط عليه استخدام المسلمين في دولته وأعماله.

قضاته: أبو طالب محمد بن أحمد البغدادي إلى أن استعفى، ثم علي بن النعمان إلى أن تُوُفِّي في شهر رجب سنة أربع وسبعين، فردّ القضاء إلى أخيه أبي عبد الله محمّد ابن النّعمان.

حُجَّابه: الأمير منجوتكين، القائد باروخ.

ولـمّا مات العزيز قام بالأمر بعده ولده أبو علي المنصور.

ذكر بيعة الحاكم بأمر الله[3]

وهو أبو علي المنصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معدّ، بن

= ويذكر ابن الجوزي في المصدر نفسه، والصفحة نفسها «قال يعقوب: أما فيما يخصني فلا... ولكن فيما يتعلق بدولتك (أي دولة العزيز) فلا تبق على المفرج ابن دغفل الجراح، متى أمكنت فيه الفرصة..».

(١) ما بين حاصرتين زيادة للتوضيح.

(٢) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، والكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٧٧، ١١٦. وفيه أورد ابن الأثير: «وكتب أهل مصر قصة جعلوها في يد صورة عملوها من قراطيس، وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز».

(٣) ترجمته وأخباره في: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٧٧ ـ ١٩٨ والمنتظم لابن الجوزي، ج ٩، ص ٢٩٧، والكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ١١٨ ـ ١٢٣.

المنصُور بنصر الله أبي طاهر إسماعيل، بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدي عبيد الله. وهو السادس من ملوك الدَّولة العُبيدية، والثالث من ملوك مصر والشام منهم.

بايع له أبوه العزيز قبل وفاته ببلبيس، وكان ولّى قبله ابنَه محمداً فهلك في حياة أبيه العزيز، ثم جُدّدت البيعة للحاكم بأمر الله صبيحة وفاة أبيه في يوم الأربعاء لليلةٍ بقيت من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة، ولبس أثواب الخلافة، وتعمَّم بعمامةٍ عليها الجوهر، وعمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة وستة أشهر(١). وتولّى كِفَالته برجوان(٢) الخادم، وقام بأمر الجيوش وتدبير الدَّولة أبو محمد محسن بن عمّار بن أبي الحسن، وتلقب بأمين الدّولة، وهو أول من لقب في دولتهم بمصر، وكان ذلك بوصية من العزيز.

قال: وكان الكتاميون قد أضعفهم الوزير ابن كلّس، فأظهرهم ابن عمّار وردَّهم إلى ما كانوا عليه.

ذكر القبض على الوزير عيسى بن نسطورس النصراني وقتله

كان القبض عليه في تاسع شوال سنة ستٍّ وثمانين وثلاثمائة: وذلك أن ابن عمار اتّهمه بالإغراء عليه ومباطنة منجوتكين، فبَسَطَ عليه العذاب، واستخرج منه سبعمائة ألف دينار، ثم أخرجه لثلاثٍ بقين من المحرم سنة سبع وثمانين على حمار، إلى المقس، وضرب عنقه هناك. رحم الله ابن عمار الآمر بقتله، فلقد حُكي عنه مِنْ جَوْره على المسلمين واطِّراحِه لهم ما لاَ مَزِيد عليه.

حكى الأثير بن بيان المصري أنّ بعض رؤساء المصريّين كتب ورقةً يعاتب فيها عيسى على قُبْح فعله مع المسلمين وبالغ فيها، فأجابه عيسى عنها يقول: «إن شريعتنا متقدِّمة، والدّولةُ كانت لنا ثم صارت إليكم. فَجُرْتم علينا بالجزية والذِّلَّة، فمتى كان منكم إلينا إحسَانٌ حتى تطالبونا بمثله! إن مانَعْنَاكم قاتلْتمُونا، وإن سَالَمْنَاكم أهنتمونا، فإذا وجدنا لكم فرصة فماذا تتوقَّعُون أن نصنع بكم». ثم تمثل في آخرها ببيتين: [من الرمل]

بِنْتُ كَرمٍ غصبوها أمّها ... ثم داسُوهَا، هواناً، بالقدم

ثم عادوا حكَّمُوها فيهمُ ... وأناهيك بِخِصْمٍ قد حكم!

---

(١) ولد بالقاهرة في ٢٣ ربيع أول سنة ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٣، ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ١٧٦. وذكر ابن ظافر أنه ولد في ربيع الآخر. أخبار الدول المنقطعة، ص ٦٠.

(٢) هو الأستاذ أبو الفتوح بَرْجوان الذي ينسب إليه حارة بَرْجوان بالقاهرة. كان من خدام العزيز بالله صاحب مصر ومدبّري دولته. قتل سنة ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩ م في القصر بالقاهرة بأمر الحاكم. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٧٠، رقم ١١٢.

ذكر مخالفة منجوتكين بدمشق وحربه وأسره وسبب ذلك

كان سبب ذلك أن ابن عمار أظهر الكتاميين وبالغ في الإحسان إليهم، وخوَّلهم في الأموال وبسط أيديهم، وفرَّق فيهم ما خلَّفَه العزيز.

قال بعض المؤرخين: إن العزيز كان عنده عشرون ألف عليقة ما بين فرسٍ وبغل، وجمل وحمار، ومن الأموال ما لا يدخل تحت الإحصاء؛ ففرَّق ابن عمار ذلك فيمن أراد اصطناعه، فلما كان في سنة سبع وثمانين ومائتين انبسطت يد كُتامة وجاروا على النَّاس بديار مصر، وامتدُّوا لأَخْذِ أموالهم، ثم اجتمع مشايخهم وحسَّنوا للحسَن بن عمار قتل الحاكم. فعلم برجوان بذلك، فبالغ في حفظ الحاكم وضم إليه شكر العضُدي من غلمان عضُد الدَّولة بن بويه. وكاتبا منجوتكين أمير دمشق يُعرِّفانه ما عزم عليه ابن عمّار، وأنه بَسَط يد كتامة في الأموال ومكنهم من الجَوْر وأنهم حَصَرُوا الحاكم بقصره، وأشارَا عليه أن يقصد مصر ليكون عوضاً عن الحسن بن عمّار.

فلما قرأ منجوتكين الكتاب جمع القُوَّاد والأجناد وغيرهم بجامع دمشق، وعرَّفهم ما جرى من كتامة، وبكى، وخرّق ثيابه؛ فأطاعه النّاس وحلفوا له على طاعة الحاكم وقتال ابن عمار. فأنفق فيهم الأموال ووثَّق منهم؛ وبرز من دمشق في ستة آلاف فارس.

فلما اتّصل ذلك بابن عمار عَظُم عليه وجمع وُجُوه كتامة وعرَّفهم الحال، فقالوا: تعرّف الناس أن منجوتكين قد عصى على الحاكم وخالف عليه، وخرج عنه، ليبالغوا في قتاله؛ ففعل ذلك وأظهره، وفرَّق الأموال في وُجُوه الدَّولة. ثم أحضر برجوان وشكر العضدي وقال لهما: أنا شيخٌ كبير وقد كثُر الكلام عليَّ والقول فيّ، وليس لي غرضٌ إلاّ في حفظ الإمام الحاكم. وسألهما أن يحلفا له على المساعدة فما وسعهما إلا في أن حلفا[1] له. وندب من وقته أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح وقدّمه على العسكر، وأمره بالمسير إلى الشام، فخرج في ستة عشر ألف فارس وراجل. فسار سليمان في ثاني صفر، ورحل منجوتكين إلى الرّملة فملكها ومعه مفرّج ابن دغفل بن جراح؛ وسار سليمان حتى نزل بظاهر عسقلان.

وتقابل الجيشان بعد ثلاثة أيّام، وكان المصافّ في يوم الجمعة لأربعٍ بقينَ من جمادى الأولى سنة سبعٍ وثمانين وثلاثمائة، فاستأمنت العرب من أصحابِ دغفل وغيرهم إلى سليمان، فاستظهر، وقتل من أصحاب منجوتكين أربعة قوّاد. وانهزم منجوتكين وأحصيت القتلى من أصحابه فجاءت ألفي فارس، وامتلأت أيدي أصحاب

---

(١) في الأصل: «حلفوا» التصحيح يقتضيه السياق.

سليمان. وبذل سليمان لمن يُحضر منجوتكين عشرة آلاف دينار ومائتي ثوب، فأسره علي بن الجرَّاح وحمله إلى سليمان، فسيَّره إلى مصر. فاصطنع الحسنُ بنُ عمّار منجوتكين، وسار سليمان ونزل طبريّة.

فلما بلغ أهل دمشق ما اتفق لمنجوتكين نهبُوا دارَه. وبعث سليمان أخاه إلى دمشق في خمسة آلاف فارس، فلمّا وصلها أغلقُوا دونه الأبواب، فكتب إلى أخيه بذلك، فسار إلى دمشق وتلطَّف بأهلها، وطيّب قلوبهم، ففتحوا له الأبواب. ودخل البلد واستقر أمره، وثبت قدمه، واستتبَّ له الأمر، فنظر في أمر السّاحل واستبدل بولاية الجابرين، وعزل [الأمير][1] جيش بن الصَّمصامة من طرابلس الشام، واستعمل عليها أخاه، فحضر جيش إلى مصر ولم يجتمع به.

ذكر الفتنة بين المشارقة والمغاربة وهرب ابن عمار وما كان من أمره

كان سبب ذلك أنّ سليمان بن جعفر لما عَزَل جَيْشَ بنَ الصّمْصامة عن طرابلس حضر [جيش][2] إلى مصر واجتمع بشكر الخادم وبرجوان سرًّا وعرَّفَهما بُغْض أهل الشّام في المغاربة؛ وكان جيش أيضاً من كتَامة وبيْنه وبين سُليمان عداوةٌ متمكنة، فحسَّن لهما الفتك بالحسَن بن عمّار، فوَقَع هذا الكلام من برجوان بالمَوْقِع العظيم مع ما تقدّم بينهما من الوحشة. وعلم برجوان أن القاهرةَ قَدْ خَلَتَا من المغاربة ولم يبق فيهما إلاّ العدد القليل، وأمكنته الفرصة فانتهزها، ورَاسَلَ الأتراك والمشارقة في القَبْض على الحسن بن عمّار.

وأحسَّ ابن عمار بذلك فقصد الْمُبَادرة بالإيقاع ببرجوان وشُكر، ورتَّب جماعةً في دهليز داره، وقرر معهم الفتك بهما إذا دخلاَ إليه. وكان لبرجوان عيونٌ كثيرة فاطَّلعوا على ما دبّره ابن عمار عليه. واتفق أنّ الحسن استدعاه [ومعه شكر][3]. فركبا إلى داره، وكانت في آخر القاهرة مما يلي الجبل، ومعهما جماعة من الغلمان. فلمّا وصلا إلى باب الدّار وظهرت لهما عين القضيّة فعادَ إلى القصر بسرعةٍ وجرّدَ الغلمانُ سيوفهم، فَدَخَلاَ قصر الحاكم. فثارت الفتنة واجتمع الأتراك والدَّيلم والمشارقةُ وغيرهم على باب القصرِ، وبرجوان يبكي، وهم يبكون لبكائه، وهو يحرّضهم على القيام بواجب خدمة الحاكم.

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.
(٢) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.
(٣) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

وركب الحسَن بن عمّار في كتامة إلى الجبل، وتبعه وجوه الدّولة، فصار في عددٍ كثير. وفتح برجَوان خزائن السّلاح وفرَّقها على الغلمان وغيرهم، وأحدقوا بالقصر، فبرز منجوتكين وفارحتكين وينال الطويل في خمسمائة فارسٍ من الأتراك. ووقعت الحربُ بينهم وبين الحسن بن عمّار إلى وقت الظهر من يوم الخميس سلخ شعبان سنة سبعٍ وثمانين وثلاثمائة، فانهزم ابن عَمّار، ورجعت العامّة إلى داره فنهبوها ونهبوا خزائنه؛ واستتر عند بعض العوامّ وتفرَّقَت عنه جموعه[١].

وفتح برجوان باب القصر، وأجلس الحاكم، وأوصل إليه النّاس، وجدَّدَ له البيعة على الجند، فلم يختلف عليه أحد؛ وكتب الأمانات لوجُوه كتامة وقُوَّاد الدَّيْلم وراسَلَهم بما يُطَيِّب قلوبهم فأتوه. واستقام أمرُ برجَوان وكتب إلى أهل دمشق يُطيِّب قلوبهم ويأمرهم بالقيام على سليمان والإيقاع به؛ فثار أحداث[٢] دمشق وقصدوا دار أميرها سليمان، فوجدُوه وقد الْتَهى بالشُّرب وانهمك على لذّاته، فهرب على ظهر فرسه ونُهِبت خزائنه وأمواله. وجعل برجوان الحسينَ بنَ القائد جوهر قائدَ القُوَّاد، وبعث جيش ابن محمد بن الصَّمصامة إلى دمشق، وتلطَّف في إخراج الحسن ابن عمّار من استتاره، فخرج فأعاد برجوان عليه ما كان بيده من الإقطاعات وحلَّفه ألاّ يخرج من داره.

وفي سنة ثمانٍ وثمانين وثلاثمائة عصى أهل صُور على الحاكم بسبب فتنة برجوان وابن عمار وقتلوا جماعةً من جند المصريّين، وثار بعضُ الملاحين من أهلها، ويعرف بالعلاقة، فمَلك البلد.

وثار مفرج بن دغفل الجراحي بالرّملة ونهبها.

فندب برجوان إلى الشام أبا الحسن عبد الصّمَد بن أبي يَعْلَى، وضمّ إليه عسكراً، فسار من القاهرة لأربع عشرةَ ليلةً خلت من ذي القعدة، سنة ثمانٍ وثمانين[٣]. فلمّا وصل إلى الرّملة حضر إليه من جند السّاحل خمسة آلاف فارسٍ، ووجد سليمان بن

---

(١) انظر ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٤٨ ـ ٤٩، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٢.

(٢) أحداث: جمع حدث. رجالِ أحداث السن، أي صغار، ابن منظور: لسان العرب (حدث). وكان الأحداث يكونون نوعاً من رجال الشرطة أو الحرس. وهناك فرق بين الأحداث والشرطة في طريقة التجنيد المحلي غير الرسمي. انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٣٩. وقد وردت نصوص كثيرة تشير إلى «الأحداث» في: ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، وزبدة الحلب في تاريخ خلب لابن العديم تحقيق سامي الدهان، والكامل لابن الأثير، ومرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي. وانظر مادة حدث في دائرة المعارف الإسلامية.

(٣) في الأصل: «وثلاثين» والتصحيح يقتضيه سير الأحداث. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ١٨ ـ ١٩.

جعفر [بن](١) فلاح بها فقبض عليه وسيَّره إلى مصر. وسيّر إلى صور أبا عبد الله الحسن ابن ناصر الدّولة وياقوتاً الخادم ومَنْ معه مِنْ عبيد الشّراء، فوقعت الحرب بينهم وبين أهل صور؛ ثم طلبوا الأمان فأمِّنوا. وأسر العلاقة الثائر، وكان قد استنصر بالروم، فسُلخ وهو حيّ، وحُشِي جلده تبناً وصلب. وكان قد ضرب على الدينار بصور «عزّ بعد فاقة، وشطارة بلباقة، للأمير العلاقة».

وفيها في شعبان ورد الخبر بفتح أنطاكية على يد [الأمير](٢) جيش بن محمد بن الصّمصامة(٣).

ذكر قتل برجوان الخصيّ

كان مقتله في ثالث عشر(٤) شهر ربيع الآخر سنة تسعين وثلاثمائة.

وسبب ذلك أنه كان لِفرْط إشفاقه على الحاكم منَعه من الرّكوب خوفاً عليه، ومنعه من العَطاء لغيرِ مستحقّ، فثُقل على الحاكم، ولم يَبْقَ للحاكم في الأمر غير الاسم، واستبَدَّ برجوان بالأمر. وكان عند الحاكم خادمٌ اسمه ريدان الصقلبي قد اختصّ به وأنس إليه، فشرع في إغراء الحاكم على برجوان. وكان من جملة ما قال له: إن هذا يقصد أن يفعل بك كما فعل كافور الإخشيدي مع أولاد سيّده،فبَاطَن الحاكم الحُسَين بنَ جوهر قائدَ القواد على قتل برجوان، ووعده أن يفوّض إليه تدبير الأمر بعده. ثم ركب الحاكم وبرجوان في بعض الأيام إلى بستان اللؤلؤة(٥) على عادته، فمال عليه ريدان بسكين فضربه بها في ظهره وأخرجها من صدره. فقال برجوان للحاكم: غُدِرت. فزعق على الخدَّام فاحتزُّوا رأسه، فانزعج الناس لذلك ولبسوا السلاح، فسبق الحاكم ودخل القصر وحضر شكر الخادم والجند وأحاطوا بالقصر ظنًّا منهم أن الحسن بن عمار تمَّم على الحاكم حيلة. فلما رأى الحاكم ذلك تراءى للنّاس فترجلوا وقبَّلوا الأرض، وسكنت الفتنة.

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٣) هو أبو الفتوح، القائد المغربي ابن أخت أبي محمود الكُتامي أمير أمراء جيوش المغرب ومصر والشام وتولى نيابة دمشق ثلاث مرات أيام الفاطميين، وكان ظالماً سفاكاً للدماء. توفي عام ٣٩١ هـ. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٠٥.

(٤) وقُتل عشية يوم الخميس السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر وقيل بل قتل يوم الخميس منتصف جمادى الأولى. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٧٠، «في سادس عشر» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٢٥.

(٥) بستان اللؤلؤة في قصر الحاكم. وكان يعرف بدويرة التين والعناب. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٤. والمقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٢٥.

ثم فتح الحاكم القصر واستدعى أكابر النّاس وقال لهم: أنكرت على برجوان حاله وقتلته، واستدعى الحسين بن جوهر وأمره بصرف الناس إلى منازلهم، فصرفهم.

وركب مسعود الحاكمي إلى دار برجوان فأحاط على ما فيها، وكان من جملة ما وجد له ألف سروال[(١)] دبيقي بألف تكّة حرير، وناهيك بموجود يكون هذا من جملته.

وإلى برجوان هذا تنسب حارة برجوان[(٢)] التي بالقاهرة.

واستقرّ الحسين بن جوهر في تدبير الدّولة إلى ثالث جُمادى الأولى من السنة.

وقتل في أثناء هذه الفتنة الحسن بن عمّار الكتامي، وتوفّي جيش بن محمد بن الصّمصامة أمير الشام بدمشق في ثالث عشر ربيع الأول منها، وندب الحاكم لولايتها القائد تميم بن إسماعيل المعزّي الملقب بفحل.

ذكر ما فعله الحاكم بأمر الله وأمَر به من الأمور الدالّة على اضطراب عقله بعد أن استقل بالأمر بمفرده

كان أول ذلك أنه نهى في سادس شهر رجب سنة تسعين وثلاثمائة أن يخاطِب الناس بعضهم بعضاً بسيدنا ومولانا، وألاّ يخاطَب بذلك غيره. وفي سنة إحدى وتسعين، في شهر المحرم، أمر أن تُزيَّن مصر ويفتح الناس دكاكينهم ليلاً؛ ولازَم الركوب بالليل، وكثر ازدحام النَّاس، وصار البيع باللّيل أكثر من النهار، وأكثر الناس الوفود. غلب النساء على أزواجهم على الخروج، فأمر في رابع عشر الشّهر ألاّ تخرج امرأة من العشاء لهذا السبب، فلم يخرجْنَ بعد أمره[(٣)].

وفي سنة ثلاثٍ وتسعين حصل للحاكم مرض المانخوليا، فأخذ في قتل أرباب الدّولة وذوي المناصب وغيرهم، وصدر عنه من الأفعال ما نذكره إن شاء الله تعالى بتواريخه على حكم السّنين.

ذكر بناء الجامع المعروف بجامع راشده

كان ابتداء عمارته في سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة. وكان سبب إنشائه أن أبا المنصور الزيات الكاتب زرع هذا الموضع وبنى للنّصارى فيه كنيسة فرفع أمرُه للحاكم، فأمر بهدم الكنيسة وأن يُجعَلَ موضعُها مسجداً، ثم أمر

---

(١) في الأصل: «سراويل» والتصحيح يتفق والسياق.

(٢) انظر صفحة ١٠٥ من هذا الجزء حاشية رقم (٢). والمواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٣.

(٣) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٨.

بالتوسعة فيه، فخربت مقابر اليهود والنّصارى، وجمع فيه الجمعة لليلتين بقيتا من الشهر، وبُني فيه منبر من الطّين، وصَلّى فيه ابن عصفورة القارىء. ثم ظهر بعد ذلك أن المحراب وُضع على غير صحّة فهُدِم ما كان ارتفع من البناء، ثم بنى عليه ما هو عليه الآن[١].

ذكر بناء الجامع المعروف بالحاكم
الذي هو بين باب النصر و[باب][٢] الفتوح بالقاهرة

قد ذكرنا أن العزيز بالله كان قد اختطّه في سنة ثمانين وثلاثمائة، ومات العزيز بالله ولم تكمل عمارته[٣].

فلما كان في سنة ثلاثٍ وتسعين وثلاثمائة، لليلتين بقيتا من جمادى الأولى، أَمَر الحاكمُ بالله بإتمامه. وقيل إن الوزير يعقوب بن كلّس، وزير العزيز، هو الذي كان بدأ بعمارته وقدّر له أربعين ألف دينار، فأخرج له خمسة آلاف دينار ومات ولم يكمل، فابتُدِىء بعمارته في هذا التاريخ.

وفي هذه السنة قتل الحاكم مقدار بن حسن كاتب جوهر، ضُرِبَ عنقُه وأحرق بالنار، وفيها لليلتين خَلَتَا من ذي الحجة قتل ريدان الصقلبي الخادم، وكان خصيصاً به مكيناً عنده، وإليه ينسب الريدانية التي هي بظاهر القاهرة خارج باب النصر. وفيها قتل منجمه العكبري صاحب الرّصد الحاكمي وكان شديد الاختصاص به. ونادى مُنَاديه بإباحة دم المنَجِّمين وأنهم كفار، فهربوا ولم يبق بالديار المصرية منجم.

وفي سنة أربع وتسعين وثلاثمائة اشتدت السّوداء على الحاكم، فصار يركب في الهاجرة حمارة بلقاء والسّياف بين يديه، فيقتل من يخطر بخاطره قتله. فقتل خلقاً كثيراً وغرَّق وأحرق، حتى قتل الركابية[٤] وأصحاب السّتر، والوزراء والقضاة؛ واستمرّ به هذا الحال.

---

(١) المراد أن جامع راشدة قد زال الآن. وكان هذا الجامع واقعاً بين مدينة الفسطاط ودير الطين، وعرف بهذا الاسم لأنه بني في خطة راشدة بن أدب بن جديلة من لخم، ومحله اليوم مساكن قائمة بالجهة الغربية من عزبة اصطبل عنتر قبلي الطريق الموصلة بين هذه العزبة وبين جسر النيل في الزاوية التي تتقابل فيها هذه الطريق بالجسر الفاصل بين العزبة وبين الأراضي الزراعية، وهذا الموضع يعرف بمقام الست راشدة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٧٨، حاشية ٣.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٣) ويقال له أيضاً الجامع الأنور، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٧٨، حاشية رقم ٣ وبخصوص هذا الجامع قال المقريزي: «صلى العزيز بالله في جامعه صلاة الجمعة وخطب» وذلك في ٤ رمضان ٣٨١ هـ/ ٩٩١ م. قبل أن يكتمل بناؤه. المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٤) الركابية: هم الذين يحملون السلاح حول الخليفة عند ركوبه في المواكب، وأصحاب هذه الوظيفة يعبر عنهم أيضاً بصبيان الركاب الخاص. وهم الذين يعبر عنهم بالسلاح دارية والطبردارية. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣، ص ٤٨٠.

وفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، في رابع عِشْرِي المحرم قُرِىء سجل من الحاكم يمنع الملوخيا[١] والمتوكلية[٢]، والترمس المعفن والدَّلِيَس[٣] وعمل الفقاع[٤]، وعن ذبح البقر وألا يدخل أحد الحمّام إلاّ بمِئزر، ولا تكشف امرأة وجهها في طريق ولا خلف جنازة، وألا يباع من السّمك ما ليس له قشر[٥].

وفي رابع صفر منها كتب على المساجد بسب الصحابة رضي الله عنهم، وعلى حيطان الشوارع والقياسر[٦]. ثم نهي عن ذلك في سنة سبع وتسعين. وأمر اليهود والنصارى إلا الجَبَابرة بلبس السّواد[٧]، وأن يحمل النَّصارى الصُّلبان على أعناقهم، وأن يكون طول الصليب ذراعاً وزنته عشرة أرطال، وعلى أعناق اليهود قوامي الخشب والجلاجل، وألا يركبوا شيئاً من المراكب المحلاّة، وأن يكون ركبهم من الخشب وألا يستخدموا أحداً من المسلمين ولا يركبوا حماراً لمكّار مسلم.

وفي سابع عِشْرِي صفر منها نودي بالقاهرة ألا يخرج أحد بعد عشاء المغرب إلى الطريق ولا يظهر بها.

وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر منها أمر بقتل الكلاب فقتلت عن آخرها[٨].

وفي تاسع عشر جمادى الآخرة فتحت دار بالقاهرة وسميت دار الحكمة[٩]، وجلس فيها الفقهاء وحُملت إليها الكتب من خَزائن القصور، ونسخ النّاس من الكتب ما اختاروه؛ وجلس فيها القُرّاء والفقهاء والنّحاة واللّغويون، والأطباء والمنجّمون، بعد أن فُرشَت وزُخرفت السّتور على جميع أبوابها وممرَّاتها، وجعل لها قُوّام وخُدَّام. وحصل في هذه الدّار من الكتب والخطوط المنسُوبة ما لم يُرَ مثله، وأجريت بها الأرزاق.

وفي هذا الشهر مُنِع الناس من العبور إلى القاهرة ركّاباً مع المكّارية، ومُنع من

---

(١) علل تحريم الملوخيا بميل معاوية إليها. انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٤٤.
(٢) «لنسبتها إلى المتوكل» الخليفة العباسي. المصدر نفسه ص ٤٤.
(٣) نوع من السمك الصغير ليس له قشور.
(٤) شراب كالرمان يصنع من الشعير. الفيروزابادي: القاموس المحيط (فقع).
(٥) هذه القوانين البوليسية الصارمة والغريبة الشاذة عرض لها وحللها وأعطانا صورة طبيعية لشخصية الحاكم بأمر الله محمد عبد الله عنان في كتابه: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، ص ١٥١ - ١٧٤.
(٦) في الأصل: «القياسير». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٧) ورد في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٥٣، و«شعارهم بالسواد شعار الغاصبين العباسيين».
(٨) «فقتلوا عن آخرهم» في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.
(٩) وتعرف أيضاً بدار العلم. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٥٨.

الجلوس على باب الزُّهومة[1] إلى أقصى الباب [المعروف][2] بباب الزمرد.

وفي سنة ستٍّ وتسعين وثلاثمائة ركب الحاكم في مَوْكبه ومعه أرباب دولته فمرّ على الموضع الذي يُباع فيه الحطَبُ وقد تراكمت الأحطابُ فيه بعضُها على بعض، فوقف وأمر أن تؤجَّج النّار في بعضها، ثم أمَر بقاضي القضاة بمصر، وهو الحسين بن علي بن النعمان، فأنزل عن دابَّته ورُمِي به في تلك النّار حتى هلك[3]، ولم يتقدَّم له مقدّمة توجب ذلك[4]. ثم مرَّ كأن لم يصنع شيئاً.

ذكر أبي ركوة وظهوره وما كان من أمره إلى أن قتل

كان ظهوره في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، وادّعى أنه الوليد بن هشام[5] بن عبد الملك بن عبد الرحمٰن الأموي، وتلقَّب بالثائر بأمر الله والمنتقم من أعداء الله. ونحن الآن نذكر أخباره وابتداء أمره، وكيف تنقّلت به الحال إلى أن كان منه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

كان مولده بالأندلس ونشأ بها ثم خرج منها بحالٍ سيّئة يجوبُ البلاد إلى أن وصل إلى القيروان، ففتح بها مكتباً يعلّم الصبيان فيه القرآن، ثم توجه منها إلى لإسكندرية ومنها إلى مصر فأقام بها وبأرْيَافِها يعلم الصبيان، ثم توجه إلى الفيّوم وعلَّم بها الصبيان أيضاً، وعاد إلى مصر، وخرج إلى سبك الضحك[6] فنزل به على رجل يعرف بأبي اليمن، ثم نزل بقَرَنْفيل[7] وسار منها إلى البحيرة فنزل على بني قرة. وكان

---

(١) باب الزهومة: هو من أبواب القصر الفاطمي الكبير الشرقي. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٣٥.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٣) باب الزمرد: من أبواب القصر الفاطمي الكبير الشرقي. وكان يتوصل منه إلى قصر الزمرد لذلك عرف به. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٣٥.

(٤) ضربت رقبته ثم أحرق. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٥٩.

(٥) لقب بأبي ركوة لأنه كان يحمل دائماً ركوة ماء لوضوئه على طريقة الصوفية، وتعتبر ثورته من أهم حوادث العصر، فقد كاد هذه الداعية القوي أن يزعزع أسس الدولة الفاطمية وأن يقضي على ملك الحاكم وأسرته. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢١٦، حاشية رقم ٢. وانظر الكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ١٩٧.

(٦) سبك الضحاك: من أعمال المنوفية، من القرى القديمة، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ق ٢، ص ٢١٧.

(٧) قرنفيل: من القرى القديمة من أعمال القليوبية. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ق ٢، ص ٥٧.

الحاكم قبل ذلك في سنة خمسٍ وتسعين قدْ بعث إليهم جيشاً مقدَّمه أبو الفتيان التّركي وقتل الحاكم بعضهم وحرّقهم بالنّار، فوجدهم قد أجمعوا على أن يلتَقُوه بجموعهم ويحاربُوه، ولم يَعْلموا من يُقدّمونه عليهم. فعرّفهم أبو ركوة أنّه من بيت الخلافة، فانقادوا إليه وبايعوه بالخلافة، ونُعِت[1] بأمير المؤمنين، وانضاف إليهم من لوانة ومزاتة وزناتة جمع كثير، وجاؤوا إلى مكانٍ بالقرب من برقة. فلمّا بلغ الحاكمَ أمرُه جهر العساكر لقَصْده؛ فأول من خرج بها ينال الطَّويل التركي في منتصف شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، فالْتَقَوْا واقتتلوا، فقُتل يَنال وعامّة مَنْ معه من العساكر، وغنموا ما معهم وسار أبو ركوة إلى برقة وأخذها بعد حصارٍ، فاستفحل أمره.

وشرع الحاكم في تجريد العساكر إليه، فجهّزها في شهر ربيع الأول سنَة ستٍّ وتسعين وعليها ابن الأرمنية، فسار إلى المكان المعروف بالحمام[2]، فلقيه بنو قرّة في جماعتهم فهزموه وقتلوه وانتهبوا ما كان معه.

فندب الحاكم عسكراً وقدّم عليه أبا الحسن بن فلاح وجلين وإبراهيم بن الأفرنجية؛ ثم ندب القائد أبا الفتوح فضلَ بن صالح لقتاله، فخرج إلى أرض الجيزة في رابع شوال وأنفق في العساكر، وكوتب علي بن الجرّاح بالوُصول إلى الحضرة، فوَرَد من الشام في سابع عشر شوّال. ووردَ الخبر بنهب الفيوم، فبعث الحاكم سريّة لحفظه، وسار الفضل بن صالح عن مكانه إلى ذات الكوم[3] في رابع ذي القعدة، وكَسر أبو ركوة عسكرَ ابن فلاح ونهب سواده والخزائن التي معه، وقَتَلَ من أَصحابه جماعةً؛ فاضطرب النّاس واشتد خوفهم، وباتوا في الدكاكين والشوارع، وتوجّه القائد فضل للقاء أبي ركوة، فالتقيا بموضعٍ يُعرف برأس البركة، على نصف مرحلة من مدينة الفيوم، لثلاثٍ خلَوْن من ذي الحجّة. واقتتل العسكران قتالاً شديداً وانجلت الحرب عن قتل عامّة عسكر أبي ركوة. وانهزم أبو ركوة إلى بلاد النّوبة وتبعه الفضل إلى الأعمال القوصية.

وذكر بعض المؤرخين أن الحاكم لمَّا أعياهُ أمرُه دَسّ إليه جماعةً من أولياء دولته وأمرهم بطاعته، وأن يَذْكُروا انحرافهم عن الحاكم بسبب قتله لهم؛ ففعلوا ذلك، فاغترّ به، ووصل معهم إلى أوسيم على ثلاثة فراسخ من القاهرة، فالتقى هو والفضل كما

---

(١) في الأصل: «بعث» والتصحيح يتفق مع ما جاء في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٦٠.

(٢) الحمام: من القرى القديمة غربي الإسكندرية، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ٤، ص ٢٤٩.

(٣) ذات الكدم: من القرى القديمة، من أعمال الجيزة. محمد رمزي، المصدر نفسه، ج ٣، ق ٢، ص ٦١.

ذكرنا، واتّبعه، فبلغه أنه وصل إلى بلاد النوبة فكتب إلى متملكها يقول إن عدُوّ أمير المؤمنين الحاكم في بلادك، وكتب إلى صاحب الجبل وهو نائب صاحب دنقلة ومقره ببلد الدّو[١] فيما بين دنقلة وأسوان. وندب الفضل من العسكر من توجّه لقبضه، وكان المساعد على مَسْكه الشيخ أبو المكارم هبة الله، شيخ بني ربيعة وقيل إنه وجد في دير يعرف بدير أبي شنودة في أطراف النوبة، فمسك. وكان الطعن به في شهر ربيع الآخر سنة سبعٍ وتسعين وثلاثمائة.

وعاد القائد فضل إلى القاهرة فوصل إلى بركة الحبش في يوم الجمعة، النّصف من جمادى الآخرة منها، وتلقّاه أكابرُ الدّولة الحاكميّة؛ وركب في سابع عشر الشّهر وأبو ركوة على جمل وعلى رأسه طرطور، وطيف به على هذه الصفة وخلفه قِرد يصفعُه[٢]، ثم صلب وضُربت عنقه وجُهّزت رأسه إلى البلاد.

ونقل بعض المؤرخين أنه اعتُبرت الأكياس التي خرجت مع القائد فضل لمّا خرج للقاء أبي ركوة، وكان زنتها فوارغ خمسة وعشرين قنطاراً. وقيل: إنّ جملة ما أنفق ألف ألف دينار والله أعلم.

وفي سنة ثمانٍ وتسعين وثلاثمائة أمر الحاكم بقتل أصحاب الأخبار حيثما وجِدوا؛ وذلك أن كان قد قتل خلقاً كثيراً لسعايتهم، ثم اطّلع على خيانتهم وأنهم صيَّروا ذلكَ معيشةً، فقتلهم عن آخرهم.

وفيها أمر بهدم كنيسة قمامة بالبيت المقدس، فكتب ابن خيران صاحب ديوان الإنشاء في ذلك: «خرج أمر الإمامة بهدم كنيسة قمامة[٣] فلْيُصَيَّر طولها عرضاً، وسقفُها أرضاً».

---

(١) الدو: وتسمى أيضاً الدر، بلدة قديمة من بلاد النوبة. وينسب إليها مركز الدر بمحافظة أسوان. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ق ١، ص ٥٨.

(٢) أمر الحاكم أن يشهر أبو ركوة على جمل ويُطاف به. وكان بالقاهرة شيخ يقال له الأبزازي، إذا خرج خارجي صنع له طرطوراً وعمل فيه ألوان الخرق المصبوغة، وأخذ قرداً ويجعل في يده درّة ويعلمه أن يضرب بها الخارجي من ورائه، فلما قطع أبو ركوة الجيزة أمر به الحاكم، فأركب جملاً بسنامين وأُلبس الطّرطُور وأُركب الأبزازي خلفه، والقرد بيده الدّرة، وهو يضربه والعساكر حوله. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢١٧.

(٣) قمامة: بالضم: أعظم كنيسة للنصارى بالبيت المقدس. وفيها مقبرة يسمونها القيامة لاعتقادهم أن المسيح قامت قيامته فيها. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٨٥. وتقول رواية كنيسية معاصرة إن السجل الشهير بهدم كنيسة القيامة، صيغ بهذه العبارة الموجزة: «خرج أمر الإمامة إليك بهدم القيامة» وأن الذي كتبه كاتب نصراني يسمى ابن شترين وأنه توفي بعد كتابته بأيام قلائل ندماً وحزناً. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٨٠.

وفي سنة ثمانٍ وتسعين أيضاً، في سابع عشري[1] شعبان، عزل القائد حسين بن جوهر عن جميع ما كان يتولاّه، وكُتب سجل بتوليته صالح بن علي بن صالح الروزباري فانصرف الحسين إلى داره وأُمِر بلُزومها، ثم خُلِع عليه وركب في رابع عشر جمادى الآخر سنة تسعٍ وتسعين وثلاثمائة[2].

وفي سنة تسعٍ وتسعين وثلاثمائة، في يوم الجمعة التاسع من شهر رمضان، حضر النّاس إلى القصر وقُرِىءَ سجل لصالح بن عليّ لقب فيه بثقة الثقات للسّيف والقلم، وخلع عليه، وقُيِّد بين يديه بغلات وخيل.

وفيها مرض الحاكم فداواه ابن معشر، فأعطاه عشرة آلاف دينار.

وفيها سخط الحاكم على وزيره ابن المغربي وقتله، وقتل أخاه وابنَه، وهرب ابنُه الآخر إلى الشام.

وفيها في تاسع عشر ذي الحجّة أمر الحاكم بهدم كنائس القنطرة التي في طريق المقس وكنائس حارة الرّوم، فهُدم جميع ذلك.

وفي سنة أربعمائة، في يوم الخميس حادي عشر شهر رمضان، جمع الأولياء. وأصحاب الدواوين في صحن الإيوان بالقصر، وخلع على أبي نصر بن عبدون، وقرىء سجله، ولقّب بالكافي، وولي مكان صالح بن علي بن صالح الروزباري. وكانت مدّة ولاية صالح سنتين وأربعةَ عشر يوماً.

ذكر خروج آل الجرّاح على الحاكم ومتابعتهم لأبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني وما كان من أمرهم

كان سبب ذلك أنّ نصر بن عبدون كان بينه وبين بني المغربي عداوة متمكنة، فسعى بهم عند الحاكم وأغراه، إلى أن أمر بضرب أعناقهم، وذلك في ثالث ذي القعدة سنة أربعمائة؛ فقتل أخَوَي الوزير وولدَه وثلاثةً من أهل بيته، واستتر الوزير أبو القاسم ابن المغربي وهرب إلى الشام، في تاسع ذي القعدة منها، والتجأ إلى حسّان بن المفرج ابن دغفل بن الجرّاح، واستجار به فأجاره؛ وأنشده عند دخوله عليه: [من الخفيف]

أمّا وقدْ خيّمتُ وسْط الغابِ ... فلْيقْسُوَنَّ على الزّمانِ عتابي

يترنَّم الفُولاذُ دُون مُخيَّمي ... وتَزَعْزَعُ الخرْصان دون قِبابي

وإذا بَنيْتُ على الثَّنِيَّة خيمةً ... شُدَّت إلى كسر القنا أطنابي

(١) «في يوم الجمعة سابع شعبان» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٧٢.

(٢) «في تاسع عشر ذي القعدة سنة ٣٩٨ هـ. في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٧٤.

وهي قصيدةٌ مطولة مدح بها آل الجرّاح. فلما سمعها حسّان هشّ لها وجدّد من القول ما طاب به قلبُ الوزير وسَكَنَ جأشه.

ثم حسّن ابن المغربي لبني الجراح أن يخرجوا عن طاعةِ الحاكم، فوافقوه على ذلك، وقتلوا نارتكين أحد الأمراء الحاكميّة المقيم بالرَّملة؛ ثم حسَّن لهم أن يُقيموا أبا الفتوح الحسن بن جعفر الحسني خليفةً، وهو أمير الحرمين يومئذٍ[١]، وأن يُحضروه من مكّة؛ فأجابوه إلى ذلك، وأرسلوا إلى مكّة وأحضروه إليهم. فلمّا قرُب أبو الفتوح من ديار بني الجرّاح خرجُوا إليه وتلقَّوه، وقبّلوا الأرض بين يديه، وبايعوه بالخلافة ولقبوه الرّاشد بالله. فحينئذٍ صعد أبو القاسم بن المغربي المنبر وخطب خطبة يحرّض النّاسَ فيها على الخُروج على الحاكم، فأشار إلى مصر وقرأ: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا [مِنْهُم][٢] مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾. [القصص: ١ ـ ٦].

فلمّا سمع الحاكم ذلك أزعجه، فندب الجُيوش لقتالهم، مع ياروخ تكين العزيزي، فاعترضه حسّان بين رفح والدَّارُوم[٣] والْتَقَوْا واقتتلُوا، فانهزمت أصحاب ياروخ تكين، وأسر هو ونقل إلى الرّمْلة، وسمع غناء جواريه وحَظَاياه بحضُوره وهو مقيّدٌ معه في المجلس، وارتكب معَه الفواحش العظيمة، ثم قتله صبراً بين يديه.

وبقي الشّام لبَنِي الجرّاح. فشرع الحاكم يأخذهم بالملاطَفة، ورَاسلَهم، وبذل لهم الرّغائب والأموال، والأقمشة والجواري، وقرّر لكلٍّ واحدٍ منهم خمسين ألف دينار عيناً، واستمالهم عن أبي الفتوح، فاتصل ذلك بأبي الفتوح، فقال لهم: إن أخي قد خرج بمكة، وأخاف أن يستأصل مُلكي بها، فأعادوه إلى مكّة في شهر ربيع الآخر سنة ثلاثٍ وأربعمائة. وكان الحاكم قد أرسل إلى الوزير أبي القاسم بن المغربي وكتب له أماناً واستماله، وبنى على أهله تُرباً في القرافة وهِي[٤] ستّ ترب، وتعرف بالسبع قباب إلى هذا الوقت.

---

(١) انظر أخبار الدولة المنقطعة لابن ظافر، ص ٤٩، والمواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ١٥٧.

(٢) ما بين حاصرتين ساقطة من الأصل وأضيفت لاستكمال الآية.

(٣) الداروم: قلعة بعد غزة على ساحل البحر. خربها صلاح الدين لما ملك الساحل في سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م، ويقال لها الدارون أيضاً. وينسب إليها على هذا اللفظ أبو بكر الداروني. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٢٤.

(٤) في الأصل: «وهم» والتصحيح يقتضيه السياق.

ولما ورد أمان الحاكم على أبي القاسم وهو مقيمٌ عند بني الجراح أجابهُ برسالةٍ وضمَّن أولها بيتين: [من الطويل]

وأنت، وحَسْبِي أنت، تعلم أنّ لي لساناً أمام المجد يَبْني ويَهدمُ[(١)]

وليس كريماً[(٢)] من تُباسُ يمينُه فيرضى، ولكن منْ يُعَضُّ فَيَحْلُم

فسأل آل الجرّاح أن يجهّزوه إلى العراق فجهّزوا معه من أخرجه من بلاد المغاربة؛ وعاد بنو الجرّاح إلى طاعة الحاكم. وأقام ابن المغربي بالعراق إلى أن توفي بميَّافَارِقِين[(٣)] في سنة ثمان عشرة وأربعمائة؛ وحمل إلى الكوفة فدفن بها. ولمّا فارق آل الجراح قدم بغداد وتقلد الوزارة لمشرف الدولة بن بويه كما ذكرنا ذلك في أخبار الدّولة البويْهيّة.

ذكر تفويض السّفارة والوساطة لأحمد بن محمد القشوري وقتله

وفي سنة إحدى وأربعمائة في يوم الخميس رابع المحرّم استدعى الحاكم النّاس على طبقاتهم إلى القصر فركبوا[(٤)] معه إلى خارج باب الفتوح، ثمّ عاد إلى قصره وأَمَرَ من مكان بالموكب بالنُّزول إلى القصر، فنزلُوا وحضروا في الإيوان. فخرج مِنْ عند الحاكم خادمٌ فأخذ بيد أحمد بن محمد المعروف بالقشوري[(٥)] الكاتب وأخرجه من بين القوم، ثم عاد القشوري وقد خُلِع عليه وبيده سجلّ، فأخذه أبو علي العبّاسي الخطيب وقرأه على النّاس، فإذا هو يتضمَّن تقليده السِّفارة والوَساطة بين النَّاس وبين الحاكم، وتفويضَ الأمور إليه، وصرْفَ ابن عبدون. وأقام [القشوري][(٦)] إلى الثالث عشر من الشّهر، فقُبض عليه وقتَ الظّهر وهو في مجلس ولايته، وضَربت رقبتُه، ولُفَّ في حصير ورمي، فكانت ولايته عشرة أيام. وكان سبب ذلك إكرامه للقائد حسين بن جوهر وتعظيمه له وكثرة سُؤَاله الحاكم في معناه.

وفوضت هذه الوظيفة في يوم الأحد رابع عشر الشّهر لأبي الخير زُرعة[(٧)] بن

---

(١) في الأصل: «نبني ونهدم».

(٢) في الأصل: «وليس كريمٌ».

(٣) ميافارقين: بفتح أوله وتشديد ثانيه ثم فاء وبعد الألف راء، وقاف مكسورة، وياء ونون، أشهر مدينة بديار بكر في إقليم الجزيرة شمال العراق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨.

(٤) في الأصل: «فركب».

(٥) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٧) لقبه الشافي. توفي سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠٦٢ م. ابن الصيرفي الإشارة، ص ٢٨.

عيسى بن نسطورس النصراني الكاتب، على عادة من تقدَّمه، ولم يخلع عليه إذ ذاك، ثم خلع عليه في سابع عشر شهر ربيع الآخر منها.

وفي السادس والعشرين منه قُرِئَ بجامع مصر سجلّ يتضمّن النّهي عن معارضة الحاكم فيما يفعَلُه، وترك الخَوْض فيما لا يعنى، وإعادة حَيَّ على خيْر العَمَل في الأذان، وإسقاط الصّلاة خيرٌ من النّوم، والنّهي عن صلاة التراويح والضّحى.

وفي ثاني عشر شهر جمادى الآخرة دخل قائد القواد الحسين بن جوهر، والقاضي عبد العزيز بن النعمان إلى القصر، وكان قد خلع عليهما في ثاني صفر، فلمَّا أرَاد الانصراف بعث إليهما زُرعة بن نسطورس يقول إن الخليفة يريدكما لأمر يختارُه. فجلسا حتى انْصرف الناس، فقُتلا وقُتِل معهما أبو علي أخو الفضل بن صالح، ووقعت الحوطة على دارهم.

وفي سنة إحدى وأربعمائة قامت دعوة الحاكم بالمدائن، وهي على نصف مرْحلة من بغداد، وخُطب له بمدينة الأنبار وقصر ابن هبيرة[١]، من العراق بدخول مالك بن عقيل بن قِراوش بن المقلد[٢] في طاعته وإظهار تَشيُّعه، وذلك في أيام الخليفة القادر العباسي[٣]. ثم بلغ قراوشَ بن المقلّد اختلالُ أمر الحاكم وقتلُه أربابَ دولته وأن المانخوليا غلبت عليه، فأعاد الخُطبة العبّاسيّة.

وفيها قام بدعوة الحاكم بمدينة الجامعين وهي الحلة[٤] وما جاورها من العراق الأمير علي[٥] بن مزيد الأسدي، وكان قد هَزَم خفاجة واستولى على بلادهم وخطب فيها للحاكم.

وفي سنة اثنتين وأربعمائة تاب الحاكم ونهى عن شرب الخمر وعن كلِّ ما يُعمل

---

(١) قصر ابن هبيرة بالكوفة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ص ٣٨٩.

(٢) من الأسرة العقيلية التي كانت في الموصل. وبنو عقيل قبيلة عربية كبيرة. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٣) هو أبو العباس أحمد القادر بالله ولي الخلافة العباسية في بغداد سنة ٣٨١ هـ، توفي سنة ٤٢٢ هـ، وعمره ٨٦ سنة و١٠ أشهر، وخلافته ٤١ سنة و٣ أشهر، انظر ترجمته في الكامل لابن الأثير، حوادث سنة ٤٢٢ هـ، ج ٩، ص ٤١٤، وتاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ١٢.

(٤) الحِلة: بالكسر ثم التشديد: تعرف بحلة بني مزيد: مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد كانت تسمى الجامعين، وكان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دُبيس بن علي بن مزيد الأسدي. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٩٥.

(٥) هو علي بن مزيد الأسدي أبو الحسن توفي في ذي القعدة سنة ٤٠٨ هـ/ ١٠١٧ م، وقام بعده ابنه نور الدولة أبو الأغر دُبيس، ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣٠٤.

منه، كالزبيب والعسل، ونفى المغاني، وحرّم الملوخيا، ومنع أن تُقبَّل الأرضُ بين يديه، وأن تُقبَّل يدُه، وأن يخاطَبَ بمولانا؛ واقتُصِر على قولهم السّلام على أمير المؤمنين.

وفي سنة ثلاث وأربعمائة قطعت كروم العنب بأسْرها ورُميت إلى الأرض ودُرست بالبقر، وجُمع ما كان من الخمر بالمخازن وأهريق في البحر. وفيها كسرت جرار العسل؛ وأمِر اليهودُ والنّصارى بلبس العمائم السّود إلا الجبابرة، ومُنعوا أن يستخدموا المسلمين؛ وأن يركبوا مع المكّارية؛ وإذا دخل النَّصراني الحمّام يكونُ الصليب في عنقه، واليهودي الجلجل؛ ثم أفردَ بعد ذلك حمّاماتٌ للنّصارى وحمامات لليهود؛ وأسلم جماعة من النصارى في شهر ربيع الأول.

وفيها في شهر ربيع الآخر شدَّد الحاكم على النَّصارى واليهود في حَمل الصُّلبان، وأن يكون الصّليب في طول ذراع وزنتُه خمسة أرطال[1]، فلما أضرّ ذلكَ بهم دخلُوا في دِين الإسْلام.

وفيها في شهر رمضان أمر الحاكم ببناء مُصلّى العيد[2] بسفْح الْمُقطّم وأحسن بناءه، وكان قبل ذلك ضيّقاً صغيراً، فهدمه الحاكم وبناه على ما هو عليه الآن.

ذكر هدم كنائس الدّيار المصرية

وفي العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاثٍ وأربعمائة أمر الحاكم بهَدْم جميع الكنائس بالديار المصرية فسأل جماعةٌ من النّصارى أن يتولَّوْا هدم كنائسهم بأيديهم وأن يبنُوها مساجد؛ فوهب الحاكم جميع الكنائس بجميع ما فيها من أواني الذّهب والفضة وغيرها من الحواصل والمآكل، وما لَها من رِباعٍ وأملاك لجماعة من الصّقالبة والفرّاشين والسعدية، ولم يَرُدَّ من سأله شيئاً منها، وكُوتِب كلُّ متصرِّفٍ في عملٍ من الأعمال بهَدم ما في عمله من الكنائس، فهُدمت من جميع أعمال الديار المصرية.

وفي ثالث شهر رجب منها قرىء سجل بتَحْبِيس ضياعٍ ومواضعَ عن الفقراء والفُقهاء، والمؤَذّنين بالجوامع.

وفي رابع عشر جمادى الآخرة منها أمر الحاكم بعمل رصد[3] بالقرافة، فنزل القاضي مالك بن سعد وأشرف على الرّصد وابتدأ بعمله ولم يتم.

---

(١) ذكر النويري في حوادث سنة ٣٩٧ هـ أن زنة الصليب عشرة أرطال.

(٢) وهو شرقي القصر الكبير. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٥١.

(٣) الرصد: المكان المرتفع يرصد منه الكواكب. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

ذكر البيعة بولاية العهد لأبي القاسم عبد الرحيم

وفي ثالث شهر ربيع الأوّل، سنة أربع وأربعمائة[١] عهد الحاكم بولاية العهد بعده لابن عمّه أبي القاسم عبد الرّحيم بن إلياس بن أحمد بن المهْدي[٢]، فبُويع بولاية العهد، وكُتب اسمه على السّكة، ودُعِيَ له على المنابر.

وفيها منع الحاكم النِّساء من الخروج مطلقاً ليلاً أو نهاراً، من دُخول الحمَّامات، وطلوع الأسطحة، ومَنَع الأساكِفَة من عمل الخِفَاف لهنّ، وشدّد في ذلك، فشكى إليه التُّجار من ذلك، فأمرهم أن يحملوا ما يبيعونه في الأسواق ويطوفوا به في الدّروب ويبيعوا النساء، وأن يكون للمرأة شيء مثل المِغْرَفَة بساعدٍ طويل تَتَناول به ما تبتاعُه من الرّجل. ثمَّ أمر بإطلاق العجائز والإماء في يوم الخميس تاسع شهر رمضان منها، فخرج بعض النّساء إلى القصر داعياتٍ للحاكم، فعلم بهنّ فأعاد المنع والتشديد في يومه، ولم يسمح إلا للنّساء المتظلمات للشّرع، والخارجات للحجّ، والإماء للبيع، والأرامل، وغواسل الأموات، والأرامل اللّواتي يبعن الغزل.

ذكر إحراق مصر وقتال أهلها

كان سبب ذلك أن الحاكم ركب في ذي القَعدة سنة عشر وأربعمائة فوجد صورة امرأة متردّية عُملت من قراطيس، وفي يدها جريدة عليها ورقة فيها سَبٌّ للحاكم وأسلافه وذكرهُ بقبيح الفعال. فلمَّا وقف عليها أمر بنَهْبِ مصر وحرْقِ بَعْض دُورِها، وفرّق السلاح على السّودَان والعبيد، فتبادَرُوا إليها وفعلوا ما أمرهم به. فقام أهلُها وقاتلوا قتالاً شديداً ثلاثَة أيّام، ثم أرسلوا إلى الحاكم يستقيلون فلم يُقِلهم، فعاوَدُوا القتال؛ وأحرق من مصر جانب جيد، فلما رأى الحاكم أن الأمر يؤول إلى التَّلاف كفَّ عنهم بعد أن تلف من العقار ما لا تُحصى قيمته، وسيَّر عياداً الصقلبي إليها في جماعة من الجند لتسكين الفتنة، فشاهد أمراً عظيماً، فعاد إلى الحاكم وذكر له قُبْح النّازلة

---

(١) في الأصل «وسبعمائة».

(٢) هو ابن عم الحاكم بأمر الله. وقد جمع الناس على اختلافهم بالقصر، وقرىء عليهم سجل التعيين، وجاء فيه أن عبد الرحيم بن الياس قد جعله الحاكم بأمر الله «ولي عهد المسلمين في حياته، والخليفة بعد وفاته» وخلع عليه، وأمر الناس بالسلام عليه، وأن يقولوا في سلامهم: «السلام على ابن عم أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين». وقرىء السجل على منابر الجوامع وبالإسكندرية، وبعث الحاكم بذلك سجلاً إلى إفريقية حيث قرىء بجامع القيروان وغيره. محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله، ص ١٨٤، ١٨٥. وانظر تاريخ يحيى الأنطاكي، ص ٢٣٥. هو عبد الرحيم بن الياس، وقيل: عبد الرحمٰن بن أحمد. ويلقب بالمهدي. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٢٣٥.

وعِظَم الفادحة وقال: لو أن بسيل ملك الروم دخل مصر لما استحسن أن يفعل فيها هذا الفِعل. فغضبت الحاكم من كلامه وأمر بقَتلِه، فقُتل.

وفي سنة عشرٍ وأربعمائة أمر الحاكم ووليَّ العهد، عبد الرّحيم بن إلياس، بالخروج إلى دمشق والياً عليها، ثم عزله في شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وأربعمائة.

وفي شهر رجب منها اشتدّ غضب الحاكم على أهل مصر فأحرق السّاحل، ووقع النّهب في الأسواق والقياسر[١].

وسنذكرُ إن شاء الله السّبب الذي أوجب خروج الحاكم على أهل مصر إلى أن فعل بهم ما فعل.

ذكر غيبة الحاكم بأمر الله وعدمه والسّبب الذي نقل في إعدامه وشيء من أخباره وسيرته غير ما تقدم

قال المؤرخ: لمّا كان في آخر ليلة الاثنين السّابع والعشرين من شَوَّال سنة إحدى عشرة وأربعمائة، ركب الحاكمُ حمارَه وخرج على جاري عادته، فأصبح عند قبر الفقاعيّ[٢] بقرافة مصر وردَّ مَنْ كان معه، ففُقِدَ من ذلك الوقت، ولم يزل الناس يخرجُون ويلتمسون رُجوعه إلى يوم الخميس سلخ الشهر؛ ثم خرج مظفّر حامل المظلّة في يوم الأحد الثّالث من ذي القَعدة ومعه جماعةُ الأمراء والكتاميين إلى حلوان[٣]، وأمعنوا في الكشف. فبينما هُم كذلك إذْ بَصُروا بالحمار الّذي كان الحاكم قدْ خرجَ عليه وهو على قرنة الجبل، وقد ضربت يداه بالسيف فأثر فيهما، فتُتُبِّع الأثر فإذا أثر الحاكم وأثر آخر خلفه وآخر أمامه، فقَصُّوه حتى انتَهَوْا إلى بركة القصب شرقيّ حلوان، فأنزلوا رجلاً من الرَّجالة فوجد ثياب الحاكم في البركة، وهي سبع جباب[٤] مزرّرة لم تُحلّ أزرارها، وفيها آثارُ السكاكين، فعادوا إلى القصر ولم يشكّوا في قتله.

وأما السبب الذي نُقِل في إعدامه فقالوا: كان السّبب في ذلك أنّ سِتّ لملك أختَ الحاكم وقع بينها وبينه، فتنكّر لها وهمَّ بقتلها. وكرهت أموراً صدرت منهُ منها أنه رأى بعض قَهَارِمَتِها داخلةً إلى القصر، فقال لها: قد سمعت أنّكم تجمعون الجموع

---

(١) في الأصل: «القياسير».

(٢) في الأصل: «القضاعي» والتصحيح في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٩٢، ووفيات الأعيان لابن خلكان ج ٥، ص ٢٩٧، وكنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ٢٩٩.

(٣) «دير القصير» المعروف بحلوان: في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٩٣.

(٤) في كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ٣٠٠ «أربع جباب».

وتدخل إليكم الرّجال، وَالله لأقتلنكم أَجمعين[١]. وتكرر هذا القول منه، فأعملت ستّ المُلك الحيلة في إعدامه، وخرجت ليلاً إلى دار الأمير سَيْف الدّين حسين بن دوَّاس[٢]، فدخلت عليه واختلت به وعرّفته بنفسها أنها ابنةُ العزيز بالله أخت الحاكم؛ فعظّمها، وبالغ في إكرامها، فقالت له: إنّك قد علمتَ ما فعل أخي وما صَدَر منه من سَفْك الدّماء وقتل الأولياء وَوُجُوه الدّولة بغير سبب، وقد عَزمَ على قَتْلِكَ وقَتْلي. فقال لها: فكيف الحيلة في أمره، فأشارت: أن تُجَهِّزَ إليه رجالاً يقتلونه إذا خرج إلى حُلوان فإنه ينفرد بنفسه هناك، ووعَدَتْه أن يكون هو المدبّر لِدَولة ولده والوزير لها. فاتّفقا على ذلك وتحالفا عليه، ورَجعَت هي إلى قصرها.

فلمّا ركب الحاكم وانْفرد عند وُصُوله إلى المُقَطّم على عادته، كان ابنُ دوّاس قد أحضر عشرةً من العبيد، وأعطى كلَّ واحدٍ منهم خمسمائة دينار، وحلّفهم، وعرَّفَهم كيف يقتلونه. فسبقُوه إلى الجبل في تلك اللّيلة؛ فلمّا انفرد خرجُوا عليه وقتلوه بالمكان الّذي ذكرناه، وخرج الموكب لتلَقِّيه على العادة، فطال انتظارُهم له فلم يرجع، فعادُوا؛ ثمّ خرجوا ثانياً وقَصُّوا الأثر، فوجدوا حمارَه وثيابَه، كما ذكرناه، فعادوا إلى القصر وطَلَبوه من أخته ستّ الملك وقالوا: إن مولانا ما جَرَتْ عادتُه بهذا، فقالت لهم: إن رُقعته قد وصلت إلينا أنه يأتي بُكرة الغد. فتفرَّقوا. فبعثت الأموال إلى وجوه الدّولة والقوّاد على يد ابن دوّاس، وبقي الأمر مستمرّاً والحال متماسكاً إلى عاشر ذي الحجة من السنة، فجرى بين العساكر وبين ستّ الملك كلامٌ كثير أوجب أنها أخرجت إليهم ولده أبا الحسن عليًّا في يوم الأضحى فبايعه الناس، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره. هذا ما حكي في سبب إعدامه[٣].

وأما سيرته وأفعاله وأخباره، فقد قدّمنا منها على حكم السنين ما قدمنا، فلنذكر خلاف ذلك.

---

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٥٧ ـ ٥٨. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٩٣.

(٢) هو زعيم كتامة وكانت كتامة من بين القبائل المغربية التي شدّت بأزر الدولة الفاطمية، أقواها وأوفرها بأساً وعصبية. غير أنها فقدت في ظل الحاكم بأمر الله كثيراً مما كانت تتمتع به من النفوذ. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٨٨، حاشية ٢.

(٣) بشأن مقتل الحاكم بأمر الله أورد ابن تغري بردي الروايات التي تتفق على اتهام ست الملك في تدبير الجريمة وقيادتها حتى النهاية. كما أسند الروايات إلى أصحابها. وذكر من المؤرخين لهذه الروايات القضاعي وابن الصابىء، توفي القضاعي سنة ٤٥٤ هـ وابن الصابىء سنة ٤٤٨ هـ. النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٩٤.

قال المؤرخ: كان الحاكم سيىء الاعتقاد، كثير التنقُّل من حال إلى حال. كان في ابتداء أمره يلبس الثّياب الفاخرة والمذهّبة، والعمائم المنظومة بالجوهر النّفيس، ويركب في السُّروج المُحلاّة، ثم ترك ذلك على تدريج أن ينتقل منه إلى لباس المُعْلم غير المذهب، ثم لباس الساذج؛ ثم زاد به الأمر حتى لبس الصُّوف والشواشي وركب الحمير، وأظهَر الزُّهد، وكثر استطلاعه على أخبار النّاس، فلم يَخْفَ عليه خبرُ رجلٍ ولا امرأةٍ من حَواشيه ورعيَّته وكان يأخذ بيسير الذُّنوب، ولا يملك نفسه عند غضبه؛ أفْنى خلقاً كثيراً، وأقام هيبة عظيمة. وكان مع طُغيانه المستمرّ وفَتْكه، وسفكه للدّماء وظلمه، يركب وحده تارةً وفي الموكب أخرى، وفي المدينة طوراً وفي البرِّيَّة آونة، والنّاس كافةً على غاية الهيبة له والخوف منه، وهو بينهم كالأسد الضاري.

ثم عَنَّ له أن يدّعي الإلٰهية، ويصرّح بالحُلول والتَّناسخ؛ ويحملَ النّاس عليه، وألزم النّاس أن يسجدُوا له مدة إذا ذُكر، فلم يُذكر في محفل أو غيره إلاّ سجدَ منْ سمع بذكره، وقبّل الأرض إجلالاً له، ثم لم يُرْضه ذلك[1].

فلمّا كان في شهر رجب سنة تسع وأربعمائة ظهر رجلٌ يقال له حسن بن حَيدرة الفَرغاني الأَخرم يرى حُلُول الإلٰه في الحاكم ويدعو إلى ذلك، ويتكلّم في إبطال النُّبوّة[2]، ويتأوَّل جميع ما وردت به الشريعة[3]. فاستدعاهُ الحاكم [وقد كثر تبعه][4] وخَلَع عليه خلعاً سنيَّة، وحملهُ على فرسٍ بسرجه ولجامه، وركَّبه في موكبه [وذلك][5] في ثاني شهر رمضان منها.

فبينما هو يسير في الموكب في بعض الأيام تقدّم إليه رجلٌ من الكرخ [وهو على جسر طريق المقس][6] فألقاه عن فرسه، ووَالَى الضَّرب عليه حتى قتله [وارتج الموكب][7]، وأُمْسك الكرخي فأمر الحاكم بقتله، فقتل لوقته ونهب الناس دار الأخرم في القاهرة. وكان بين الْخَلْع عليه وقتله ثمانية أيام[8]. ثم ظهر رجل من دعاته في سنة عشر وأربعمائة يقال له حمزة اللباد، أعجمي من الزُّوزن، ولازم الجُلوسَ في المسجد الذي عند سقاية ريدان خارج باب النصر، وأظهر الدعاء إلى عبادة الحاكم وأنّ الإلٰه حَلَّ فيه. واجتمع إليه جماعةٌ من غُلاة الإسماعيليّة، وتلقّب بهَادي المُسْتجيبين. وكان الحاكم إذا ركب إلى تلك الجهة خرج إليه من المسجد وانفرد به وحادثه، وتمادَى على

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٥٠ ـ ٥١.
(٢) في أخبار الدول المنقطعة ص ٥١ «النبوات».
(٣) في أخبار الدول المنقطعة، ص ٥١ «ما ورد في الشريعة».
(٤) و(٥) و(٦) و(٧) ما بين حاصرتين إضافة من أخبار الدول المنقطعة، ص ٥١.
(٨) تابع هذا الخبر من أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٥١ ـ ٥٢.

ذلك وارتفع شأنه؛ واتّخذ لنفسه خواصَّ لقّبهم بألقاب، منهم رجل لقّبه بسَفير القُدرة وجعله رسولاً له، وكان يُرسله لأخذ البيعة على الرؤساء على اعتقاده في الحاكم، فلم يمكنهم مخالفتُه خوفاً على نفوسهم من بطشه[١].

ثم نبغ شابٌّ من مولَّدي الأتراك اسمه أنوشتكين النجاري[٢]، ويعرف بالدّرزي، فسلك طريق الزُّوزني وكثُرت أتباعه. وكان الحاكم أيضاً يقفُ معه ويخلو به؛ وسمّي نفسه سَنَدَ الهادي[٣] وحيَاة المستجيبين. واستمر الأمر على ذلك إلى الثّاني عشر من صفر، سنة إحدى عشرة[٤] وأربعمائة، فاجتمع جماعةٌ من أصحاب حمزة الزُّوزني على خيول وبغال، ودخَلوا الجامع العتيق رُكباناً وهم يعلنون بمذهبهم، وجاء ثلاثةٌ منهم إلى الموضع الذي يجلس فيه قاضي القضاة، والمتحاكمُون جُلُوس، ينتظرونه، فتكلّموا بكلامٍ أنكره الناس وضجُّوا بالتكبير والتهليل والثناء على الله عزَّ وجلَّ، واجتمع أهل مِصْرَ بالجامع من كلِّ جهةٍ، ومضى بعضُ الناسِ لِلقاء القاضي فلقوه وعرَّفوه ما جرى، فجاء إلى المجلس، فتقدَّم إليه أحد الثلاثة فناوله رُقعةً من الزُّوزني[٥] في أولها: «بسم الحاكم الله الرّحمٰن الرَّحيم» يأمرُه فيها بالاعتراف بإلٰهية الحاكم. فلم يُجبه القاضِي بشيءٍ سوى أن قال حتى أدخل إلى حضرة مولانا. فطاوَلَه الكلام، فقتله العوامّ وقتلُوا رفيقيه والجماعة الّذين بالجامع أبْرَحَ قَتل. ووَثبَ العوامُّ على قومٍ كانوا يَعْرِفونهم بهذا المُعتقد فقتلوا مَنْ وجدُوه منهم وحرَّقوهم[٦].

فلمّا اتَّصل ذلك بالحاكم أمر بعزل أصحاب الشُّرَط وولَّى غيرَهم، وأمَرَهم بطلب من اعْتَدَى على أصحاب الزُّوزني. فقبضوا على جماعةٍ منهم يناهزون الأربعين، فقُتِلُوا في أوقاتٍ متعدّدة. واجتمع الأتراكُ وقصدُوا دَار الزُّوزني فغلَّقها عليه وعلى مَنْ عنده، وقاتلهم من أعْلاها، فهدَمُوها ونهبُوا ما فيها، وقتلوا نحواً من الأربعين رجلاً مِمَّن كان معه فيها، وفرَّ الزُّوزني فلم يُقْدَر عليه، ودخل إلى القصر، فأخفاه الحاكم فيه. فاجتمع الأتراك ولبسُوا سلاحَهُم وطَلَبُوه من الحاكم، فوعدهم بتسليمه لهم، فانصرفوا، ثمَّ ركبُوا في اليوم الثّاني وطلبوه منه، فخرج جوابُه لهم أنّه قُتل؛ فرجعوا إلى ريدان في طلب

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٥٢.
(٢) «البخاري» في أخبار الدول المنقطعة، ص ٥٣.
(٣) «الهادين» في أخبار الدول المنقطعة، ص ٥٣.
(٤) «أربع عشرة» في أخبار الدول المنقطعة، ص ٥٣.
(٥) «الروزة» في الأصل والتصحيح من أخبار الدول المنقطعة، ص ٥٣.
(٦) انظر أخبار الدول المنقطعة، ص ٥٣.

الزُّوزني فلم يجدوه. وأظهر الحاكم الْغَضَبَ على كافَّة الجند طول شهر ربيع الأول، ثم رضي عنهم في الرَّابع من شهر ربيع الآخر.

وتحقق [الحاكم][1] أنّ أوّل من جَرَّأَ عليه العسْكر وحملهم على قتل دُعاته أهلُ مصر، فأمْهَلَهُم حتّى دخل جُمادى الآخر، ثم ابْتدأ في التّدبير عليهم.

فأوّل ما عمل أنْ سلَّط عليهم الرَّجَّالة ومُقدَّمي السُّودان وغيرهم، وقرَّر معهم أن ينزلوا إلى مصر على هيئة المناسر[2]. فيكسبون الحمّامات ومنازل أهل مصر؛ فكانوا يفعلون ذلك نهاراً. وتكرّر ذلك منهم، فاجتمع النّاسُ ووقَفُوا لِلحاكم وسألُوه أن يكفَّ عنهم أيديَهم، فما أجابهم بجواب، فتَزايد بهم الضَّرر إلى أنْ بقيت الرّجّالة تكبسُ مساكنهم ويأخُذُون ما فيها، ويُعَرُّونهم في الطُّرقات، ويفتحون دكاكين البزَّازين وغيرهم، وينهبون ما فيها ويحرقون أبوابها بعد ذلك، والنّاس يستغيثون فلا يُغاثون. ثم نزل بعد ذلك جمع كثير بعد أن غُلِّقَت الدّرُوب، وكانت بقيت تغلق قبل الغروب، وتخلّلوا البلدان، وفتحوا ما وراء الجامع من النّحاسين والأبزاريين[3] والسُّكَّريّين ودار الشّمع، وغير ذلك مما يقرب من هذه الأسواق، وأخذوا ما أرادوا منها، وأفسدوا بقيّة ما فيها؛ فكانوا يخلطون العقاقير والأصناف بعْضَها ببعْض، والمياه المختلفةَ بالزّيت، ويُفسدون ما لا يُمكنهم حمله، وطرحُوا النّار في أبواب القياسر[4] المجاورة للجامع بعد ذلك، فأخذ النّاس في الانتقال إلى القاهرة، وضجُّوا بِالابْتهال إلى الله تعالى في كشف ما بِهم من[5] البلاء.

قال: وكان الحاكم قبل ذلك قد ضيَّق على النَّصارى واليهود كما قدمناه، وأمرهُم بالتّظَاهر بالإسلام، فأسلم بعضُهم وهرب بعضهم إلى بلاد الروم، وهدم جميع الكنائس. فلمَّا كان في شهر جمادى الآخرة، سنة إحدى عشرة وأربعمائة، أذِن لهم بالرُّجوع إلى دينهم، فارتَدُّوا، وأذن لهم ببناء الكنائس فأعادُوها. فاشتدَّ غضبُ العسكر وحَنقُهم، فاجتمع الأتراك والكتاميّون وتحالفُوا على قتل الرَّجَّالة الّذين فعلوا بالمصريين ما فعلوا، فوقع القتال بينهم، فقُتِل الرَّجَّالة أبْرَح قَتْل، ورأى أهلُ مصر فيهم وفي حرمهم ومنازلهم

(١) ما بين حاصرتين إضافة من أخبار الدول المنقطعة، ص ٥٤.

(٢) المَنْسِر: مثال المجلس، والمَنْسِر من الخيل ما بين الثلاثة إلى العشرة. وقيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين أو المائة إلى المائتين. ابن منظور: لسان العرب (نسر).

(٣) في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٥٦ «البزازني» والبزَّاز: بائع الثياب، ابن منظور: لسان العرب (بزز).

(٤) «القياسير» في الأصل.

(٥) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٥٥ ـ ٥٦.

ما أسلاهم[١] عما جرى عليهم.

وتمادَى الحال على ذلك والحربُ قائمةٌ بينهما، والحاكم على حَالِه في ركوبه وهيبته، فإذا بلغةُ ركوبُهم للحرب تركَهُم تارةً وجاء أخرى، فإذا رأَوْه تفرَّقوا لهيبته، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن فُقد الحاكم في التّاريخ الّذي ذكرناه.

ذكر مولد الحاكم ومدَّة عمره وملكه وأولاده وكتّابه ووسائطه وقضاته ونقش خاتمه

كان مولدُه بالقاهرة في يوم الخميس لستٍّ بقين من شهر ربيع الآخر[٢]، سنة خمس وسبعين وثلاثمائة. فكانت مدَّةُ عمره ستًّا وثلاثين سنة وستة أشهر ويومين، ومدَّة ولايته خمساً وعشرين سنة وشهراً واحداً إلا ثلاثة أيام إلى يوم ركوبه الذي عدم فيه.

أولاده: أبو الحسن علي، وهو الظاهر أبو الأشبال الحارث؛ مات في حياته لعشرٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر سنة أربعمائة.

كتّابه ووسائطه: أمين الدّولة أبو محمد الحسن بن عمّار[٣]، ثم الأستاذ برجوان[٤] الخصيّ إلى أن قُتل؛ ثم استقل الحاكم بالأمر ووَلّى من ذكرناهم وغيرهم. وكتب له أبو العلاء فهد بن إبراهيم النّصرانيّ.

قضاته: أبو عبد الله محمّد[٥] بن النّعمان إلى أن توفّي في سنة تسعٍ وثمانين وثلاثمائة؛ وأقام النّاس بغير قاض تسعة عشر يوماً؛ ثم ولّي أبا عبد الله الحسن[٦] بنَ عليّ بن النّعمان إلى أن صرفه في شهر رمضان سنة أربع وتسعين؛ وولّى أبا القاسم عبد العزيز[٧] بن محمّد بن النّعمان ثم صرفه في شهر رجب سنة ثمانٍ وتسعين؛ وولّى مالك[٨] بن سعيد إلى

---

(١) أسلاهم: أنساهم. ابن منظور: لسان العرب (سلا). في الأصل بإسلامهم، والتصحيح من أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٥٦.

(٢) هناك خلاف في يوم ميلاده: في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٧٧. «مولده يوم الخميس لأربع ليالٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلاثمائة بالقاهرة. وقيل في الثالث والعشرين منه».

(٣) انظر الإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٤) انظر الإشارة لابن الصيرفي، ص ٢٧.

(٥) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة للكندي، ص ٥٩٢.

(٦) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة للكندي، ص ٥٩٦.

(٧) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة للكندي، ص ٥٩٩.

(٨) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة للكندي، ص ٦٠٣.

أن قتله في سنة خمس وأربعمائة لأربعٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر. وأقام النّاس بغير قاضٍ إلى أنْ ولَّى أبا العبّاس أحمد[١] بن محمّد بن عبد الله ابن أبي العوام في يوم الأحدِ لإحدَى عشرة ليلةً خلت من جُمادى الآخرة منها إلى آخر وقت.

نقش خاتمه: بنَصْر العليّ الوليّ ينتصر الإمام أبو عليّ[٢].

ذكر بيعة الظّاهر لإعزاز دين الله[٣]

هو أبو هاشم، وقيل أبو الحسن، عليّ بن الحاكم؛ وهو السّابع من ملوك الدولة العُبيديّة. بويع له بعد أن تحقَّق الناس عدم الحاكم بأمر الله في يوم الأضحى من سنة إحدى عشرة وأربعمائة، [وله من العمر ست عشرة سنة وثلاثة أشهر][٤]. وأقام النّاسُ منذ فُقد الحاكم في سابع عشر شوّال منها إلَى هذا التّاريخ بغير خليفة، وستّ الملك، ابنة العزيز وأختُ الحاكم، تدبّر أحوال الدّولة، وتَسَكّن الجيوش، وتفرّقَ الأموال على يد الأمير سيْف الدّين الحسين بن دوَّاس. ثمّ جرى بينهما وبين العساكر كلامٌ كثير أوجب أنها أخرجَت إليهم أبا هاشم هذا وقت الظّهر من يوم الأضحى، فبايَعه النّاس وازدحموا عليه، فركب تحتَ الأرض في السّرداب إلى قصر الذّهب، وخرج من بابه إلى باب العبد، فأجلسته وقالَت: هذا خليفَتُكم. فلما رآه ابن دوّاس قبّل الأرض، وسلّم عليه بالخلافة، فبايعه الأمراء والأجناد، ولُقِّب الظّاهر لإعزاز دين الله[٥].

وكُتبت الكتب لسائر الأعمال بأخذ البيعة؛ وجَمعت ستّ الملك الأجناد وأحسنت إليهم، ورتّبت الأمور أحسن ترتيب، وعَدَلت عن وليّ العهد إلياس[٦] بن داود بن المهديّ وَجيء به فبايع والسّيف على رأسه، وحُبس، وكان آخر العهد به. وكان يشار بالخلافة إلى عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهديّ، فأدخل عليه الشُّهود وهو يتشحَّط[٧] في دمه فأشهدهم أنه فعل ذلك بنفسه، ثم قضى نحبه. وقام ابن دوّاس بتدبير الدّولة هو والعزيز

(١) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة للكندي، ص ٦١٠.
(٢) في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ٨٠، ورد: «بنصر الإله العلي ينتصر الإمام أبو علي».
(٣) ترجمته في: اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٢٤. والدرة المضية لابن أيبك الدواداري، ص ٣١٦ ـ ٣٤٠، وخطط المقريزي، ج ١، ص ٢٥٤، والمنتظم، ج ٨، ص ٩٠، وعبر الذهبي، ج ٣، ص ١٦٣، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٢٣١، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٢٤٧.
(٤) ما بين حاصرتين إضافة من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٢٤.
(٥) انظر الكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٣١٩، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٢٥.
(٦) في ا لأصل: «العباس» والتصحيح في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، «وأما ولي العهد... فاسمه الياس» ج ٤، ص ١٩٦.
(٧) شحط: تضرج بالدم. الفيروزابادي: القاموس المحيط (شحط).

عمار بن محمد؛ وكانا لا يُصدران إلاّ عن رأي ستّ الملك عمة الظاهر.

ذكر مقتل الحُسين بن دوَّاس

قال: لمَّا استقرّ أمر الظّاهر لإعزاز دين الله وسَكنت الأحوال خرج من القصر خصيٌّ وبيده سيف مجرّد، واستَدعى وُجوه الدّولة، والوزيرُ في دسته والحسَين بن دوّاس قائد القوّاد إلى جانبه، فقال الخصيّ أمر مولانا أن يُقتل بهذا السّيف قاتلُ مولانا الحاكم، فنادَوْا السّمع والطاعة فصبّه على ابن دوّاس فقتله، لم يختلف اثنان[١].

وقيل: إنه إنما قُتل في شهر رجب سنة ثلاثَ عشرة وأربعمائة. والله أعلم.

وباشرت السّيدة ستّ الملك للأمور بنفسها وقامت هيبتها عند الناس.

وفي ثالث عشر ذي الحجّة من السّنة، في اليوم الرابع من بَيْعة الظّاهر، قُرِىء سجلٌّ لأصحاب الأخبار أنّهم لا يرفعون ما لا فائدة فيه مِمّا كان يُنْهى إلى الحاكم.

وفي يوم الاثنين سابع عشر ذي الحجّة منها ركب القاضي عبْد العَزيز بن النّعمان ومعه جَمَاعة وتوجّهوا نحو الجبل لافْتِقَاد الحاكم وعادُوا.

وفي يوم الخميس لعشرين منه أُقيمت المآتم في القصر وسُمع الصُّراخ واتّصل، وارتجَّ البلد في تلك الليلة بالصّراخ إلى أن مضى وقتٌ كثير من اللّيل، وأصبح النّاس على وجلٍ، وأغلقت أبواب القاهرة.

وفي المحرّم سنة ثنتي عشرة وأربعمائة سومح بمكس الفقاع. وكان مبلغه في الشهر سبعمائة دينار.

وفي حادي عشر ذي القَعدة، سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، تُوفيت ستّ الملك ابنة العزيز؛ وكان مولدها في ذي القَعدة سنة تسعٍ وخمسين وثلاثمائة ببلاد المغرب، وكانت من الدُّهاة.

وفي سنة أربع عشرة وأربعمائة ظهر ببلاد الفيوم بركة ينْصبّ إليها الماء، فاستخرج منها سمك بلطيّ، ومقدارها أربعة آلاف فدان.

وفي شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وأربعمائة ورد الخبر بإقامة الدّعوة الظاهرية بالموصل والبصرة والكوفة وأعمال المشرق.

وفيها وردت الأخبار أن سنان بن صَمْصَام الدّولة وصالح[٢] بنَ مرداس جمعا

---

(١) انظر التفاصيل في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) هو صالح بن مرداس بن إدريس الكلابي، أبو علي: أمير بادية الشام، وأول الأمراء المرداسيين =

العساكر وحشدا[١] العُربان لحصار دمشق، وأنّهم حاصرُوها وقَطعُوا أشجارها، وقتلوا فلاّحي الضّياع. وتقرّر الحال أن يقاتل العوام يوماً وعسكر السُّلطان يوماً؛ واتّصلت الحرب بينهم وقُتل جمع عظيم. وحاصر صالح بن مرداس حلب؛ واضطربت أحوال الشّام بأسره، وتغلّبت الحرب عليه. وطلب سنان من أهل دمشق ثلاثين ألف دينار ويرتحلُ عنهم، فأجابه أهل البلد لذلك، فمنعهم الشريف ابن الحسن وأشار بنفقتها في عيّاري البلد، فأنفقوها[٢] وقاتلوا قتالاً شديداً، فقُتل من العرب جمع كثيرٌ. وطلب العرب الصُّلح فأجيبوا إليه، ثم عادوا إليها في الوقت برأي ابن الجرّاح...

ووصل الخبر من جهة بني قرة، عرب البحيرة، أنهم أقاموا عليهم إنساناً ببرقة ولقّبوه بأمير المؤمنين.

وفي الحادي والعشرينَ من ذي الحجّة سنة خمس عشرة وأربعمائة اجتمع من العبيد ألف عبد عند سفح المقطّم وقصدوا نهب مصر، فأركب الظّاهرُ لإعزاز دين الله مَنْ حفظها، وأمر أهل مصر بقَتْل مَنْ ظفروا به منهم، ونهبوا في اليوم الثاني أطراف مصر، فقاتَلَهم النّاس فانهزموا.

وفي سنة سبع عشرة وأربعمائة جرَّد الظّاهر أمير الجيوش أَنُوشْتكين الدَّزبري[٣] من مصر بعساكر كثيرة لِدَفع العرب[٤] عن الشّام، وخرج الظّاهر لتوديعه. وسارَ في سبعة آلاف فارسٍ غير العرب، وعيَّد عِيد الأضحى في الرَّملة، وجمع العساكر. فلما بلغ حسّانَ بن مفرّج خروجُه بعث إلى صالح بن مرداس، فأتاه من حلب في بني كلاب. ووقعت الحرب بينهم بالأُقْحُوانة[٥] من عمل طبريّة يوم الأربعاء لخمسٍ بقينَ من شهر

= بحلب، كان مقامه في أطرف حلب، وثار الرحبة فاستولى عليها، وكاتبه الحاكم بأمر الله بلقب «أسد الدولة» امتلك حلب سنة ٤١٧ هـ/ ١٠٦٢ م وامتد ملكه منها إلى عانة. حاربه الظاهر الفاطمي (صاحب مصر) إلى أن قتل في مكان يعرف بالأقحوانة، على الأردن سنة ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩ م. ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٧٢ و٧٨، ابن خلدون: ج ٤، ص ٢٧١، زبدة الحلب، ج ١، ص ٢٧٧. ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٢، ص ٤٨٧ رقم ٣٠٠.

(١) في الأصل: «جمعوا العساكر وحشدوا» والتصحيح يتفق وسياق الكلام.

(٢) في الأصل: «فنفقوها».

(٣) في الأصل: «الزربري» والدزبري بكسر الدال المهملة، والباء الموحدة وبينهما زاي وفي الآخر راء، هذه النسبة إلى دزبر بن أوتيم الديلمي، وهو بالدال والتاء أيضاً: وابن خلكان: وفيات الأعيان: ج ٢، ص ٤٨٧.

(٤) المراد جيوش صالح بن مرداس.

(٥) الأقحوانة: موضع بالأردن من أرض دمشق على شاطىء بحيرة طبرية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٣٤.

ربيع الآخر سنة عشرين وأربعمائة. فطُعن صالح بن مرداس، فسقط عن فرسه، فقُتل، وحُمل رأسه إلى أمير الجيوش. فعندها انْهَزَم حسّان. وقُتل من أصحابهم مقتلةٌ عظيمة، وهرب أصحاب صالح إلى بعلبك وحمص وصيدا وحصن عَكّار[١]. واستولى نَصر بن صالح وأخوه ثَمال على حلب وأعمالها وبالس[٢]، ومَنْبج[٣]. وسار الدّزبري حتى أتى دمشق، ثم إلى حلب، فظفر بشبل الدّولة[٤] نصر ابن صالح فقتله. ثم عاد إلى دمشق فأقام بها وعَلَت منزلتُه.

ذكر وفاة الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم بأمر الله وشيء من أخباره

كانت وفاته في ليلة الأحد النّصف من شعبان المكرّم من شهور سنة سبعٍ وعشرين وأربعمائة ببستان الدكة بالمقس[٥]، فركب الوزير صفيّ الدين أبو القاسم علي الجرجرائي[٦] إلى البستان، وحمل الظّاهر منه إلى القصر.

وكان مولدُ الظّاهر في يوم الأربعاء لعشرٍ خَلَوْنَ من شهر رمضان المعظّم سنة خمس وتسعين وثلاثمائة. وكانت مدّةُ عمره إحدى وثلاثين سنة وأحد عشر شهراً وخمسة أيّامٍ، ومدة ملكه خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وستّة أيام. وكان أجمل النّاس صورةً، وتولّى غسله قاضي القضاة عبد الحاكم، ومعه ظاهر بن عبد الخالق بن أحمد

---

(١) حصن عكار: حصن منيع، بُني منذ الفتح الإسلامي، ويقع شمال طرابلس. لي سترانج: فلسطين، في العهد الإسلامي، ص ٤٢٤.

(٢) في الأصل: «ونابلس» والتصحيح في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٧٦، وبالِس: بلدة بالشام بين حلب والرَّقة. وكانت على ضفة الفرات الغربية، فلم يزل الفرات ينحسر عنها شيئاً فشيئاً حتى صار بينهما مسافة أربعة أميال. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٣) منبج: مدينة من إقليم العواصم، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ. وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

(٤) في الأصل: «سند الدولة» وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٧٦. «ونصر الملقب بشبل الدولة».

(٥) بستان الدكة بالمقس، الدكة، كان مكانها بستاناً من أعظم بساتين القاهرة، فيما بين أراضي اللوق والمقس، وبه مُنظرة للخلفاء الفاطميين تشرف طاقاتها على النيل الأعظم، ولا يحول بينها وبين الجيزة شيء. وقد زالت بزوال الدولة الفاطمية، وبنى الناس في موضع هذا البستان. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ١٤١، حاشية ٢.

(٦) هو من أهل جرجرايا. تولى الوزارة سنة ٤١٢ هـ/ ١٠٢١ م. ابن الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٣٥ ـ ٣٦.

ابن المهدي شيخ القرافة؛ وصلّى عليه قاضي القضاة وأخذ سَلَبه. قال: واستمرَّت النّوائح تَنُحْنَ عليه مدّة شهر. وكان كريماً مشتغلاً بلذّاته معوّلاً على وزيره.

ولده أبو تميم معدّ المستنصر بالله، وهو الّذي وَلِيَ الأمْر من بعده على ما نذكره.

وزراؤه ووسائطه: أبو الحسين عمّار[١] بن محمد، أحد وسائط أبيه الحاكم بأمر الله، إلى أنْ زال أمرُه في ذي القعدة سنة ثنتي عشرة وأربعمائة، ثم قتل، وتولّى الوساطة أبو الفتوح موسى[٢] بن الحسين، وذلك في المحرّم سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، إلى أن قُبض عليه في العشرين من شوّال وقيل صبيحته؛ وتولى الوساطة أبو الفتح مسعود[٣] بن ظاهر الوزّان إلى أن عزل؛ وتولّى الوزارة عميد الدّولة أبو محمد[٤] الحسن بن صالح الروذباري، أحد وسائط الحاكم بأمر الله؛ ثم عُزل في سنة ثماني عشرة وأربعمائة بالوزير أبي القاسم علي[٥] بن أحمد الجرجرائي إلى آخر المدّة، ولقب بالوزير الأجلّ الأوحد صفيّ الدّين؛ وكان أقطع اليدين؛ وتمكّن من الظاهر تمكُّناً عظيماً. حُكي من تمكُّنه أنّه كان بينه وبين خَليل الدولة بن العدَّاس عداوة، فاتّفق أن خليل الدّولة سأل الظّاهر لإعزاز دين الله أن يشرِّفه بزيارته ببركة الْحَبَش فأجابه الظّاهر إلى ذلك وحضر عنده، فاغتنم ابنُ العدّاس الفرصة وجعل يذكر للظاهر مثالِبَ الوزير. فسدَّ الظّاهر مسامعه وقال لابن العداس: إنّي وإن رَعَيْت حقَّ تشريفي إياكَ بزيارتي، فما أترك حقّ من أرتَضيه لوزارتي، ولا بدَّ أذكرُ له طرفاً من ذلك، فاذكُرْ خيراً لأحكيَه له. فرجع عن ذكر مثالبه وأثنى عليه، فذكر الظّاهر للوزير عنه خيراً، فكان ذلك سببَ الصُّلح بينهما. وسنذكر إن شاء الله تعالى أخبارَ الوزير الجرجرائي مستوفاةً عند ذكر وفاته في سنة ستٍّ وثلاثين في أخبار المستنصر.

ذكر بيعة المستنصر بالله

هو أبو تميم معدّ[٦]؛ بن الظّاهر لإعزاز دين الله أبي هاشم عليّ بن الحاكم بأمر

---

(١) تولى أمر البيعة الظاهرية في سنة ٤١١ هـ/ ١٠٢٠ م. وكانت مدة وزارته سبعة أشهر وأيام، قتل في الفج. ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٣٣، ٣٤.

(٢) كانت مدة وساطته تسعة أشهر، ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٣٤.

(٣) كان نظر واسطة في خلافة الإمام الحاكم بأمر الله. ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٣٤.

(٤) «ابن محمد» في الأصل، والتصحيح من الإشارة لابن الصيرفي، ص ٣٤.

(٥) أخباره في: الإشارة لابن الصيرفي، ص ٣٥ ـ ٣٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٢٤٨، حاشية ٤.

(٦) ترجمته في: أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٦٧ ـ ٦٨، ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٨٣ ـ ٨٤، اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٨٤ ـ ١٨٥، وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص =

الله أبي عليّ المنصور، بن العزيز بالله أبي المنصور نزار، بن المعزّ لدين الله أبي تميم معدّ، بن المنصور بنَصر الله أبي طاهر إسماعيل، بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمّد، ابن المهديّ عبيد الله.

وهو الثّامن من ملوك الدّولة العُبَيْدِيّة وهو الخامس من ملوك مصر والشّام منهم.

بُويع له صبيحة يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلةً بقيَتْ من شعبان[1] سنة سبع وعشرين وأربعمائة. وذلك أنّ الوزير الجرجرائي أحضر وجوه القبائل من الكتاميين، وغيرهم من الأتراك، فلمّا اجتمعوا قال لهم: مولانا ضعيفٌ والآجال بيد الله سبحانه، فإن قضى الله بانتقاله ما تقُولون في ولده الأمير معدّ؟ قالوا: الذي يقولُه الوزير نحن بن راضُون، وله سامعون. فلمَّا رتّب هذا لأمر اسْتُدعيَ الوزير، فنهض قائماً ودخل إلى قاعة من قاعات القصر، ثم أحضر الجماعة، فوجدُوا الأمير معدًّا على سرير الملك وعليه التاج؛ فقال: هذا مولاكم، سلِّموا عليه بالخلافة. فسلَّموا عليه وانصرفوا؛ ولُقّب المستنصر بالله، وكان عمره إذ ذاك سبع سنين [وسبعة وعشرين يوماً][2].

فلمّا كان في صبيحة يَوْمِ مبايعته، وهو يوم الخميس، وقف الكتاميّون وعبيدُ الشّراء[3] وغيرُهم بباب القصر، وأغلظوا في الكلام وطلبوا أرزاقَهم واستحقاقاتِهم من الوزير، فقال: أنا كنت وزير الظّاهر لإعزازِ دينِ الله وقد توفّي، وأنا أحملُ إليكم جميع ما في داري. وأصبح حَملَ جميع ما في دَاره إلى القصر، فغضِبَ له الأتراكُ، وأعادوا ما أحضره إلى مكانه. وتقرّر اجتماعُه يوم السّبت، فاجتمع الأترك والدّيلم وعليهم السّلاح، وجاء الكتاميّون، فلما اجتمعُوا بباب القصر خرج إليهم [أحد][4] الخَدَم وقال: ليدخل مِنْ كلّ طائفةٍ عشرة أنفس، فدخل جماعةٌ، فقال لهم الوزير: مولانا يُقرئكُم السّلام ويقول لكم: إذا كان مُستهلّ شهر رَمضان أمر بالنفقة فيكم. فانصرفُوا، وجلس قاضي القضاة عَبْد الحاكم يحلّف النّاس للمستنصر بالله. فلمّا استهل شهر رمضان أنفق في الأشراف والكتاميّين والعرب والدّيلم وغيرهم لكلّ واحدٍ منهم ثُلثَ رزقه، فلم يرضَوْا بذلك.

= ٢٢٩ تحت رقم ٧٢٨، المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر، ص ٣ ـ ٤، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٣ ـ ٤، كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣. وكتاب «الإمام المستنصر بالله الفاطمي» للدكتور عبد المنعم ماجد، القاهرة ١٩٦١.

(١) «بويع بالخلافة يوم الأحد للنصف من شعبان» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٣. وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٨٤.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٣.

(٣) «الشرى» في الأصل.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيه السياق.

ودامت النّفقة إلى العشر الأوسط من شوّال فتحالف الكتاميون والأتراك أن يكونُوا عُصْبةً واحدة في طلب واجباتهم. واجتمعوا باب القصر، فخرج إليهم الأمير أن احضروا بكرةَ الغد، فحضروا وركب المستنصر إلى أن بلغ بَابَ البحر[١]، فرمَوْه بالحجارة وصاحُوا عليه، ورماه أحدُ العبيد بحربةٍ فلم يُصبه، فرمى نفسه عن دابّته ودخل من باب البحر إلى القصر. وانصرف النّاس، وعادُوا بكرةَ نهارِ الغد، فدخل مِنْ كلِّ طائفةٍ مائة نفر، ووَقع كلامٌ كثير، وتقرّر في آخر الأمر أن يحضروا البغاة منهم، وخرجوا على مثل ذلك؛ ثم عادُوا بعد ذلك وتنصّلوا من ذنُوبهم. وسكّن الوزير جميع الطّوائف، واختلف بنو قرّة مع كتامة بالجيزة، فأخرج الوزير عسكراً فأصلح بينهم، واستقرّت الأمور.

وركب المستنصر في مستهلِّ المحرّم سنة ثمانٍ وعشرين وأربعمائة من باب العيد[٢] إلى باب الذَّهب[٣]؛ ومشى النّاس كافّةً بين يديه، والوزير راكبٌ خلفه، وتفرّق النّاس، ودخل الوزير إلى مكانه، فدخل عليه جماعة من الأتراك الصّغار وطلبوا أرزاقهم وأغلظوا له في القول، وقصدوا قَتْله؛ فدخل بعضُ الأمراء الكبار فخلّصه منهم.

ذكر عود حلب إلى مِلْك مَلِك الدّيار المصرية

وفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة ملكت حلب على يد أمير الجيوش أنوشتكين الدّزبري أمير الشام، وذلك بعد أن التقى هو ونصر بن صالح بن مرداس، صاحب حلب، يوم الجمعة لسبعٍ بَقينَ من جُمادى الآخرة فانهزم عسكر ابن صالح، ثمّ كانت وقعةٌ ثانية، فانهزم ثَمال بنُ صالح وأخوه نصْر، فبادر ثَمال بدخول البلد، وأخَذَ مِن قلعة حلب أموالاً وتُحفاً، واستخلف بها عمّه مقلّد بن كامل بن مِرداس، وسار يستنجد بأخواله بني خفاجة[٤]، فثار العوامّ ونهبُوا حلب. ووافى طغان، أحد الأمراء الّذين مع أمير الجيوش، فدخل حلب بموافقةٍ من أهلها، ثمّ وصل أنوشتكين الدّزبري إليها في يوم

---

(١) باب البحر: من إنشاء الحاكم بأمر الله أبي علي منصور، هو أحد أبواب القصر الفاطمي الشرقي الكبير، يخرج منه الخليفة إلى شاطىء النيل، ويعرف بباب قصر بشتاق قبالة المدرسة الكاملية، ولقد هدم في أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البقد قداري. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٣٣.

(٢) باب العيد: قيل لهذا الباب باب العيد لأن الخليفة كان يخرج منه في يومي العيد إلى المصلى بظاهر باب النصر، فيخطب بعد أن يصلي بالناس صلاة العيد. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٣٥.

(٣) باب الذهب: هو باب القصر الذي تدخل منه العساكر وجميع أهل الدولة في يومي الاثنين والخميس، ويصل منه الخليفة إلى قاعة الذهب. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٣٢.

(٤) «بأخواله من صاحبه» في الأصل. والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٨٧.

الثّلاثاء لثمانٍ خلَوْن من شهر رمضان، وأقام بها إلى آخر السّنة، [وأُخرج منها إلى درباس واستولى على بالس ومنبج][١] ورجعَ إلى دمشق في تاسع عشري[٢] الحجّة منها.

ذكر الوحشة الواقعة بين الوزير أبي القاسم الجرجرائي وأمير الجيوش أنوشتكين الدّزبري

قال المؤرخ: كان ابتداءُ الوحشة بينهما في سنةِ ثلاثين وأربعمائة، وسببُ ذلك أن شبيب بن وثّاب النّميري صاحب الجزيرة توفّي، فقصد أميرُ الجيوش أنوشكتين أنْ يزوّج ابنته لولد أبي نصر أحمد بن مروان ليكون له عوناً على بني نُمير أصحاب الجزيرة؛ وكتب أمير الجيوش إلى مصر يستدعي ابنته، فلم يُطْلِقها الوزير ولا رأى إتمام الزَّواج لانضمام ابن مروان إلى الدّولة العبّاسية وتَظاهُرِه بموَالاتها. وكتَب لوُلاة الشام ألاّ يمتثلوا أمْر أمير الجيوش. فوقعت الوحشةُ بينهما، وأطلق أميرُ الجيوش لسانه في الوزير، وسبَّه.

ودامت الوحشة إلى سنة ثلاثٍ وأربعمائة، فصرفه الوزيرُ عن دمشق، واستعمل عليها ناصر الدّولة الحسن بن الحُسين بن حمدان. فلمَّا علم بذلك أهل دمشق تنكَّروا على أميرهم، وحاصروه بقصره ظاهِرَ دمشق، في سابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين، فهرب إلى حلب، وقاسى مشقّةً عظيمة في طريقه، ونُهبت أمواله. فلمّا دخل حلب أقام بها ثلاثة أيّام ومرض، فتُوفّي يوم الأحد النّصفَ من جمادى الأولى، ووصل سجلٌّ إلى ثَمال بن صالح بن مرداس بولاية حلب، وذلك قبل وفاة أنوشتكين أمير الجيوش.

ذكر ظهور سكين المشبه بالحاكم وقتله

وفي شهر رجب سنة أربعٍ وثلاثين وأربعمائة ظهر بالقاهرة رجل يسمى سكين[٣] يشبه الحاكم وكان بمصر أقوامٌ يعتقدونَ أنّ الحاكم حيٌّ وأنّه غاب لرأي رآه. وهذه الطائفة باقية إلى وقتنا هذا، ويحلفون فيما بينهم فيقولون: وحقِّ غيبة الحاكم، إلاّ أنّهم لا يتظاهرون بذلك لكلِّ حد. قال: فلمّا كان في هذه السّنة ظهر هذا الرّجل، فاجتمع عَليه القائلون بغَيْبة الحاكم وزفُّوه إلى القصر، وأدخلوه إيّاهُ، وقد دُهش الناس، فأدّى

(١) ما بين حاصرتين إضافة من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٨٧.
(٢) «تاسع عشر» في اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ١٨٧.
(٣) هكذا في الأصل: وفي الكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٥١٣. «واسمه سليمان» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٨٩.

الأمر إلى أنْ حَارَبهم أولياء الدَّولة، وركب الوزير، فأُخِذوا جميعاً وصُلبوا أحياء، ورُشقوا بالسّهام حتى هلكوا. [ومن جملتهم محمد بن عاني الكتامي أحد دعاته][١].

ذكر وفاة الوزير صفيّ الدين أبي القاسم أحمد بن علي الجرجرائي وشيءٍ من أخباره

كانت وفاته لثلاثٍ[٢] بقِينَ من شهر رمضان سنة ستّ وثلاثين وأربعمائة، وأوصى أن يُدفن في داره في المكان الّذي كان يجلس فيه، فأُخرج وصلَّى عليه المستنصر في الإيوان، وأعيد إلى داره فدُفن بها، ثمّ نُقل إلى تُرْبَته بالقرافة.

وكان وزارته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوماً.

وهذه النسبة إلى جرجرايا، قريةٌ من قرى العراق.

قدم إلى مصر هو وأخوه أبو عبد الله محمد، فتنقلت به الحال إلى أن خدم في الصّعيد، فكثُرت فيه المرافعات في أيام الحاكم، فاعتقله في شهر ربيع الآخر سنة أربع وأربعمائة، ثم أمرَ بِقَطع يدِه، فأخرج اليسار عِوضاً عن اليمين فقطعت؛ فقيل ذلك للحاكم فقال: إنّما أنا أمرت بقَطع يمينه؛ وأمر بقطع اليمين، فقُطعت على باب القصْر المعروف بباب البحر، وهو الباب الّذي مقابل دار الحديث الكاملية[٣] في وقتنا هذا. وكان قطْعُهما في ثامن عشر شهر ربيع الآخر منها.

قال: ولما قطع الحاكم يديه مَضَى مِن وقته وجلَس في ديوانه، فقيل له في ذلك، فقال: إنّ أمير المؤمنين أدَّبني وما صرفني. فبلغ الحاكم ذلك، فأمر باستمراره، ثمّ صرَفه وولاّه ديوان النفقات[٤] في سنة ستٍّ وأربعمائة، ثم رتّب أن يكون واسطةً في نظر الدّواوين مع أبي عبيد الله محمد بن العدَّاس، في سنة ثنتي عشرة وأربعمائة. ثم وَزَرَ للظّاهر لإعزاز دين الله في سنة ثماني عشرة وأربعمائة، فاستكتب أبا الفرج البابلي وأبا عليّ الرّئيس. وكان القاضي أبو عبد الله القُضَاعي صاحب كتاب الشّهاب يكتبُ عنه

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٨٩.

(٢) كانت وفاته يوم الأربعاء السادس من رمضان سنة ٤٣٦ هـ/ ١٠٤٤ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٤٨.

(٣) دار الحديث الكاملية أو المدرسة الكاملية: هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة، وتعرف بدار الحديث الكاملية، وأنشأها السلطان بالملك الكامل ناصر الدين الأيوبي سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م، وهي ثاني دار عملت للحديث النبوي، المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٧٥.

(٤) ديوان الرواتب: ويشتمل على اسم كل مرتزق في الدولة، وفيه كاتب أصيل. انظر صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٤٨٩ ـ ٤٩١. والمواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٠١.

العلامة[١] وهي: «الحمد لله شكراً لنعمه». وكانت أيامه تُسمى الأعراس لطيها. وضَبط الأمور أحسن ضبط واستعمل الأمانة التامة، وتمكن في الدّولة الظّاهرية، على ما قدّمناه.

قال: وهجاه جماعةٌ من الشعراء. فمن ذلك قولُ أبي الحسن عليّ بن عبد العزيز الحلبي المعروف بالفكيك ويعرف بجاسوس الفلك: [من الرجز المشطور]

يـــا جـــرجـــرائـــي اتـــئـــد وارفــق ودَعْ عــنــك الــتَّــحــامُــق

أزعـــمـــتَ أنــك فـــي الـــثِّـــقـــا ة، فـهَـبْك فـيـمـا قُـلـت صـادق

أَعَـــلـــى الأمـــانـــة والـــتُّـــقـــى قُـطِـعـت يَـداك مـن الـمَـرَافِـق

قال: ولمّا مات أوصى أن تُفوّض الوزارةُ بعده لأبي نَصْر صدقة[٢] بن أبي الفضل يُوسف بن علي الفلاحيّ، فخلع عليه خلع الوزارة. وكان يهودياً، ولُقّب بالوزير الأجلّ تاج الرئاسة فخر المُلك مُصْطَفَى أميرِ المؤمنين، ثمّ أسلم بعد الوزارةِ.

ذكر مقتل أبي سعيد التُّسْتَري
وعزل الوزير وقتله ووزارة ابن الجرجرائي

وفي سنة تسعٍ وثلاثين وأربعمائة قتل أبو سعيد[٣] التُّسْتَري اليهوديّ، وكان يتولّى ديوان والده المستنصر. وذلك أنها كانت جاريته، فأخذَها منه الظّاهر واستَوْلَدَها فولدت المستنصر بالله، فلمَّا أفضت الخلافة إلى وَلَدها فوَّضت إليه أمْرَ ديوانها، فعظُم أمره وانبسطت كلمتُه بعد وفاة الجرجرائي الوزير حتّى لم يبق للوزير الفلاحيّ معه إلا اسم الوزارة، فدبَّر الفلاحي في قتله فقُتل.

وقيل: بل كان السَّبب في قتله أنّ عزيز الدّولة ريحان الخادم كان قد خرج في هذه السنة إلى بني قُرّة، عرب البحيرة، لِمَا أفسدُوا في البلاد، فظفِر بهم وقَتَلَ منهم. وعادَ إلى القاهرة وقد عظُم قَدرُه وزاد إدْلاله، فثقُل أمره على أبي سعيد.

واستمال المغاربةَ وزاد في أرزاقهم ونقص من أرزاق الأتراك ومَنْ ينضافُ إليهم، فجرى بين الطّائفتين حربٌ بباب زويلة.

---

(١) والعلامة: أي العبارة تكون تحت البسملة، ويختارها القاضي لتدون في بداية الوثيقة التي تصدر عنه. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ٣١٤. والمقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢١١.

(٢) هو «أبو منصور» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٤. والإشارة لابن الصيرفي، ص ٣٧، قُبض عليه في سنة ٤٣٩ هـ/ ١٤٠٧ م. واعتقل وقتل. انظر ترجمته في الإشارة لابن الصيرفي، ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٣) «أبو سعد» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٤ اسمه إبراهيم بن سهل بن هارون التستري، أبو سعد، انظر المواعظ والاعتبار لابن ميسر، ج ١، ص ٣٥٥، ص ٤٢٤.

ومرض إثر ذلك عزيز الدّولة ومات فاتُّهم أبو سعيد أنّه سَمَّه. فلما كان في يوم الأحد لثلاثٍ خلَوْن من جمادى الأول ركب أبو سعيد من داره في مَوكبٍ وتوجَّه إلى القصر على عادته، فاعترضه ثلاثةٌ من الغلمان الأتراك واختلطوا في الموكب وقتلوه. فاجتمعت الطّوائف إلى المُستنصر بالله وقالوا: نحن قتلناه، وقُطِّع لحمه. فاشترى أهلُه ما وصلوا إليه من أعضائه، وأحرق ما بقي، وضَمَّ أهلُه ما اشتَروْه منه في تابوت وغطّوه بستر، وأوقدوا أمام التابوت الشموع ووضعوه في بيت مُفرد، وزَرّوا البيت بالسُّتور، فوصل لهب النّار إلى بعض السُّتور فاحترق، وقَوِيت النّار فأحرقت التّابوت بما فيه.

قال: وكان التُّسْتَري قد زادَ أذاه في حقّ المسلمين حتى كانوا يَحْلفون: وحقِّ النّعمة على بني إسرائيل.

ولما قُتِل وَلِي مكانه في نَظَر ديوان والدة المستنصر بالله أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمٰن اليازُوري.

وحقدت والدة المستنصر بالله على الوزير الفلاحيّ وتحقَّقَت أنه تسبَّب في قتله، فقبضت عليه وصَرَفتْه عن الوزارة في هذه السّنة، واعتقلته بخزانة البنود[١]؛ ثم قتل بعد ذلك «أبو منصور صدقة»[٢]، ودُفن بخزانة البنود، وذلك في سنة أربعين وأربعمائة.

ووالدُ هذا الوزير هو أبو الفضل يوسف بن علي الذي هجاه الواساني[٣] بقصيدته المشهورة التي أولها:

يـا أهـل جيـرون هـل لِسَـامـركـم   إذا اسـتـقـلّـت كـواكـب الـحـمـل

وقد أوْردنا أكثر هذه القصيدة في الباب الثاني من القِسم الثّالث من الفَنّ الثاني.

ولـمّا قبض عليه وَلِيَ الوزارة أبو البركات الحسين[٤] بن محمد بن أحمد

---

(١) خزانة البنود: البنود: هي الرايات والأعلام. وكانت خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير فيما بين قصر الشوك وباب العيد، بناها الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم علي بن الحاكم بأمر الله. وكان فيها جميع المتاع والآلات الحربية، وغيرها من القضب، والفضة والذهب والبنود. ثم أصبحت سجناً، واتخذها ملوك بني أيوب سجناً يعتقل فيه الأمراء والمماليك. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٢٣ وما بعدها.

(٢) «بيبرس» في الأصل. والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر بن ميسّر، ص ٨. واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٩٦.

(٣) هو الحسين بن الحسن بن واسانة بن محمد، أبو القاسم، المتوفى سنة ٣٩٤ هـ/ ١٠٠٣ م. انظر بقية القصيدة في نحو ١٤٠ بيت في يتيمة الدهر للثعالبي، ج ١، ص ٣١٠ ـ ٣١١.

(٤) هو ابن عماد الدولة محمد أخي الوزير أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي. ولي في سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م. انظر الإشارة لابن الصيرفي، ص ٣٨ ـ ٣٩.

الجرجرائي، ابن أخي الوزير صفيّ الدّين.

وفي سنة أربعين وأربعمائة صرف ناصر الدّولة الحسن[١] بن حمدان عن ولاية دمشق، وأُحْضِر تحت الحُوطَة ووَلِيَ مكانه القائدُ طارق، ثم أُطلق ابن حمدان في سنة إحدى وأربعين.

وفي سنة إحدى وأربعين صُرف أبو البركات الحسين بن الجرجرائي عن الوزارة ونُفي إلى صور واعتقل بها، ثم أُطلق، فسار إلى دمشق. ونظر في الدّواوين بعده عميد الدّولة أبو الفضل[٢] صاعد بن مسعود، ثم فُوضت الوزارة لأبي محمد الحسين[٣] بن علي بن عبد الرحمٰن اليازوري.

وفي سنة ثلاثٍ وأربعين أظهر المعزّ[٤] بن باديس الصِّنهاجي، صاحب إفريقية، الخلاف على المستنصر بالله؛ وقد ذكرنا سبب ذلك في أخبار ملوك إفريقية. دمشق وخمسين إلى عسكر حمص وكتب المعزّ إلى بغداد، فأجيب عنْ رسالته على لسان رسولٍ من بغداد، يُعرف بأبي غالب الشِّيرازي، وسيّر إليه صحبته عهداً بالولاية ولوءً أسود وخلعة فاجتاز أبو غالب ببلاد الرُّوم فقبض عليه صاحب القسطنطينية وبعثه إلى المستنصر بالله؛ فقَدِم الرّسول إلى مصر وهو مُجَرّسٌ[٥] على جمل، وحفر بين القصرين حُفَيرة، وحُرق فيها العَهْد والخلَع واللّواء.

وفيها في ذي القعدة عصى بنو قُرّة، عرب البحيرة، على المستنصر بالله. وكان سبب ذلك أنّ الوزير اليازوري قدّم عليهم رجلاً يُقال له المقرّب، فنَفَروا منه واستَعْفَوا

---

(١) «الحسين» في الأصل، هو الحسن بن الحسين بن حمدان التغلبي، ناصر الدولة، آخر من كانت له أمارة من آل حمدان، ملوك حلب وغيرها. قتل سنة ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٤ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٤، ٩٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٦٥ هـ، ص ٨٠.

(٢) هو من شيوخ الكتاب، وأكابر أصحاب الدواوين، وكان يتولى ديوان الشام، وجعل واسطة لا وزيراً سنة ٤٤١ هـ/ ١٠٤٩ م، ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٣٩.

(٣) هو في قرية من قرى الرملة اسمها يازور. أخباره في الإشارة لابن الصيرفي، ص ٤٠ ـ ٤١.

(٤) هو المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري مناد الحميري الصنهاجي. صاحب إفريقيا وما والاها من بلاد المغرب. ولد بالمنصورية من أعمال إفريقيا سنة ٣٩٨ هـ/ ١٠٠٧ م. وملك بعد أبيه باديس، توفي ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م. أخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٢٣٣، رقم ٧٣٠، وتاريخ ابن خلدون، ج ٦، ص ١٥٨، والكامل لابن الأثير، ج ١٠ حوادث سنة ٤٥٤ هـ. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٢٩٤. وعبر الذهبي، ج ٣، ص ٢٣٣، وتاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ٤٨، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٢١٢، هامش ٣.

(٥) التجريس: التشهير. الفيروزابادي: القاموس المحيط (جرس).

منه، فلم يُجب الوزير سُؤالهم؛ ثم دخلوا على الوزِير وطالبوه بواجباتهم، وأَغلظوا له في القول؛ فتوعَّدَهم باستئصال شأفتهم، ففارقُوه وأظهروا العصيان، واجتمعوا بالجيزة في جمعٍ كثير؛ فندب الوزيرُ عسكراً لقتالهم فكسرُوه، فندب عسكراً ثانياً فهزمهم وقَتَل منهم قَتْلَى كثيرة. وحمَل إلى الخِزانة المسْتنصرية من أموالهم جمْلَة عظيمة، فهَرَبُوا إلى برقة.

وفي سنة ثمانٍ وأربعين بعث المستنصرُ بالله ووزيرُه اليازوري خزائن الأموال إلى أبي الحارث[1] أَرْسَلان البَسَاسيري ليُقيم الدّعوة المستنْصِريّة ببغداد واستنفد ما كان بالقصر من الأموال. وكان مِنْ أمْر البساسيري وقيامِه والخُطبة للمستنصر هذَا ببغداد، ما قدَّمناه في أخبار الدّولة العباسية، ولمّا خُطب للمستنصر ببغداد فِي سنة خمسين وأربعمائة، وَرَد الخبر إلى مصر بذلك فزُيّنت القَاهرة.

وكان عند المستنصر مُغَنِّية تغني بالطّبل[2]، فدخلت عليه وغنَّته في ذلك اليوم: [من الرمل المجزوء]

يـا بـنـي الـعَـبّاس رُدّوا[3] مَـلَـكَ الأمْـرَ مـعـدُّ

مـلـكُـكـم مـلـكٌ مُـعَـارٌ[4] والـعـواري تُـسـتـردُّ

فقال لها: تمنّي. فقالت: أتمنى الأرض المجاورَةَ للمقسم، فقال: هي لكِ، فعُرفت الأرض بأرض الطبّالة[5] إلى وقتنا هذا.

---

(١) «أبي الحارث» في الأصل. هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري التركي، كان يلقب بالمظفر، توفي عام ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م، أخباره في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٢٣٢، ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ٨٥، الكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٥، ٦، ٦٤٠. النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٦٦. المنتظم لابن الجوزي، ج ٨، ص ٢٠١، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٢٨٧، المنتقى في أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤، ص ٢٠، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٩٢ رقم ٨١.

(٢) «وجاء نسب فغنت الطبل بين يدي المستنصر» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٩. ونسب امرأة مترجلة كانت تقف تحت القصر في المواسم والأعياد، وتسير أيام المواكب وحولها طائفة وهي تضرب بالطبل. المنتقى من أخبار مصر، ص ١٩.

(٣) «صدوا» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٤.

(٤) «ملككم كان معاراً» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٤.

(٥) كانت بجوار خط المقس على جانب الخليج العربي، وهي من أحسن متنزهات مصر. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢٥.

ذكر القبض على الوزير أبو محمد الحسن[(١)] بن علي بن عبد الرّحمٰن اليازوري وقتله وشيء من أخباره

وفي[(٢)] المحرّم سنة خمسين وأرْبعمائة سُعِي بالوزير المذكور عند المسْتنصر بالله أنّه كاتب السُّلطان طغرلبك السّلجوقي وحَسَّنَ له قصْد الدّيار المصريّة، فقَبض عليه وجهَّزه إلى تِنّيس، ثم أمر بقتله، فقُتل في الثاني والعشرين من صفَر منها. وكان من أكابر وُزراء ملوُك هذه الدّولة.

قال المؤرخ: كان والدُ اليازوري قاضي يازور، هي قرية من أعمال الرّملة، فلمّا تُوفّي خلفه ولدُه الحسين المذكور، ثم عُزل عنها، فقدم مصر وسعى في إعادته لحُكم يازور، فرأى من قَاضي مصر اطِّراحاً لجانبه، فصحب رفق المستنصريّ ـ وكان خصيصاً بوالدة المستنصر، فكلّم القاضي في أن يسمع قوله بمصر ففعل. فلمّا قتل أبو سعيد التّسْتَري أشار رفق على وَالدَة المستنصر أن يكون اليازُوري وزيرَها، فرتَّبتْه في وزارتها، فخافه الوزير أبو البركات الجرجرائي أن يلي الوزارة، فسعى له في الحكم ليشغله عن الوزارة، فامتنع اليازوري من ذلك، فأشارت عليه والدة المستنصر بقَبول الولاية فقبل: ولم تمض إلاّ مدَّة يسيرة حتى صُرِف ابن الجرجرائي عن الوزارة وفُوّضت الوزارة إلى اليازوري[(٣)] مُضَافَةً لما بِيده من قضاء القضاة وديوان والدة المستنصر بالله.

قال القاضي أبو الحسين أحمد الأسواني في تاريخه: حدّثني القاضي إبراهيم ابن مسلم الفوّي، قال: شهدت خطير الملك، ولد[(٤)] اليازوري الوزير، كان قد ناب عن والده في قضاء القضاة والوزارة وغير ذلك، وسار إلى الشام بعساكر عظيمة فأصلح أمره. ورأيتُه بعد ذلك بمسجد فوّة[(٥)] وهو يخيط للنّاس بالأجرة وهو في حال شديدةٍ من الفقر والحاجة، فرأيته ذات يوم وهو يطالب رجلاً بأجرة خياطةٍ خاطها له، والرّجل

---

(١) «الحسن» في الأصل. والتصحيح من الإشارة لابن الصيرفي، ص ٤٠.

(٢) «في أول المحرم» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٢٣٦. ويوافق أوله منها الثامن والعشرين من فبراير سنة ١٠٥٨ م. أخباره في: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٢٣٦. في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٦.

(٣) يذكر ابن ميسر «واجتمع ناصر الدولة بن حمدان باليازوري، وأشار عليه بالوزارة مضافاً لأشغاله، وتحدث له مع المستنصر فأجاب وولاه». المنتقى من أخبار مصر، ص ١٦.

(٤) «غيطر الملك والد اليازوري» في الأصل. والتصحيح من المنتقى من تاريخ مصر لابن ميسّر، ص ١٧.

(٥) فُوّه: بالضم ثم التشديد: بليدة على شاطىء النيل من نواحي مصر قرب رشيد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٨٠.

يدافعُه ويُماطله، وهو يلحُّ في الطلب. فلمّا ألح عليه قال له الرجل: يا سيّدنا، اجعَلْ هذا القدر اليسير من جُملة ما ذهب منك في السَّفْرة الشامية. فقال: دَعْ ذكر ما مضى. فسألتُه عن ذلك فلم يحدِّثني بشيء، وسألتُ غير فقال: الذي ذهب منه في سَفْرته في نفقات سِمَاطه ستّة عشر ألف دينار.

قال المؤرخ: وكان اليازوري سيىء التّدبير، أوجب سوءُ تدبيره خُروجَ إفريقية وحلب عن المستنصر بالله.

قال: ولما قبض على اليازوري وَلِيَ الوزارة بعدَه صاحبُه أبو الفرج عبد الله[١] ابن محمد البابلي، وكان خصيصاً به، فلما ولي الوزارة بعده سعى في قَتْله كلَّ السَّعي، ويقال إنّه جهّز إليه من قتله بغير أمر المستنصر، فلما اطلع على ذلك عظُم عليه، وعُزِلَ البابلي في شهر ربيع الأوّل منها. واستوزر أبا الفرج محمد[٢] بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المغربي، ثم صرَفه في شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين وأعيد البابلي.

وفي سنة خمسين وأربعمائة استعمل ناصر الدّولة بن حمدان على ولاية دمشق.

وفي سنة ثلاثٍ وخمسين، في المحرّم، صُرِف البابليّ عن الوزارة ووَلِيَها عبد الله[٣] بن يحيى بن المدبّر، ثم صُرف في بقية السنة ووَلِيَ أبو محمد عبدُ الكريم[٤] ابن عَبد الحاكم بن سعيد الفارقيّ في شهر رمضان من السنة؛ فقال أبو الحسن علي بن يسر الرحمٰن بن بشر الصقلي يخاطب ابن المدبر: [من الكامل]

لا تجزعنَّ عن الأُمور إذا الْتَوت وَابشر بلُطف مسبّبِ الأسباب

ما كنْتَ إلاَّ السَّيف، جُرِّدَ ماضياً وأُقِرَّ مذْخُوراً ليَوْم ضِراب

للَّهِ سيرتُك الّتي ما سِرْتَها إلا بأقْومِ سنَّةٍ وكِتاب

شيَّدْتَ للوزراء يا ابنَ مدبِّر شرفاً لهم يَبْقَى على الأَعْقاب

(١) انظر ترجمته وأخباره في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٧١، والإشارة لابن الصيرفي، ص ٤٦.

(٢) هو من أصحاب سيف الدولة علي بن حمدان، وولي ديوان الجيش في مصر، وكانت والدة المستنصر بالله تعنى به، ولما ولي بالبابلي قبض عليه من جملة أصحاب اليازوري، واعتقل توفي سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م. ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٤٧.

(٣) ولي الوزارة دفعتين. وتوفي في وزارته في جمادى الأولى من السنة ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م.

(٤) والده عبد الحاكم بن سعيد الفارقي قاضي طرابلس ثم انتقل إلى القضاء بمصر وولده أبو محمد أول من ولي الوزارة في بيته. ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٨، ٤٩.

وجمعْتَ بين طهارةِ الأعراق، والـ ـأخـلاق، والأفـعَـال، والأثـواب
جـعـلَ الإلٰـه لـكـلِّ قـوْمٍ سـادَةً وبـنُـو الـمـدبّـر سـادَةُ الـكُـتّـاب

وفي سنة أربع وخمسين وأربعمائة[1] في المحرم تُوفّي الوزير أبو محمد عبد الكريم، فرُدّت الوزارة إلى أخيه أبي علي أحمد[2] بن عبد الحاكم، وكان يلي قضاء القُضاة: وصُرِف عن الحُكْم في صفر، ثم صُرف عن الوزارة، وقيل إنه صرف عنها بعد سبعة عشرَ يوماً من ولايته، وأعيد البابلي مرة ثالثةً في شهر ربيع الأول من السنة، واستعفى بعد خمسة أشهر، فاستوزر المستنصر سديد الدّولة أبا عبد الله الحسين[3] بن علي الماسكي، وكان يلي نظر الدّواوين بدمشق، ثم صُرف في شوال وأعيد البابليّ.

ذكر الفتنة الواقعة التي أوجبت خراب الديار المصرية

كان ابتداء هذه الفتنة في سنة أربع وخمسين وأربعمائة. وسببُها أنّ المستنصر بالله كان في كلِّ سنة يركب على النُّجُب ومعه النّساء والخمر[4] إلى المكان المعروف بجُبّ عميرة[5]، وهو موضع نزهة، ويَذكُر أنّه خرجَ يريد الحجَّ، على سبيلِ الاستهزاءِ والتهكّم، ومعه الخمر في الرَّوَايا بدلاً من الماء، يَسقيه للنَّاس كما يُسقى الماءُ في طَريق مكّة، شرّفها الله تعالى، فلمَّا كان في هذه السَّنة خرج على عَادَته في جُمادى الآخرة؛ فاتَّفق أن بعض الأتراك جرَّد سيفاً على سُكْرٍ مِنْه على بَعْض عَبيد الشّراء، فاجتمع عليه طائفةٌ من العبيد وقتلُوه، فجاء الأتراك إلى المستنصر وقالوا: إنْ كانَ هذا عن رِضاك فالسّمع والطاعة، وإنْ كان عن غير رِضاك فلا تَصبرُ عليه. فأنكر المستنصر ذلك؛ فاجتمع جماعةٌ من الأتراك وقتلوا جماعةً من العَبيد بعد قتالٍ شديد على كوم شريك[6].

---

(١) تقلب الوزراء على الوزارة في أيام المستنصر في هذه السنة، وكثير منها كان لأيام مدودات. انظر الوزارة في العصر الفاطمي لمحمد حمدي المناوي. ص ٣٠٨ ـ ٣١١.

(٢) انظر الإشارة: لابن الصيرفي، ص ٤٩، وهو «سديد الدولة ذو الكفايتين» ولي الوزارة سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢. توفي عام ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م.

(٣) انظر الإشارة لابن الصيرفي، ص ٤٩.

(٤) «والحشم» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٢٦٥. المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر.

(٥) جب عميرة: محلة اليوم القرية التي تعرف باسم البركة من قرى مركز شبين القناطر بمحافظة القليوبية، في الشمال الشرقي من القاهرة. عرفت قديماً باسم بركة الحجاج أو بركة الجب نسبة إلى عميرة بن تميم التجيبي صاحب الجب المعروف باسمه في الموضع الذي يبرز إليه الحجاج عند خروجهم من مصر إلى مكة. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٦٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢١، حاشية. المسبحي: أخبار مصر، ص ٦٩، حاشية ١.

(٦) كوم شريك: إحدى قرى مركز كوم حمادة بمحافظة البحيرة، عرف هذا الكوم باسم ابن سمي بن عبد =

وكانت والدةُ المستنصر تُعين العبيدَ بالأموال والسّلاح، فاطّلع بعضُ الأتراك على ذلك، فجَمَعَ طائفةً كثيرةً من الأتراك ودخل على المستنصر بهم، وأغلظُوا له في الكلام؛ فحَلف أنّه لم يكن عندَهُ عِلْمٌ من ذلك. ودَخَلَ على والدتِه وأنكرَ عليها؛ وصارَ السَّيفُ بين الطَّائفتين. ثم سَعَى أبو الفرج بن المغربي، الّذي كان يلي الوزارة، وجماعةٌ معه، في الصُّلح بين الطائفتين، فاصطلحوا؛ ولم تصْفُ طائفةٌ منهم للأخرى.

ثمّ اجتمع العبيد وخرجُوا إلى شَبرا دَمنهور[1] في جمع كثير.

وكان سبب كسرتهم أنّ والدة المستنصر لمّا قُتل سيدها ووزيرُها أبو سعيد التُّسْتَري اليهوديّ غضِبت لقتله، وشرعت في شراء العبيد السُّودان واستكثرت منهم، وجعلتهُم طائفةً لها؛ فاشتَدّ أمرُهم إلى أنْ صارَ العبدُ مِنهم يحكمُ حكمَ الوُلاة، فلمَّا وَلِيَ أبو البركات بن الجرجرائي أَمَرَتْه أن يُغرِيَ العبيدَ بالأتراك، فخاف العاقبةَ فلم يفعل؛ فصَرَفَتْه وولّت وزيرها اليازُوري وأمرته بذلك، فلم يَقبَلْ منها، ودبّر الأمرَ وساسه إلى أن قُتِل. ووَزَرَ البابليّ فأمرته بذلك، ففعل، ووَقَعَ بين الطائفتين.

قال: فلمَّا خرج العبيد إلى شَبرَا دمنهور قَوِيت شوكةُ الأتراك وطلبوا الزِّيادات في أرزاقهم إلى أن خَلَت الخزائن من الأموال وضعُفت الدّولة، والعبيد على حالٍ من الضرورة وهُمْ يتزايدُون عِدّة، فتكامل منهم ما بَيْن فارس وراجل خمسُون ألفاً.

فبعَثت والدةُ المُسْتنصر لقُوّاد العَبيدِ، في سنة تسع وخمسين وأربعمائة، وأغْرَتهم بالأتراك؛ فاجتمعُوا وَوَصلُوا إلى الجيزة، فخرج الأتراك لقتالهم، والمقدَّم عليهم ناصرُ الدّولة الحسن[2] بن حمدان، فَلقِيَهم فكُسرةُ العبيد ونهبوا عسكره، واشتَغلُوا بالنَّهْب، فعطَف عليهم ابنُ حمدان وهَزَمهم إلى الصَّعيد، وعادَ إلى القاهرة وقد قَوِيَت شوكتُه.

ثمّ تجمَّع العبيدُ في الصَّعيد في خمسة عشر ألف فارس وراجل، فقلِقَ الأتراك

= يغوث بن جزمرادي أحد صحابة رسول الله ﷺ، كان على مقدمة جيش عمرو بن العاص عند فتح الإسكندرية. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ١٨٣. الكامل، ج ١، ص ٨٢، الذهبي: العبر، ج ٣، ص ٢٥٧، هذه الوقعة كانت على كوم ريش.

(١) شبرا دمنهور: هي القرية التي تعرف باسم شبرا الخيمة بمحافظة القليوبية، تقع على فم الترعة الإسماعيلية في الشمال الغربي للقاهرة على النيل، كانت تسمى قديماً شبرا دمنهور حيث تجاورها في الشمال قرية دمنهور شبرا التي تنسب إليها. وهذه اليوم أيضاً من ضواحي القاهرة. وشبرا الخيمة تعرف عند سكان القاهرة باسم شبرا البلد تمييزاً لها من قسم شبرا أحد أقسام مدينة القاهرة. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ق، ص ١٢ ـ ١٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٢، حاشية ١.

(٢) «الحسين» في الأصل، والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٢٧٣.

لذلك قلقاً شديداً، وحضرَ المقدَّمون إلى المستنصر لِيشكُّوا ذلك إليه، فأمرت والدته مَنْ عندَها من العبيد والخَدم بالهُجوم عليهم[١] وقتْل الأتراك، ففعلوا ذلك. وسَمع ناصرُ الدَّولة بنُ حمدان بالخبر، فَركب إلى ظَاهر القاهرةِ واجتمع إليه مَنْ بقي من الأتراك ووقعت الحرب بينهم وبين العبيد المقيمين بمصر والقاهرة، ودامَتْ بين الفريقين أيّاماً، فانتصر ناصر الدّولة والأتراكُ على العبيد، وقتلُوا منهم مقْتَلةً عظيمة، ولم يبْقَ منهم بالقاهرة ومِصْر إلاّ القليل.

وبقي العبيدُ المقيمون بالصَّعيد على حالهم. وكان بالإسكندريَّة منهم جماعةٌ، فسار ناصر الدّولة إليهم، فسألوا الأمان، فأمّنهم؛ ورتَّب بالإسكندرية من يثق به. وانقضت سنة تسع وخمسين في حربهم.

وقويَت شوكةُ الأتراك في سنة ستين وأربعمائة، وطمِعوا في المستنصر بالله، وقلَّ ناموسُه عندهم. وكان مقرّرهم في كلِّ شهر ثمانيةً وعشرين ألف دينار، فصار في كلِّ شهر أربعمائة ألف دينار، وطالبوا المسْتنصِر بالأموال، فاعتذر أنّه لم يبْقَ عنده شيء منها؛ فطالبوه بذخائره فأخرجها إليهم، وقُوِّمت بأبخس الأثمان.

وخرج ناصرُ الدّولة بن حمدان في جماعةٍ من الأتراك إلى الصَّعيد لقتال مَنْ فيه من العبيد، وكانَ قد كثُر فسادهم، فالتَقَوْا واقتتلُوا، فكانت الهزيمة على ناصر الدولة والأتراك، فعادوا إلى الجيزة. فاجتمع على ناصر الدّولة مَنْ سَلِم مِنْ عسكره، وشَغبُوا على المستنصر بالله، واتّهموه أنه يُمِدّ العبيد بالنَّفقات سرًّا، فحلفَ لهم على ذلك.

ثمّ خرج الأتراك إلى العبيد وقاتلوهم، فقُتل منهم مقتلةٌ عظيمة ولم ينج منهم إلاّ القليل. وزَالت دولةُ العبيد، وعظُم أمْرُ ناصر الدّولة بن حمدان.

ذكر الوحشة الواقعة بين ناصر الدّولة والأتراك

وفي سنة إحدى وستين وأربعمائة ابتدأت الوحشة بين ناصر الدّولة ابن حمدان وبين الأتراك. وسبب ذلك أنّ ناصر الدَّوْلة قوِي واشتدَّت شوكتُه، وانفرد بالأمر دُون قوَّاد الأتراك، فعظُم ذلك عليهم وفسدت نياتهم، وشكوا ذلك إلى الوزير الخطير[٢]، وقالوا: كلَّما خرج من الخزانة مالٌ أخذ ناصرُ الدَّولة أكثره وفرّقه في حاشيته، ولا يصِلُ إلينا منه إلاّ القليل. فقال: ما[٣] وصل إلى هذا الأمر وغيره إلا بكم، ولو فارقتُموه لم

(١) «عليه» في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) هو محمد بن الحسن بن علي اليازوري «خطر الملك» استقر في القضاء، والوزارة في ١٣ صفر ٤٦١ هـ/ ١٠٦٨ م. وصرف عنها في شوال من السنة نفسها. ابن ميسّر، المنتقى من أخبار مصر، ص ٣٥.

(٣) في الأصل: «إنما» والتصحيح يقتضيه السياق.

يتمَّ له أمر. فاتَّفق أمرهم على محاربته وإخراجه من ديار مصر، فاجتمعوا وذكرُوا ذلك للمستنصر، وسألوه أن يُخْرِجَه عنهم؛ فأرسل إليه يأمره بالخروج ويتهدَّدُه إنْ لم يفعل. ففارَقَ ناصر الدَّولة القاهرة وغدا إلى الجيزة، ونُهبت دُورُه ودور حواشيه وأصحابه.

فلمَّا جاء الليلُ دخل ناصرُ الدّولة، واجتمع بالقائد تاج الملوك شادي، وقبّل رجليه، وسأله أن يُعينه على إلْدِكِز[1] والوزير الخطير. قال: وكيف الحيلةُ في ذلك؟ قال: تركبُ أنت وأصحابُك وتسيرُ بين القصرين، فإذا أمكَنَتْك الفرصة فاقتلهما. فأجابه إلى ذلك.

وركب شادي من بُكرة الغد للتسيير فعلم إلْدِكِز بمراده، فهرب إلى القصر واستجار بالمستنصر فَسَلِمَ. وأقبل الوزيرُ في موكبه فقتله شادي، وسيَّر إلى ناصر الدَّولة يأمره بالحضور؛ فعدَّى من الجيزة إلى القاهرة. فأشار إلْدِكِز على المستنصر بالرّكوب، وقال: متى لم تركب هلكت وهلكنا معك. فلبس سلاحه وركب، وتبعَهُ خلقٌ من عامَّة النّاسِ والجند، واصطَفّوا للقتال، فحملت الأتراك على ناصر الدّولة فانهزم، وقُتِل من أصْحابه جماعةٌ كثيرة، ومضى لا يُلْوي على شيء وتبعَه بعضُ أصْحابه، فالتحق ببني سِنْبِس بالبحيرة فأقام عندهم وصاهرهم، وتقوَّى بهم[2].

ولما تحقّق ناصر الدّولة ميْلَ المستنصر عنه قصدَ إبطالَ دعْوته، وكتب إلى السّلطان ألب أرسلان السلجوقي[3] ملك خراسان والعراق يسأله أن يسيِّر إليه عسكراً يفتح له مصر ويُقيم الدّعوة العبّاسية بها. فتجهز ألب أرسلان من خراسان بعساكره، وكتب إلى صاحب حلب[4] يأمره بقَطْع دعوة المستنصر وإقامة الدّعوة العباسية، ففعل ذلك، وانقطعت دعوة المستنصر[5] من حلب؛ ثمّ ملكها ألب[5] أرسلان[6]؛ كما ذكرناه

---

(١) لقبه أسد الدولة، وهو شيخ الأتراك، كان قد تزوج ابنه ناصر الدولة بن حمدان ولكنه غدر بوالد زوجته وقتله ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٩٢.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٨٤. وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٨٤.

(٣) «السلجقي» في الأصل، وهو ألب أرسلان محمد بن داود بن جفري بك بن ميكائيل بن سلجوق. ابن الأثير: الكامل، ج ١، ص ٧٤.

(٤) هو محمود بن ثمال بن صالح بن مرداس، رشيد الدولة، الذي ولي حكم حلب مرتين في الفترة من ٤٥٢ ـ ٤٥٣ هـ/ ١٠٦٠ ـ ١٠٦١ م. والفترة من ٤٥٤ ـ ٤٦٨ هـ/ ١٠٦٢ ـ ١٠٧٥ م. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٣٠٢، سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٢٤٦.

(٥) بدلاً من كلمة «ألب» وكلمة «المستنصر» بياض في الأصل. المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر. ص ٣٥.

(٦) في جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وأربعمائة وحاصرها شهراً. ابن ميسّر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٣٥.

في أخبار الدّولة السلجوقية[١]؛ ثم ملكت عساكره دمشق[٢].

ذكر الحرب بين ناصر الدّولة والأتراك

قال: ولما اتَّصل بالمستنصر ما فعله ناصرُ الدّولة من مكاتبة ألب[٣] أرسلان جرَّد عسكَراً لِقتاله من الأتراك، فساروا ثلاث فِرَق. فأراد أحدُ المقدَّمين أن يلْقاهُ ليكونَ الظَّفَر لهُ دون رفيقَيه، فتقدَّم والتقى بناصر الدّولة، فهزمه ناصرُ الدّولة وقتل جماعةً من أصحابه وأسَره. ثمّ الْتقى العسكرُ الثّاني ولم يعلمُوا بما جرى على الأوّل، فهزمهم أقبح هزيمة؛ وهرب العسكرُ الثّالث. وقَوِيَ ناصرُ الدّولة بهذا الظّفر، وقطَع الميرَة عن القاهرة ومصر، ونهَب أكثر الوجه البحري، وقطَع خُطبة المستنصر من الإسكندرية ودمياط والوجه البحري، وخطب للقائم بأمْر الله[٤] العبّاسي. وعُدمَت الأقواتُ بالقاهرة ومصر، واشتدَّ الغلاء، وكثُر الوباء، وامتدَّت أيدي الجند إلى نَهْب العوامّ.

ذكر الصُّلح بيْن ناصر الدَّولة والأتراك

وفي المحرّم سنة ثلاثٍ وستين وأربعمائة وقع الصُّلح بين ناصر الدّولة بن حمدان والأتراك. وسببُ ذلك أنّ المستَنْصر بالله والأتراك اشتدَّت بهم الضَّائِقةُ لقَطْع الميرَة، فاضْطَرُّوا إلى مُصَالحته، فصالحوه على أن يكُونَ مقيماً بمكانه ويُحْمَل إليه مال قرَّره المستنصِر، ويكون تاجُ الملوك شادي نائباً عنه، فرضي بذلك وسيَّر الغِلال إلى مصْر. ثمّ وقع الخلافُ بينهم بعْدَ شهور[٥]، فجاء ناصرُ الدّولة من البحيرة، وعساكرَ كثيرةً، وحاصر مصر في ذي القَعدة من السّنة، ودخل أصحابه فنهبوا شطراً منها، وأحرقوا دور السّاحل؛ ثمّ عادُوا إلى البحيرة. والله أعلم[٦].

---

(١) «السلجقيّة» في الأصل.

(٢) كان ذلك سنة ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٥ م على يد القائد التركي أحد أمراء السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان، ابن ميسّر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٤٢.

(٣) بدلاً من كلمة «ألب» بياض في الأصل.

(٤) هو الخليفة العباسي أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله، الذي ولي الخلافة العباسية في بغداد في الفترة من ٤٢٢ ـ ٤٧٦ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٧٥ م. سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية، ص ١٢ ـ ١٣. ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٤١٦.

(٥) «بعد شهر وقع الخلاف بين الأتراك وبينه» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٠٥.

(٦) انظر اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٣٠٥، المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر، ص ٣٧.

ذكر الحرب بين ناصر الدّولة وتاج الملوك شادي وما كان من أمر ناصر الدّولة إلى أن قتل

وفي سنة أربع وستّين وأربعمائة جمع ناصر الدّولة جُموعه من العُربان وجاء إلى الجيزة، واستدْعى إلَيه تاجَ الملوك شادي وبعض المقدَّمين، فخرجُوا للقائه، فقبضَ عليهم ونهب مصر وأحرقها.

وكان سببُ ذلك أنّ شادي كان قدْ قَطَع عن ناصر الدّولة ما كان قد تقرَّر حمْلُه إليه من المال، ولم يُوصِّل إليه إلاّ اليسير منه. فلمَّا قَبض عليهم سيَّر المستنصرُ إليه عسكراً كثيفاً، فهزموه، فهرب إلى البحيرة وجمع جموعه من العُربان وغيرهم، وقطع خطبةَ المستنْصر وأبطل ذكرَه. ثم قدِم ناصر الدّولة في شعبان من السنة ودخل إلى مصر وحكم بها، وأرسل إلى المسْتَنصر يطلُب منه المال؛ فرآة الرَّسولُ وهو جالسٌ على حصيرٍ وحوله ثلاث خدم، ولم ير شيئاً آخر من آثار المملكة. فلمَّا ذكر الرَّسول رسالته للمستَنْصر قال: ما يكفي ناصرَ الدّولة أنْ أجلسَ في مثلِ هذا البيت عَلَى هذه الحال! فبكى الرَّسولُ، وعاد إلى ناصر الدّولة وذكر له الحال؛ فأطلق ناصرُ الدّولة للمستنصر بالله في كلِّ شهر مائةَ دينار، وحَكَم في القاهرة، وبالغ في إهانةِ المستنصر، وقبض على والدته وعاقَبها، وأخذ منها الأموال، وتفرَّق عن المستَنْصر جميعُ أقاربه وأولاده، ومضوْا إلى بلاد المغْرب والعراق[1].

وعمِل ناصرُ الدّولة على إقامة الدَّولة العبّاسية. فنهض إلْدِكِز أحد الأمراء، ويلدكوز، واجتمعا بِمَن بقي من الأتراك، واتَّفقُوا كلّهم على قَتْل ناصر الدّولة، وكان قد أَمِن وترك الاحتراس لقوّته وسَطوته، وظنَّ أنّ الدّنيا صَفَت له. فتواعَدَ الأتراكُ وركبُوا إلى داره، في شهر رجب سنة خمس وستين وأربعمائة، وهو إذْ ذاك بمصر بمنازل العزّ[2]، فدخلوا عليه من غير اسْتِئْذان إلى أن بلغوا صحن الدَّار، فخرج إليهم في رداءٍ، فقتلوه وأخذوا رأسه. وكان الّذي تولى قَتْله إلْدِكز، وقتل أخوه فخر العرب وأخوهما تاج المعالي وجماعة من أهل بيته. وانقطع ذكرُ آل حمدان، ولم يبْقَ بمصر لهم ذكر[3].

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٨٤ ـ ٨٦. النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٤ ـ ٢٦. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٢) منازل العز: دار بنتها السيدة تغريد أم العزيز بالله بن المعز، وكانت مطلة على النيل، وكانت معدة لنزهة الخلفاء، ثم أصبحت مدرسة تعرف بالمدرسة التقوية منسوبة إلى الملك المظفر تقي الدين عمرو بن شاهنشاه ابن نجم الدين أيوب بن شادي. وسكنها ناصر الدولة بن حمدان إلى أن قتل المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٨٤، وج٢، ص ٣٦٤.

(٣) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٩٢ ـ ٩٣.

وناصر الدّولة هذا هو الحسَن بن الحسين بن ناصر الدّولة الحسَن بن عبد الله بن أبي الهيجاء حمدان بن حمدون.

نرجع إلى حوادث الدّولة المستنصريّة:

وفي سنة خمسٍ وخمسين وأربعمائة نُدب أمير الجيوش بدر الجمالي لوِلاية دمشق على حربها[١]، وفُوّض إليه في سنة ثمانٍ وخمسين وأربعمائة ولايةُ الشّام بأسرها[٢].

ذكر الغلاء الكائن بالدّيار المصريّة

كان ابتداؤُه في سنةٍ سبعٍ وخمسين وأربعمائة واشتدَّ من سنة إحدَى وستّين. وقلَّت الأَقواتُ في الأعمال حتّى أكلَ النّاس الميْتَة، وتَزايَدَ في سنة اثنتَين وستّين. وكثُر الوباء بالقاهرة ومصر حتّى إنّ الواحدَ كان يموت في البيْت فيموتُ في بقيّة اليوْم أو اللّيلة كلّ مَنْ بقي فيه. وخَرج من القاهرة ومصْر جماعةٌ كثيرة إلى الشّام والعراق؛ وأكل بعضُ النّاس بعضاً. ودامَ ذلك إلى سنة أربعٍ وستّين. وشبِّهت هذه السّنين بسني يوسُف عليه السلام.

قال ابن الهمذاني في تاريخه[٣]. وفي سنة اثنتين وستّين وأربعمائة ورد إلى بغدادَ من مصر الرّجال والنساءُ هرباً من الجوعِ والفتنة، وأَخبروا أنَّ بعضهم أكل بعضاً. وورَدَ التّجار ومعهُم ثيابُ صاحبِ مصر وآلاتُه وذخائره؛ وكان معهم أشياء كثيرة نُهبت عند القبض على الطّائع، في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة؛ وما نُهب في وقعة البساسيري[٤].

قال: وخرج من خزانة المستنصر بالله أشياء عظيمة، من جملتها ثلاثون ألف قطعة بلور كبار، وخمسة وسبعون ألف ثوب ديباج خسرواني[٥]، وأحد عشر ألف درع، وعشرون ألف سيف محلاة، وغير ذلك.

قال المؤرخ: ومِنْ جملة ما بلغ من أمْر الغلاء أنَّ امرأةً كان لها حلي باعت ما

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٩، ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٣٠. ابن ميسّر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٢٨.

(٢) «في جمادى الأولى ولي المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالي الشام بأسره، فخرج وقدم دمشق سادس شعبان» ابن ميسّر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٣٠.

(٣) هو محمد بن عبد الملك الهمذاني، صاحب تكملة تاريخ الطبري.

(٤) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٠٣. المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٣٦، أخبار الدولة المنقطعة لابن ظافر، ص ٧٥.

(٥) نسبه إلى خسرو شاه من أكاسرة الفرس.

يُساوي ألف دينار بثلاثمائة دينار واشترت به حِنْطة، فنُهبت منها في الطّريق، فنَهَبت مع مَنْ نَهب، فحصَّل لها ما جَاء رغيفاً واحداً[١].

وحكي أنّ بعض أهل اليسار وَقف بباب القصر وصاح واستصرخ إلى أن أُحْضِر بين يدي المُسْتنصر، فقال له: يا مولانا، هذه سَبعون قمحةً وقفت عليّ بسبعين ديناراً، كلّ قمحة بدينار، في أيامك؛ وهو أني اشتريت أردبّ قمحٍ بسبعين دينارٍ، فنُهب منّي فنَهَبْت مع مَنْ نهب، فوقع في يدي هذه؛ فكلّ قمحة بدينار، فقال المستنصر الآن فرَّج الله عن النّاس فإنّ أيّامي حُكم لها أنّ القمحة تُباع بدينار[٢].

قالوا: ولم يكنْ هذا الغلاءُ عن نَقص النّيل، وإنما كان لاختلاف الكلمة وحروب الأجناد، [وكان الجند عدة طوائف مختلفة الأجناس، فتغلب لَوَاتة والمغاربة على الوجه البحري، وتغلب العبيد السودان على أرض الصعيد، وتغلب الملثمة والأتراك بمصر والقاهرة][٣]، وتغلّب المتغلّبين على الأعمال، وكان النّيل يزيد ويهبط في كلّ سنة، ولم يجِدْ من يزرع الأراضي؛ وانْقَطعت الطُّرقات برًّا وبحراً إلاّ بالخِفَارة الكثيرة، وأبيع الرّغيف الخبز بأربعة عشر ديناراً أو درهماً. قال الحواني: وأبيع الأردبّ القمح بمائتي دينار.

ذكر قدوم أمير الجيوش بدر الجمالي إلى مصر واستيلائه على الدولة

كان تقدّمه في سنة ستٍ وستّين وأربعمائة. وسبب ذلك أنّ المستنصر تواترت[٤] عليه الرّزَايا وحصَره ابنُ حمدان كما ذكرنا فلمّا قتل ابن حمدان استطال إلْدِكز والأتراك والوزير ابن أبي كدينة[٥]، فضاق المستنصر ذَرعاً وكاتب أمير الجيوش بدر الجمالي[٦]

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠، ص ٨٥.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٢٩٩.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٠٠. أما لواتة والمغاربة فقد جاؤوا مع جيوش الفتح وفي ركاب المعز لدين الله، وتزايد السودان بالشراء، وتكاثر عددهم أيام المستنصر، إذ كانت والدته جارية لأبي سعيد التستري ـ اليهودي ـ فلما تولى ابنها المستنصر الخلافة تحكمت في الدولة واستكثرت من بني جنسها. أما الأتراك فكان العزيز بالله أول من استقدمهم، واستعان بهم، فتزايد عددهم حتى أصبحوا كغيرهم حظراً على الدولة. المقريزي: اتعاظ الحنفا ج ٢، ص ٣٠٠ حاشية ١.

(٤) في الأصل «لما تواترت» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) هو الحسن بن مجلي بن أسد بن أبي كدينة. ابن ميسّر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٤٠.

(٦) كان بدر الجمالي أرمني الجنس، اشتراه جمال الدولة بن عمار وتربى عنده وكان يلقب «أمير =

وحسَّن له أن يكون المتولِّي لأمر دولته، فأعاد الجواب واشترط أنْ يستخدم معه عسكراً، وألاّ يُبقي على أحدٍ من عسكر مصر. فأجابه إلى ذلك. فاستخدم العساكر وركب في البحر الملح، وكان إذْ ذاك بعكّا، وسار في مائة مركب في أوّل كانون، وهو وقتٌ لم تجْرِ العادةُ بركوب البحر في مثله، فوصل دمياط، وركب منها. وسار إلى أن نزل بظَاهِر قليوب. وأرسل إلى المستنصر بالله أن يقبض على إلْدِكِز[1]، فقبض عليه، ودخل أمير الجيوش إلى القاهرة في شهر ربيع الآخر منها، وقيل في جمادى الأولى. فما لبث أن بعث كل أمير من أمرائه إلى قائدٍ من قوّاد الدّولة ليلاً وأمره أن يأتيه برأسه؛ فأصبح وقد أُحْضر إليه من رؤوس قُوّاد الدّولة شيء كثير. وقَبَضَ على الأتراك وقوِيت شوكته، وقَمَعَ كلَّ مفسد، حتى لم يبق أحد منهم بمصر والقاهرة. وخلع المستنصر بالله علي بدر الجمالي بالطّيلسان، وصار أمر المستخدَمين في حُكمه، والدّعاة والقضاةُ نوّابه.

قال: ولمَّا قدم مصر حضر إليه المتصدِّرون بالجامع، فقرأ ابن العجمي: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وسكت عن تمام الآية، فقال له بدر: والله لقد جاءت في مكانها، وسكوتُك عن تمام الآية أحسن[2]؛ وأحْسَنَ إليه. وقيل: بل قال له: لِمَ لا قرأت ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقَتَل أمير الجيوش من أماثل المصريين ووزرائهم وحكّامهم جماعةً، وشرع في إصلاح الأعمال وقَتْل المفسدين.

وفي سنة ثمانٍ وستّين وأربعمائة خُطب للمستنصر بمكّة والمدينة، وكانت الخطبة بهما قد انقطعت منذ خمس[3] سنين.

وفيها حاصر أتسيز[4] دمشق وملكها، على ما ذكرناه في الباب العاشر من القسم الخامس من هذا الفنّ في أخبار الدّولة السلجقية. وانقطعت خُطبة المستنصر من الشّام.

= الجيوش» توفي عام ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م. ترجمته في: الإشارة لابن الصيرفي ص ٥٥ ـ ٥٦. ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ١٢٧ ـ ١٢٨، وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٢، ص ٤٤٨، الوافي بالوفيات لابن أيبك الصفدي، ج ١٠، ص ٩٥، رقم ٤٥٤٥.

(١) «بلدكوز» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٤٠، و«يلدكوش» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣١٢. الوافي بالوفيات لابن أيبك الصفدي، ج ١٠، ص ٩٥، كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٤٣٩.

(٢) وتتمتها ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ورد في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، «لو أتم الآية أمرت بضرب عنقه» ج ٦، ص ٣٩٩.

(٣) سورة الزخرف، رقم ٤٣ من الآية ٥٩ وتتمتها: ﴿...وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

(٤) اتسيز أو أتسز أو أطسز، ويكتب أحياناً أقسيس، أحد أمراء السلطان السلجوقي ملك شاه. انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٩٩ ـ ١٠٠، والمنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٢٤٢.

ذكر هلاك عرب الصعيد وقتل كنز الدولة

وفي سنة تسعٍ وستين وأربعمائة اجتمع جماعةٌ كثيرة من عرب جهينة والجعافرة والثعالبة وغيرهم بمدينة طوخ[١] العليا من صعيد مصر، واتّفقوا على قِتال أمير الجيوش، فخرج إليهم. فلمّا قارَبَهم هجم عليهم في نِصْف اللّيل، فهزمهم وأبادهم بالقتل، وغرق خلقٌ كثيرٌ منهم، وغنِم أموالَهم وحُمِلت إلى المستنصر.

وكان كنز الدّولة[٢] محمّد قد تغلَّب على ثغر أسوان ونواحيها وعظُم شأنه وكثُرت أتباعه؛ فقاتله أمير الجيوش وقَتَله، وبنى في المكان مسجداً سمّاه مسجد النّصر. وكانت هذه الوَقْعَة آخرَ إصلاح حالِ مصر وعُربانها. وقيل كان قَتْل كنز الدّولة في سنة خمسٍ وسبعين والله أعلم.

وفي غيبة أمير الجيوش [هجم][٣] أتسيز على الدّيار المصريّة، وكان ابن يلدكوز قد التَحقَ به وأهدى له تُحفاً جليلة المقدار، منها ستّون حبّة لؤلؤ مدحرج[٤] تزيد كلُّ حبة على مثقال، وحجر ياقوت زنته سبعة عشر مثقالاً، وغير ذلك، وأطمعه في ملك الدّيار المصريّة، وملك ما وصل إليه، فجمع أمير الجيوش عساكرَه وخرج إليه، وقاتله وهزَمَه، وقتل خلقاً كثيراً من أصحابه بعد أن أقام بأرياف مصر جُمَادَيَيْن وبعض شهر رجب.

وفيها خرج على أمير الجيوش عربُ قيس وسليم وفزارة، فخرج إليهم وقاتلهم، وهزمهم، وطرَدهم إلى برقة[٥].

وفي سنة سبعين وأربعمائة فوّض لأمير الجيوش بدر الجمالي قضاءُ القضاة، ونُعِت بكافل قُضاة المسلمين، وهادى دُعاة المؤمنين.

وفي سنةِ سبعٍ وسبعين وأربعمائة خالف الأوحد بن أمير الجيوش على والده، واجتمع معَه جماعةٌ من العُربان وغيرهم، واستولى على الإسكنْدريّة. فسار إليه والدُه وحاصره بها، وفتحها، وقبض على ولده. وبنى أميرُ الجيوش الجامع المعروف بجامع العطّارين بالإسكندرية[٦] من أموالِ أخذها من أهل البلد؛ وكانت عمارتُه في شهر ربيع

(١) طوخ: قرية في صعيد مصر الأعلى على غربي النيل، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦.
(٢) انظر تاريخ دولة الكنوز الإسلامية لعطية القوصي، القاهرة ١٩٧٦ (بنو كنز).
(٣) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق، انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ١٠٣.
(٤) «حرجرج» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٤٤.
(٥) ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة، ص ٧٦، ابن ميسّر المنتقى من أخبار مصر، ص ٤٤.
(٦) جامع العطارين: من أقدم مساجد الإسكندرية، وكان قائماً في سوق العطارين، فعرف به، ومكانه اليوم بشارع جامع العطارين. ولم يبن الدين الجمالي هذا الجامع، وإنما جدده، وأشار إلى ذلك في =

الأول سنة تسعٍ وسبعين. وقامت الخطبة بهذا الجامع إلى آخر أيّام العاضد.

وفي سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ندبَ أميرُ الجيوش بدر الجمالي عسكراً إلى السَّاحل ففتح صُور وصَيدا، وصارَا بِيَد نوّابه. ثم سار بعد ذلك وفتح جُبيل وعكّا. وكان ذلك في يد تاج الدولة تُتُش(١) صاحب دمشق.

ذكر بناء باب زويلة بالقاهرة

وفي سنة خمسٍ وثمانين وأربعمائة أمرَ أمير الجيوش بدر الجمالي ببناء باب زويلة الكبير، الذي هو الآنَ باقٍ، وعلَّى أرضَه [ولم يعمل له باشورة](٢) وأراد أن يجعل له عطفةً على عادة أبواب الحصُون حتّى لا تهجم عليه العساكر في أوقات الحصار، ويتعذّر دخولها جُملة؛ فأشار عليه بعضُ المهندسين أن يعمل في بابه زَلاَّقَةً من حجارة الصَّوَّان، فعمله على هذا الحكم. ولم يزَلْ كذلك إلى أن دخَل منه السّلطان الملك الكامل(٣) ابنُ الملك العادل، فزَلق فرسه، فرسَم أنْ يُخفّف من حجارَته، فخُفّف منها، ولم يبق إلاّ القليل على ما هو عليه الآن(٤).

= لوحة تاريخية مثبتة في قاعدة المنارة على يسار الداخل من الباب البحري الشرقي. انظر نصها في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٤٦، هامش ١٨٩. وانظر أيضاً المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٤٦، هامش ١٨٩.

(١) «تسر» في الأصل، والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ١٧٦ ـ ١٧٧. النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٢٦.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٥١. والباشورة بناء ذو منعطفات أمام كل باب أو خلفه، يقصد به تعويق هجوم العساكر على الباب وقت الحصار، وتعويق دخول الخيل إلى المدينة في مجموعة كبيرة دفعة واحدة، وقريب من هذا المعنى ما ذكره دوزي من أن الباشورة هي الحائط الظاهر للحصن يختفي وراءه الجند للقتال. Dozy, Supp. Dict. Ar. انظر الخطط للمقريزي، ج ١، ص ٣٧٧ ـ ٣٨٠، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٢٧ ـ ٣٨٠. حاشية ٣.

(٣) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب الملك الكامل، ولي حكم الدولة الأيوبية سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م. ولد سنة ٥٧٣ هـ/ ١١٧٧ م. توفي عام ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧ م ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٧٩، السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، ج ١، ص ٢٣٠. الخطط المقريزية ج ٢، ص ٢٣٥، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ١٧٢، شفاء القلوب لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، ص ٢٩٩، والكامل لابن الأثير، حوادث سنة ٦١٥ هـ إلى سنة ٦٢٨، حيث ينتهي كتاب الكامل لابن الأثير. والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، ج ٢، ص ٢١٣. ومفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٧٤.

(٤) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٥١. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٢٧.

وفي سنة ستٍّ وثمانين وأربعمائة ملك ناجُ الدّولة تُتُش ثغر صور بمواطأة من نائب بَدْرٍ بها.

ذكر وفاة أمير الجيوش بدر الجمالي وولاية ولده الأفضل

كانت وفاتُه في شهر ربيع الأول[1]، وقيل في جُمادى الأول، سنة سبعٍ وثمانين[2] وأربعمائة. وكان حكمه بديار مصر حكم المُلوك ولم يَبْق للمستنصر بالله أمر، بل سلَّم الأمور إليه فضبَطَها أحسن ضبط. وكان شديدَ الْهَيْبَة، سريعَ البطْش؛ قتلَ خلقاً كثيراً من أكابر المصريّين وقُوَّادهم وكُتّابهم؛ وعلى يديه صلحت الدّيار المصريّة بعد أن خربت. وكان له نحو الثَّمانين سنة.

وكان أرمنيّ الجنس مملوكاً لجماليّ الدّولة بن عمار وإليه يُنسب وتولّى إمرة الشّام والسّاحل.

ولما كان يلي دمشق جرت فتنةٌ من عسكره وأحداث البلد خَرِب بسببها قصرُ الإمارة والجامع الأموي.

ذكر وفاة المستنصر بالله وشيء من أخباره

قال المؤرخ: ولمّا وَلِيَ مصر أطلق الخراج للمزارعين ثلاثَ سنين إلى أن تمّت أحوالهم واتّسعت أموالهم. وكانت إمارته بمصر إحدى وعشرين سنة.

ولمّا توفي وَلِيَ بعده الوزارة ولده الأفضل، ونعت بنعوت أبيه، وقبض على جماعةٍ من الأمراء كانوا قد ثاروا عليه.

كانت وفاته في ليلة الخمس الثامن عشر من ذي الحجّة سنة سبعٍ وثمانين وأربعمائة، ومولدُه في يوم الأحد سادس عشر جُمادى الآخرة سنة عشرين وأربعمائة. فكانت مدّة حياته سبعاً وستين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام، ومدة ولايته ستِّين سنة وأربعة أشهر.

ولقي في ولايته أهْوالاً عظيمة وشدائد كثيرة وفاقةً متمكنةً حتى جلس على نُخٍّ[3]

---

(١) «ربيع الآخر» في المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١، ص ٣٨١، و«في ذي القعدة» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٣٥.

(٢) «سنة ست وثمانين» في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٤٣٩. و«سنة ثمان وثمانين» في العبر للذهبي، ج ٣، ص ٣٢٠، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٣٨٣، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٢، ص ٤٤٨.

(٣) نُخ: بساط طوله أكثر من عرضه. ابن منظور: لسان العرب (نخخ).

وكانت أيامه ما بين غلاءٍ ووباء وفتن، على ما نذكره. وكان قد عَنا وتجبَّر واشتهر، وذلك أنه اشتُهر عنه أنه نصب خركاة في القُصور التي بعين شمس وبنى فسقِيَّةً عظيمة وحمل إليها الخمر في الرَّوَايا وأخرج جميع مَنْ في قصره من الملاهي والقيان إلى الخركاة وهم يغنون بأصوات مرتفعة ويستَقُون من فسقيَّة الخمر، ويطوفون بالخركاة، يُضاهون بذلك البيتَ المعظَّم وزَمْزَم، ويقول: هذا أطيب من زيارة حجارة، وسماعِ صوتٍ كريه، وشرب ماء آسن[١]. فأخذه الله تعالى وعجّل العقوبة، وأراه الذُّلّ مع قيام سُلطانه، وسلَّط عليه أنصار دولته حتّى نهبوا أمواله واستولوا على قصره، ولم يَبْقَ له إلاّ بِساطٌ فجذبوه من تحته. وصار إذا رَكب لا يجدُ ما يركبه حاملُ مظلّته إلاّ أنْ يُستعار له بغلة ابن هبة، صاحب ديوان الإنشاء، وكلُّ خواصِّه مشاة ليس لهم دواب يركبونها؛ وكانوا إذا مشوْا يتساقطُون في الطّرقات من الجوع. وكانت ابنة بابشاذ تبعثُ إليه برغيفين في كلِّ يوم. وهذه عاقبةُ الطغيان والاستهتار.

وكان له أولاد منهم: أبو القاسم أحمد، وأبو المنصور نزار، وأبو القاسم محمد، وأبو الحسين جعفر، وغيرهم.

ووَزَر له جماعة[٢] وهم: أبو القاسم الجرجرائي الأقطع، وزير والده، إلى أن توفّي، فاستوزر من ذكرناهم إلى آخر سنة أربع وخمسين. وتكرَّر بعضُهم في الوزارة مراراً واستوزر أبا غالب عبد الظّاهر بن فضل العجمي غير مرّة، دفعةً في جُمادى الأولى سنة خمس وخمسين وصُرف بعد ثلاثة أشهر، ودفعةً في شهر ربيع الآخر سنة ستٍّ وخمسين وصُرف بعد ثلاثة وأربعين يوماً، ثم وليها ثالثةً في أيام الفتنة ولُقِّب تاج الملوك شادي، وقتل في سنة خمسٍ وستين، ووَلِيَ له الحسن بن ثقة الدولة ابن أبي كدينة القضاء والوزارة، كلَّ منصبٍ منها خمس دفعات، ويقال إنه من ولد عبد الرحمٰن ابن ملجم قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ولمّا وصل أمير الجيوش بدر الجمالي أرسله إلى دمياط وأمر بضرب عنقه، فدخل عليه السَّياف بسيفٍ كليل[٣] فضربه عدَّة ضربات حتى أبان رأسه، وكان عدّة ما ضَربه عدَّة ولاياته الحُكم والوزارة. وولي أبو المكارم أسعد ثم قتله أمير الجيوش، ووَزرَ بعده أبو علي الحسن بن أبي سعد إبراهيم بن سهل التّسْتَري عشرة أيام ثم اسْتَعْفَى، وكان يهودياً فأسلم، ووَلِيَ أبو القاسم

(١) ماء آسن: ماء نتن. ابن منظور: لسان العرب (أسن).

(٢) «ووزر له أربعة وعشرون وزيراً» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٥٥. وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٣٢.

(٣) لكيل: السيف الذي لا حدّ له. ابن منظور: لسان العرب (كلل).

هبة الله محمد الرعباني دفعتين كلّ دفعة عشرة أيام. وَوَزَرَ الأثير أبو الحسن بن الأنباري أياماً وصُرف، وَوَز أبو علي الحسين بن سديد الدولة الماسَكي مرة ثانية أيّاماً ثم صرف، ووزر أبو شجاع محمد بن الأشرف بن فخر الملك، وفخر الملك هو الذي وزر لبهاء الدولة ابن بويه، فصُرف وسار إلى الشّام فقتله أمير الجيوش في مسيره. واستوزر أبا الحسن طاهر ابن الوزير الطرابلسي من طرابلس الشّام، ثم صَرَفه، وكان أحد الكتّاب بديوان الإنشاء، واستوزر أبا عبد الله محمد بن أبي حامد السيسي يوماً واحداً ثم قُتل، فاستوزر أبا سعد منصور بن أبي اليمن سورس بن مكرواه ابن زنبور، وكان نصرانيّاً ثم أسلم، والنصارى يُنكرون إسلامه. واستوزر أبا العلاء عبد الغني بن نصر بن سعد وصُرف وبقي أيّاماً وقتله أمير الجيوش[1]. ثم قدم أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا ووَزر للسَّيف والقَلَم والحُكم إلى أن مات، ثم ولدُه الأفضل بعده.

قضاته: كان منهم جماعةٌ من الوزراء قد ذكرناهم، ومَنْ لم يَلِ الوزارة عبد الحاكم ابن سعيد الفارقي في أوَّل خلافته، ثم القاسم بن عبد العزيز بن النعمان. وفي ولاية أمير الجيوش أبو يعلى العرقي إلى أن مات، فولي أبو الفضل القضاعي. ثم جلالُ الدَّولة أبو القاسم علي بن أحمد بن عمار، ثم صرفه وولّى أبا الفضل بن عتيق، ثم أبا الحسن علي بن يوسف الكحال النابلسي؛ ثم فخر الأحكام محمد بن عبد الحاكم[2].

وكان نقش خاتم المستنصر بالله «بنصر السَّميع العليم ينتصر الإمام أبو تميم»[3].

ذكر بيعة المستعلي بالله[4]

هو أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معدّ، وهو التّاسع من ملوك الدّولة العُبَيْدِيّة، والسادس من ملوك مصر منهم. بُويع له في بُكرة نهار الخميس لاثنتي عشرة ليلةً بقيت من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة.

وذلك أن المستنصر بالله لما تُوفّي بادر الأفضل أمير الجيوش بدُخول القصر

---

(١) بشأن تقلب الوزارة انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٧١، حاشية رقم ٣.

(٢) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٣٤. أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٨١، المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٥٧.

(٣) «ينتصر المستنصر أبو تميم» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٣٤.

(٤) ترجمته وأخباره في: ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ١٢٨، وأخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٨٢ ـ ٨٦، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٧٨ ـ ١٨٠، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٤٤٢ ـ ٤٦٠، وخطط المقريزي، ج ١، ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧، وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١، وأخبار مصر لابن ميسّر ص ٥٩ ـ ٧٠، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي، ج ٢، ص ١٩. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٤٠.

وأجلسه على تخت المملكة، وسيَّر إلى إخوته نزارٍ وعبد الله وإسماعيل، وأعْلَمَهم بوفاة أبيهم، وأمرهم بسُرعة الحضور. فلمّا حضروا شاهدُوا أخاهم الصّغير وقد جلس على سرير الخلافة، فامتعضوا من ذلك، فقال لهم الأفضل: تقدَّموا وقبِّلوا الأرض لله تعالى ولمولانا المستعلي بالله وبايِعوه، فهو الذي نصَّ عليه الإمام المستنصر بالله قبل وفاته بالخلافة من بعده. فقال نزار: لو قُطِّعت ما بايعتُ مَن هو أصغر منّي سنًّا، وخطُّ والدي عنْدي بولاية العهد، وأنا أُحضره. وخرج مُسرعاً ليُحضر الخطَّ فمضى إلى الإسكندريّة، فسيّر الأفضل خَلْفَه من يُحضره، فلم يعلم أحدٌ أين توجَّه ولا كيف سلك، فانزعج الأفضل[1] لذلك.

وقيل: إنَّه لمّا تُوفّي المستنصر بالله جلس بعدَه ولدُه أبو منصور نزار، وهو وليُّ العهد وأراد أخذ البيعة لنفسه فامتنع الأفضل أمير الجيوش منْ ذلك لكراهته فيه[2] واجتمع بجماعة الأمراء والخواصّ وقال لهم: إن هذا كبيرُ السّن ولا نأمنهُ على نفوسنا، والمصلحة أن نبايع لأخيه الصغير أبي القاسم أحمد. فوافقوه على ذلك إلا محمود بن مصال اللكي[3]، فإن نزاراً كان قد وعده بالوزارة والتّقدِمة على الجيوش مكان الأفضل. فلمَّا علم ابن مصال الحال أطلعَ نزاراً عليه.

وبادر الأفضَلُ وبايع أحمدَ الخلافة، ونعته بالمستعلي بالله وأجلسه على سرير الملك، وجلس الأفضل على دكَّة الوزارة. وحضر قاضي القضاة نصر الإمام علي بن الكحال ومعه الشّهود، وأخذ البيعة على مقدَّمي الدَّولة ورؤسائها وأعيانها، ثم مضى إلى إسماعيل وعبد الله، وهما بالقصر في المسجد وعليهما التوكيل، فقال لهما: إن البيعة قد تمَّت لمولانا المستعلي بالله، وهو يُقرِئُكُما السّلام ويقول لكما: تبايعاني أم لا؟ فقالا: السمع والطاعة؛ إن الله اختاره علينا. وبايعاه، وكتب بذلك سجلّ قرأه على الأمراء الشّريف سناء الملك محمد بن محمد الحسني الكاتب بديوان الإنشاء. وبادر نزار وأخوه عبد الله ومحمود بن مصال إلى الإسكندرية، وعليها ناصر الدّولة أفتكين التّركي، أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالي، فعرَّفوه الحال ووعدُوه بالوزارة، فبايعه، وبايعه أهل الثّغر،ولُقِّب بالمصطفى لدين الله.

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١١، ـ المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) بشأن سبب الكراهية: انظر: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٤١، اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٢.

(٣) في الأصل «المالكي»، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٦٠، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٢. نسبة إلى قرية يقال لها لُك برقة. اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٢.

ذكر ما اتّفق لنزار ومَنْ معه

قال: وفي المحرّم سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة خرج الأفضل أمير الجيوش بعساكره إلى الإسكندرية لقتال نزار وأفتكين وابن مصال. فلمَّا قرُب منها خرجوا إليه، والتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فكانت الهزيمةُ على الأفضل ومَنْ معه، فرجع إلى مصر ونهبَ نزار ومَنْ معه من العرب أكثر بلاد الوجه البحري.

ثم خرج الأفضل ثانياً وحاصر الإسكندرية، واشتدَّ الحصار إلى ذي القعدة، فلمَّا اشتد الحال رأى ابنُ مصال مناماً، فلمَّا أصبح أحضر رجلاً أعجمياً وقال له: رأيتُ كأنّي راكبٌ فرساً وكأنَّ الأفضل يمشي في ركابي. فقال له العجميّ: الماشي على الأرض أمْلَك لها. فلما سمع منه ذلك جمع أمواله وهرب إلى لُكّ قرية من قرى برقة. فعند ذلك ضعُفت قوَّة نزار وأفتكين، فاضطرَّ إلى مسَالمة الأفضل [وبعثا][1] يطلبان الأمان، فأمَّنهما وفُتحت البلد.

ودخل الأفضل الإسكندرية وقبض على نزار وأفتكين، وسيَّرهما إلى مصر، وكان آخرَ العهدِ بنزار. قيل: إنَّه جعلَهُ بين حائطين إلى أن مات. وكان مولدُه في عاشر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وأربعمائة. وأمَّا أفتكين فإنه أظهر قتله بعد ذلك للناس. وأمَّا محمود بن مصال فكاتبَه الأفضل ورغَّبه في العَوْد، فعاد إلى مصر، فأكرمه الأفضل.

وفي سنة تسعين وأربعمائة خطب الملك رضوان[2] صاحب حلب للمستعلي بالله أربع جُمَع[3]، ثم قطع خطبته، على ما ذكرناه[4] في أخبار الدولة السلجقية والله أعلم.

ذكر استيلاء أمير الجيوش على البيت المقدَّس

وفي شعبان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة خرج الأفضل أمير الجيوش بعساكره إلى الشام ونزل على البيت المقدس، وهو في يد الأمير سُقْمَان وإيلْغَازي، ابني

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح المعنى، المقريزي، ج ٣، ص ١٤.

(٢) هو رضوان بن تتش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي الملقب بفخر الملك. استقل بمملكة حلب، وتوفي في جمادى الأولى سنة ٥٠٧ هـ/ ١١١٣ م. ومن نوابه أخذ الفرنج أنطاكية في سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٨ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٩٦. رقم ١٢٢. انظر المقريزي: اتعاظ الحنفا ج ٣، ص ١٩، ابن الأثير: الكامل ج ١٠، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠، ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٦٤. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٠٢.

(٣) «أربعة أشهر» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٩.

(٤) انظر نهاية الأرب للنويري، ج ٢٧، ص ٧٢ ـ ٧٣.

أُرْتُق[١]، وجماعة من أقاربهما وخلق كثير من الأتراك فراسلَهُما يلتمسُ منهما تسليم البيت المقدّس من غير حرب ولا سَفْك، فلم يجيباه لذلك. فنصب المجانيق وهدم منه قطعة، وقاتل، فاضطرَّا لتسليمه فسلّماهُ له، فخلع عليهما وأطلقهما. وعاد الأفضل إلى مصر[٢].

ونَقَل محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب في تاريخ مصر أن الأفضل لمَّا رجع من بيت المقدس مرَّ بعسقلان، وكان في مكانٍ دارسٍ بها رأس الحسين بن علي، رضي الله عنهما، فأخرجه وعطَّره وطيَّبه، وحُمل في سفَط إلى أجَلِّ دارٍ بها، وعمرَ المشهد، ولما تكامل حمل الأفضل الرأس على صَدره وسعى ماشياً إلى أن ردَّه إلى مقره، ثم نُقل إلى مصر على ما نذكره إن شاء الله. وقيل إن المشهد [بعسقلان][٣] ابتدأ بعمارته بدر الجمالي وكمَّله الأفضل[٤].

ذكر استيلاء الفرنج على ما نذكره من البلاد الإسلامية بالساحل والشام والبيت المقدس

لم يكن جميعُ ما استَوْلَوْا عليه مما نذكره داخلاً في ملك الدولة العُبَيديّة بل كان منه ما هو في أيدي نُوّاب المستعلي وما هو بيد الملوك الذين تغلَّبوا على الأطراف، ولم يكن أيضاً في أيام المُسْتعلي خاصَّة. وإنما وردناه بجُملته في هذا الوضع لتكون الأخبارُ متتابعةً ولا تنقطعُ بالسنين والدول. وقد نبّهنا عليه فيما تقدم من أخبار الدولة العباسية[٥].

والذي نذكُره الآن في هذا الموضع هو ما استَوْلَوْا عليه من سواحل الشام سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وما بعدها.

وكان ابتداء ظهورهم وامتدادِهم وتطرُّقِهِم إلى البلاد الإسلامية في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وذلك أن بلاد الأندلس[٦] لما تقسَّم ملوكها بعد بني أمية وصارت كلُّ جهةٍ بيد ملك، وأنِفَت نفسُ كل واحدٍ أن ينقاد إلى الآخر، ويدخل تحت طاعته، فكانوا كملوك الطوائف في زمن الفُرس، وعجز كلُّ واحدٍ عن مقاومة مَنْ يليه أو يقصدُه

---

(١) انظر تاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ٣٥٠.

(٢) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٢، والمنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١، ص ٤٢٧.

(٤) لمزيد من التفصيل انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٦٦.

(٥) انظر نهاية الأرب، ج ٢٣، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(٦) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٢.

من الفرنج، أدى ذلك إلى اختلال الأحوال، وتغلب الأعداء على البلاد الإسْلاَمية، فأول ما استَوْلَوْا عليه مدينة طُليطِلة من الأندلس، على ما ذكرناه[١] في سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة، ثم ملكوا جزيرة صقليّة في سنة أربعٍ وثمانين وأربعمائة، وتَطَرَّقوا إلى أطْراف إفريقية فملكوا منها شيئاً ثم اسْتُرجع منهم، على ما قدَّمْناه[٢].

ذكر ملكهم مدينة أنطاكيَّة

كان استيلاءُ الفرنج خَذَلهم الله تعالى، على مدينة أنطاكيَّة في جُمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة. وكانت بيد مُلوك الرُّوم من سنةِ ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة إلى أن افتتحها الملكُ سُليمان[٣] بن شهاب الدين قُتْلُمش السلجقي، صاحب أقصرا وقونية[٤] وغير ذلك من بلاد الروم في سنة سبع وسبعين وأربعمائة، على ما ذكرناه في أخبار الدولة السّلجقية، وبقيت في يده إلى أن قتل، وتداولتها أيدي المتغلّبين من ملوك الإسلام وأمرائهم إلى أن استقرت بيد يَاغِي سِيَان وهو يخطب فيها للملك رضوان بن تُتُش صاحب حلب، ولأخيه الملك دُقاقُ صاحب دمشق.

فلمَّا كان في سنة تسعين وأربعمائة جمع بغدوين[٥] ملك الفرنج جمعاً كثيراً من الفرنج، وكان تسيب رُجَارْ الفرنجي صاحب صِقليّة، فأرسل إليه بغدوين يقول: قد جمعت جمعاً كثيراً وأنا واصل إليك وسائرٌ مِنْ عندك إلى إفريقية أفتَحُها وأكون مجاوراً لك.

فجمع رُجارْ أصحابه واستشارهم فقالوا كلُّهم: هذا جيد لنا ولهم، وتصبح البلاد كلُّها للنصرانية. فلمَّا سمع رُجارْ كلامَهم وما اجتمعوا عليه، رفع رجله وحَبَقَ حبقةً قوية، وقال: وحقِّ ديني هذه خيرٌ من كلامكم. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: إذا وصلوا إليَّ احْتَجْتُ إلى كلفةٍ كثيرة، ومراكب تحملُهم إلى إفريقية، وعساكر من جهتي معهم، فإن

(١) انظر نهاية الأرب، ج ٢٣، ص ٤٤٢.
(٢) للتفصيل، انظر نهاية الأرب، ج ٢٧٤، ص ٩٠ ـ ٩١.
(٣) هو سليمان بن قتلمش بن أرسلان بن بيغو بن سلجوق، وهو ابن عمة السلطان ملكشاه السلجوقي، مؤسس دولة سلاجقة الروم أو سلاجقة الأناضول. وحكم سنة ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ م. قتل عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٢٢.
(٤) قونية: من أعظم مدن الإسلام بالروم وبها وبأقصى سُكنى ملوكها، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤١٥.
(٥) ورد في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٢: «... وكان سبب خروجهم أن ملكهم بردويل جمع جمعاً كثيراً من الفرنج وكان نسيب رُجار الفرنجي.

فتحوا البلاد وكانت لهم وصارت مؤونتهم من صِقليّة وينقطع عني ما يصل إليَّ من المال من ثمن الغلاَّت في كل سنة، وإن لم يفتحُوها رجعوا إلى بلادي وتأذَّيْتُ بهم، ويقول تميم[(١)]، صاحب إفريقية غدَرْت بي ونقَضْت عهدي، وتنقطعُ الوُصلة والأسفارُ بيننا وبين بلاد إفريقية، وإفريقية باقيَةٌ مَتَى وجدْنا قوة أخذناها بها.

ثم أحضر رسُوله وقال له إذا عزمتم على جهاد المسلمين فاقصدوا بذلك فتْحَ بيت المقدس وخلِّصوه من أيديهم، ويكون لكم الفخر، وأمّا إفريقية فبيني وبين أهلها أيمْان وعُهود، فاخرجوا إلى الشام.

وقيل: إنَّ المستنصر، أو المستعلي، لمّا رأى قوة الدولة السلجقية وتمكُّنَها، وأنهم استولوا على ملك بلاد الشام [إلى][(٢)] غزَّة، ولم يبْقَ بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم [ودخول أقسيس إلى مصر وحصرها فخاف][(٣)]، وَرَاسَل الفرنجَ يدعُوهم إلى الخروج إلى الشّام، ليملكوه، ويكونوا بينه وبين المسلمين. والله تعالى أعلم.

قال فلمَّا عزم الفرنج على قصد الشّام ساروا إلى قسطنطينية ليعبُروا المجاز إلى بلاد الإسلام ويسيروا في البرِّ فيكون أسهل عليهم. فمنعهم ملكُ الروم منْ ذلك، ولم يمكِّنهم أن يمرُّوا ببلاده، وقال: لا أُمَكِّنكم من العبور إلاَّ أنْ تحلفوا أنكم تسلمون إليّ أنطاكية. وكان قصدُه أن يحثَّهم على الخروج إلى بلاد الإسلام ظنًّا منه أن الترك لا يُبْقُون منهم أحداً لما أرى من صرامتهم وملكهم[(٤)] البلاد.

فأجابوه إلى ذلك وعبروا الخليج في سنة تسعين وأربعمائة. ووصلوا إلى بلاد قلج أرسلان[(٥)] بن سُليمان بن قُتُلُمش، فلقِيَهم في جُموعه ومنَعَهم فقاتلوه وهزموه، وذلك في شهر رجب منها. ومَرُّوا في بلاده إلى بلاد ابن ليون الأرمني، فسلكوها وخرجوا منها إلى أنطاكية، فحصروها[(٦)].

---

(١) هو تميم بن المعز بن باديس صاحب إفريقية وما والاها من بلاد المغرب، امتدت أيامه، وكان من أصل ملوك المغرب. أقام هو وأبوه المعز نحواً من مائة سنة وأكثر. توفي سنة ٥٠١ هـ/ ١١٠٨ م بالمهدية. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٩٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٩٨، ابن عذاري: البيان المغرب، ج ١، ص ٢٩٨.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٣.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٣.

(٤) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٣.

(٥) ولي الحكم في سلطنة سلاجقة الروم عام ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م وتوفي سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٧ م. وورد في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٤١٠ ما يلي: «غرق قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش صاحب قونية ووجد قد انتفخ».

(٦) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٤.

قال المؤرِّخ[١]: فلمَّا سمع صاحبها يَاغِي سِيَان بتوجُّهِهِم إليها خاف من النَّصارى الذين بها، فأخرج مَنْ بها من المسلمين بمفردهم في أول يومٍ وأمرهُم أن يحفروا الخندق، ثم أخرج النصارى من الغد لذلك. فعملوا فيه إلى العَصْر، فلمَّا أرادوا دخول البلد منعهم، وقال لهم: أنطاكية لكُم فهَبُوها لي حتى أنظرَ ما يكونُ بيننا وبين الفرنج، فقالوا: مَنْ يحفظ أولادَنا ونساءَنا؟ فقال: أنا أخْلُفكم فيهم[٢] فأمسكوا ثم صاروا في عسكر الفرنج.

وحُصرت أنطاكية تسعةَ أشهر، وظهر من حَزْم يَاغِي سِيَان واحتياطه وجَوْدة رأيه ما لم يُشاهد مثله، وهلك أكثر الفرنج موتاً وقتلاً، وحفظ يَاغِي سِيَان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم، وكفَّ الأيدي عنهم.

فلمَّا طال مُقام الفرنج عليها رَاسَلُوا أحد المسْتَحفظين للأبراج، وهو ذراد، ويعرف بروزبة[٣]، وبذلوا له مالاً وإقطاعاً، وكان يتولى حِفظ بُرج يلي الوادي، وهو مبني على شباك في الوادي.

فلمّا تقرَّر الأمر بينهم وبينه، جاؤوا إلى الشباك ففتحوه ودخلوا منه، وصعد جماعة كثيرة منهم بالحبال، فلما زادت عدتهم على خمسمائة، ضربوا البوق وذلك عند السَّحَر وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة، فاستيقظ يَاغِي سِيَان وسأل عن الحال فقيل له: هذ البوق من القلعة، ولا شك أنها قد أُخِذت. ولم يكن من القلعة وإنما من ذلك البرج. فَدَاخَله الرُّعب؛ ففتح باب البلد وهَرب في ثلاثين غلاماً، وجاء نائبه ليحفظ البلد، فقيل له: إنه قد هرب، فخرج من الباب الآخر هارباً. وكان ذلك إعانة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا.

ثم إن الفرنج دخلوا البلد من بابه، ونهبوا وقتلوا مَنْ فيه من المسلمين. وأما ياغي سِيَان فإنه لما طلع عليه النهار رجع إلى عقله وكان كالوَلْهَان[٤]. فرأى نفسه وقد قطع عدَّةَ فراسخ؛ فقال لمن معه: أين أنا؟ فقالوا: على أربعة فراسخ من أنطاكية. فندم كيف خلص سالماً ولم يقاتل حتى يُزيلهم عن البلد أوْ يُقتل.

وجعل يتلهّف على ترك أهله وأولاده والمسلمين، ويسترجع؛ فسقَط عن فرسه

---

(١) المراد ابن الأثير.

(٢) في الأصل: «أخلفكم فيه» والتصحيح يقتضيه السياق، وفي الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٤.

(٣) «نيروز» في زبدة الحلب لابن العديم، ج ٢، ص ١٢٢، وفي المراجع الحديثة يعرف باسم «فيروز الأرمني». انظر الشرق الأوسط والحروب الصليبية للعريني، ص ٢٤٥، وتاريخ الحروب الصليبية لرنسمان، ج ١، ص ٣٢٨.

(٤) كالولهان: كالشيطان. ابن منظور: لسان العرب (وله).

لشدة ما ناله، وغُشِي عليه. فأراد أصحابه أن يُرْكِبوه فلم يكن فيه مُسْكة، وكان قد قارب الموت، فتركوه وساروا عنه، فاجْتاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب وهو بآخر رمق فقتله. وحمل رأسه إلى الفرنج بأنطاكيّة[١].

ذكر مسير المسلمين لحرب الفرنج وما كان من أمرهم

قال[٢]: ولما اتصل خبر أنطاكيّة بالأمير قوام الدّين[٣] كربوقا صاحب الموصل جَمَع العساكر وسار لحربهم [وأقام بمرج دابق][٤] واجتمع معه[٥] الملك دقاق صاحب دمشق وصاحب حمص وصاحب سنجار. فلمّا بلغ الفرنج اجتماعُهم عظُمت عليهم المصيبة وداخَلَهم الخوف؛ لِمَا هُم فيه من الوهن وقلّة الأقوات. وسار المسلمون حتى نَازَلُوا أنطاكيّة، فأساء كربوقا السِّيرة فيمَنْ معه من المسلمين، فأغْضب الأُمراء وتكبَّر عليهم، ظنًّا منه أنّهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك وأضمروا في أنْفسهم الغَدْر به إذا كانَ قتالٌ، وعزموا على إسْلامه عند الصَّدمة[٦].

قال: وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها ثلاثة[٧] عشر يوماً ليس لهم ما يأكلونه، فتقَوَّتَ الأقوياء بدوابّهم والضّعفاء بالميتة وورَق الشّجر، فلمّا انتهت حالهم إلى ذلك أَرسلوا إلى كربُوقا يطلبون منه الأمان ليخرجُوا من البلد، فلم يُعْطهم، وقال: لا تخرجُون منه إلاّ بالسّيف.

وكان معهم من الملوك يغدوين وصنجيل وكندفري والقمص صاحب الرُّها وبيمند صاحب أنطاكيّة وهو مقدَّم العسكر. وكان معهم راهبٌ مُطاعٌ فيهم فقال لهم: إن المسيح عليه السَّلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الّذي بأنطاكيّة، وهو بناء عظيم، فإن وجدتمُوها فإنّكم تظفَرون، وإن لم تجدوها فالهلاكُ متحقّق.

وكان هو قد دفنها قبل ذلك وعفَّى أثَرها، وأمرَهم بالصّوم ثلاثة أيّام والتَّوْبة؛

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٥.
(٢) المراد ابن الأثير.
(٣) في الكامل لابن الأثير: «قوام الدولة»، ج ١٠، ص ٢٧٦.
(٤) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٦.
(٥) اجتمع معه الملكُ دُقاق بن تُتُش وطغتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص، وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسليمان بن أرتق، وغيرهم من الأمراء». ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٧٦.
(٦) «المصدوقة» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٦. ومعناها التخلي عنه عند احتدام القتال.
(٧) «اثني عشر» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٦.

ففعلوا ذلك. فلمّا كان في اليوم الرابع أدخَلَهم جميعَهم وجميعَ عامَّتِهم والصُّنَّاع، وحفروا عليها في ذلك المكان فوجدوها كما ذكر، فقال له: أبشِرُوا بالظَّفر. فخرجُوا في اليوم الخامس من الباب منْ خمسة وستّة ونحو ذلك؛ فقال المسلمون لكربُوقا: ينبغي أن نقف على الباب فنقتلَ كلَّ من يخرج فإنّ أمْرَهم الآن سهل. فقال: أمهلوهم حتى يتكامَلُوا؛ ولم يُمكِّن من مُعَاجَلتهم؛ فقتل قومٌ من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليه بنفسه ومنعهم.

فلمّا تكامَلَ خروج الفرنج ولم يَبْقَ منهم أحدُ بأنطاكية ضربوا مصَافًّا عظيماً، فانهزم العسكر الإسلامي لِمَا عاملهم به كربوقا من الاستهانة بهم والإعراض عنهم، فتمَّت الهزيمة عليهم، ولم يَضْرِب أحدٌ منهم بسيف ولا طَعَن برُمح، ولا رَمَى بسهم، وآخر مَنْ انهزَم سُقمان بن أُرْتُق وجناح الدولة، لأنهما كانا في الكمين؛ وانهزم كربُوقا معهم. فلمّا رأى خروج الفرنج ذلك ظنّوه مكيدةً، فخافوا أن يتبعوهم؛ وثبت جماعةٌ من المجاهدين وقاتلوا حِسْبَةً ورغبة في الشَّهادة فقتل الفرنج منهم أُلوفاً، وغنموا ما في العسكر من الأقوات والأموال والآلات والدّوابّ، وغير ذلك؛ فصلحت حالُهم وعادت إليهم قُوّتهم.

ذكر ملكهم معرة النعمان

قال المؤرِّخ[١]: ثم سار الفرنج إلى معرة النُّعمان[٢]، فنازلوها وحصروها، وقاتلهم أهلها قتالاً شديداً، فرأى الفرنج منهم شدَّةً ونِكايةً عظيمة. فعمِل الفرنج عند ذلك بُرْجاً من خشب يوازي سور المدينة، ووَقع القتالُ عليه، فصبر المسلمون على القتال إلى اللَّيل. ثمَّ خاف قوم منهم وفشِلوا، وظنُّوا أنهم إذا تحصَّنوا ببعض الدُّور الكبار امتنعُوا بها. فنزلوا عن السُّور وأخلَوْا مكانَهم الذي كانوا يحفظونه، وفعلت طائفة أخرى مثلَ ذلك.

ولم تزل كلُّ طائفة منهم تَتْبع الأخرى حتّى خلا السُّور، فصعد الفرنج إليه على السَّلالِيم. فلمّا عَلَوْه تحيّر المسلمون ودخلوا دُورهم، ووضع الفرنج فيهم السَّيف ثلاثة أيّام، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبَوْا السّبي الكثير.

وأقاموا بها أربعين يوماً وسارُوا إلى عَرْقة[٣]، فحصروها أربعةَ أشهر، ونَقَبوا

---

(١) أي قال ابن الأثير: في الكامل، ج ١٠، ص ٢٧٨.

(٢) معرة النعمان: هي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٥٦.

(٣) عرقة: بكسر العين، وسكون الراء، بلدة شرقي طرابلس وهي آخر عَمل دمشق، وهي في سفح جبل، وعلى جبلها قلعة لها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٠٩.

سُورَها عدَّةَ نقوب ولم يقدروا عليها، وراسَلَهم ابنُ منذر[١] صاحبُ شَيْزَر، وصالحهم عليها. ثم سارُوا إلى حمص وحَصرُوها، فصالحهم صاحبُها جناحُ الدّولة. وخرجوا على طريق النَّواقِير[٢] إلى عكا فلم يقدروا عليها[٣]؛ فساروا إلى البيت المُقَدَّس.

ذكر استيلائهم خذلهم الله تعالى على البيت المقدس

كان استيلاءُ الفرنج، خذَلهم الله تعالى، على البَيْت المقدَّس في يوم الجمعة، ضُحَى، لسبع بقِينَ من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وكان إذْ ذاك بيد افتخار الدّولة نيابةً عَلى المستعلي بالله. فإنه كان بيد تاج الدّولة تُتش السّلجقي صاحب الشّام، وأَقْطَعه للأمير سُقمان بن أُرْتُق التُّركماني، فجاءه الأفضل أمير الجيوش واستولى عليه، وبقي بِيَد نوّابه إلى الآن.

فقَصَدَه الفرنج عند عَجْزهم عن فتح عكًّا، وحصروه نَيفاً وأربعين يوماً، ونصبوا عليه بُرْجين، أحدهما من ناحية صِهْيَوْن[٤] فأحرقه المسلمون وقتلوا جَميع مَنْ فيه من الفرنج.

فلمَّا فرغُوا من ذلك أتاهم الصَّارخ أن المدينة قد مُلكت من الجانب الآخر، وهو الجانب الشَّمالي، وركب النَّاسَ السيفُ ولبث الفرنج أسبوعاً يقتلون فيهم.

واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذلَ لهم الفرنج الأمان، فسلَّموه إليهم؛ فوفَوْا لهم [الفرنج][٥]؛ وخرجوا ليلاً إلى عسقلان وأقاموا بها.

وقتل الفرنج[٦] بالمسجد الأقصى ما يزيدُ على سبعين ألفاً، منهم جماعةٌ كثيرةٌ من

---

(١) «وراسلهم منقذ صاحب شيزر» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٨.

(٢) النواقير: هي فرجة في جبل بين عكا وصور على ساحل بحر الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٠٦.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٨.

(٤) ورد في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٤٧. «وعملوا بُرجين مُطِلين على السور: أحدهما بباب صهيون، والآخر بباب العمود وباب الأسباط، وهو برج الزاوية، فزحفوا به (أي الأخير) حتى ألصقوه بالسور، وحكموا به على البلد».

(٥) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٨٣.

(٦) يذكر المؤرخ الفرنسي فوشيه دي شارتر، الذي كان مرافقاً للحملة الأولى على بيت المقدس أنه «كانت القدم تغوص حتى الكاحل في دماء المسلمين» ويعلق المؤرخ اللاتيني وليم الصوري على ذلك فيقول: «لم يكن بالإمكان التطلع إلى هذا العدد الهائل من القتلى دون أن تصاب بفزع شديد. فكل الأرض كانت ملطخة بدماء القتلى». الموسوعة الفلسطينية؛ ج ٣، ص ٤٤٤. انظر أيضاً النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٤٨. حاشية (١).

أئِمّة المسلمين وعُلمائهم، وعُبَّادهم وزُهَّادهم، مِمَّن فارق أهله، ووَطَنِه وجَاوَرَ بذلك الموضع الشّريف، وأخذوا مِنْ عند الصّخرةِ نَيِّفاً وأربعين قنديلاً من الفضّة، زنة كلّ قنديل [ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه][١] أربعون رطلاً بالرّطل الشامي[٢]؛ وأخذُوا من القناديل الصِّغار مائةً وخمسين قنديلاً من الفضَّة؛ ومن الذهب نيِّفاً وعشرين قنديلاً. وغَنِموا ما لا يقعُ عليه الإحصاء.

وورد إلى بغداد القاضي سعيد القروي[٣] في شهر رمضان، ومعه جماعة، يَسْتَنْفِرون النّاس، وأوردوا في الدِّيوان كلاماً أبكى العيون، وصدَع[٤] القلوب واستغاثوا بالجامِع يوم الجمعة، وبكَوْا، [وأبكوا][٥] وذكروا ما نَزَلَ بالمسلمين من البلاء، وما حَلَّ بهم من المُصيبة. فأمر الخليفة أنْ يسير القاضي أبو محمد الدّامغاني، وأبو بكر الشّاشي، [وغيرهما][٦]، إلى السّلطان[٧] بسبب ذلك فاتّفق ما ذكرناه من الاختلاف الذي وقع بين المُلوك السّلجقية؛ فتمكّن الفرنج من البلاد.

قال: ولمّا اتَّصل خبر هذه الحادثة العظيمة بالأفضل أمير الجيوش جَمَعَ العساكر وخَرج إليهم، فقاتلهم في شهر رمضان من السّنة. ثمّ كَسبَهُ الفرنج هو ومَنْ معه، وهم على غير تَعْبِئة، فهزموهم وقتلُوا منهم مقْتَلةً عظيمة. وحاصر الفرنج عسقلان، فصالحهم أهلها على عشرة آلاف دينار[٨] وقيل عشرين ألف دينار، فعادُوا إلى القدس.

قال: وكان الذي ملك البيت المقدَّس من الفرنج كندفري.

ذكر ظفر المسلمين بالفرنج

قال المؤرخ[٩]: وفي ذي القَعدة سنة ثلاثٍ وتسعين وأربعمائة لقي كُمُشْتكين بن الدانِشْمند طايلو، وهو صاحب ملطية وسيواس، بيمند الفرنجي بالقرب من ملطية، وكان

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٨٤.

(٢) الرطل يساوي ٧٢٠ درهماً، والرطل يساوي ١٢ وقية، والوقية تساوي ٦٠ درهماً، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٦٨.

(٣) في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٨٤ «صحبه القاضي ابن سعد الهروي».

(٤) صدع: أوجع القلوب. ابن منظور: لسان العرب (صدع).

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٨٤.

(٦) «وأبو بكر الشاسي، وأبو القاسم الزنجاني، وأبو الوفا بن عقيل، وأبو مسعد الحلواني، وأبو الحسين ابن سماك» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٨٤.

(٧) ابن السلطان بركياروق، ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٢٨٧.

(٨) «اثني عشر ألف دينار» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٨٦.

(٩) المقصود ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٣٠٠.

صاحبُها قد كاتبه واستَقْدمه عليه، فورَدَ عليه في خمسة آلاف؛ فلقيهم ابن الدّانِشْمند، وقاتلهم، فهُزِم بيمُند وأُسِر.

ثم وصل من البحر سبعةُ قمامصة من الفرنج، فأرادُوا خَلاَص بيمُند، فأتَوْا إلى قلعة أنكورية[1] فأخذوها وقتلوا من بها من المسلمين؛ وسارُوا إلى قلعة أخرى فحصَرُوها وفيها إسماعيل بن الدّانشمنْد، فجمع الدّانِشْمند جمعاً كثيراً، ولقي الفرنج، وجعل له كميناً؛ فقاتَلهم وخرج عليهم الكمينُ فقتلهم. وكانوا ثلاثمائة ألف لم يُفلت منهم غيرُ ثلاثة آلاف هربُوا [وأفلتوا مجروحين][2].

وسار ابن الدّانِشْمند إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها.

قال ابن الأثير الجزري: وكانت هذه الوقائع في شهورٍ قريبة.

قال: ولم يزل بيمُند في أسْرِه إلى سنة خمسٍ وتسعين، فأخذ منه مائة ألف دينار وأطلقه.

ذكر قتل كندفرِي وملك أخيه بغدوين وما استولى عليه الفرنج من البلاد وهي: حيفا. وأرسوف. وقيسارية. والرها. وسروج

وفي سنة أربعٍ وتسعين وأربعمائة سار كندفري صاحب البَيب المقدَّس إلى عكّا، فحاصَرها، فأصابه سهمٌ فقتله[3]. وكان قد عمَّر مدينة يافا وسلّمها إلى قمص من الفرنج اسمه طَنْكُري. فلما قُتِل كندفِري سار أخوه بغدوين[4] إلى البيْت المقدَّس في خمسمائة فارس وراجلٍ، فبلغ ذلك الملكَ شمس المُلوك دُقاق صاحب دمشق، فنهض إليه في عَسْكَره ومعه الأمير جنح الدَّولة في جموعه فقاتله، فنصر على[5] الفرنج.

وفي هذه السنة ملك الفرنج مدينة حَيْفا عنوةً وهي على ساحل البحر بالقرب من عكّا، وملكوا أرسوف بأمانٍ وأخرجوا أهلها منها، وملكوا قيساريّة بالسيف وقتلوا أهلها. وفيها ملك الفرنج مدينة سَرُوج من ديار الجزيرة، وكانوا قبل ذلك قد ملكوا الرّها

(١) أنكورية: في وسط شبه جزيرة آسيا الصغرى، وهي مدينة أنقرة الحالية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٧٢.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٠٠.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٢٤.

(٤) هو بلدوين صاحب الرها. انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٢٤.

(٥) انتهت المعركة بهزيمة الدماشقة ونجاة بلدوين. عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ٢٧٥، العريني: الشرق الأوسط، ج ١، ص ٢٩٢.

بمكاتبة من أهلها لأن أكثر أهلها أرمن. فلمّا كان الآن جَمَعَ الأميرُ سُقْمان بن أُرْتُق جمعاً عظيماً من التّركمان وزحف بهم إليهم، فلَقُوه وقاتلوه؛ فهزمُوه في شهر ربيع الأوّل، فلمّا تمّت الهزيمة على المسلمين سار الفرنج إلى سَرُوج فتسلّموها، وقتَلُوا كثيراً من أهلها وسَبَوْا حَرِيمهم، ونهبوا أموالهم، ولم يَسْلَم منهم إلاّ من انهزم.

ذكر أخبار صنجيل الفرنجي وما كان منه في حروبه وحصار طرابلس وألْطُوبَان وملك أنطرسوس

وفي سنة خمسٍ وتسعين وأربعمائة لقي صنجيل الملك قِلِج أرسلان صاحب قُونْية، وصنجيل في مائة ألف مقاتل وقِلِج في عددٍ يسير، واقتتلوا؛ فانْهزم الفرنج وأُسِر كثير منهم[١]، وفاز قِلِج بالظَّفر والغنيمة. ومضى صنجيل مهزوماً في ثلاثمائة، فوصل إلى الشام، فأرسل فخر الملك بن عمّار[٢] صاحب طرابلس إلى الأمير جناح الدّولة[٣] بحمْص وإلى الملك دُقاق بدمشق يقول: من الصَّواب معاجَلَةُ صنجيل إذْ هو في العدد اليسير. فخرج إليه جُناح الدّولة بنفسه[٤] وسيَّر دُقاق ألفَيْ مقاتل، وأتَتْهُم الأمداد من طرابلس. وصافُّوا صنجيل فأَخرج مائةً من عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق وخمسين إلى عسكر حمص وبقي هو [في][٥] خمسين.

فأما عسكر حمص فانْهزمُوا عند المشاهدة وتَبِعَهُم عسكر دمشق.

وأما عسكر طرابلس فإنهم قَتَلوا المائة الذين قاتلوهم، فحمل صنجيل في المائتين والباقيتين، فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل، ونَازَلَ طرابلس وحَصَرها.

وأتاه أهلُ الجبل فأعانوه على حَصْرها، هم وأهل السّواد، لأن أكثرهم نصارى، فقاتَل مَنْ بها أشدّ قتال، فقُتل من الفرنج ثلاثمائة: ثم هادَنَهم ابنُ عمّار على مالٍ وخيل،

---

(١) المقصود هنا الفرنج من الجموع الصليبية اللمباردية التي هزمت في ذي القعدة ٤٩٥ هـ/ أغسطس ١١٠١ م. عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ٣٣٨.

(٢) هو القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار، الذي ولي حكم طرابلس في الفترة من ٤٩٣ ـ ٥٠٢ هـ/ ١٠٩٩ ـ ١١٠٨ م. معجم الأسر الحاكمة لزنباور.

(٣) «إلى الأمير ياخز خليفة جناح الدولة على حمص» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٤٤. وجناح الدولة هو حسين بن ملاعب صاحب حمص، دخل جامع حمص يوم الجمعة، فصلى الجمعة فوثب عليه ثلاثة من الباطنية، فقتلوه وذلك في سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠٢ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٦٧.

(٤) في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٤٤، «فخرج الأمير ياخز».

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٤٤.

فرحَل صنجيل عنهم إلى مدينة أَنطَرْسوس[١]، وهي من أعمال طرابلس، فحصَرَها وفتحها، وقَتل مَنْ بها من المسلمين.

ورحل إلى حصن أَلطُوبان[٢]، ومقدَّمه ابن العريض، فقاتَلَهم فنُصر عليهم، وأَسَر فارساً من أكابر فرسانهم، فبذَل فيه صنجيل عشرة آلاف دينار وألف أسير فلم يجبه ابن العريض إلى ذلك.

ثمّ سار صنجيل إلى حصن الأكْراد[٣] فحصره، فجمع الأمير جناح الدّولة عسكره ليسير إليه ويكبِسَه، فقتله باطِنيٌّ بالمسجد الجامع، فلما قُتل صَبَّح صنجيل حمص من الغد ونَازَلها ومَلَك أعمالها.

ذكر ملك الفرنج جبيل وعكا

وفي سنة سبْعٍ وأربعمائة وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة لاذِقِيَّة، فيها التُّجَّار والمُقاتلة والحَجَّاج وغيرهم؛ فاستعان بهم صنجيل الفرنجي على حصار طرابلس فحاصرُوها معه وضايقُوها، فلم يرَوْا فيها مطمعاً، فرحلوا عنها إلى مدينة جُبَيل[٤] فحصروها وقاتلُوا عليها قتالاً شديداً. فلمّا رأى أهلها عجْزهم عن الفرنج طلبوا الأمان على تسليمها، فبذل لهم صنجيل الأمان، وتسلَّم البلد منهم فلم يَفِ لهم. وأخذ الأفرنج أموالهم وعاقبوهم عليها بأنواع العذاب. ثم سارُوا إلى عكّا نجدة لبغدوين، صاحب القدس، على حصارها؛ فنازَلُوها وحصروها في البر والبحر، وعليها زهرُ الدّولة[٥] الجيوشي، فقاتَلَهم أشدَّ قتال، فلمَّا عجز عن حِفْظِ البلد فارقه؛ وملك الفرنج عكّا بالسَّيْف، وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة. وسارُوا منها إلى دمشق ثم إلى مصر.

وفي سنة تسع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج حصن أَفَامِية وسَرْمِين من أعمال حلب.

---

(١) انطرسوس وهي انطرسوس: بلد من سواحل بحر الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص. مطلة على البحر شرقي عرقة ولها برجان حصينان كالقلعتين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٧٠.

(٢) حصن من أعمال حمص أو حماه، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦.

(٣) حصن الأكراد: هو حصن منيع حصين على الجبل الذي يقابل حمص من جهة العرب، وهو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان، وهو بين قلعة بعلبك وحمص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٦٤.

(٤) جبيل: شمالي شرقي بيروت. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(٥) قارن بما ورد في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٧٣. وزهر الدولة الجيوشي، هو الوالي بنا. لقب بزهر الدولة الجيوشي نسبة إلى ملك الجيوش الأفضل. انظر أيضاً: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٨٥.

وفي سنة اثنتين وخمسمائة فتح السرداني عرقة، وذلك أنّها كانت بيد غلام فخر الملك بن عمَّار وقد عَصَى على مولاه، فضاق به القُوت وانْقَطَعَت عنه الميرة، فكاتب طُغُزتكين[١] صاحب دمشق أن يُرسل إليه مَنْ يَتسلّم الحصن لعجزه عن حفظه. فبعث إليه طغزطكين صاحباً له اسمه إسرائيل في ثلاثمائة، فتسلّم الحصن. فلمَّا نزل غلام ابن عمّار رماه إسرائيل بسَهْم فقتله في الاختلاط[٢] طمعاً في المال الذي بعَرقة لئلا يطّلع طُغُزْتكين عليه.

قال: وأراد طُغُزْتكين أن يشحن الحصن بالعساكر والأقوات، فتوالت الأمطار [والثلج][٣] مدَّة شهرين، فعجز عن ذلك. فلمَّا انْقَطَع المطر ركب أربعة آلاف فارس وجاؤوا إلى عَرقة، فتوجّه إليه السّرْداني وهو يُحاصر طرابلس ومعه ثلاثمائة فارس، فانهزم عسكر طُغُزْتكين عندما أشرَفَت الخيل من غيرِ قتالٍ، فأخذ السّرداني أثقالهم تسلّم الحصن بأمان، وقبض على إسرائيل، وقال لا أُطْلقه إلا بفُلان وهو من أكابر الفرنج كان أسيراً. ففُودي به.

ذكر ملك الفرنج طرابلس وبيروت

كان صنجيل لمّا مَلَك مدينة جُبيل، كما ذكرنا، حصَر طرابلس، فلمَّا لم يتمكَّن منها وعجز عن الاستيلاء عليها بنى بالقرب منها حِصْناً وجعل تحته رَبَضاً، وأقام يرصُدُها ينتظر فرصة، فخرج فخر المُلك أبو علي بنُ عمّار، صاحب طرابلس، فأَحْرَق ربضه، فوق صنجيل على سقُوفه المحترقة، ومعه جماعة من القمامصة والفرسان، فانخسف بهم. فمرض صنجيل عشرة أيّام، ومات، وحُمل إلى القدْس فدفن هناك. وذلك في سنة تسعٍ وتسعين وأربعمائة[٤].

ودامت الحرب على طرابلس خمس سنين. فسار فخر الملك ابنُ عمّار إلى بغداد يستنجد بالخليفة والسُّلطان على الفرنج، على ما ذكرناه، وعاد من بغداد في منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسمائة وتوجه إلى جبيلة[٥] فدخلها وأطاعه أهلُها.

---

(١) «طغتكين» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٦٨.

(٢) «في الأخلاط» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٦٨، ومعناها: ازدحام الناس.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٦٨.

(٤) ٤٩٩ هـ/ ١١٠٥ م. ٢٨ فبراير ١١٠٥. العريني: الشرق الأوسط، ج ١، ص ٤٣٦، رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ١٠٠.

(٥) جبيلة أو جبلة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٠٥.

وأما طرابلس فإن ابنَ عمّار لمّا فارقها رَاسَل أهلُها الأفضل أمير الجيوش يلتمسون منه والياً يكونُ عندهم ومعَهُ الميرة في البحر، فسيّر إليهم الأفضلُ شرفَ الدّولة ابن أبي الطَّيِّب والياً، ومعه الغلال وغيرها. فلمَّا صار إليها قبض على جماعةٍ من أهل ابن عمّار واستولى على ما وجده من أمواله وذخائره[١].

فلمّا كان في شعبان سنة ثلاثٍ وخمسمائة وصل أسْطُول كبير من بلد الفرنج، مقدَّمه قمص كبير اسمه ريمُند بن صنجيل[٢]، ومراكبه مشحونة بالرّجال والسلاح والميرة وليس ريمُند هذا ابن صنجيل صاحب الحصن المقدم ذكره. فنزل على طرابلس وكان السّرداني وهو ابن أخت صنجيل محاصراً لها قبله، فجرت بينهما فتنةٌ أدَّت إلى الشرِّ والقتال فوصل تنكري صاحب أنطاكيّة إليها إعَانةً للسّرداني، ووصل بغدوين صاحب البيت المقدّس في عسكره، فأصْلح بينهم[٣] ونزل الفرنج بأجمعهم على طرابلس وضايقوها، وذلك في شعبان، وألْصَقُوا أبراجهم بسُورها، فلمَّا شاهد الجند وأهلُ البلد ذلك سُقِط في أيديهم. وذلَّت نفُوسهم، وزادهم ضعفاً. فتأخر الأسطولُ المصريّ عنهم بالميرة والنّجدة، ودَاومَ الفرنج القتال والزَّحف، إلى أنْ ملكوا البلد عَنْوة؛ وذلك في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلةً خلت من ذي الحجّة، سنة ثلاثٍ وخمسمائة[٤]. ونَهَبُوا ما فيها، وأسَرُوا الرجال، وسبَوْا النّساء والذّرّية، وغنموا من أهلها من الأَموال والأَمتعة وكُتُب العلم الموقوفة ما لا يُحد ولا يُوصف.

وكانت طرابلس من أعظم البلاد وأهْلُها من أكثر الناس أموالاً.

وسلِم الوالي الذي كان بها وجماعةٌ من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها، فوصلوا إلى دمشق؛ وعاقب الفرنج أهلَ طرابلس بأنواع العقوبات، وأُخذت دفائِنُهُم وذخائِرهم[٥].

ووصل الأسطول المصري بالرجال والغلال وغيرها، ما يكفيهم سنة، وكان وصول الأسطول إليها بعْدَ أنْ مُلِكت بثمانية أيام؛ ففُرِّق ما في الأسطول على الجهات المجاورة لها: صُور وصَيْدا وبيروت.

---

(١) انظر: ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ١٦١، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٤٢.

(٢) «ريمند بن صنجيل» في الأصل، والكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٥.

(٣) اتفق على تقسيم إرث ريموند كونت تولوز بينهما. فتكون انطرطوس لوليم جوردان، وما فتحه من البلاد مثل عرقة. وأما برترام فيملك جبيل وطرابلس. رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ١١٢.

(٤) دخل الصليبيون طرابلس في ١٢ يوليه ١١٠٩ م. أي ما يوافق سنة ٥٠٣ هـ. رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ١١٣.

(٥) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

ذكر ملك الفرنج جبلة وبُلُنْيَاس

قال: ولما فرغ الفرنج من طرابلس سار تنكري صاحب أنطاكيّة إلى بُلُنْيَاس[(١)] فافتتحها وأَمَّنَ أهلها؛ ونزل على مدينة جبلة[(٢)] وبها فخر الملك ابن عَمّار، وكان القُوتُ قدْ قلَّ بها، فقاتل مَنْ بها إلى أنْ ملكها في الثاني والعشرين من ذي الحجة بالأمان.

وخرج فخر الملك ابنُ عمّار وقصد شَيْزَر، فأكرمه صاحبُها الأمير سُلطان ابن عليّ ابن مُنقذ الكناني. ثمّ سارَ إلى دمشق فأكرمه طُغُزتكين صاحبها، وأجزل له في العطيّة وأقطعه أعمال الزَّبَداني؛ وذلك في المحرم سنة أربعٍ وخمسمائة[(٣)].

ذكر ملكهم مدينة صيدا

وفي جُمادى الأولى[(٤)] سنة أربعٍ وخمسمائة ملك الفرنج مدينة صَيْدا، [من ساحل الشام][(٥)] وكانت من جُملة ما هو بيدِ طُغُزتكين صاحب دمشق. وذلك أنّه وصل في البحر ستُّون مركباً للفرنج مشحونة بالرّجال والذَّخائر مع بعض ملوكهم[(٦)]، لِيحُجَّ إلى القدس ويغزو[(٧)] المسلمين بزَعْمه؛ فاجتمع به بغدوين صاحب القدس وقرّر معه الغَزْو فنَزلُوا[(٨)] على مدينة صيدا في ثالث شهر ربيع الآخر، وضايقوها في البرّ والبحر، ومنَعوا الأُسطول المصريّ من الوصول إليها، وكان بساحل مدينة صُور، فعمل الفرنج بُرْجاً من الخشب وأحكموه، وجعلُوا عليه ما يمنع النّار والحجارة عنه، وزحفوا به. فلمّا عَايَن أهلُ صيدا ذلك ضعُفَت نفُوسهم وأشفقوا أنْ يُصيبَهم مثلُ ما أَصاب أهلَ بيروت؛ فأرسلوا قاضيها ومعه جَماعةٌ من شُيوخها إلى الفرنج وطلبوا الأمان، فأمَّنَهُم على

(١) بُلنياس: بضمتين وسكون النون، وياء وألف وسين مهملة: كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر، ولعلها سميت باسم الحكيم بُلنياس صاحب الطلسمات. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٩٠. ووردت «بانياس» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٦.

(٢) «ونزل مدينة جبيل» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٦.

(٣) في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٧، «وهو عمل كبير من أعمال دمشق وكان ذلك في المحرم سنة اثنتين وخمسمائة» وهذا لا يتفق مع سير الأحداث.

(٤) في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٩، ورد «في ربيع الآخر».

(٥) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٩.

(٦) هو سيجورد ملك النرويج، اشترك في حصار صيدا في أكتوبر ١١١٠ م. رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ١٥٠.

(٧) في الأصل: «ويقرو» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٩.

(٨) في الأصل: «فنزلا» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٩.

نفوسهم وأمْوالهم والعسكر الّذي عندَهم، ومَنْ أراد المُقام [بها][١] عندهم أمَّنوه، ومَنْ أراد المسيرَ عنهم لا يمنعونه؛ وحلفوا لهم على ذلك فخرج الوالي وجماعةٌ كثيرة معه تحت الأمان؛ وكانت مدَّة الحصار سبعة وأربعينَ يوماً.

ورحل بغدوين عنها إلى القدس، ثمّ عاد إليها بعد مدَّة يسيرة يُقرِّر على المسلمين الذين أَقاموا بها عشرين ألف دينار، فاسْتَغْرَقَ أموالَهم وأفقَرَهم.

ذكر استيلائهم على حصن[٢] الأثارب وحصن زردنا

وفي سنة أربع وخمسمائة جمع صاحبُ أنطاكيّة الفارسَ والرّاجل، وسار إلى حصن الأثارِب، وهو على ثلاثِ فراسخ من حلب، فحصره ومَنَع الميرة عَمَّن فيه؛ فضاق الأمر عليهم. فَنَقب المسلمون من القلْعَة نَقْباً وقصدُوا أنْ يخرجوا منه إلى خيمة صاحب أنطاكيّة فيقتلُوه، فلمَّا فعلوا ذلك استأْمَن إليه صبيٌّ أرمنيّ فعرّفه الحال، فاحتاط لنفسه واحترز؛ وجَدَّ في قتالهم حتى ملك الحصن عَنوة، وقتل مِنْ أهله ألفي رجل وسبى [وأسر الباقين][٣].

ثم سار إلى حصن زردنا[٤]، فحصره وفتحه، وفعل بأهله مثل ذلك. فلمّا سمع بذلك أهلُ مَنْبِج فارقُوها خوفاً من الفرنج، وكذلك أهْلُ بَالِس[٥]، فطلب أهل الشّام الهدنة فامتنع الفرنج ثمّ أجابوا. فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنتين وثلاثين ألف دينار، وخيولٍ وثيابٍ، وصالحهم ابنُ منقذ صاحبُ شَيْزَر على أربعة آلاف دينار، وصالحهم عليّ الكردي صاحب حماه على ألفي دينار. وكانت عِدَةُ الهُدنة إلى إدراك الْمُغَلّ وحصاده[٦]. ثمّ جاءت العساكر من العراق ولم يبلغوا غرضاً.

ذكر حصر مدينة صور وفتحها

كان استيلاءُ الفرنج، خذلهم الله تعالى، على مدينةُ صور في الثالث والعشرين من جُمادى الأولى سنة ثماني عشرة وخمسمائة. وكان ابتداءُ الحصار في سنة خمسٍ وخمسمائة؛ وذلك أن الفرنج في هذه السّنة اجتمعوا مع بغدوين صاحب القُدْس على

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٨٠.

(٢) «حصين» في الأصل.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٨١.

(٤) زردنا: بليدة صغيرة غرب حلب: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٣٦.

(٥) بالس: بين حلب والرقة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٦) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٨٢.

حصارها، وكانت إذ ذاك بيد نُوّاب الآمر بأحكام الله[1] وبها مِنْ قِبَلِه عزّ الملك الأعز، فحصرُوها في الخامس والعشرين من جمادى الأولى من السّنة، وعمِلوا ثلاثة أبراج من الخشب عُلُوُّ البُرْج سبعون ذراعاً في كلّ بُرج ألفُ رجل؛ ونصبُوا عليها المجانيق. وألْصقُوا أحدَ الأبْراج بسُور صور، فجمَعَ عزّ الملك أهْلَ البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شرَّ الأبراج. فقام شيخٌ من أهل طرابلس وضمِن إحراقها، وأخذ ألفَ رجلٍ بالسّلاح التام، ومع كلّ رجل حُزمة حطب؛ فقاتلوا الفرنج حتّى وصلوا إلى البُرج الملتصق بالسُّور وألقَوْا الخطب من جهاته، وأشعلوا فيه النار. ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذين في الأبراج بإطفاء النّار، فرماهم بِجِرارٍ مملوءة بالعُذْرة كان قد أعدَّها لهم فلمّا سقطت عليهم اشتغلوا بما نالهُم من الرّائحة الكرهة، فتمكّنت النار من البُرج، وأحرق المسلمون البرجين [الآخرين][2] أيضاً.

وكاتب عزّ الملك طُغُزْتكين، صاحبَ دمشق، فأنْجَده بالرّجال، وأرسل أصحابه للإغارة على بلاد الفرنج، فرجعوا مِنْ حصار مدينة صُور في شوّال من السّنة.

ثم عادُوا في سنة ستٍّ وخمسمائة إلى الحصار، وضايقوا البلد فأرسل أهلُ صور إلى طُغُزتكين صاحب دمشق يطلبون منه أن يرسل إليهم من جهته مَنْ يَتَولّى أمرهم ويحميهم، وتكون البلد له. فسيّر إليهم عسكراً، وجعل عندهم والياً اسمه مسعود، وكان شهماً شجاعاً عَارفاً بالحرب ومكايدها، وأمدّه بالعساكر والميرة؛ فطالب قُلوب أهل البلد. ولم يَقْطع خطبة الآمر بأحكام الله ولا غَيَّر سِكّته؛ وكتب إلى الأفضل أمير الجيوش يُعَرِّفُه ما عمِل ويقول: متى وصل مَنْ يتولاّها ويذُبّ عنها سلّمتها إليه؛ وطلب منهم ألاّ ينقطع الأُسطول عنها بالرّجال والميرة. فأجابه الأفضل إلى ذلك، وشكره على ما فعل، وجهّز أسْطولاً إليها، فاستقامت أحوال أهلها.

ولم يزل كذلك إلى سنة ستّ عشرة وخمسمائة، بعد قتل الأفضل أمير الجيوش، وذلك أن المأمون بن البطائِحي لمّا وَلِيَ إمرة الجيوش بعد قَتْل الأفضل سيَّر إلى مدينة صور أسطولاً على العادة، وأمَرَ المقدَّم عليه أن يُعْمِل الحيلة على الأمير مسعود، الوالي من قبل طُغُزتكين، ويقبض عليه، ويتسلم البلد منه. وكان سبب ذلك أنّ أهلِ صور شكَوْا منه إلى الآمر بأحكام الله. فلمّا وصل الأُسطول وجاء الأمير مسعودٌ ليُسلِّم على المقدَّم قبض المقدَّمُ عليه واعتقله، وحمله إلى الآمر؛ فأكرمه وأعاده إلى صاحبه بدمشق،

(١) الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور. انظر ما يلي، وتاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ١٣٣.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

واستوْلى مقدَّم الأُسطول على مدينة صور، ورَاسَل الأمير طُغُزتكين بالخدمة، واعتذر إليه، فقبل عذره[١]، ووعده المساعدة.

فلمَّا سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قَوِيَ طمعُهم فيها، وشرعوا في الجَمْع؛ واتَّصل خبرُهم بواليها، فعلم أنّه لا قُوّة له ولا طاقة بهم، لقِلّةِ مَنْ بها من الجند والميرة، وأرسل إلى الآمر بذلك؛ فرأى أن يُردَّ ولاية صور إلى طُغُزتكين، فأرسل إليه بذلك، فملكها ورتَّب بها الجند وغيرهم.

وسار الفرنج إلى صور، ونازلُوها في شهر ربيع الأول سنة ثماني عشرة، وضيَّقوا عليها ولازموا القتال؛ فقلَّت الأَقوات، وسَئِمَ مَنْ بها القتال، وضعفت نفوسُهم، وسار طُغُزتكين إلى بانياس ليقرُب منهم ويذُبَّ عن البلد، وأرسل إلى الآمر يستنجده، فلم ينجده، وأشرف أهلُها على الهلاك. فحينئذٍ رَاسَل طُغُزْتكين الفرنج على أن يسلِّم إليهم البلد ويمَكِّنوا مَنْ بها من الجند والرَّعية من الخروج بما قَدَرُوا عليه من أموالهم وغيرها فاستقرَّت القاعدةُ على ذلك، وفُتحت أبوابُ البلد، وفارقه أهله، وحملوا ما أطَاقوا وتفرّقُوا في البلاد، ولم يتعرّضِ الفرنج إليهم. وملك الفرنج البلد في التّاريخ الذي قدّمناه، ولم يَبْق بصور إلاّ ضعيفٌ عاجز عن الحركة[٢].

وفي سنة ثلاثٍ وعشرين وخمسمائة ملك الفرنج حصن القدموس[٣] من المسلمين، وملكوا بانياس بمراسلة إسماعيل الإسماعيلي ورَغبَتِه في ذلك، وانضمامه إلى الفرنج، على ما قدَّمنا ذكره، في أخبار تاج الملوك طُغُزْتكين صاحب دمشق.

هذا ما استولى عليه الفرنج من البلاد الإسلامية. فلْنَرجع إلى أخبار الدّولة العُبَيْدِيّة.

ذكر وفاة المستعلي بالله

كانت وفاتُه في يوم الثّلاثاء لثلاثَ عشرةَ بقيتْ من صفر[٤] سنة خمس وتسعين وأربعمائة.

---

(١) في الأصل: «فاعتذر إليه وقبل عذره» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٦٢٠.

(٣) القدموس: من حصون الإسماعيلية، انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٦٥٩.

(٤) هناك خلاف في تاريخ وفاته، ٢٧ صفر في كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ٤٥٣. ٩ صفر في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٥١، ١٣ صفر في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٨٥. و١٧ صفر في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٢٩. «ومات في صفر وله تسع وعشرون سنة» في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٤٠٢.

ومولدُه لعشرٍ بقينَ من المحرّم سنة سبعٍ وستين[١] وأربعمائة؛ وكان عمرُه ثمانياً وعشرين سنة[٢] وثمانيةً وعشرين يوماً.

ومدّةُ ولايته سبعَ سنين وشهراً واحداً وثمانيةً وعشرين يوماً.

ولمن تكن له سيرة تُذكر، فإن الأمر كان للأفضل أمير الجيوش، لم يكُن للمستعلي مَعَه من الأمر إلاّ الاسمُ، والرَّسم للأفضل.

وكان للمستعلي من الأولاد أبو علي المنصُور، وجعفر، وعبد الصّمد وزيرُه الأفضل أمير الجيوش.

قضاته: أبو الحسن بن الكحّال النابلسي؛ ثم أعَادَ بن عبد الحاكم، ثم أبو طاهر محمد بن رجاء، ثم أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي.

ذكر بيعة الآمر بأحكام الله[٣]

هو أبو علي المنصور بنُ المستعلي بالله؛ وهو العاشر من ملوك الدّولة العُبَيْدِيّة والسّابع من مُلوك الدّيار المصريّة منهم.

قال المؤرخ: لمَّا مات المستعلي بالله أجلس الأفضل أمير الجيوش ولدَه أبا علي هذا على سرير الخلافة، وذلك في يوم الثّلاثاء لثلاثَ عشرةَ ليلةً بقيت من صفر سنة خمسٍ وتسعين وأربعمائة؛ وبايع له النّاس ولقّبه بالآمر بأحكام الله وله من العمر خمسُ سنين وشهرٌ واحدٌ وأيام.

قال[٤]: ودبَّر الأفضل الأمر على ما كان عليه في أيام أبيه المستعلي.

---

(١) اختلف أيضاً في تحديد تاريخ ميلاده. في ١٨ محرم، ٤٦٨ هـ في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٧. ١٠ محرم ٤٦٨ هـ، في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، وسنة ٤٦٩ هـ في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٠.
ورد في أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٤٨ حاشية ١٩٤ ما يأتي: «وجاء تحديد ميلاد المستعلي بالله في يوم الأحد الرابع عشر من صفر سنة ٤٥٢ هـ في أحد السجلات التي بعث بها المستنصر إلى الداعي علي الصليحي».

(٢) اختلف في تحديد عمره تبعاً للاختلاف الحاصل في تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته.

(٣) ترجمته وأخباره في: أخبار الدول المقطعة لابن ظافر، ص ٨٧ ـ ٩٣. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٦٨ ـ ١٦٩. خطط المقريزي، ج ١، ص ٣٥٧، وج٢، ص ٢٩٠، وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٢، مجموعة الوثائق الفاطمية لجمال الدين الشيال، ص ٤١ ـ ٩٧، ١٩٣ ـ ٢٣٠، أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٧٠ ـ ١١٢، حسن المحاضرة في أخبار مصر للسيوطي، ج ٢، ص ١٩، أخبار مصر لابن المأمون ص ٣.

(٤) ـ المقصود ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ص ٨٧.

وفي سنة خمسمائة بنى الأفضل أمير الجيوش الدَّار المعروفة بدار الملك[١] على شاطىء النيل بمصر، وكمُلت عمارتُها في سنة إحدى وخمسمائة وسكنها.

ومدحه الشُّعراء. فمن مدحه أبو الفضل بن أمية المغربي من قصيدة جاء فيها: [من البسيط]

دارٌ هي الفلك الأعلى، وأنت بها   شمس الضُّحى، وبَنُوكَ الأنجمُ الزّهر

ودار الملك هذه هي دار الوكالة الآن[٢]؛ وكانَ موضعَها أخصاص موقوفةٌ على الأشراف، فأمر أن يؤخذ ما كان لهم من الحكر على الأخصاص من مال الرّباع السّلطانية.

ذكر إنشاء ديوان التحقيق

وفي سنة إحدى وخمسمائة جدّد الأفضل ديواناً وسمّاه ديوان التحقيق[٣]، واستخدم فيه أبا البركات يوحَنّا بن أبي الليث النّصراني، وبقي فيه إلى أن قُتل في سنة ثمانٍ وعشرين[٤]. واستمرّ هذا الديوان إلى أن انقرضت الدّولة العبيديّة وانقطع، ثم أعاده السّلطان الملك الكاملُ بن الملك العادل في سنة أربعٍ وعشرين، واستخدم فيه أبو كُوجك[٥] اليهودي. ثمّ أبطل في سنة ستٍّ وعشرين وستمائة فلم يعُدْ. واستُخدِم في أيام السلطانِ الملكِ المعزّ أيبك صفيُّ الدّين عبد الله بن عليِّ المغربي في استيفاء مقابلة الدواوين، وهو نوع منه[٦].

ذكر حل الإقطاعات وتحويل السنة

وفي سنة إحدى وخمسمائة كثُرت شكاوَى الأجناد وطوائف العساكر المصريّة

---

(١) دار الملك: بناها الأفضل بن أمير الجيوش سنة إحدى وخمسمائة، فلما كملت تحول إليها من دار القباب بالقاهرة وسكنها، واتخذ بها مجلساً سماه مجلس العطايا، فلما قتل الأفضل أصبحت هذه الدار من جملة متنزهات الخلفاء، ثم جعلها الملك الكامل محمد بن العادل دار متجر، وبعد ذلك عملت في أيام الظاهر ركن الدين بيبرس دار وكالة. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٨٣.

(٢) انظر الهامش السابق.

(٣) ديوان التحقيق: والعمل فيه هو المقابلة على الدواوين. وكان لا يتولاه إلا كاتب خبير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٨٩.

(٤) «ثماني عشرة» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣٩، المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٠.

(٥) «ابن كوجك» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٧٧.

(٦) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٧٧ ـ ٧٨.

بسبب إقطاعاتهم، وأنّها خرِبت وقَلَّ ارتفاعُها، وأنّها لا تقوم ببَعْض كُلَفهم، وأن الإقطاعات التي بيد الأمراء زائدة عن الارتفاع. فأحضر الأفضل محمد بن فاتك البطائِحي[(١)]، وهو وزيرُه وأستاذ داره، واستشاره فيما يفعل في ذلك؛ فأشار عليه بحلِّ جميع الإقطاعات التي بيد الأمراء وغيرهم، وأن يجمع الأمراء والطّوائف للمزايدة فيها. فاتّفق الرأي على ذلك.

وأحضر الأمراء والأجناد في دار الوزارة، وتحدّث معهم في ذلك؛ فقال الأمراء: لما في إقطاعاتنا أملاكٌ وبساتين ومعاصر وغيرها. فقال الأفضل: الأملاك لمُلاَّكها على حالها يتصرّفون فيها بالبيع والإيجار.

ثم حلَّ الإقطاعات ووقعت الزّيادة فيها، وتميّز لكلٍّ منهم أقطاعٌ وكتبت المناشير بذلك. ثم شكى إليه كثرة عبرة البلاد[(٢)] وأنّ متحصِّلَها لا يَفِي بالعبرة.

وحَصَل للديوان ضياعٌ مفردة[(٣)] عبرتُها خمسون ألف دينار في كلِّ سنة.

ونُقلت السّنة الشمسية الخَراجِيّة إلى الهلاليّة؛ وكانت سنة إحدى وخمسمائة الهلالية وسنة سبعٍ وتسعين وأربعمائة الخراجيّة فنقلت إلى سنة إحدى وخمسمائة[(٤)].

ذكر أخذ الفرما وهلاك بغدوين الفرنجي صاحب القدس

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة[(٥)] أغار بغدوين ملك الفرنج عى الفرما[(٦)] وقَتَل جميع مَنْ بها، وأحرق جامعَها ومساجدَها، وذلك بعد أن حاصرها أياماً والفرما

---

(١) انظر الإشارة لابن الصيرفي، ص ٦٢ ـ ٦٤، أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٨٨. الوافي بالوفيات للصفدي، ج ٤، ص ٣١٣، أخبار مصر لابن المأمون، ص ٣، هامش ٢.

(٢) العبرة: مقدار الضرائب (الخراج والأموال) المقررة على كل إقطاع. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٨١ ـ ٨٢.

(٣) «وحصل لديوان السلطان ضياع مفرده» في الأصل، والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٤٠. وانظر أيضاً نصوص من أخبار مصر، ص ٩ ـ ١٠.

(٤) في التوفيق بين السنين الشمسية والقمرية المعبر عنه بتحويل السنين، انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٥٤ ـ ٦٠. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٢٧٣ ـ ٢٨٥.

(٥) ذكر ابن الأثير أنه في ذي الحجة من سنة أحدى عشرة وخمسمائة توفي بغدوين ملك القدس. الكامل، ج ١٠، ص ٥٤٣.

(٦) الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر، وهي قديمة بين العريش والفسطاط شرقي تنيس على ساحل البحر، وهي على بعد ٢٣ كلم شرقي محطة الطينة الواقعة على السكة الحديد بين بور سعيد والإسماعيلية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ق ١، ص ٩٢.

كانت بلدة بين القصير والغرابي من منازل الرّمل، وهي الآن خراب. وقصد بغدوين مِصْر فرحل عن الفرما. ورجع إلى البيت المقدّس، وهو مثقل بالمرض، فهلك بموضع يقال له جور قبل وصوله إلى العريش. فشقَّ الفرنج بطنه وألْقَوْا مصارينه هناك، فهي تُرْجم إلى وقتنا هذا، ودخلوا بجثته، فدفنوها بقمامة بالبيت المقدس.

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة رُتِّب ذخيرة الملك جعفر في ولاية القاهرة، ونظر الحسبة وظلم وعسف؛ وهو الّذي بنى المسجد بسوق الخيل المعروف: بالذّخيرة[١]، ومسجد «لا بالله»، وسببُ تسميته بذلك أنّه كانَ يَقْبض النّاس من الطّريق ويَعْسِفهم، فيقولون له: لا بالله، فيقيّدهم ويستعملهم فيه بغير أجرة. ولم يعمل فيه صانعٌ إلاّ وهو مكره مقيد، فابتلى الله ذخيرة الملك بأمراض شديدة، ولمّا مات تجنّب النّاس الصلاة عليه وتشييعه.

ذكر نهب ثغر عيذاب

وفي سنة ثنتي عشرة وخمسمائة عمّر الشريف أبو محمد قاسم بن أبي هاشم[٢]، أمير مكة، مراكب حربية وشحنها بالمقاتلة وسيَّرهم إلى عيذاب[٣]، فنهبوا مراكب التّجار وقتلوا جماعةً منهم، فحضر من سَلِم من التجار إلى باب الأفضل وشكَوْا ما حلّ بهم فأمر بعمارة حَرَارِيق[٤] يجهِّزَها، ومنع الناس أن يحجّوا في سنة أربع عشرة، وقطَع الميرة عن الحجاز، فغلت الأسعار. وكان الأفضل قدْ كتب إلى الأشراف بمكة يلومهم على فعل صاحبهم، فكتب الشريف إلى الأفضل يعتذر، والتزم بردِّ المال إلى أربابه، ومن قُتِل من التّجار فماله لورثته. وأعاد الأموال في سنة خمس عشرة[٥].

---

(١) مسجد الذخيرة: كان تحت قلعة الجبل بخارج القاهرة بأول الرميلة، تجاه شبابيك مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاوون التي تلي بابها الكبير الذي سده الملك الظافر برقوق أنشأه ذخيرة الملك جعفر متولّي الشرطة. المقريزي: المواعظ والاعتبار، طبعة سنة ١٣٢٥ هـ. ج ٤، ص ٢٦٧.

(٢) هو قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم، المتوفى سنة ٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م أو سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م. المكي: العقد الثمين، ج ٧، ص ٢٨. رقم ٢٣٢٤، ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٢٦٣.

(٣) عَيْذَاب: بالفتح ثم السكون وذال معجمة، وآخره ياء موحدة، بليدة على ضفة بحر القلزم، هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٧١.

(٤) حرّاقة: حراريق: حراقات: سفن فيها مرامي نيران. والحراقة: بالفتح والتشديد، ضرب من السفن فيها مرامي نيران يُرمى بها العدو في البحر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، (حرق)، انظر أيضاً: معجم السفن الإسلامية للنخيلي، ص ٣٢.

(٥) انظر العقد الثمين للمكي، ج ٧، ص ٢٩.

ذكر مقتل الأفضل[1] شاهنشاه أمير الجيوش ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وشيء من أخباره

كان مقتله في يوم الأحد سلخ شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة، وقد ركب من دار المُلك بمصر فقُتِل عند كرسي الجسر[2]، بتلة الباطنية. قيل بمواطأة من الآمر لأنه كان قد ضاق منه لتحكّمِه عليه ومنعه من شهواته، فقصد اغتياله إذا دخل عليه للسلام، فمنعه أبو الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم، ابن عمه، وقال: إنّ هذا الأمر فيه من قُبح الأُحدوثة سوء الشّناعة ما لا تحمد عاقبتُه، لأنّ هذا الرجل ما عُرف له ولا لأبيه إلاَّ المودّة في خدمة هذا البيت والذّب عنه، وإن قتلناه غيلَةً لا غُنْيَة أن نولّي منصبه لغيره، فيكون المتولّي بعده على رجلٍ واحتراس. وإنّما الرأي أنْ ندبّر عليه، فدبّر عليه حتى قتل. هذا أحد الأقوال في قتله.

قال: ولما وثب الباطنية عليه ضُرب ثماني ضربات، فمات لوقته، وحُمِل على أيدي مقدَّمي ركابه، والقائد الميمون محمد وأخوته لا يمكّنون أحداً من الدُّنوِّ منه، وهم يبشرون النّاس بسلامته حتى وضعوه على سريره وغُطّي. ونفّذ المأمون أخاه حَيْدرة إلى الآمر يقول له: أدْركني وتسلّم ملكك لئلا أُغلبَ عليه أنا وأنت؛ وأوصاه أن يُهنّىء من وَجَده بسلامة الأفضل. ففعل حيدرةُ ذلك، وهنّأ حَرَم الأفضل وغيرهم. فعزم أولادُه على إثارة فتْنة وأنهم يطلبون الأمر لأخيهم تاج المعالي؛ فأمر الآمر بحمْل أولاد الأفضل إلى الاعتقال بخزانة البُنود، فحُملوا إليها، وبات الأمر بدار الملك.

قال: وكان الأفضل حسن الاعتقاد في مذهب السّنة، جميل السّيرة مؤثراً للعَدل، صائب الرأي والتّدبير، حَسَن الهمّة، كريم النّفس، صادق الحديث.

ونال النّاس بعد قَتْل الأفضل من الظُّلم والجَور والعسف مَا لاَ يُعبَّر عنه. فجاء النّاسُ إلى باب الآمر واستغاثوا، ولعنوا الأفضل وسبُّوه سبّ؛ فخرج إليهم الخدم وقالوا: مولانا يُسلِّم عليكم ويقول لكم: ما السّبب في سبِّ الأفضل وقد كان قد أحْسَن إليكم وعَدَل فيكم؟ فقالوا: إنّه عَدَل وتصدَّق وحَسُنت آثارُه، ففارقْنا بلادَنا حُبًّا لأيَّامه، وأَقمنا في بلده، فحصل بعده هذا الجورُ؛ فهوُ السّببُ في خروجنا عن أوْطاننا واستقرارنا ببلده.

---

(١) اشترك الأفضل في الوزارة مع أبيه في تدبير الأمور منذ السابع من المحرم سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م. محمد حمدي المناوي: الوزارة في العصر الفاطمي، ص ٢٧١.

(٢) كرسي الجسر: بالفسطاط، في الطريق إلى رحبة الملاحين التي تقع أمام فندق تقي الدين المعروف بسكن الكارم. ابن دقماق: الانتصار، ق ٤، ص ٣٥.

قال المؤرخ: لما قُتل الأفضل أحضر الآمر وزيرَه الشيخ أبا الحسن علي الحلبي والقائدَ أبا عبد الله محمداً وسألهما عن الأموال، فقال القائد: أمّا السّر فأعلمه وأمّا الظاهر فالوزير يعلمه؛ وأخْبَراهُ بذخائر وأمواله. وأقام الآمر في دور الأفضل، وهي دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة، وغيرهما، أربعين يوماً، والكُتّاب بين يديه يكتبون ما ينقلونه إلى القصور؛ فَوُجِد لهُ من الذخائر النفيسة ما لا يحصى[١].

وذكر أن الذي وُجِدَ له من الأموال ستّة آلاف ألف دينار عيناً؛ وفي بيت الخاصّة ثلاثة آلاف ألف دينار، وفي البيت البرَّاني ثلاثة آلاف [ألف][٢] ومائتان وخمسون ديناراً[٣]، وخمسون أردباً[٤] دراهم [ورق][٥] وثلاثون راحلةً من الذّهب العراقي المغزول برَسْم الرّقم؛ وعشرة بيوت في كلّ بيت منها عشرة مسامير من الذهب[٦]، زنة كلّ مسمار مائتا مثقال، عليها العمائم المختلفة الألوان مغطاة بالمناديل المزركشة، وتسعمائة ثوب من الدّيباج الملوَّن، وخُمسمائة صُندوق من دقّ دمياط وتنيس برَسْم كسوة جسده، ولعبة من العنبر على قدر جسده برَسْم ثيابه توضع ثيابُه عليها لتكتسب رائحتها. وتَرَكَ من الطِّيب والآلات والنُّحاس ما لا يحصى. وترك من الأبقار والجواميس والأغنام ما بلغ ضمان ألبانها ونتاجها أربعين ألف دينار في السنة. وكانت الدَّوَاة التي يكتب منها مرصَّعةً بالجواهر، فقُوِّم ما عليها من الجواهر باثني عشر ألف دينار. وخلّف من الكتب خمسمائة ألف مجلد[٧].

وحكى القاضي زكيّ الدين أبو زكريّا يحيى بن علي الدّمشقي في تاريخه عما خلّفه الأفضل فقال: خلّف جملةً لم يُسمع أنّ أحداً من الملوك والخُلفاء في هذا الزّمان

---

(١) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٧٩.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٠، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٠.

(٣) ورد في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٠ ما يأتي: «وفي البيت البراني ثلاثة آلاف ومائتا ألف وخمسون ألف دينار».

(٤) «مائتان وخمسون أردباً دراهم» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٠.

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٠، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٠.

(٦) كانت هذه المسامير تستخدم كمشاجب تعلق عليها العمائم.

(٧) عن تركة الأفضل انظر: المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٧٠ ـ ٧١، ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٨٠، ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، ص ٩١ ـ ٩٢؛ ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٦، ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٥١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

جمع مثله ولا ادّخر مثل بعضه: وأن الآمر بأحكام الله شرع في حمل ما في دُورِه إلى القصر، فحُمل على عدَّةٍ كثيرةٍ من الجمال والبغال، ونُقل في شهرين وأيّام.

قال: وحكى الدينبلي التاجر الآمدي أن مُتولِّي الخزانة بالقصور ذكر له جُمَلاً ممّا حمَل من موجوده في الدّار، منها سِتّة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار، ومن الورِق ما قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار، ومن أطباق الذهب والفضة سبعمائة طبق[١]، ومن الآلات مثل أتوار[٢] وأسطال وصحاف وشربات وأباريق وزبادي[٣] وقدور وقطع من الفضة والذهب مختلفة الأجناس ما لا يحصى كثيرةً؛ وبراني[٤] صيني كبار، وعيبات مملوءة جواهر، ومن أصناف الدّيباج والعتابي وغيره تسعون ألف ثوب، وثلاث خزائن مملوءة صناديقَ كلُّها من الدّبيقي[٥] والشرب استعمال تنيس ودمياط، وخزانة الطِّيب مملوءة أسفاطاً، وعود، وبراني مسك ونوافج[٦] وبراني زجاج مملوءة من الكافور القنصوري، غير مصاعد، ومن العنبر ما لا يحصى كثرة[٧].

وكان له مجلس يجلس فيه للشراب فيه صُوَرُ ثماني جواري متقابلات، أربع منهُنَّ بيض من كافور، وأربع سود من عنبر، قيام في المجلس، عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلى وأحسن الجواهر، فكان إذا دخل باب المجلس نَكَّسَ رُؤوسَهنّ خدمةً له، فإذا جَلَس في صدر المجلس استَوَيْنَ قائماتٍ. ووُجِد له من المقاطع والسُّتور، والدّيباج والدّبيقي الحريري، والذهب والفرش والمخادّ والمساند على اختلاف أجناسها، كلٌّ حجرة مملوءة من ذلك، وعدّة صناديق مملوءة حقاقَ ذهبٍ عراقيّ بِرَسْم الاستعمال. ووُجد له ثمانمائة جارية منهن حَظَايا خمسٌ وستون، لكلِّ جارية حجرة وخِزانة مملوءةٌ من الكَساوى والآلات الدّيباج والذّهب والفضة. ومن كل صنف[٨].

قال الخازن: هذا ما حَضَرني حِفظُه ممّا في داره. وأما ما كان في مخازنه وتحت يدِ عُمّاله وجُباته وضُمَّانِ النّواحي فما لا يحصى كثرة، من الأموال والغلال والحبوب والقطن والكتان والشمع والحديد والأخشاب وغير ذلك. وكلُّ نوع منه ما يجاوز الحدّ

(١) «طوق» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٠.

(٢) تور: من الأواني: هو إناء من الحجارة وقد يتوضأ منه، ابن منظور: لسان العرب (تور).

(٣) جمع زبدية، وهي وعاء يشرب به. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٠، حاشية ٣.

(٤) براني ـ برنية: إناء من الخزف اللامع أو من الصيني. ابن منظور: لسان العرب (برن).

(٥) الدَّبيقي: من دقّ ثياب مصر معروفة تنسب إلى دَبيق. ابن منظور: لسان العرب (دبق) وهو نوع من الحرير خاص.

(٦) نوافج، جمع نفج. وهو وعاء المسك. ابن منظور: لسان العرب (نفج).

(٧) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٧٠ ـ ٧١.

(٨) المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٧١، ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٨٢.

والإحصاء، ولا يمكن تحرير حسابه إلاَّ في المدة الطويلة[١].

وأمّا العُدد والخيول والسلاح والبقر والغنم والخيام، فقال الخازن لم تتحرّر لكثرتها. وقال حُمِل من داره أربعة آلاف بساط، وستّون حمل[٢] طنافس، وخمسمائة قطعة بلور كبار وصغار، وخمسمائة قطعة مُحكم، وألف عِدْل من متاع اليمن والإسكندرية والغرب، وسبعة آلاف مركب[٣] من أصنافها.

وأمّا ما عمّره من المساجد فمنها: جامع الفيلة[٤]، وقيل إنّه لم يكمله. وحكى الشريف محمّد بن أسعد الجواني في كتابه المترجم بالنقط في ذكر الخطط أن جامع الفيلة بناه الأفضل في سنة ثمانٍ وتسعين وأربعمائة، وأنّ الأفضل مات ولم يكمّله فكمَّلَه المأمون في وزارته، ووَلَّى خطابته الشّريف أمين الدّولة أبا جعفر، محمد بن محمد بن هبة الله الحسيني الطرابلسي النّسابة، وأمَر أنْ يَحْضُر جميع وُجوه الدّولة والرؤساء في أوّل جمعة، فحضروا، فلمَّا رَقِيَ الشّريف المنبر قال: «الحمد لله»، وأُرتِج عليه ودهش، فلم يَزَل يكرّرها إلى أن أضْجَر النّاس، ونزل وقد هُمَّ، ومضى إلى داره، فاعتلَّ ومات في سنة سبع عشرة وخمسمائة. ومنها المسجد الذي على جبل المقطّم. وبنى في جامع عمرو بن العاص المئذنة الكبيرة والمئذنة السعيدية[٥] والمئذنة المستجدة [به أيضاً][٦] وجامع الجيزة[٧]. وغير ذلك. وهو الّذي أنْشأ التّاج والخمسة وجوه.

---

(١) المقريزي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٧١، ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٨٣.

(٢) هكذا في الأصل.

(٣) «وتسعة آلاف سرج» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧١، و«سبعة آلاف مركب يعني سرج» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٣.

(٤) جامع الفيلة: كان يطل على بركة الحبش. بناه الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش بدر الجمالي في شعبان سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وإنما قيل له جامع الفيلة لأن في قبيلته تسع قباب في أعلاه ذات قناصر إذا رآها الإنسان من بعيد شبهها بمدرعين على فيلة، كالتي كانت تعمل في المواكب أيام الأعياد، وعليها السرير وفوقها المدرعون أيام الخلفاء. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٥) «السعيدة» في الأصل، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٥. والسعيدة أيضاً في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٣٣٩.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٥، وورد في صبح الأعشى للقلقشندي ج ٣، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩، شرح وافٍ عن مآذن عمرو بن العاص. «المئذنة الكبيرة وهي في الركن القبلي للجامع مما يلي الشرقي. وهي في المنارة الكبرى. والمستجدة وهي في الركن البحري مما يلي الغربي مقابل باب السطوح».

(٧) جامع الجيزة: بني سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م، زمن علي بن عبد الله بن الإخشيد ولا ذكر لدور الأفضل فيه. المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٢٠.

قال ناظم سيرة المأمون: وعمل الأفضل خَيمةً سماها خيمة الفَرج[(١)]، ثم سُمِّيت بالقَاتُول[(٢)] لأنها كانت إذا نُصبت يموتُ تحتها من الفرّاشين رجلٌ أو رجلان. اشتملت على ألف ألف ذراع [وأربعمائة ألف ذراع][(٣)] وكان ارتفاعها خمسين ذراعاً بذراع العمل[(٤)]، أنفق عليها عشرة آلاف ألف دينار.

ومدحه جماعة من الشعراء وذكرُوا هذه الخيمة، منهم أبو جعفر محمد بن هبة الله الطرابلسي بقصيدته التي يقول فيها: [من البسيط]

ضَربْت خيمة عزٍّ في مقرٍّ عُلاً	أوْفَت على عَذَبات الطَّوْد ذي القُنَن[(٥)]
جاءت مَدَى الطَّرف، جتى خِلْت ذروتَها	تأوِي من[(٦)] الفَلَك الأعلى على سَكَن
أَقطارُها مُلِئت مِنْ منظرٍ عجبٍ	يُهدِي[(٧)] إليك ذَكَاء الصَّانِع الفَطِن
فمِنْ رياضٍ سقاها الْقطرُ صيِّبَه	فما بها ظمأٌ يوماً إلى الْمُزن
وجَامح في عنانٍ لا يُجاذبُه	وطائرٍ غير صدَّاحٍ على فَنَن
وأرْقمٍ لا يمجُّ السّم رِيقته	وَضَيْغمٍ ليس بالْعَادِي ولا الوَهِن
ومَائِلين صُفوفاً في جَوانبها	لو يستطيعُون خَرّ الجمْعُ للذَّقن
زِينَت بأرْوَع، لا تُحصَى فَضائلُه	ماضٍ مِن المَجْدِ والعلياءِ في سَنَن
وأطْلعَ الدَّستُ فيها شَمس مملكةٍ	يرى[(٨)] التَّأمُّل فضْلَ العين والأُذُن
وَعْدٌ على السّعدِ أنّ النّصر يَضْرِبُها	بالصِّين، بعدَ فُتوح الهِنْدِ واليمن

وقال أبو علي حسن بن زيد الأنصاري، الكاتب بديوان المكاتبات، يصفها ويمدح الأفضل: [من البسيط]

---

(١) خيمة الفرح: في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٥.

(٢) سميت بالقاتول لأن فراشاً سقط من أعلاها فمات. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٣٨، ج ٣، ص ٤٧١. نظر أيضاً المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٠ ـ ٤٧١.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٦، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٢.

(٤) ذراع العمل: طوله ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل، ويستخدم في العمائر والمباني، ولعله الذراع الذي يقاس به أرض السواد بالعراق. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

(٥) «أوفت على عذبات الطور ذي الفتن»، في نصوص من أخبار مصر لابن المأمون، ص ١٠٢.

(٦) «من» ساقط من نصوص من أخبار مصر لابن المأمون، ص ١٠٢.

(٧) «يبدي» في نصوص من أخبار مصر لابن مأمون، ص ١٠٢.

(٨) «ترى» في نصوص من أخبار مصر لابن مأمون، ص ١٠٣.

مهلاً، فقدْ قَصرت عن شأوِك الأُمم وأبْدَت العجزَ منها هذه الهمَمُ
أخَيْمةٌ ما نصبت اليوم، أمْ فلكٌ ويقْظةٌ ما نراهُ منك، أم حُلُم؟
ما كانَ يخْطُر في الأفكارِ قبلك أن تَسمُو عُلوًّا على أفْقِ النُّهى الخِيَم
حتى أتيت بها شمَّاءَ شاهقةً في مَارِن الدَّهر من تِيهٍ بها شَمَمُ
إنّ الدّليل على تكوينها فَلَكاً أن احْتَوتك، وأنت النَّاس كلُّهم

ومنها: [من البسيط]

لَدَيْكَ جيشٌ وجَيْشٌ في جوَانِبها مُصوَّرٌ، وكلا الجيْشَين مزْدَحِم
إذَا الصَّبا حرَّكتها ماج موكبُها فمُقْدِمٌ منهم فيها ومُنْهزِم
أَخَيْلُها خَيلُك الّلاتي تُغِيرُ بها فَليْس تُنْزع[1] عنها الحُزْم واللُّجُم
علَّمْت أبطالَها أن يُقْدِموا أبداً فكلُّهم لغُبار الحرْبِ مُقْتحم
أمَّنتَهم أن يَخافوا سطوةً لِردَى فقدْ تَسالَمت الأسياف والقِمَم[2]
كأنّها جنَّةٌ، والقاطِنُون بها لا يستطِيلُ على أعْمَارِهم هَرَم
عَلَتْ،فخِلْنَا لها سَرًّا تحدِّثُه للفَرْقَدين وفي سَمْعَيْهما صَمَم
إنْ أَنبَتَت أرْضُها زهراً، فلا عجبٌ وقد هَمَت فوْقَها مِن كفِّك الدِّيَم

قال المؤرخ: وكان للأفضل شعر حسن، فمن قوله في غلامه المعالي: [من الخفيف]

أقضيبٌ يمِيسُ، أمْ هو قدّ أنْ شقيقٌ يلُوح، أمْ هو خدّ
أنا مِثلُ الهلال سُقماً عليه[3] وهْوَ كالبَدْر حين وَافَاه سَعْدُ[4]

وكانت ولاية لأفضل سبعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر.

ذكر تفويض أمور الدّولة وإمرة الجيوش للمأمون البطائِحي

قال المؤرخ: وفي الخامس من ذي الحجة من سنة خمس عشرة وخمسمائة فوّض الآمر بأحكام الله أمورَ الدّولة وإمرة الجيوش للقائد أبي عبد الله محمّد ابن الأمير ثقة

---

(١) «وينزع» في نصوص من أخبار مصر لابن المأمون، ص ١٠٣.
(٢) «اللمم» في نصوص من أخبار مصر لابن المأمون، ص ١٠٣.
(٣) «خوفاً عليه» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٣.
(٤) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٦، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٣.

الدّولة أبي شجاع فاتك ابن الأمير منجد الدّولة أبي الحسن مختار المستنصريّ المعروف بابن البطائحي[١]، وكان قبل ذلك عند الأفضل أستاذ داره[٢]. واستقرّت نُعوته في سجله المقروء على كافة الأمراء والأجناد بالأجلّ المأمون، تاج الخلافة، وجيه الملك، فخر الصّنائع، ذخر أمير المؤمنين. ثُمّ نعِت بعد ذلك بالأجلّ المأمون، تاج الخلافة، عز الإسلام، فخر الأنام، نظام الدّين والدعاة، ثُمَّ نُعِت بعد ذلك بنعوت الأفضل وهي: السَّيِّد الأجل المأمون، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين[٣].

قال ناظم سيرة المأمون: ولما كان يوم الثلاثاء الثالث عشر من ذي الحجة من السّنة، وهو يومُ الهناء بعيد النّحر، جلس المأمونُ في داره وقْتَ أذان الفجر، وجَاء النّاس لخدمَته للهناء على طبقاتهم في أرباب البيوت والأقلام، ثم الشّعراء، وركب إلى القُصور، فأتى باب الذّهب، فوجد المرتبة المختَصَّة بالوَزارة قد هيِّئت له في موضعها الجاري به العادة، وأُغْلِقَ الباب الّذي عندها على الرَّسم المعتاد لوزير السّيف والقَلم، وهذا البابُ يُعرف باب السّرداب، فلما شاهد المرْتبَةَ توقّف عن الجلوس عليها لأنَّه لم يُذْكَر له ذلك قبل حُضوره، ثم أَلْجَأته الضَّرورة، لأجل حُضور الأمراء إلى الجلوس عليها فجلس وأولاده الثّلاثة عن يمينه، وأخَوَاه عن يساره، والأمراء المطوَّقُون[٤] خاصَّةً قائمون بين يديه، ومَنْ عداهُم لا يصل إلى هذا الموضع. فما كان بأسْرَع من أن فُتِح الباب وخرج عِدَّة من الأُستَاذين المحنكين[٥] وخرج إليه الأميرُ الثقة مُتولِّي الرّسالة

(١) ترجمته في الإشارة لابن الصيرفي، ص ٦٢ ـ ٦٤، والدرة المضية لابن أيبك الدواداري، ص ٤٨٨. وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٢٩٩. الوافي بالوفيات للصفدي، ج ٤، ص ٣١٣ ـ ٣١٤. والمنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٧، هامش ٣١٣.

(٢) «استاذ دولته» هي وظيفة الاستادار نفسها. في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٨. واستادارا: كلمة فارسية مركبة، وتطلق على متولي الوظيفة الاستادارية، ويقوم صاحبها بالإشراف على شؤون مسكن السطان أو الأمير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٧.

(٣) «وهادي دعاة المؤمنين أبو عبد الله محمد الآمري». المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٤٦٣. انظر أيضاً: المنتقى من أخبار مصر لابن ظافر، ص ٨٨. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٥. كنز الدرر، ج ٦، ص ٤٨٨، أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٨٨.

(٤) الأمراء المطوقون: وهم الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب في أعناقهم وكأنهم بمثابة الأمراء مقدمي الألوف: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٦.

(٥) «مطوقين» في الأصل، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٩، والاستاذون: وهم المعروفون بالخدام والطواشية، وهم الذين يدورون عمائمهم على أحناكهم كما تفعل العرب والمغاربة، وهم أقرب أرباب الوظائف الخاصة إلى الخليفة وأحضهم به، وكانت عدتهم تزيد على ألف. وكان من طريقتهم أنه من ترشح أستاذاً منهم للحنك وحنّك، حمل إليه كل أستاذ من المحنكين =

وزمان القصور[١]، فوقف أمام المرتبة وقال: أمير المؤمنين يرُدّ على السَّيِّد الأجلِّ المأمون السّلام. فوقف المأمون عند ذلك وقبل الأرض، وجَلَس في موضعه، وتأخر الأمير الثّقة حتى نزل من علي المصطبة التي عليها المرتبة وقبَّلَ الأرض ويَدَ المأمون، ودخل من فَوْره من الباب، وأُغْلِق الباب، على [حالة على][٢] ما كان عليه الأفضل.

قال: وكان الأفضل يقول: ما أزالْ أعُدّ نفسي سلطاناً حتى أجلسَ على تلك المرتبة ويغلق الباب في وجهي والدّخان في أنفي؛ لأنَّ الحمَّام كانت خَلْف الباب في السّرداب.

قال: ثم فُتح الباب وعاد الثّقة وأشار بالدُّخول إلى القصر؛ فدخل المأمُون إلى المكان الذي هُيِّيء له، ودُعِي لمجلس الوزارة، وبقي الأمراء بالدّهاليز إلى أن جلس الخليفة واستفتح المقرئُون. واستُدعي المأمون فحضر بين يديه وسلّم عليه أولادُه وإخوته[٣]؛ ثم دخل الأُمراء وسلَّموا على طبقاتِهم، ثمّ الأشراف وديوان المكاتبات[٤] والإنشاء، ثمَّ قاضي القضاة، والشّهود، والداعي، ثم مقدَّموا الرّكاب ومتولّي ديوان المملكة. ثُمَّ دخل الأجناد من باب البحر[٥]، وهو البابُ الذي يقابل المدرسة الكامليّة الآن، ثمّ دَخَل والي القاهرة ووَالي مصر وسلَّما بِبَياض أهل الْبَلدين، ثم البَطْرك والنَّصَارى والكُتَّاب منهم، وكذلك رَئيس اليهود. ودَخل الشُّعراء على طبقاتهم، وأنْشَد

= بدلة كاملة من ثيابه وسيفاً وفرساً فيصبح لاحقاً بهم وفي يده مثل ما في أيديهم. وكان يختار منهم شد التاج وصاحب المجلس، وصاحب الرسالة، وأزمة القصور وصاحب بيت المال، وصاحب الدفتر، وحامل الدواة، وأزمة الأقارب ومن يتولى طعام الخليفة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٧ ـ ٤٨١، وابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٨٩.

(١) زمام القصر: وهو الذي يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٩٠.

(٣) «وأخواه» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٩٠.

(٤) «ثم دخل ديوان المكاتبات، سلّم بهم الشيخ أبو الحسن بن أبي أسامة صاحب ديوان الإنشاء في أيام الخليفة الآمر بأحكام الله. ونُعت بالشيخ الأجل كاتب الدست الشريف. توفي سنة ٥٢٢ هـ/١١٢٨ م. ثم ديوان الإنشاء سلّم بهم الشريف ابن أنس الدولة. ثم تغيب الطالبين بالأشراف»، ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٩٠.

(٥) باب البحر من أبواب القصر الغربية. أنشأه الخليفة الحاكم بأمر الله، وسمي بذلك لأن الخليفة كان يخرج منه عندما يقصد التوجه إلى شاطىء المقس، وهو باب القصر الذي يواجه دار الحديث الكاملية، هدم في أيام الملك الظاهر بيبرس، وكان موضعه زمن المقريزي، يعرف بباب قصر بشتاك. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٢٤٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٣٦، حاشية ٧، المقريزي الخطط، ج ١، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤ و٣٨٥.

كلّ منهم ما سمحت به قريحته. وكانت هذه عادَة السّلام على مُلوك هذه الدّولة، وإنما أوْردنا ذلك ليُعْلم منه كيف كانت عادتهم[1].

وفي سنة سبع عشرة وخمسمائة ورد إلى الدّيار المصريّة طائفةٌ كثيرة من عَرب لَواته من جهة المغرب، وانتَهَوْ إلى الإسكندرية وأعمالها، وأفسدوا فساداً متحكِّماً. فندب المأمون إليهم أخاه نظامَ الملك[2] حَيْدرة، الملقّب بالمؤتَمن، فقاتلهم وهزمهم، وغنم أموالهم. وتوجَّه إلى الإسكندرية ودخلها، فصادف مراكب البنادقة قد هجموا على ساحل الثغر وأسرُوا، فخرج إليهم، وحاربهم وهَزَمهم، فعادوا[3].

ذكر القبض على المأمون

قال: وفي سنة تسع عشرة وخمسمائة في يوم[4] السّبت لأربع خلَوْن من شهر رمضان قبض الآمر بأحكام الله على وزيرة المأمون أبي عبد الله محمّد [ابن البطائحي][5] وعلى إخوته [الخمسة][6] وثلاثين نفراً من خواصّه وأهله، واعتقله، ولم يَزَل في اعتقاله إلى سنة اثنتين وعشرين، فَصَلَبه مع أخوته.

وقيل في سبب ذلك إنَّ المأمون[7] رَاسَل الأمير جعفراً، أخا الآمر، وأغراه بقتل أخيه وأنّه يقيمهُ مكانه في الخلافة، واسْتَقرّت القاعدة بينهما على ذلك، واتَّصَل ذلك

---

(١) لمزيد من التفصيلات انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٩ ـ ٩١.

(٢) «نظام الدين أبا تراب» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٩٣، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٩٥.

(٣) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٩٨. المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٩٣، الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٦١٧.

(٤) «في ليلة السبت» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٠٣.

(٥) ما بين حاصرتين زيادة للتوضيح.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٠٣ «وعلى أخيه المؤتمن واستولى على أموالهما وذخائرهما ثم قتلهما». ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٢٣.

(٧) يذكر ابن ميسّر في المنتقى من أخبار مصر، ص ١٠٤، أن الوزير المأمون البطائحي قد كتب إلى ابن نجيب الدولة أبي الحسن (وهو الأمير المنتخب عن الخلافة الفاطمية فخر الدولة الموفق في الدين داعي أمير المؤمنين علي بن إبراهيم) كتاباً بالتفويض له في الجزيرة اليمنية، وشد أزره، وأموره بجمع الأرمن والسودان. وكان المأمون البطائحي، قد ولي الوزارة للآمر سنة ٥١٥ هـ/ ١١٢١ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٢٣. حاشية (١). وفي سبب قتله أقوال مختلفة. انظر الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي للمناوي، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٥. وبعد قتل المأمون بقي الأمر بدون وزراء من رمضان سنة ٥١٩ هـ إلى ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٢٣، حاشية (١).

بالشيخ أبي الحسن علي بن أبي أسامة، متولِّي ديوان المكاتبات، وكان خصيصاً بالآمر قريباً منه، وناله من المأمون أذى كثير، فأعلم الآمر بالحال. وكان المأمون كثيرَ التطلُّع لأخبار النّاس والبحث عن أحوالهم، وكثر الوشاة في أيّامه.

قال ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل: كان ابتداءُ حال المأمون أن والدَه كان من جواسيس الأفضل بالعراق، فمات ولم يخلِّف شيئاً، فتزوّجت أمُّه وتركته فقيراً فاتصل ببعض البنائين بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسُّوق الكبير. فدخل مع الحمَّالين إلى دار الأفضل مرَّةً بعد أخرى فرآه الأفضل خفيفاً رشيقاً، حسن الحركة، حُلو الكلام والحجّة؛ فسأل عنه؛ فقيل هو ابن فلان؛ فاستخدمه مع الفرَّاشين. ثم تقدّم عنده وكبرت منزلته وعلت درجته، إلى أن انتهى إلى ما ذكرنا[١]. قال محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب[٢] في تاريخ مصر: إن ابن الأثير وَهِم في وفاة والد المأمون، وأن والدَه مات في سنة ثنتي عشرة وخمسمائة، والمأمون إذ ذاك مدبِّر دولة الأفضل[٣]. وأكثر النّاس يذكرون ما ذكره ابن الأثير.

وقال صاحب كتاب البُستان في حوادث الزّمان: إن المأمون كان يرُشّ بين القصرين، وجدّه من غلمان المستنصر بالله. والله أعلم[٤].

ذكر أخبار أبي نجاح بن قنا النصراني الراهب وقتله

كان هذا الرّاهب من أهل أُشْمُوم طَنَّاح[٥]. وكان قد خدَمَ وَلِيَّ الدّولة يُحَنَّا بن أبي الليث، ثم اتّصل بالخليفة الآمر بعد القبض على المأمون. وبذل في مُصَادرة قومٍ من النصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم. وتسلسل الأمر إلى أن عمّ البلاءُ منه جميعَ رؤساء الدّيار المصريّة وقُضاتها وكُتَّابها وغيرهم. ولم يَبْق أحدٌ إلا ناله منه مكروه من الضَّرب والنهب وأَخْذ المال. وارتفع شأنُه عند الآمر حتى كان يعمل له[٦] ملابس مخصوصة به بدمياط وتنّيس من الصُّوف الأبيض المنسوج بالذّهب، فكان يلبسها ويلبس من فوقها الغفافير الدّيباج[٧]. وكان يتطيب في كلِّ يوم بعدة مثاقيل من المسك. وكان

---

(١) «حتى صار وزيراً» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٦٢٩. وانظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٠٤.

(٢) المعروف بابن ميسّر.

(٣) المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٠٤.

(٤) انظر كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٤٩٣.

(٥) أشموم طناح: أشمون الرمان: مدينة قديمة، قرب دمياط، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ق ٢، ص ٢٢٩.

(٦) «إلى أن كان يستعمل له» في الأصل، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٠٨.

(٧) «عفارة ديباج» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٠٨.

يركب الحمير بالسُّروج المحلاَّة بالذهب والفضة، ويجلس في قاعة الخطابة بالجامع العتيق بمصر ويَسْتدعي النّاس للمصادرة[١]. فاستَدْعى في بعض الأيام رجُلاً يُعرف بابن الفرس، وكان من أكابر العدول ذوي الهيئات والدّيانة، والناس يعظمونه ويبجّلونه ـ وأوقع به الإهانة والإخراق؛ فخرج من عنده ووقف في الجامع يومَ الجمعة وقال: يا أهل مصر، انْظُروا عَدْل مَوْلانا الآمر في تمْكِينه هذا النّصراني من المسلمين! فارتَجَّ الناس لكلامه وكادت تكون فتنة؛ فدخل جماعةٌ على الآمر، وخوَّفُوه العاقبة، وعرّفوه ما حلَّ بالمسلمين منه فاستدعاه، وكان في المجلس رجلٌ من الأشراف[٢]، فأنشد الآمر أبياتاً منها: [من السريع]

إن الّـذي شُـرِّفَـت مـن أجْـلـه ... يـزعـمُ هـذا أنّـه كـاذب

فقال له الآمر: ما تقول يا راهب؟ فمسكت. فأمَرَ به فقُتل. وكان الّذي تولّى قتله الأمير مقداد والي[٣] مصر، وصَلَبه على الجسر، ثم أُنْزل ورُبط على خشبةٍ ورُمِي في بحر النيل وخرجت الكتب إلى الأعمال البحريّة أنّه إذا ألقاه الماءُ إلى جهةٍ أخرجُوه عنها حتى ينتهي إلى البحر المالح.

ولما قُتِل هذا الرّاهب وجدُوا له مقطعاً فيه ثلاثمائة طُرَّاحة[٤] سامان محشوةً، جُدداً لم تُستعمل. هذا مِنْ هذا النّوع، خَلاَ ما وُجد من الذّهب والفضة والأقمشة والديباج[٥].

ذكر مقتل الآمر بأحكام الله وشيء من أخباره

كان مقتله في يوم الثلاثاء لِلَيْلَتَين خَلَتا[٦] من ذي القَعدة سنة أربع وعشرين

---

(١) بشأن المصادر. انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٨٨، ٨٩.

(٢) هو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري الأندلسي الطرطوشي الفقيه المالكي الزاهد، المعروف بابن ابن رندقة. ولد سنة ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م، وتوفي ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٦٤. ترجمته في: عبر الذهبي، ج ٤، ص ٤٨. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٦٢. ونفح الطيب للمقري التلمساني، ج ٢، ص ٨٥.

(٣) «ولي» في الأصل، والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٢٦.

(٤) طراحة: الفراش الذي يجلس عليه ويرتاح. الفيروزابادي: القاموس المحيط (طرح).

(٥) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٨٨ ـ ٨٩، المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٠٧ ـ ١٠٩، اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٢٥ ـ ١٢٧.

(٦) «الرابع من ذي القعدة» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٣٠. و«ثالث ذي القعدة» في وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٠١. وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٧١. و«ثاني ذي القعدة» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٦٦٤.

وخمسمائة، بجزيرة مصر[1] بالقرب من المقياس. وثبَ عليه عشرة نفر من النِّزارية وقتلُوه، فحمل في جل[2] إلى الجامع، ونقل في مركب عشاري[3]، وأُحْدِر إلى اللؤلؤة في الخليج، ثم حُمل إلى القصر؛ فتوفي بقية يومه. وقُتِل القومُ الذين قتلوه.

وكان مولدُه في يوم الثلاثاء لليلةٍ خلت من المحرّم[4] سنة تسعين وأربعمائة وقتل في يوم الثلاثاء سابع عشر المحرم[5] منها، فكان عمره أربعاً وثلاثين سنة وعشرة أشهر وولايته تسعة وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصف شهر. وكان محكُوماً عليه إلى أن قُتل الأفضل وتولّى المأمون فظهر أمره، وصار يتصرَّف [ويركب][6] في يوم الجمعة ويوم السّبت ويوم الثلاثاء وإذا لم يركب في يوم منها ركب في غيره. ولم يَستَوْزِر بعد المأمون وزيراً للسّيف والقلم، بل استبَدَّ بأموره وباشرها بنفسه.

وكان قبيح السّيرة في رعيّته، يظلمُهم ويأخذُ أموالهم ويغتصب أملاكهم؛ وسفك دماءَهم، وارتكب المحذورات، واستحسن القبائح. ويكفي من سُوء سيرته تمكينُه الرّاهبَ من المسلمين، وقد تقدم خبرُه[7].

ووُلد للآمر في هذه السنة ولدٌ سمي أبا القاسم الطيّب وجعله وليَّ عهده[8]،

---

(1) «جيزة مصر» في الأصل. والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٣٠، والمنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١٠، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٧٢، كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٥٠٤، وأخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٩١. والجزيرة: المراد بها جزيرة الروضة. وهذه الجزيرة واقعة في مجرى النيل بين مصر القديمة ومنطقة القصر العالي من الجهة الشرقية للنيل وبين بندر الجيزة وشاطىء النيل الغربي من الجهة العربية. عرفت باسم الجزيرة، وجزيرة المقياس، وعرفت أيضاً باسم جزيرة الحصن، ثم باسم جزيرة الروضة نسبة إلى البستان الذي أنشأه في نهايتها البحرية الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ م، وسماه «الروضة» ومن الك الوقت إلى اليوم صارت الجزيرة تعرف باسم جزيرة الروضة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٧٠. حاشية رقم (٣).

(2) الجل للدابة: كساء أو غطاء يقيها من البرد. ابن منظور: لسان العرب (جلل). في شليل من أشلة الخيل. في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٩١.

(3) عشاري: عشاريات: مركب صغير يستخدم عشرين مجدافاً ويكثر استعماله في نهر النيل. النخيلي: معجم السفن الإسلامية، ص ٩٥.

(4) «ولد يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم» في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٩١، والمنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١٠، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣١.

(5) هذا يخالف ما ذكره النويري في أول الفقرة.

(6) ما بين حاصرتين إضافة من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١١.

(7) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١١.

(8) في الكامل لابن الأثير: «ولما قتل لم يكن له ولد بعده، فولي بعده ابن عمه الميمون عبد المجيد ابن =

فأخْفَاه الحافظ. وزراؤه: الأفضل؛ ثم المأمون.

قضاته: ابن ذكا النابلسي إلى أن رَفَعَ إبراهيم حمزة الشاهد إلى الأفضل أمير الجيوش أنه أحدث في مجلس الحكم فعزله؛ ووَلّى أبا الفضل نعمة بن بشير الجليس النابلسي إلى أن استقال؛ فولّى الرشيد أبا عبد الله محمد بن قاسم الصقلي إلى أن توفي؛ فأعاد الجليس ثم صرفه؛ وولّى أبا الفتح مسلم، فبقي إلى أن تولى المأمون فعزله ونفاه ولمّا أخْطأ في قراءته؛ وولّى أبا الحجاج يوسف بن أيوب الأندلسي إلى أن تُوفّي في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة؛ فولّى الآمر أبا عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسِّر القيسراني، فاستمر إلى أن قُتل الآمر بأحكام الله[١].

ذكر بيعة الحافظ لدين الله[٢]

هو أبو الميمون عبد المجيد بن محمّد بن المستنصر بالله، وهو الحادي عشر من ملوك الدّولة العُبَيْدِيّة والثّامن من ملوك الدّيار المصريّة منهم. بُويع لهُ بَعْد مقتل ابن عمّه الآمر، في يوم الثلاثاء لِلَيْلَتَيْن خَلَتَا من ذي القَعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، بولاية العهد إلى أنْ يستبرىءَ نساءُ الآمر وهل فيهنَّ مَنْ هي مشتملةٌ على حَمْل أمْ لا.

ذكر قيام أحمد بن الأفضل الحافظ وما كان من أمر أحمد إلى أن قُتل

قال المؤرّخ: لما بُويع الحافظُ لِدِين الله ثار الجُنْد الأفْضليّة وأخرجوا ابنَ مولاهم، أبا عليّ أحمد بن الأفضل الملقّب بكتيفات، وولّوه إمْرة الجيوش؛ وذلك في يوم الخميس السّادس[٣] من ذي القَعدة منها، فحكم، واعتقل الحافظَ صبيحة يوم بيْعته، ودعا لِلإمام المُنتظر؛ وقَوِي أمرُ ابن الأفضل.

وفي سنة خمس وعشرين رتّب أحمد بن الأفضل في الأحكام أربعة قضاة:

= الأمير أبي القاسم بن المستنصر بالله» ابن الأثير: الكامل، ص ٦٦٥. وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي: «قتل الآمر ولم يخلف ولداً ذكراً»، ج ٥، ص ٢٣١.

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٩٢، والمنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١٢، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) أخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٣، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦، وخطط المقريزي، ج ١، ص ٣٥٧، المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١٣ ـ ١٤١. وحسن المحاضرة للسيوطي، ج ٢، ص ٢٢. والكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٣٦١، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٣٧ ـ ١٤٠. شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ١٣٨. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٣١ ـ ٢٧٧.

(٣) «سادس عشر» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١٣.

الشّافعية والمالكية والإسماعيلية والإمامية، يحكم كلُّ قاض بمقتضي مذهبه ويُورِّث بمقتضاه، فكان قاضي الشافعيّة الفقيه سلطان(١)، وقاضي المالكية اللّبني(٢)، وقاضي الإسماعيلية أبو الفضل(٣) ابن الأزرق، وقاضي الإمامية ابن أبي كامل(٤).

وسار أحمد بن الأفضل سيرةً جميلة بالنِّسبة إلى أيّام الآمر، وردَّ على الناس بعضَ مُصادراتهم، وأظْهَر مذهبَ الإمامية الاثني عشرية، وأسقط من الأذان قولهم «حيَّ على خيْر العمل» وأمر بالدّعاء لنفسه على المنابر بدعاءٍ اخترعه لنفسه وهوَ: «السّيد الأجلّ الأفضل، مالك أصحاب الدُّول، والمحامي عن حَوْزة الدّين، وناشر جَناح العدل على المسلمين، الأَقْرَبين والأَبْعدين، ناصرُ إمام الحقّ في حالَتَي غيبته وحُضوره، والقاسم بنُصرته بماضي سيفِه، وصائب رأيه وتدبيره، أمينُ الله على عباده، وهادي القُضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده، ومرشدُ دُعاة المؤمنين بواضِحِ بيانه وإرشاده، مُولي النعم، ورافعُ الجَوْر عن الأمم، مالكُ فضيلَتَي السَّيف والقلم؛ أبو علي أحمد بن السيد الأجلّ الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش»(٥).

واستمر أمرُه إلى يوم الثّلاثاء سادس عشر المحرّم(٦) سنة ستٍّ وعشرين وخمسمائة. فاتّفق ركُوبه في هذا اليوم إلى الميدان بالبُستان الكبير(٧) ظاهرَ القاهرة، لِلَّعب بالأكرة(٨) على جاري عادته، فوثَبَ عليه مملوكٌ روميٌّ، وقيل بَلْ من صِبيان الخاصّة(٩)، فطعنه طعنةً ألقاه بها عن فرسه، ونزل واحتزَّ رأسه، ومضى به إلى القصر؛

(١) هو سلطان بن إبراهيم بن مسلم المقدسي، لقب بابن رشا. توفي سنة ٥٣٥ هـ/ ١١٤٠ م. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٧٥. الذهبي: العبر، ج ٤، ص ٤٢، ابن ميسّر، المنتقى من أخبار مصر، ص ١٣٣.

(٢) هو محمد بن عبد المولى بن محمد بن عبد الله اللبني المغربي. المقريزي:اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٤٢.

(٣) هو هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمد، أبو الفضائل، عرف بابن الأزرق. المقريزي:اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٤٢.

(٤) هو المفضل بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن أبي كامل، المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٣، ص ١٤٢.

(٥) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١٦. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٦) «في العشرين من المحرم» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٤٣.

(٧) «البستان الكبير خارج باب الفتوح من القاهرة» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٤٣. وكان يمتد من زقاق الكحل خارج باب الفتوح إلى المطرية. المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٨٧.

(٨) الأكرة: لعب بالكرة. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٣٤. واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٤٣، والمنتقى من أخبار مصر، ص ١١٥.

(٩) صبيان الخاص: وهم جماعة من أخصاء الخليفة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٧.

وذلك بمُوافقَةِ من الأجناد، فكانت مُدَّة تغلُّبه على الآمر سنة واحدة وشهرين وثلاثة عشر يوماً؛ ودُفن بتربة أبيه خارج باب النصر[١].

ذكر بيعة الحافظ لدين الله الثانية

قال: ولما قُتل أحمد بن الأفضل بويع الحافظ بالخلافة بيعةً عامَّة، وظهر الحمْلُ المنتظر بتّاً، فانتقلت الخلافة إليه، وأمر أن يُدْعى له على المنابر: «اللّهم صلِّ على الذي شَيَّدْت به الدّين بعد أن رامَ الأعداءُ دُثورَه، وأقرَرْت الإسلام بأنْ جعلت طُلُوعه على الأمَّة وظهورَه، وجعلْتَه آية لِمَنْ يدبِّر الحقائق بِبَاطِنِ البصيرة، مولانا وسيِّدنا وإمامِ عصْرنا وزمانِنا، عبد المجيد أبي الميمون، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، صلاةً دائمة إلى يوم الدين[٢]».

قال: ولما تم أمر الحافظ استوزر أبا الفتح يانس[٣]، وهو روميّ من مماليك الأفضل، ولقبه بأمير الجيوش؛ فقتل الطّائفة المعروفة بصبيان الخاصّ، ومن جملتهم قاتلِ أحمد بن الأفضل. وكان عظيم الهيبة، بعيدَ الغَوْرَ، فخافه وتخيَّل منه، وتخيَّلَ يانس أيضاً من الحافظ، فدبّر كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه، فَسَبَقَ تدبيرُ الحافظ فيه فسَمَّه في إبريقٍ استعمل الماء منه عند الطَّهارة، فعولج وكادَ أن يبرأ، فكلّم الحافظُ بعض الأطباء، فقال له الطبيب: إن رأي مولانا أميرُ المؤمنين أن يمْضي إليه ويزورَه ويهَنِّئَه بالعافية فإنّه لا بُدَّ أنْ ينهض ويمشي، فإذا مشى لا يكاد يعيش أبداً. فمضى إليه الحافظ فقام إليه وتلقَّاه، فمات في ليلته؛ وذلك في السّادس والعشرين من ذي الحجة[٤]، فكانت مدةُ وزارته تسعة أشهر.

ذكر الخُلف بين ابنَيْ الحافظ لدين الله

قال المؤرخ: «وفي شعبان سنة ثمان وعشرين وخمسمائة جرى بين أبي تراب حَيْدرة وحَسَن، ولدَيْ الحافظ، حربٌ شديدة، وافترقت العساكر على فرقتين، وهما الرَّيحانية والجيوشية، وكان بينهما وقعةٌ في خامس شهرِ رَمضان ووقع الحرب بينهما بين القَصْرين؛ وقُتل من الطَّائفتين تقدير عشرة آلاف إنسان. وكان سبب ذلك أن الحافظ

---

(١) تربة أمير الجيوش بدر الجمالي، هي أول تربة أنشئت بمقابر باب النصر. المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٤٦٣.

(٢) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٣) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٣٥. وفيها «أمير الجيوش صاحب حارة اليانسية».

(٤) «لليلتين خلتا من ذي القعدة» في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٩٨. كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ٥٠٦.

جعَل ولَدَه حَيْدرة وليَّ عهده من بعده، فلم يرْضَ حسن بذلك، فوقع الاختلاف والحرب بينهما. واستَظْهر حسن على أخيه حيدرة، فهرب حيدرة إلى أبيه، فأرسل الحافظ إلى ابنه حسن ليدخل إليه، فامتنع وضايق القصر، وطالبه بأخيه حيدرة، فتلافاه الحافظ وجعلهُ وليّ عهده من بعده. وتمكّن حَسن من الدّولة والتصرُّف فيها بحَسب رأيه، ولم يبق للحافظ معه حكم»[١].

ذكر مقتل حسن بن الحافظ

كان مقتلُه في يوم الثّلاثاء الثّالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة وذلك أنّه لمّا استقرّ في ولاية العهْد والوزارة والتّدبير واستبدَّ بالأمر، قبض على جماعةٍ من الأمراء وقتلَهم، بسبب قيامهم مع أحمد بن الأفضل، وأقام غيرهم؛ فخَافَهُ مَنْ بقي من الأمراء العُتُق، وأجمعوا على خَلْع أبيه من الخلافة وولَدِه حسن من الوزارة فاجتمعوا بين القصرين، ورَاسَلُوا الحافظ وأعلَموه بما أجمعوا عليه، فاستَعْطَفهم الحافظ واعتذر إليهم؛ وهرب حسَن إلى أبيه، فقَبض عليه وقيَّده، وذكر ذلك للأمراء، فقالوا: لا بُدّ من قَتْله، فسقاهُ أبُوه سمًّا فمات، وجعله على سرير، وأمر الأُمراء بمشاهَدَتِه، فدخلُوا عليه ورأَوْه فسكتوا[٢]. وقيل إن قيام الأمراء كان بتدبير الحافظ[٣].

ذكر وزارة بهرام الأرمني

وفي يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة، وقيل لإحدى عشرةَ ليلةً خلَتْ منه، استوزر الحافظُ بهرامَ الأرمني النّصراني، ونعته بسيف الإسلام تاج المُلوك[٤]. وكان

---

(١) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١٩ ـ ١٢٠، اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٤٩.

(٢) يقول المقريزي في اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٥٥ ما يأتي: «وندبوا منهم أميراً يعرف بالجرأة يقال له المعظّم جلال الدولة محمد، ويعرف بجلب راغب الآمدي، فدخل إلى حيث حسن بن الحافظ، فإذا هو مسجى بثوب ملاءة فكشف عن وجهه وأخرج من وسطه سكيناً وغرزه في عدة مواضع من بدنه حتى تيقن أنه ميت. وانصرف إلى أصحابه وأخبرهم فتفرقوا» ويقول ابن الأثير: «فجرحوا أسافل رجليه فلم يجر منها دم فعلموا موته» الكامل، ج ١١، ص ٢٣. ويقول ابن تغري بردي: «وأخرج من وسطه بارشيناً فعزه بها في مواضع خطرة من جسده حتى تحقق موته، وعاد إلى القوم فأخبرهم فوثقوا منه وتفرقوا». النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٣٧.

(٣) انظر تفصيل ذلك في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٢١ ـ ١٢٣. واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٥٣ ـ ١٥٥. والكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٢٢ ـ ٢٣. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٩٠.

(٤) «تاج الخلافة» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٥٦. «تاج الدولة» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٢٤. «تاج الملوك» في المنتقى لابن ميسّر، ص ١٢٢.

بهرامُ المذكور قد وصل إلى الدّيار المصريّة واجتمع بالحافظ، فرأى منه عقلاً وافراً وإقداماً في الحرب وحُسْن تدبير[١].

وكان سببُ وصوله من بلاده أنّ القائم بأمر الأرمن مات، وكان بهرام أحقَّ بمكانه من غيره فَعَدَل الأرمنُ عنه وولَّوْا غيره، فغضب لذلك وخرج من تلّ باشر[٢] وقدم مصر؛ فعيَّنه الحافظ للوزارة. واستشار بعضَ أهله وأكابر دَوْلته فيه، فكلُّهم كرِه ذلك وأشار عليه ألا يفعل، وقالوا: إنَّه نصراني لا يَرْضاه المسلمون، وإن من شروط الوزارة أنّ الوزير يَرْقَى المنبر مع الإمام في الأعياد ليزرّ عليه المزرة الحاجزَة بينه وبين الناس؛ وأنّ القضاة هم نواب الوزراء، من زمن أمير الجيوش، بدر الجمالي، ويُذْكَرون في النّيابة عنهُم في الكتب الحُكْمية النّافذة عنهم إلى الآفاق وكُتُب الأنكحة. فقال الحافظ: إذا رضِيناهُ نحن فَمَنْ يخالِفُنا، وهُو وزير السيف؟ وأمّا صُعُود المنبر فيَسْتنيب عنه فيه قاضي القُضاة، وأمّا ذكرُه في الكتب الحكميّة فلا حاجة إلى ذلك. واسْتُوزِر والنّاس يُنكرون ذلك عليه[٣].

وقال بعض المؤرخين: إن بهرام كان واليَ الغربيّة يومئذٍ وإنّه سارَ منها مجدًّا إلى أن وصل إلى القاهرة وحاصَرها يوماً واحداً ودخلها. فلمّا ولي الوزارة وثبّتَتْ بها قدمُه سأل الحافظ أن يَسْمح له بإحضار إخوته وأهله، فأذن له في ذلك. فأرسلَ إليهم وأحضرهم من تَلِّ باشر، فتواصَلُوا حتى كَمُل منهم ومِنْ غيرهم من الأرْمَن تقديرُ ثلاثين ألف إنسان؛ فاستَطالوا على المسلمين. وبُنِيَت في أيّامه كنائسُ كثيرة ودِيَرَة حتى إن كل رئيس من أهله بنى له كنيسة؛ وخاف أهلُ مصر منهم أن يغيِّروا الملَّة الإسلامية. وكثُرت الشّكايات فيه. وكان أخوه المعروف بالباساك، وإليه تُنسب المنية[٤] التي بالقرب من إطفيح[٥]، قد وَلِي الأعمال القوصيّة فجار فيها جوْراً عظيماً واستباح الأموال، فعظم ذلكَ على النّاس.

---

(١) ورد في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٢٢: «وجاءت ألقابه في منشورين صادرين إلى رهبان جبل سيناء بتاريخ سنتي ٥٢٩ هـ/ ٥٣٠ هـ السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام غياث الأنام أبو المظفر بهرام الحافظي». وجاءت ألقابه أيضاً في أحد السجلات. الأمير المقدم المؤيد المنصور عز الخلافة وشمسها وتاج المملكة ونظامها فخر الأمراء شيخ الدولة وعمادها ذو المجدين مصطفى أمير المؤمنين بهرام الحافظي. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٣٢٥، ج ٨، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٢) تل باشر: حصن وكورة شمالي حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٠.

(٣) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٢٣، اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٥٦.

(٤) منية الباساك: قرية قديمة، وتعرف حالياً باسم المنيا، وهي تابعة لمحافظة الجيزة، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ٣، ق ٢، ص ٣١.

(٥) أطفيح: من المدن المصرية من أعمال الجيزة، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ٣، ص ٢٦.

ذكر خروج بهرام[١] من الوزارة ووزارة رضوان بن الولخشي

قال: ولما ثقُلت وطأة بهرام على النّاس اجتمع الأُمراء وكاتبُوا رضوانَ بن الولخشي، وذلك في صفر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وكان يوْمئذٍ متولي الغربيّة ولاه بهرام إيّاها إبعاداً له، فلمّا أتته كُتب الأمراء نهضَ في طَلب الوزارة، ورَقي المنبَر، وخطب خطبةً بليغةً حرّض النّاس فيها على الجهاد. فأجابوه. وحشد العُربان وقدِم إلى القاهرة. وكان الأمراء قد كاتبُوه وقالوا: إذا وَقع الوجْهُ في الوجْهِ ارْفَعْ المصاحف على الرِّماح فإنّا ننْحازُ إليك: ففعَل ذلك. وخرج بَهرام إليه لمّا قرُب من القاهرة: فلمّا عاين الأمراء والجُند المصاحفَ التحقوا جميعُهم برضوان، وبقي بَهرام في الأرمن خاصّة. فراسَل الحافظ وقال: أنا ألقاهُم بمَنْ معي. فخاف الحافظ عاقبةَ ذلك، فأمره أن يتوجّه إلى قوص ويُقيم عند أخيه الباساك إلى حين يدبّر أمراً. فعادَ بهرام إلى القاهرة، وأخذ ما خفَّ حمله، وخرج من باب البرقيّة في حادي عشر جمادى الأولى، وتوجّه إلى الأعمال القوصية.

قال: ولما انفصل عن القاهرة أتت العوامّ منازل الأرمن، وكانوا قد نزَلوا الحُسَيْنيّة[٢] وعمروها دوراً. ولمّا اتصل بأهل قوص انهزامُ بهرام ثارُوا بأخيه الباساك وقَتلُوه ومثّلُوا به، وربَطُوا في رجله كلباً ميّتاً، ورَمَوه على مزبلة. فَقَدِمَ بهرامُ بعدَ ذلك بيومين، ومعه طائفةٌ من أقاربه، فرأى الباساك على هذه الحال، فقَتَل جماعةً من أهل قوص بالسّيف ونهبَها وسار إلى أسوان. ثمّ رجع ونزَل بالدِّيَرَة البيض[٣]، وهي من أعمال أخميم بالجانب الغربي.

قال: ولمّا فارق بَهرام القاهرة دَخَلها رضوان ووقَف بين القصرين، واستأذَنَ الحافظ فيما يفعلُه؛ فأمره بالنّزول بِدارِ الوزارة، فنزلها، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة، ونعته بالأفضل. ونَدَبَ رضوان جماعةً من العسكر مع أخيه ناصر الدّين، فتوجَّهوا إلى بَهرام، فاستقرّ الأمر بينهم أن يقيم بالدِّيَرَة البيض؛ وعاد الجُند الّذين مع بَهرام إلى مصر. ودَبر رضوان الأمْرَ أحسن تدبير، وصادرَ جماعةً من أصحاب بهرام وشدّد عليهم الطّلب، وقتلهم بالسيف.

---

(١) «رضوان» في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) في المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٣٠. «نزلوا الحُسَيْنِيَّة ونهبوا كنيسة الزهري، ونبشوا قبر أخيه البطرك وعمروها دوراً» والحسينية: خارج باب الفتوح.

(٣) «فنزل بالأديرة البيض، وهي أماكن حصينة في غربي إخميم» ابن ميسّر، المنتقى من أخبار مصر، ص ١٢٥.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة أحضرت[١] من تنّيس امرأة بغير يَدَيْن، وموضع يديها مثل الحلَمَتين، فجيء بها إلى مجلس الوزارة بين يدَيْ رضوان، فعرَّفته أنّها تعمَلُ برجلَيْها ما يعملُه الناس باليدين من خطٍّ ورَقْم وغير ذلك. فأحضر لها دواةً، فتناولت الأقلام برجْلها اليسرى وتأمّلَتْها قلماً قلماً فلم تَرْض شيئاً منها؛ فأخذت السّكين وبَرَتْ لنفسها قلماً وشقَّته وقَطَّته، واستدعت ورقةً فأمْسكتها برجلها اليُمنى، وكتبت باليُسرى بأحسن خطٍّ ما تكتُبُ النِّساء بأيدِيهنَّ مثله، وحمدت الله في آخر الرُّقعة، وناوَلَتْها للوزير. فتناوَلَها فوجدها قد سألتْهُ الزّيادة في رَاتِبها؛ فزَادَها، وأعادها إلى بلدها[٢].

وفيها بنى رضوان المدرسة المعروفة به بالإسكندرية[٣]، واستدعى الفقيه أبا طاهر بْنَ عوف[٤] إلى حضرته وأسْند إليه تدْرِيسَها.

ذكر خروج رضوان من الوزارة وما كان من أمره إلى أن قتل

وفي شهر رمضان سنة ثلاثٍ وثلاثين وخمسمائة أحضر الحافظ بَهرام الأرمني من الصَّعيد، وأسكنه في القُصور وأكرمه، فعظُم ذلك على الأفضل رضوان، فشغَب الحافظُ عليه الجند، فقام بعضُهم عليه، وجرت بينهم حربٌ بالقاهرة. وطلب رضوان أنْ يسكُن مع الحافظ في القُصور، فلم يمكِّنه. فتزايَد الحالُ على الأفضل وضعُفَت قدرته عَنْ لقاء العساكر، فهرب إلى الشام، وذلك في منتصف شوال منها، وقصد كُمشْتكين والي صَرْخَد[٥]، فأقام عندَه

---

(١) «أحضر» في الأصل، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر، ص ١٢٩. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٦٧.

(٢) ابن ميسّر: المنتقى من أخبار مصر، ص ١٢٩ ـ ١٣٠، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٦٧.

(٣) وهي أول مدرسة أنشأت في مدينة الإسكندرية بل في مصر كلها، وتعرف بالمدرسة الحافظية نسبة إلى الخليفة الحافظ الذي أنشئت في عهده. أنشأها رضوان بن ولخشي للفقيه المالكي أبي الطاهر بن عوض، جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية، ص ٤٨، المقريزي: المنتقى من أخبار مصر، ص ١٣٠، ذكر القلقشندي نص السجل الصادر من الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي بتعيين ابن عوف مدرساً لهذه المدرسة وذكر اسمها وموقعها والوزير الذي أشار إلى إنشائها والأسباب الداعية إلى ذلك. صبح الأعشى، ج ١، ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩.

(٤) هو إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسى بن عوف الزُّهري. ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل عبد الرحمٰن بن عوف وكان شيخ المالكية في مدينة الإسكندرية طوال القرن السادس الهجري، فقد ولد سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م. وتوفي سنة ٥٨١. عن ست وتسعين سنة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٩١، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٦٨.

(٥) صرخد: ملاصقة لبلدة حوران من أعمال دمشق، وكانت من القلاع الحصينة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠١.

فأكرمه[١]. ثم عاد إلى مصر في سَلْخِ المحرَّم سنةَ أربعٍ وثلاثين وقد جمع جمعاً صالحاً من الجند، فخرج إليه العسكر وحاربُوه عند باب الفُتوحِ، فمضى ونزل عند الرَّصد، ثم مَضَى إلى الصَّعيد. فندب إليه الحافظُ الأمير سيفَ الدّولةَ أبا الفضل[٢] بن مَصَال بأمان؛ فسار إليه وتلطَّف به، إلى أن أحضره إلى القَصْر، في رابع شهر ربيع الآخر من السّنة، فاعتقله في بعض قاعات القصور. فأقام في الاعتقال إلى سنة اثنتين وأربعين[٣]، فخرج من نَقْبٍ نقبه في القصر، وذلك في ليلة الثلاثاء لسبعٍ بقَينَ من ذي القعدة[٤] منها. وركب وحَوْله جماعةٌ ممن كان يكاتبه، وتوجَّه إلى الجيزة، ولقِيَ عسْكر الحافظ وقاتَلَهم عند جامع ابن طُولُون، فهزمهم. ودَخَلَ القاهرة، ونزَل بالجامع الأقمر[٥]، وأغلق الحافظُ باب القصر في وَجْهه؛ فاستحضَر رَضوان أربابَ الدّولة والدّواوين، وأمَرَ ديوانَ الجيش بِعَرض الجُند، فعرضهم، وأخذ أموالاً كثيرة خارجةً عن القصر كانت في الدواوين، وأنفق؛ وأرسل إلى الحافظ في طَلَب المال، فأرسل إليه عشرين ألف دينار. وأمَر الحافظُ مقدَّمي السُّودان بالهُجوم على رضوان وقتله، فهجمُوا عليه، فهمَّ بالركوب، فأعْجلُوه عن ذلك، وضربه بعضُهم بسيفٍ فقتله وقُتِل معه أخوه، وأحضرت رأسَاهُما إلى الحافظ. وسكنت الفتنة[٦]، وأرْسَل الحافظ الرأس لزوجة رضوان فلمّا وقع في حِجْرها قالت: هكذا تكُون الرجال. فلم يكن في وقت رضوان أسمع منه.

وكان مولده في سنة تسعٍ وثمانين وأربعمائة[٧]. وأوّل ولايةٍ وَلِيَها الأعمال

(١) للتوضيح انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٩٩، ذيل تاريخ دمشق، لابن القلانسي، ص ٢٧٠، الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) هو نجم الدين أبو الفتح سليم (وقيل سليمان) محمد بن مصال اللكي المغربي، نسبته إلى «لك» بضم اللام وتشديد الكاف، وهي بلدة عند برقة من أعمالها ابن خلكان: ج ٣، ص ٤١٦، وكان اعتباراً من سنة ٥٣٩ هـ ناظراً في الأمور (المصالح)، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٦، ص ٥٢١ ـ ٥٤٠. وانظر أيضاً خطط المقريزي، ج ٢، ص ٣٠.

(٣) «إلى سنة ثلاث وأربعين» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩.

(٤) «في ٢٣ ذي القعدة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٧٢، حاشية رقم (١).

(٥) الجامع الأقمر: بناه الخليفة الآمر بأحكام الله سنة تسع عشرة وخمسمائة، وقام على إنشائه وزيره المأمون البطائحي. وذُكر أن اسم الآمر والمأمون عليه، وتجديد الملك الظاهر بيبرس للجامع. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٩٠. ولا يزال هذا الجامع قائم الشعائر إلى اليوم. سنة ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٤ م بشارع النحاسين بقسم الجمالية بالقاهرة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٧١.

(٦) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٩٩. والكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٧٢.

(٧) «كان مولده في غدير خُمّ في سنة تسع وثمانين وأربعمائة» المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٣٨. الاعتبار لأسامة بن منقذ، ص ٣٢.

القوصيّة والأعمال الإِخميمية في سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة[١].

ذكر وفاة بهرام الأرمني

كانت وفاته لستٍّ بقين من شهر ربيع الآخِر سنةَ خمسٍ وثلاثين وخمسمائة بالقُصور، وكان الحافظُ قد أسكنه بدَارٍ بها لم يمكِّنْه من التصرف، وكان يشاوره في تدْبير الدَّولة والأمور ويصدر عن رأيه. فلمَّا هلك حزن عليه حزناً شديداً، وأمر بغَلْق الدَّواوين ثلاثةَ أيام.

وأحضر الحافظ بطرك الملكية بمصر، وأمره بتجهيزه، فجهَّزه. وأُخرج وقتَ صلاة الظُّهر في تابوت عليه الدِّيباج، وحولَه جماعةٌ من النّصارى يُبَخِّرون باللّبان والسَّندرُوس والعُود؛ وخرج النّاس كلُّهم مُشاة ولم يتخلّف عن جنازته أحد من الأعيان. ثمّ خرج الحافظُ على بغلةٍ خلف التّابوت وعليه عمامةٌ خضراء وثوبٌ أخضر بغير طَيْلسان. ولم تزل النّاس مُشاةً والقَسُوس يُعلنون بقراءة الإنجيل، والحافظ على حالته إلى دَيْر الخندق[٢] بظاهر القاهرة؛ وقيل بَلْ في بُستان الزّهري في الكنيسة المستجدة[٣]. ونزل الحافظُ عن بَغْلته، وجلس على شَفِير القبر، وبكى بكاء[٤] كثيراً.

وفي سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة طلع النّيل حتى بلغ تسعةَ عشر ذراعاً وأربع أصابع[٥]، ووصل الماءُ إلى الباب الجديد[٦] أوّل الشارع الأعظم بالقاهرة، وصار النّاس

---

(١) تولى رضوان بن الولخشي الوزارة للحافظ من ١١ جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ/ ١١٣٦ م. حتى ١٤ شوال سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٧٢. حاشية رقم (١). المناوي: الوزارة في العصر الفاطمي، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٢) دير الخندق: ظاهر القاهرة من بحريها، عمّره جوهر الصقلي عوضاً عن دير هدمه بالقاهرة. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٥٠٧.

(٣) كنيسة الزّهري: موقعها غربي اللوق، وكانت في بر الخليج الغربي، وكانت البركة الناصرية في هذا الموضع. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٥١٢.

(٤) لمزيد من التفصيل انظر المنتقى من أخبار مصر للمقريزي، ص ١٣٣. اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٧٥.

(٥) ورد في النجوم الزاهرة أمر النيل في سنة ٥٤٣ هـ «الماء القديم سبع أذرع وثماني أصابع مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وثلاث عشرة إصبعاً» ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٧٤. ويذكر ابن مماتي أن النيل إذا وصل إلى زيادة وقدرها ستة عشر ذراعاً فقد وجب الخراج. وهذه الزيادة تبشر بمحصول جيد.ولكن إذا وصلت ثمانية عشرة ذراعاً فهذا قد يؤدي إلى فساد المحصول. قوانين الدواوين ص ٧٦.

(٦) الباب الجديد: أنشأه الخليفة الحاكم بأمر الله، على يُسرة الخارج من باب زويلة على شاطىء بركة الفيل، عند رأس حارة المنتجبية فيما بينها وبين حارة الهلالية. وكان يعرف بباب القوس، وكان هذا =

يتوجَّهُون من القاهرة إلى مِصر مِنْ جهة المقابر. ولمّا وصل الماءُ إلى الباب أظْهر الحافظُ الحُزن والانقطاع، فدخل عليه بعض خواصِّه وسأله عن السَّبب، فأخرج له كتاباً وقال له: انظُر هذا ا لسّطر؛ فقرأه: فإذا فيه إذا وصل الماءُ إلى الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد. وقال: هذا الكتاب الذي تُعْلَم منه أحوالُنا وأحوال الدّولة وما يأتي بعدها[(١)].

ذكر وفاة الحافظ لدين الله وشيء من أخباره

كانت وفاته في ليلة الخميس لخَمس خلَوْن من جُمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، ومولدُه في المحرّم سنة أربعٍ وستّين وأربعمائة، وقيل في المحرّم سنة ثمانٍ وستين[(٢)]. فكانت مدّة عمره ستًّا وسبعين سنة وشهوراً، ومدّة ولايته منذ بويع البَيْعة العامّة الثانية، بعد قتل أحمد بن الأفضل، ثماني عشرة سنةً وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً[(٣)].

قال المؤرخ: وكان الحافظ موصُوفاً بالبطش والتيقُّظ؛ وكان شديد المناقشة. وهو الذي عمل طبل القُولَنْج الذي كسَره الملكُ النّاصر صلاحُ الدّين يوسف؛ وكان هذا الطبل قد عُمِل من سبعةِ مَعَادن والكواكبُ السبعةُ في إشراقها. وكان خاصّتُه أنه كلّما ضُرب به ضَربة خرج الرّيحُ من مَخْرج الضَّارب[(٤)].

قال بعض المؤرخين: إنّ الحافظ خطَر بباله أن ينقلَ رسولَ الله ﷺ من المدينة إلى القاهرة، وكانت المدينةُ إذ ذاك يُخطَب بها لبَنِي العبّاس، لظُهور مُلُوك الدّولة

= الباب واقعاً في عرض الطريق المعروف اليوم بالمغربلين تجاه شارع الداودية. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٠٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٧، حاشية رقم (١).

(١) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٣٩ ـ ١٤٠. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٨٧.

(٢) اختلف المؤرخون في تاريخ ميلاده: في المحرم من سنة ٤٦٧ هـ بعسقلان» ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٣٦، رقم ٤٠٧. ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ١٤١. «في ٤٦٧ هـ أو ٤٦٨ هـ» ابن ميسّر: المنتقى من أخبار مصر، ص ١٤٠، ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، ص ٩٨. «في سنة ٤٦٦ هـ» ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٦، ص ٥٠٦.

(٣) «وكانت ولاية الحافظ على مصر تسع عشرة سنة، وسبعة أشهر» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٤٠. «وكانت خلافته عشرين سنة إلا خمسة أشهر» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٤١.

(٤) ورد في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٣، ص ٢٣٧ ما يأتي: «وهذا الحافظ كان كثير المرض بعلة القولنج، فعمل له شيرماه الديلمي، وقيل موسى النصراني. طبل القولنج الذي كان في خزائنهم لما ملك السلطان صلاح الدين». انظر أيضاً النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٣٢.

السَّلجقية؛ فأرسل نحواً من أربعين رجلاً من أهل النّجدة والقُدرة، فتوجهوا إلى المدينة وأقاموا بها مدّة، وتحيّلوا بأن حَفرُوا سَرَباً من مكان بعيد، وعملوا حساب الخُروج في المكان المقصود، فعصَم الله تعالى نبيَّه ﷺ من أن يُنْقل من المكان الذي اختارَه له؛ فيُقال إن السَّرَبَ انهار عليهم فهلكوا؛ وقيل بل سُعِي بهم فأُهلكوا.

وكان للحافظ من الأولاد: أبو عليّ حسن؛ هلك كما ذكرنَا؛ وعبدُ الله، هلك في حياته أيضاً؛ وأبو المنصور إسماعيل؛ وأبو الأمانة جبريل؛ ويوسف.

ووزارؤه: تقدَّم ذكْرهم. ولمّا قتل رضوان بن الولخشي لم يستَوْزر بعده أحداً، وإنما كانوا كتّاباً. فمِنْ أشهر كُتابه أبو علي حسن الأنصاري كان [القاضي][1] الفاضل يقول: لم يَسْمح الزّمان بمثله.

ومِن أشهر شُعرائه الشّريف أبو الحسن الأخفش المغربي، في جملة شعره في قصيدة: [من الرمل]

ذكــر الــدَّوْح وشَــاطــي بَــرَدَى وحَــبَابــاً فــيــه يَــحْــكِــي بَــرَدا

والــصَّــبا يَــمــرَحُ فــي أرجــائــه وتَــحُــوك الــرّيــحُ مــنــه زَرَدا

يَــنْــثــر الــدُّرُّ عــلــيــه فــضّــةً وتُــذيـب الشـمْـسُ فيه عَـسْـجدا

ورشــأ لَــوْ لــمْ تــكُــن ريــقَــتُــه خــمــرةً صــافــيــةً مــاعَــزْ بــدا

قضاته: لمّا غلب أحمد بن الأفضل على الآمر، أبقى محمدَ بن هبة الله بن ميسّر القَيْسَراني على القضاء، ثم صَرَفه الحافظ واستَقْضَى أبا الفخر صالح بنَ عبد الله بن أبي رجاء؛ ثم قبَض عليه الوزيرُ يانس الرُّومي وقتَله، فولّى سراج الدّين أبو الثُّريَّا نجمَ من جعفر، مضافاً إلى الدّعوة، إلى أن قُتل في ذي القَعدة سنة ثمانٍ وعشرين؛ فأعيد سناء الملك بن ميسّر، فأقا إلى أن قبض عليه في يوم الأحد لسبع خَلَوْن من المحرم سنة إحدى وثلاثين، وسيِّر إلى تنّيس فقتل بها. ووَلِيَ بعده القاضي الأعزّ أبو المكارم أحمد بن عبد الرّحمٰن بن محمد بن أبي عقيل، إلى أن تُوفي في شعبان سنة ثلاثٍ وثلاثين. وأقام الناس بغير قاضٍ ثلاثة أشهر، ثم ولي أبو الفضائل هبة الله بن عبد الوارث الأنصاري لإحدى عشرة ليلةً خلت من ذي القعدة منها. ثمّ جرت مفاوضةٌ بينه وبين «النبيه»[2] أبي الحسن علي بن «إسماعيل»[3]، قيل أدَّت إلى مصافَعَةٍ خرج في

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح. وهو عبد الرحيم بن علي بن الحسن العسقلاني القاضي الفاضل، الملقب مجير الدين، وزر للسلطان الملك الناصر صلاح الدين. توفي ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩ م. بالقاهرة. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٥٨ ـ ١٦٣، رقم ٣٧٤.

(٢) و(٣) ما بين مزدوجتين بياض في الأصل. والتكملة من أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١٠١. =

أثنائها القاضي إلى القَصْر وهو مخرَّق الأثواب وقد تحلَّقَت عمامته في حَلْقِه، فعظُم على الحافظ خروجُه على هذه الهيئة وغرَّمه مائتي دينار؛ واستناب أبا طاهر إسماعيل ابن سلامة الأنصاري، فأقام في النّيابة إلى مُسْتَهَلّ المحرّم سنة خمسٍ وثلاثين، فوفَّر جَارِي القضاء، وهو أربعون ديناراً في كل شهر، وخدم لجاري التَّقْدِمة في الدّعوة، وهو ثلاثون ديناراً، في الوظيفتين؛ فأُجيب إلى ذلك وأقام إلى أن صُرف لسبعٍ خلون من صفر سنة ثلاث وأربعين، وبقي على الدَّعْوة. ووَلِي القضاءَ أبو الفضائل يونس بن محمد بن الحسن المقدسي إلى آخر المدّة(١).

ذكر بيعة الظّافر بأعداء الله(٢)

هو أبو المنصور إسماعيل بن [عبد المجيد](٣) بن الحافظ لدين الله(٤)، وهو الثّاني عشر من مُلوك الدّولة العُبَيْديّة والتّاسع من مُلوك الدّيار المصريّة منهم. بُويع له بعد وفَاةِ أبيه لخَمْسٍ خَلَوْن من جمادى الآخرة سنة أربعٍ وأربعين وخمسمائة. واستَوْزَر الأمير نجم الدّين أباً الفتح سليم بن محمّد بن مصال(٥)، ونَعَتَه بالسّيد الأجل المفضّل أمير الجيوش؛ وكان إذْ ذاك من أكابر أمراء الدّولة.

وفي الرابع من شعبان من السَّنة اجتمع السودان وجماعةٌ من المفسدين بالبَهْنَسَانية(٦)، فخرج إليه الوزير فحاربهم وهزمهم.

= سبب الخلاف هو أن النبيه أبو الحسن علي بن إسماعيل قد عزل عن دار العلم التي أضيفت إلى هبة الله بن عبد الوارث القضاء ثم أعيدت إليه. وجرت بين النبيه والقاضي المذكور مفاوضات أدت إلى المصافعة. ابن ظافر أخبار الدول المنقطعة، ص ١٠١.

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١٠٠ ـ ١٠١.

(٢) ترجمته في فوات الوفيات لابن خلكان، ج ١، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨. أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١٠٢ ـ ١٠٧، الوافي بالوفيات للصفدي، ج ٩، ص ١٥١ ـ ١٥٣، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٧٨ ـ ٢٩٢. خطط المقريزي، ج ١، ص ٣٥٧. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ص ٢٨٦، الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٤١، ١٩١. حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢، ص ٢٢. المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤١ ـ ١٤٩.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٤٢.

(٤) انظر نص سجل بيعة الظاهر عند الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٤. وعند القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٩، ص ٢٨٦ ـ ٢٩١.

(٥) ترجمته في فوات الوفيات لابن خلكان، ج ٣، ص ٤١٦ ـ ٤١٧. وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٥٢١ ـ ٥٤٠. المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٠. تولى الوزارة في سنة ٥٣٤ إلى سنة ٥٤٤ هـ: الوزارة في العصر الفاطمي للمناوي ص ٢٨٠ ـ ٢٨٢.

(٦) البهنسانية: البهنسا: مدينة بالصعيد غربي النيل، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ص ٢، ج ٣، ص ٢١١ ـ ٢١٢.

ذكر قيام العادل بن السّلار ووزارته ومقتل ابن مصال

في هذه السنة ثار الأمير المظفّر أبو الحسن علي[١] بن السّلار والي الإسكندرية وخرج وحشد وتقدَّم بِمَنْ معه، ودخل القاهرة في يوم الأربعاء سابع شعبان، وَوَقَفَ على باب القصر. ورَاسَل الظافر والمدبِّر له من النساء؛ فراجَعَت في ذلك وفاء لابن مصال، ثم أجيبَ إلى ما سأله. وفُتح بابُ القصر، وخُلع على المظفَّر خُلع الوزارة ولُقّب بالعادل، فلمّا اتصلَ ذلك بابن مصال جمع عُربان البلاد، ووافقه بَدْر بنُ رافع مقدّم العربان بتلك البلاد؛ وقصد ابن السّلار فندب إليه ربيبَه عَبّاس بن يحيى بن تميم ابن المعزّ باديس بعسكر معه. فعسكر ببركة الحبش. فندب ابن مصال لحربه الأمير الماجد فجَدّ في السّير وكبس عسكر عباس، فأثخنهم جراحاً وقتلاً؛ فانهزَم عباس.

وأجمع ابن مصال رأيه على قَصْد بلاد الصّعيد، فعاجَله ابن السّلار وأمَدّ ربيبه بالعساكر وأمرَهُ بمُعاجلته قبل الجمع، فأدركه بالقُرب من دَلاَص[٢] والتَقَوْا بينها وبين مهد، وهي قرية هناك، واقتتلُوا؛ فانْجَلت الحرب عن قَتْل ابن مصال وبَدْر بن رافع. وكانت هذه الوقعة في يوم الأحد تاسع عشر شوال. وحُملَ رأس ابن مصال إلى القاهرة، وطيف له، وخُلع على العَادل في ذلك[٣] اليوم.

وفي السّادس والعشرين من شهر رمضان أَغلق العادلُ أبوابَ القاهرة والقُصور، وقَبَض على صِبيان الخاصّ وقتلهم، وكانوا جمعاً كثيراً وهُم أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدّولة فكان الرجل إذا تُوفّي وخلَّف أولاداً حُملوا إلى حضرة الخلافة وأودِعوا في أماكن مُفْردةٍ لهم. ويؤخذ في تعليمهم الفروسية وغير ذلك؛ وتسمَّوْا صِبيان الخاص. وكان سبب إيقاع العادل بهم أنه بلغه أنهم تعاقَدُوا على قَتْله، فبادر بهم، وقَبَض عليهم، وقَتَلَ أكثرهم، وجعل مَنْ بقي منهم في المراكز بالثغور[٤].

وفي يوم الجمعة لأربعٍ خَلَوْن من شوّال من السّنة قَتَل العادل أبا المكرّم الموفّق

---

(١) ترجمته في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٣، ص ٤١٦، رقم ٤٨٥. العبر للذهبي، ج ٤، ص ١٣١، المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤٢ ـ ١٤٣. أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١٠٣، اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٩٦ ـ ١٩٧. النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩، كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٥٥٢ ـ ٥٥٣.

(٢) دلاصي: بفتح أوله، كورة بصعيد مصر على غربي النيل أخذت في البر، تشتمل على قرى وولاية واسعة. ودلاص مدينتها معدودة في كورة البهنسا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٥٩.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٤١ ـ ١٤٢. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٩٦.

(٤) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤٣.

محمّد بن معصوم التنيسي ناظر الدّواوين، وكان سبب ذلك أن العادل في مبدأ أمره كان من صِبيان الحُجَر وكان يتكرر [دخوله][1] إلى الموفق برسائل ويكلّمه بكلام غليظ، فكرهه الموفّق، ثم كُتِب بعد ذَلك لابن السّلار منشورٌ بإقطاع، فدخل به إليه، فتَغافَل عنه وأهمل أمره؛ فقال له ابن السّلار: ما تسمع؟ فقال: كلامُك ما يدخل في أذُني أصْلاً، فأخذ ابن السّلار منشورَه وخرج مِنْ حيث أتى. فلمّا ولِيَ أمر الدّولة دخل عليه الموفّق وسلّم عليه، فقال له: ما أظنّ كلامي يدْخل في أذنك. فتلجلج بين يديه وقال له: عفو السّلطان. فقال: قد استعملتُ للعفو مِنْ حين خروجي مِن عندك، ما أتيتك به، وأشار لبَعض خدمه فأحضر مسماراً من حَديد عظيم الهيئة[2]، وقال: هذا والله أعْدَدْته لك مِنْ ذلك الوقت. وضَرب المسمار في أُذنِه حتى نفذ من الأخرى، وحُمل إلى باب زويلة الأوسط ودُقّ المسمار في خشبةٍ، وعُلّق عليها وقد مات.

ذكر ما فعله الفرنج بالفرما وما جهّزه العادل من الأسطول إلى بلادهم

وفي شهر رجب سنة خمسٍ وأربعين وخمسمائة أغار الفرنج على الفرما فنهبُوها وأحرقوها[3] وعادوا إلى بلادهم. فجهَّز العادلُ المراكب الحربيّة وشحَنَها بالرّجال وسَفَّرَها في شهر ربيع الأول سنة ستٍّ وأربعين، فمضت إلى يافا وقاتلوا مَنْ بها في المراكب، واستَوْلَوْا على عِدَّةٍ كثيرةٍ من مراكب الفرنج، وأحرقوا ما عجزُوا عن أَخْذِه، وقتلُوا خلقاً كثيراً. ثم امتدُّوا إلى ثغر عكّا وفعلوا فيه كَفِعْلِهم بيافا. وكذلك فعلُوا بصَيْدا وبَيْروت وطَرابلس. وأنكَوْا في الفرنج نِكَايةً عظيمة. ووجدُوا طائفةً كثيرة من حجّاج الفرنج فقتلوهم عن آخرهم. وكان جملة ما أنفق في هذا الأسطول ثلاثمائة ألف دينار.

وفي سنة ستّ وأربعين قُطِعت جميعُ الكساوي المرتّبة لِلأُمراء والدّواوين عن أربابها، وتوفَّرت.

ذكر مقتل العَادل بن السّلار وسَلطنة ربيبه عبّاس

كان مقتلُه في السّادس من المحرّم سنة ثمانٍ وأربعينٍ وخمسمائة. وكان سببُ ذلك أن العادة كانت جاريةً بتجريد عسكر من مصر في كلِّ سنة لحِفْظ عَسقلان من الفرنج، وكان الفرنج قد حاصرُوها في سنة سبعٍ وأربعين. فلمّا كان في هذه السنة وقعت القُرْعة في البَدَل على عبّاس رَبِيبِ العادل، وهو ابن يحيى بن تميم بن المعز بن

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح. من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤٣.
(٢) «عظيم الخلقة» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤٣.
(٣) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤٤.

باديس، فجرّده العادل بالعساكر، وقال له: هَذَا الثّغر قد نَازله الفرنج ولا غُنْيَة أن تتوجّه بالعساكر إليه لتدفَعَهم عنه. فخرج عباس من القاهرة ومعه جماعةٌ من أكابر الأمراء، منهم أسَامَةُ بن منقذ[1]، وكان خصيصاً بعبّاس فلمّا وصلُوا إلى بلبيس تَذَاكر عبّاس وأسامة القاهرةَ وطِيب المُقام بها وما خرجا إليه، وما يلْقَيَانِه من الشّدائد ولِقَاء العدوّ؛ فتأوّه عبّاس لذلك ولام عمّه كونه جرَّدَه، فقال له أسامة: لو أردت أنتَ كُنتَ سلطان مصر. قالَ: وكيف الحيلةُ في ذلك؟ فقال: هذا ولدُك نَصر[2]، بينَه وبيْن الظّافر مودَّةٌ عظيمة، فأَرْسِله إليه وخاطِبْه على لِسَانه أنْ تكونَ أنت السُّلطان مكان عمّك. فهو يختارُك ويكره العادل. فإن أجابك لذَلك فاقتُل عمّك.

فجهّز عبّاس ابنَه وعرّفه ما تقَرّر مع أسامة. فدَخَل إلى القاهرة على حينِ غفلةَ من العادل؛ واجتمع بالظّافر وأعلمه الحال؛ فأجاب لما طلب.

ثمّ مضى نصرٍ إلى عِند جدَّته، زوجةِ العادل[3]، وأعلـم العادل أنّ والدَه أعادهُ شفقة عليه من السَّفر. ومضى العادلُ إلى مصر وجهّز المراكب الحربية، وأنفق في رجالها ليلحق عبّاساً، وأقام طُول نهاره في العَرْض والنَّفقة على رجالها، وعادَ إلى دارِه بالقاهرة وهُو على غايةٍ من التَّعب. فلمّا نام على فراشه احتزّ نصْر بنُ عبّاس رأسه، ومضى به إلى القصر، ودخل إلى الظّافر، وجهّز إلى أبيه، فركب لوقته؛ ودخل القاهرة صبيحةَ نهارِ الأحد الثّاني عشر من المحرّم، فوجدَ جماعةً من الأتراك، كان العادلُ قد اصْطَنَعَهم لنفسه، قد ثارُوا لذَلك، فلاطَفَهم وطمَّنهم؛ فلم يَطمئنوا. ومضَوْا إلى دمشق.

وكانت وزارةُ العادل ثلاث سنين ونصفَ سنة تقريباً؛ وكان من الأكراد الزرزارية، ولمّا قُتل طِيف برأسه في القاهرة جميعاً، ونَصب الظّافر عبّاساً في السّلطنة[4].

ذكر مقتل الظّافر بأعداء الله وأخويه

كان مقتلُه في ليلة الخميس سلخ المحرّم ستة تسعٍ وأربعين وخمسمائة[5]. وذلك

---

(١) هو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الشيزري الأمير المتوفى سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م. وهو صاحب قلعة شيزر قلب حلب. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٧٩، حاشية رقم (١).

(٢) «ناصر الدين» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٠٤، وفي الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٩١.

(٣) هي السيدة بلاّرة ابنة القاسم بن تميم بن المعز بن باديس. ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ١٤٢.

(٤) انظر المنتقى من أخبار مصر للمقريزي، ص ١٤٧.

(٥) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٨٦. والكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٩١.

أنه خرج ليلاً متنكراً ومعه خادمان وجاءَ إلى دار نَصْر بن عبّاس، وهي الدّار المعروف قديماً بدار جبر بن القاسم ثم عُرفت بسكن المأمون بن البطائحي، وهي المدرسةُ المعروفة بالسُّيُوفيّة[١] في وقتنا هذا، المقابلة لحافر الدبابلة. بخُط سُوق السُّيُوفيين بالقاهرة وهي لطائفة الفقهاء الحنفيّة. فلمّا جاء الظّافر إليه قتله نصْرُ بن عبّاس، وحَفَر له تحت لوحٍ رخامٍ ودفنه[٢]، وقتل أحد الخادمين وهرب الآخر.

وكان سببُ ذلك أنّ الأمراء استوحشوا من أُسَامة بن منقذ لمّا حَسَّن لعبّاسٍ قتل عمّه العادل، وقَصَدُوا قَتْل أسامة. فلمّا علم بذلك اجتمع بعبّاسٍ وقال له: كيف تَصبرُ على ما يقولُه النّاس في ولدك واتِّهامِهِم أنّ الخليفة الظّافر يفعل به ما يفعلُه مع النساء! فعظُم ذلك على عبّاس. وقيل بل كان الظّافر قد أَنْعم على نصْر بنِ عبّاس بقليوب، فجاء نَصرٌ إلى والدِه وأعلمه بذلك، فقال له أُسَامَة: ما هي بمهرك غالية. فقال عبّاس لأُسَامَة: كيف تكونُ الحيلة على هذا الأمر؟ فقال: إنّ الخليفةَ في كلّ وقتٍ يأتي لولدك في هذه الدّار خِفْية، فإذا أتاه فأْمُرْه بقَتْله. فأوصى عبّاسٌ ابنه بذلك؛ فلما جاءَه قتله نصر[٣].

قال: ولمّا كان صبيحةَ يومِ قَتْله ركِب عبَّاسٌ وولدُه على العادة وأتى إلى القصر؛ فقال لِبَعض الخدم: أَعْلِم مولانا لِيَجْلس للاجتماع معه. فدخل وأعْلَم أهلَ القصر بما التمسهُ عبّاس من الاجتماع بالخليفة، فقالوا: قل له إنّه خرج البارِحَة لم يَعُدْ. فجاء الخادمُ إليه وأعلَمه الخبرَ؛ فشدَّدَ عبَّاسٌ في طَلَب الظّافر، ودخل إلى القاعات ومعه أكابرُ الخدم، وقال: لا بُدَّ من مولانا. فقيل له عند ذلك: أنْت أعلمُ بحاله، فأحضر أخويْه

(١) المدرسة السيوفية: يقول ابن تغري بردي نقلاً عن المقريزي: إن المدرسة السيوفية بالقاهرة محلها من جملة دار الوزير المأمون محمد بن فاتك البطائحي، وقفها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على الحنفية سنة ٥٧٢ هـ. وهي أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر وعرفت بالمدرسة السيوفية لأن سوق السوفيين كان في ذلك الوقت على بابها. وهذه المدرسة هي التي تعرف اليوم باسم جامع الشيخ مظهر الذي بأول شارع الخزرجية على يسار الداخل إليه من جهة شارع السكة الجديدة. النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٧٩ حاشية رقم (٤). انظر أيضاً المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٣٦٥.

(٢) «ودفنه في الباذهنج بدار المأموني بالسيوفيين» في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٥٦٤. «ورمى الكل في جب عنده وغطى رأس الجب بقطعة رخام بيضاء، فصارت من جملة رخام المجلس». ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، ص ١٠٥.

(٣) يورد ابن تغري بردي عن لسان ابن القلانسي عن مقتل الظافر ما يأتي: «إن الظافر إنما قتله أخواه يوسف وجبريل، وابن عمهما صالح بن الحسن» وفي رأيه (أي صاحب النجوم الزاهرة» أن هذا القول يؤيده قول ما نقله أبو المظفر من أن عباساً قتل أخوي الظافر وابن عمه صبراً. غير أن جمهور المؤرخين اتفقوا على أن قاتل الظافر نصر بن عباس. النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٨٠.

يوسف وجبريل وقال لهما: أنتما قتلتُما مَولانا. فأنكرَ ذلك وحَلَفا عليه الأيْمان المغلَّظة. وأَحْضرَ القاضي وجماعةً من الأعيان أهل الفتيا وداعي الدّعاة وقال: قد صحَّ عندي أنَّ أخَوَيْ الظّافر قتلاه. فأَفْتَوه بقتلهما؛ فقُتِلا بين يديه وقيل إنَّه قَتَل معهما أبا البقاء بن حسن بن الحافظ، وصارم الدّولة، مُصْلِح، زمام القصر(١).

قال: وكان الظّافرُ مِن أحسن خَلْق الله وجهاً. وكان مولدُه يوم الأحد، النّصف من شهر ربيع الآخر(٢) سنة سبع وعشرين وخمسمائة؛ فكانت مدَّة عمره إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يوماً؛ ومدّة ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وخمسة أيام(٣).

ولده: أبو القاسم عيسى.

وزراؤه: تقدّم ذكرهم.

قضاته: أبو الفضائل يونس، إلى أن صرفه العادل بن السّلار في سنة سبع وأربعين؛ ووَلَّى أبا المعالي مجلى(٤) بن نجا المخزومي، فأقام إلى آخر الدّولة.

ذكر بيعة الفائز بنصر الله(٥)

هو أبو القاسم عيسى بن الظَّافر بأعداء الله؛ وهو الثالث عشر من ملوك الدّولة العُبَيْديّة والعاشر من ملوك الدّيار المصرية منهم. بُويع له بعْدَ مقتل والده في يوم الخميس سلخ المحرّم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وعمرُه خمس سنين، وذلك أنّه لم

---

(١) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤٨، أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ١٠٦.

(٢) «في المحرم» كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ٥٥٧.

(٣) «كانت مدة عمره اثنتين وعشرين سنة ومدة ولايته أربع سنين وسبعة أيام» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٨٦.

(٤) هو أبو المعالي مجلي بن جُمَيع بن نجا، القرشي المخزومي الأرسوفي الأصل، المصري الدار والوفاة، الفقيه الشافعي، صنف في الفقه كتاب «الذخائر» تولى القضاء بمصر سنة ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ بتفويض من العادل أبي الحسن علي بن السلار. توفي سنة ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٥٤، رقم ٥٥٦. ترجمته وأخباره في: حسن المحاضرة للسيوطي، ج ١، ص ١٧٠، وعبر الذهبي، ج ٤، ص ١٤١. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ١٥٧.

(٥) ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٣، ص ٤٩١، رقم ٥١٤. وخطط المقريزي، ج ١، ص ٣٥٧، وتاريخ ابن خلدون، ج ٤، ص ٥٧، والكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٩١، ٢٥٥، والدرة المضية لابن أيبك الدواداري، ص ٥٦٦، وعبر الذهبي ج ٤، ص ١٥٦، ١٥٧ ـ ١٥٨، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ١٧٤. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٩٤ ـ ٣١٨.

قُتل الظّافر استدعى عبَّاسٌ ابنَه أبا القاسم عِيسى هذا وحَمَله على كَتِفه، ووقف في القاعة، وأمر أنْ تدخُل الأمراء، فدخلوا؛ فقال: هذا ولدُ مولاكم وقد قتل أبُوه وعَمّاهُ كما تَرَوْن، والواجبُ الطّاعَةُ لهذا الطفل. فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا؛ وصاحوا صيحةً عظيمة زَلّ منها عقلُ الصّبي واختل. ثمّ سيَّره إلى أمّه ولُقِّب بالفائز: فأقام يُصْرع في كلّ يوم[١].

وانفرد عبّاسٌ بالوزارة وبتدبير الأمور، ولم يَبْقَ على يدِهِ يَد، وظنَّ أن الأمر استقام له.

ذكر خروج عبّاس من الوزارة وما آل إليه أمره

قال المؤرخ: لما قُتل الظّافرُ بأعداء الله أكثرَ أهلُ القصر النُّوَاح عليه، وشرعوا في أعمال الحيلة على عبّاس، ووافَقَ ذلك نُفور الأمراءِ منه لإِقْدامِه على القَتْل: فاختلفَت الكلمةُ عليه، وهاجَت العَساكر. وتفرّقت الفرق، ولبسُوا السِّلاح، فخرجَ إليهم عبَّاس في يوم الاثنين عاشر شهر رَبيع الأول من السنة، فقاتلهُم وهزمَهم، وقتل جماعةً منهم. فأرْسَلت عمّةُ الفائز أخت الظّافر شعورَ أهل القصر طَيَّ الكتُب إلى الأمير طلائع ابن رُزّيك، وهو إذ ذاك متولّي الأعمال السُّيوطيّة، وقيل كان متولِّي مُنية بني خَصيب[٢]، وسألوهُ الانْتصَار لمَوْلاه فجمع العُربان والأجناد ومُقْطعي البلاد، وسار إلى القاهرة، فوصل إليها في تاسع عَشر شهْر ربيع الأول من السَّنة، وخرج النَّاسُ للقائه.

فاستشار عبّاس أسامةَ بن مُنقذ فأشار عليه باللّحاق بالشّام. فدخل إلى القَصر وأخذ في [جَمْع][٣] تحفة وحَمْل أمواله، وسار هُو وأسَامَة بنُ منقذ إلى الشّام على طريق أيلة[٤]. فأرسلت عمَّة الفائز إلى الفرنج بِعَسْقلان رُسُلاً على البريد تُعْلِمُهم الحال وتَبذل لهم الأموال في الخُروج علَى عبّاس وأَخْذِ ما معه. فخرجُوا إليه وقاتَلُوه، فتخاذَل عنه أصحابُه، ونهبُوا ما معه فأسره الفرنج وحملُوه إلى عسقلان؛ ونَجَا أسامة إلى دمشق[٥].

وقيل إن الفرنج قتلوا عبَّاساً وأسرُوا ابنَه نصراً ففدَاه الصّالح بنُ رزّيك، وأحضرَهُ إلى القاهرة وضرب عُنُقَه.

---

(١) «كان والياً على الأشمونين والبهنسا» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢١٥.

(٢) منية بن خصيب، أو منية ابن خصيب: تقع على الشاطىء الغربي للنيل، وتسميتها نسبة إلى الخصيب ابن عبد الحميد خراج مصر في عهد هارون الرشيد. وتعرف «بالمنية» وتسمى اليوم «المنيا»، وهي اليوم قاعدة مديرية المنيا في مصر. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ٣، ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٤) أيلة: بالفتح: مدينة على ساحل بحر القُلزُم مما يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأول الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٩٢.

(٥) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١٠٩.

ذكر وزارة الصّالح أبي الغارات طلائع بن رُزيك[١]

قال المؤرخ: لمّا توجّه عبّاس نحو الشّام وافق ذلك قدومَ طلائع بن رزيك، فخرج الأمراء والعساكر إليه، فمن الأُمَراء مَنْ شَهر سلاحَهُ وقاتَله، ومنهُمْ من التَحق به؛ ثم انْجَلى الأمرُ بعد ساعةٍ عن دُخُول طلائع إلى القاهرة والعساكرُ بين يَدَيه. وشقَّ القاهرة وهو لابسُ السَّواد، وأعلامُه سُودٌ كذلك حُزْناً على الظَّافر، وشعورُ نساء القصر التي سُيِّرت إليه على الرِّماح[٢].

ونَزَل طلائع دَارَ المأمُون الّتي كان بها نَصْر بن عبّاس، وأحضر الخادم الذي كان مع الظَّافر، لمّا قُتل وأعلمهم بمكانه، فأُخرج وغُسِّل وكُفِّن، وحُمل في تابُوت على أعناق الأمراء والأستاذين، وابنُ رزّيك يمشي أمام التّابوت. وأَتَوْا به إلى القَصْر فصَلَّى عليه ابنُه الفائز ودُفِن في تُربَتهم بالقَصر وجَلَس الفائز في بقيَّة النَّهار، وخَلَعَ على ابن رُزّيك بالموشّح والعِقد، وعلى ولَده وإخوتِه وحاشيته، وقُرىء سجلُّه[٣] بالوزارة ونُعِت بالملك الصَّالح. وقَبَضَ على جماعةٍ من الأمراء وقَتَلهم، في ثالث عِشْري شَهر ربيع الأول من السنة.

وفي سنة خمسين وخَمسمائة خرج الأمير تميم[٤]، متولِّي إخميم[٥] وأسيوط[٦]،

---

(١) هو أبو الغارات طلائع بن رُزِّيك الملقب الملك الصالح وزير مصر، كان والياً بمنية بني خصيب من أعمال صعيد مصر. وكانت ولايته في التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م. توفي يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ/ ١١٦٠ م. وكانت ولادته في سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م. وهذا الصالح هو الذي بنى الجامع الذي على باب زويلة بظاهر القاهرة. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٥٢٦ ـ ٥٢٩، رقم ٣١١.

(٢) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١٠٩، والمنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤٩ ـ ١٥٠. واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٣) ومما قيل في هذا السجل. «واختصّك أمير المؤمنين بطيلسان غدا للسيف توأماً، ليكون كل ما أسند إليه من أمور الدولة معلماً. ولم يُسمع بذلك إلا ما أكرم به الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين أمير الجيوش أبا النجم بدراً وولده أبا القاسم شاهنشاه. وأنت أيها السيد الأجل الملك الصالح، وأين سعيُهما من سعيك، ورعيهما الذّمام من رعيك، لأنك كشفت الغُمة، وانتصرت للأئمة، وبيّضت غياهب الظلمة، وشفيت قلوب الأمة». ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٢٩٨. وانظر نص هذا السجل في حسن المحاضرة للسيوطي، ج ٢، ص ٢٠٥ ـ ٢١٤. طبعة القاهرة ١٩٦٧. وج٢ ص ١٥٦ ـ ١٦٢، طبعة القاهرة ١٢٩٩ هـ. ومجموعة الوثائق الفاطمية للشيال، ص ٣٣٧ ـ ٣٥٠.

(٤) «الأوحد بن تميم» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٣٠٠.

(٥) إخميم: من البلاد المصرية القديمة الواقعة على الشاطىء الشرقي للنيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٢٤.

(٦) أسيوط: بلدة مصرية قديمة واقعة على الشاطىء الغربي للنيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٩٣.

على الصّالح، وجمَع جمعاً صالحاً، فأخرج إليه الصّالح عسكراً، فالتقَوْا واقتتلوا، فقُتل تميم في سَابع عشر رَجب.

وفي سنة اثنتين وخَمْسين وخِمسمائة انفَسَخَت الهُدنة بين الصَّالح بن رُزِّيك والفرنج، فجهَّزَ الصَّالح الجيوش والسَّرايا إلى بلاد الفرنج. فوصَلَت سريَّة إلى عسقلان وغَنَمت وعادت سالمة. وجهَّز المراكب في البَحر إلى نحو بيروت، فأوْقَعَت بمراكب الفرنج. وجهَّز سريَّةً إلى جهة الشَّوْبَك[1] فَعاثُوا في تلك النواحي، وعادُوا سالمين بالغنائم والأسرى.

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجَّة سنة اثنتين وخمسين قبض الصّالح ابن رُزّيك على الأمير ناصر الدَّوْلة ياقوت وأولاده واعتقلهم؛ وسبَبُ ذلك أنّه بلغه أنّه كاتَب أختَ الظّافر وقصَد القيام على الصّالح، وكان والياً عامِلاً على الأعمال القُوصيّة، وهُو بالقاهرة. ولم يَزَل في حبْسه إلى أنْ توفي في شهْر رجب سَنَة ثلاث وخمسين.

وفي سنة أربع وخمسين ثارَ على الصَّالح طَرْخانُ بن سَليط بن ظَريف، متولّي الإسكندرية، وجمَع جمُوعاً من العُربان وغيرها؛ وتقدَّم بها لحربه، فنَدَب الصّالح إليه الأمير عزّ الدّين حُسَام بن فضّة بعسكر. فالتَقَوْا واقتتلوا، فهَزَم حُسام جُيوشَه وظفِرَ به، فاعتقَلَه الصّالح.

فلمّا كان في المحرَّم سنة خمس وخمسين ثارَ أخوه إسماعيل طلباً لثأره، وتلقَّب بالْمَلك الهادي؛ فنَدَب الصَّالح إليه الجُيوش. فلمّا هجمت عليه هرب وأتَى الجيزة، واستَتَر عنْدَ بَعْضِ العُربان. فلمّا كان في يَوْم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر هرب طَرْخَان من الاعتقال هُو والمُوَكلُ به، فقُبض عليه في السّادس من الشهر وصُلِب على باب زَويلة، ورُمِي بالنُّشّاب[2]، ثم مُسِك أخوه إسماعيل وصُلِب إلى جانبه بعد ضَرْب عنقه[3].

وفي سنة أربعٍ وخمسين بنَى الصَّالح حِصْناً من اللبن على مدينة بلبيس[4].

ذكر وفاة الفائز بنَصْر الله

كانت وفاتُه في لَيْلة الجُمعَة السّابع عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين

---

(١) الشوبك: قلعة حصينة واقعة جنوب البحر الميت، بين مصر والشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٧٠.

(٢) النُّشَّاب: السهام. ابن منظور: لسان العرب (نشب).

(٣) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨.

(٤) بلبيس: بكسر الباءين وسكون اللام وياء وسين مهملة: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٧٩.

وخمسمائة؛ وقيل لِلَيْلَةٍ بقيت منه؛ وكان مولدُه في يوم الجمعة لِتسعٍ بقِينَ من المحرّم سنة أربعٍ وأربعين، فكان عمره إحدى عشرة سنةً[1] وستّةَ أشهر وأيّاماً، ومدّة ولايتِه ستّ سنين وخَمسة أشهر وسبعة عشر يوماً[2].

وزراؤه: الأفضل عبّاس بن يحيى بن تميم؛ ثم الصّالح طلائع بن رُزّيك.

قضاته: أبو المعَالي مجلّى بن نجا القرشي المخزوميّ؛ ثمّ صُرِف في أوّل وزارة الصّالح، وأعيد أبو الفضائل يونُس؛ ثم صُرِف بالقاضي المفضَّل أبي القاسم هبة الله ابن كامل.

ذكر بيعة العاضد لدين الله[3]

هو أبو محمد عبد الله بن يُوسف، بن الحافظ عبد المجيد، بن محمد، بن المستنصر بالله أبي تميم معدّ، بن الظّاهر لإعزاز دين الله أبي هاشم علي، بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور [بن العزيز بالله][4] نزار، بن المعزّ لدين الله أبي تميم معدّ، ابن المنصُور بنصْر الله أبي طاهر إسماعيل، بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد، بن المهديّ عُبَيد الله. وهو الرابع عشر من ملوك الدولة العُبَيديّة، والحادي عشر من مُلوك الديار المصرية منهم؛ وعليه انقرضت دولتُهم، بُويعَ له بعد وَفاة الفائز بنصر الله في يوم الجمعة السّابع عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وكان الملك الصّالح طلائع قَصَد أن يُبايع لِشخصٍ من أقاربِ العاضد، فقال له بعض أصحابه لا يكنْ عبّاس أحزَم منك حيثُ اختار صغيراً وتَرك من هو أسَنّ منه، واستَبَدَّ هو بالأمر. فعَدل الصّالح إلى العاضد، وبَايَعَ له وهُوَ مراهق البلوغ؛ فكانت الخلافةُ للعاضِد اسماً وللصّالح رسماً[5].

ويوسُف أبو العاضد هو أحد الأخوين[6] اللذين قَتَلهما عبّاس بعد قتل الظافر.

(١) «عشر سنين أو نحوها» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٣٠٤.
(٢) «ست سنين وستة أشهر وسبعة عشر يوماً» في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٥٦٦.
(٣) ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٣، ص ١١٠ ـ ١١٢، وخطط المقريزي، ج ١، ص ٣٥٧. وحسن المحاضرة للسيوطي، ج ٢، ص ٢٢، وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٢٣٠، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٢٢٢. والكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٢٥٥.
(٤) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.
(٥) «للعاضد رسماً ولطلائع حسماً» في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١١١. «وكانت خلافته اسماً له، وجسماً ورسماً للصالح بن رزيك» في كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ١٣.
(٦) «الابوني» في الأصل، والتصحيح يقتضيه سير الأحداث.

وفي سنة ستٍّ وخمسين تزوَّج العاضدُ لِدين الله بابنة الملك الصّالح بن رُزَّيك؛ وكان العاضِدُ توقَّف عن زواجها، فجَبَره الصّالح على ذلك واعتقله إلى أن تزوَّجها؛ وقَصَد بذلك أن يُرْزَق العاضدُ منها ولداً فتحصُلَ الخلافةُ والْمُلْك لبني رُزَّيك، فجاء بخلاف ما قصد[١].

ذكر مقتل الملك الصّالح طلائع بن رُزّيك وقيام ولده الملك العادل رُزّيك

كان مقتلُه في السّابع عشَر من شهر رَمَضان سنة ستٍّ وخمسين وخمسمائة. وذلك أنّه ركب في هذا اليوم مِنْ دار الوِزارة إلى القصر، وجَلَس على مرتَبَته على عَادته، فلمّا انقضى المجلس خَرَج، فبَينما هو في دهاليز القَصْر وثب عليه جماعةٌ فضربُوه بالسّكاكين عِدَّة ضربات مهلكة. وكان سببُ ذلك أنّه تحكّم في الدَّولة لخُلوّها من الأمراء وصغر سِنّ العاضد، وكان قد فرَّق الأمراءَ وقَتَل بعضُهم؛ فبعَثت ستُّ القُصور عمَّة العاضد الأموالَ إلى بَعض الأمراء وأغْرَتهم به، فرتبوا ذلك. قال: ولمَّا ضُرب بالسّكاكين ألقى ابن الزُّبد نفسه عليه وقاتل دُونَه، ودخَل بقيَّةُ الأمراء فخَلَّصوه فركِبَ وبه بَعْض رَمق، فلمّا رأتْه ستُّ القُصور وقَدْ ركب أيْقَنَت بالهلاك. قال: ولمَّا استقَرّ في منزله أرْسل إلى العَاضِد يعاتبُه على مَا كانَ مِنه، فخَلَف وأنكر أن يكون اطَّلع[٢] على هذا الأمر قبْل وُقوعه فأرسل إليه أن يَبْعَث إليه عمَّته ستّ القُصور، فتوقَّفَ العاضِدُ عن ذلك، فأرسَل الصّالح إلى [ست][٣] القصور وأخرجها؛ فلَما جاءت إلى منزله أمر بخَنْقها، فخُنِقَت بين يديه حتّى ماتت. ومات الصّالح في بقِيّة لَيْلته.

قال: وكان الصّالح شديد التَّشيُّع مُتغَالياً في مذهب الإمَاميّة؛ وكانَ يكره أهْلَ السُّنّة. وقيل إنَّه كان يَسبُّ الصّحابة، رضي الله عنهم، وغضب على مَن يتنقَّصُهم. وكان فيه بُخْلٌ وحَسَد. ومَنَع في أيّامِه من بَيْع الغلال حتى غَلَت الأسعار. وكان كثيرَ التَّطَلُّع إلى ما في أيدي النّاس، وصادَرَ جماعةً ليس لهم تعلُّقٌ بالدَّولة وأفنى الأمراء قتلاً واعتقالاً، وهو أوَّلُ من خُوطِب بالْمَلك في الدِّيار المصْريّة[٤].

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٢٥٥. واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٤٦.

(٢) «أن يكون الخلع على هذا» في الأصل. والتصحيح يقتضيه السياق. انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٢٧٤.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق. انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٢٧٤.

(٤) يذكر المقريزي أن «أول من لقب بالملك منهم مضافاً إلى بقية الألقاب رضوان بن ولخشي. عندما وزر للحافظ لدين الله» المقريزي المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٤٠، وذكر أيضاً في موضع آخر =

وقال ابن الحباب في سيرته: إنّه من وَلَدِ جَبَلَة بن الأيهم الغسَّاني الذي ارْتَدَّ عن الإِسْلام في خِلافة عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنه. قال المؤرخ: وكان والدُ الصَّالح يُسمى أسَد رُزّيك، قَدِم مع أمير الجُيوش بدر الجمالي.

قال: وكان الصَّالح مع ذلك حازِماً ضابطاً لأُمور دَوْلته شاعراً أديباً. قال القاضي الأرشد عُمرة اليمني[1]: دخَلْتُ على الصَّالح قبل وفاته بليلتين فَنَاوَلَنِي رُقْعَةً وَقَال: قدْ عَمِلت هذين البيْتين في هذه السّاعة؛ فإذا فيها: [من الخفيف]

نـحْـنُ فـي غَـفْـلَـةٍ ونَـومٍ ولـلْـمَـو ... تِ عُـيُـون يَـقْـظَـانَـةٌ لا تَـنَـام

قَدْ رَحَلْنَا[2] إلى الْحِمَام سِنِيناً ... لَيْتَ شِعْري! متى يكونُ الحِمَام

فقلت: هما صَالِحان، وقُمت، فكان آخر عهدي به[3].

قال المؤرخ: وكان الصَّالح يقطَعُ اللّيل أثلاثاً: فالثُّلْث الأوّل مع أمراء دَوْلته ووجُوهِها؛ والثُّلث الثّاني مع جُلسائه ونُدَمائه وشعرائه؛ والثُّلُث الثالث مع خواصِّ نسائه. فكان يُسَمّى: أبو العمرين قالوا: وكذلك كان أمير الجيوش بدر الجمالي:

ومن شعر الصّالح قوله: [من الرمل]

يـا مـريـضَ الـقَـلْـب بـالـذّنْـ ... ـبِ، مـتـى بـالـعَـفْـو تَـبْرَا

كـلَّـمـا جَـدَّدْت يـومـاً ... تَـوْبَـةً ضـيَّـعْـت أُخْـرى

تـشْـتـهـي الأجْـرَ ولاَ تـفْـ ... ـعـلُ مـا يُـكـسـبُ أجْـرا

أتـرى بَـعْـد ذَهـاب الْـ ... ـعُـمـر تَـسْـتـأنـفُ عُـمْـرا

وقوله:

يَـا مـاشِـيـاً فـوق الـثَّـرى ... رِفْـقـاً، فَـسَـوْفَ تـصـيـرُ تَـحْـتَـه

إنْ قُـلْـتَ إنِّـي أعْـرِفُ الْـ ... ـمَـوْلَـى الْـقَـدِيـر، فَـمَـا عَـرَفْـتَـه

إنْ كُـنْـت تَـعْـبُد لِـلْـمـخَـا ... فَـةِ والـرَّجَـاء، فَـمَـا عَـبَدْتَـه

= أول من خوطب بالملك في ديار مصر ونعت به الصالح طلائع بن رزّيك». اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢١٨، ٢٥١. وفي صبح الأعشى: للقلقشندي، ج ٨، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٦، لم يرد في السجل الخاص برضوان بن ولخشي لقب الملك.

(١) هو أبو الحسن نجم الدين عمارة اليمني توفي سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م.

(٢) «قد دخلنا الحمَّام عاماً ودهراً» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٣٤٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٢٧٦. اليمني: النكت المصرية، ص ٤٨ ـ ٤٩.

والصَّالح هُو الذي بنى الجامع[(١)] خارجَ بابِ زَويلة المعروف به. وكانَ يقول: نَدِمْتُ على ثلاثةٍ: أحدُها أنني بنيت الجامع بظَاهر القاهرة وجَعَلتُه عوناً على بابِ زَويلة فيضرّها وقت الحصار؛ والأخرى تَوْلِيَتي شاوَر أعمال الصَّعيد، والله لا كَانَ خرابُ دَوْلة بني رُزّيك إلا على يديه؛ والثّالثة أنّني أنفقْت في العساكر مائتي أَلْف دينار لأجْل فتْح بيت المقدس فتأخَّرت عن ذلك.

قال: ولمّا توفي دُفِن بدَار الوزارة ثمَّ نُقل إلى تربته[(٢)] الّتي بقَرافَة مصر.

قال: ولمّا حضرته الوفاة أحْضَرَ ولدَه رُزّيك وأوْصاه بوَصايا كثيرة، من جُمْلتها أنّه لا يَعْزل شاوَر[(٣)] ولا يغيّر عليه مُغيّراً.

قال: ورثَاه الشُّعراء بقصائِدَ كثيرة، فيها ما قاله القاضي الأرشد عمارة اليمني: [من الطويل]

أفي أَهْلِ ذَا النَّادي عليمٌ أُسَائِلُه ... فإنّي لِما بي، ذاهبُ العَقْل ذَاهِلُه[(٤)]

سمعْتُ حديثاً أَخْسُد الصَّمّ عِنده ... ويُذْهَل وَاعِيهِ، ويَخرس قائِله

ومنها: [من الطويل]

وقَد رَابَني[(٥)] مِنْ شَاهِدِ الْحَال أَنَّني ... أَرى الدَّسْت منصوباً ومَا فيه كافِلُه

وأنّي أرَى فَوْقَ الوُجُوهِ كآيَةً ... تَدُلُّ على أنَّ النّفُوس ثوَاكِلُه[(٦)]

دَعُوني. فما هَذَا أَوَان بُكائه[(٧)] ... سيأتِيكُمُ طَلّ البُكَاءِ وَوَابِلُه[(٨)]

---

(١) مسجد الصالح بناه الصالح طلائع رزّيك وزير مصر وكان بخط جامع القرافة الذي عرف باسم جامع الأولياء. المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٤٤٢، وانظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٢٩٣.

(٢) تربة الصالح: تقع بجوار حوش أبي علي من الجهة الغربية. والقرافة هي مقبرة أهل مصر. فما كان منها في سفح الجبل يقال له القرافة الصغرى، وما كان منها في شرقي مصر يقال له القرافة الكبرى. المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٤٤٢.

(٣) في الأصل: «شاور بن محمد». هو أبو شجاع شاور بن مجير ويرتقى نسبه إلى أبي ذؤيب عبد الله والد حليمة مرضع رسول الله ﷺ. تولى الوزارة في ٢٢ المحرم سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٢ م إلى رمضان من السنة نفسها. المناوي: الوزارة في العصر الفاطمي، ص ٢٨٨.

(٤) «ذاهب اللب ذاهلة» في الروضتين لابن شامة، ج ١، ص ٣١٣. النكت المصرية لليمني، ص ٥٠، كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ١٨.

(٥) رابني: شككت بالأمر. ابن منظور: لسان العرب (ريب).

(٦) الثكل: فقدان الحبيب.

(٧) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٥٢ «مما هذا وقت بكائه».

(٨) وابله: شدته، غزارته. ابن منظور: لسان العرب (وبل).

وهي قصيدة طويلة أتى فيها بكل عجيب.

قال: ولمّا مَاتَ الصَّالحُ خرجَت الخِلَع من القصر لوَلَدِه، وتلَقَّب بالملك العَادل مجد الإِسلام[١].

ذكر ظهور حُسَين بن نزار وقتله

وفي شهر رَمضان سنةَ سبعٍ وخمسين وخمسمائة وَرَد حُسين بن نزار، بن المستنصر بالله ابن الظَّاهر لإعزاز دين الله مِن بلاد المغرب، وقد جَمَع جمعاً عظيماً، وتلقب بالْمُنْتَصر بالله؛ فخرج إليه الأمير عزّ الدين حُسام بن فضّة بن رُزّيك على صورة الانضمام إليه واللّحاق به. فلمّا صار عنده في خَيمَته غَدَر به وقَتَله، وحَمَل رأسه إلى العَاضِد لدين الله.

وفيها بنى الأمير أبو الأشبال ضرغام[٢] البُرج المعروف به بثَغْر الإِسكندرية.

ذكر انقراض دولة بني رزيك

قد ذكرنا أن الملك الصَّالح بن رُزّيك، والدَ العادل، لمَّا حَضَرتْه الوفَاة أوصى ابنَه العادل بوصَايا كثيرةً منها أنَّه لا يعزلُ شاوَر من عمله ولا يحرّكه؛ وحذَّرَه من ذلك فلمّا كان في سنة سبعٍ وخمسين اجتمع أَقَاربُ العادل وحسَّنُوا له عَزْل شاوَر عن ولاية الصَّعيد، فذكَّرهم بوصيَّة أبيه، فأصروا على عزله، وكان أشدّهم في ذلك الأمير عزّ الدّين حُسام بن فَضّة، فألزم العادل إلى أن كتب كتاباً يسْتَدعي فيه شاوَر ويأمرُه بالحضور إلى القاهرة فكتب إليه شاوَر يستعطِفُه ويُظْهر الطّاعة والإِذْلال لِسَابق الخِدْمة لأبيه ومُنَاصَحته في القيام بأمُور الدّولة، ثمّ قال فيه إنْ كان القصدُ أن يليَ الأعمال أحدُكم فلْيُرسل السّلطان من يتسلّمها غير عزّ الدين حسام؛ وإن كان غيرُكم من الأمراء فأنا أحق به مِنْ سواكم؛ وقد سمعتم وصيَّة أبيكم الصّالح في حقّي وما كرَّره عليكم في أمْري وإقْرار أعمال الصّعيد في يدي. وأرسل الكتاب إلى العَادل، فوقَفَ عليه، وأوقف عليه أقاربه وأهله. فقالُوا: إنْ أبْقَيته طَمع في البلاد ولا يحملُ إليك مالاً. فقال العادل لهم: المصلحةُ تركُه. فصمَّموا على عزله.

فأحضر العادلُ نصير الدّين شيخ الدّولة، وهو من أقاربه، وخَلَع عليه وولاَّه

---

(١) ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، ص ١١٢.

(٢) في الأصل «ضرغام بن ثعلبة، وهو ضرغام بن عامر بن سوار اللخمي، أبو الأشبال، تولى الوزارة من رمضان سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٢ م حتى آخر سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٣ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٣٠، حاشية رقم (١).

الأعمال القوصيَّة، وكتب على يده إلى شاوِر بتسليم الأعمال إليه ووُصوله إلى القاهرة. وتوجَّه نصير الدِّين. فلمّا وصل إلى إخميم أقام بها وأرسل الكتاب إلى شاوَر طَيَّ كتابه؛ فلمّا وقف شاوَر على الكتاب أرْسل إلى نصير الدِّين رسولاً من جهته برِسالة يقولُ لَه: إنّ بيني وبينك صُحْبة ولا تغتَرّ بقول حُسام، وراجع من حيث أتَيت فهو خير لك، فرجعَ نصيرُ الدِّين إلى القاهرة ولم يُعاودْه.

وأظهر شاوَر العصيان على الدّولة، وأحضر جماعةً من العُربان من بني شيْبان وغيرهم، وتوجَّه من الأعمال القوصية، وجَعَل طريقه على الواحات، وخرج منها إلى تروجة[١]، وحشد العُربان وأنفق فيهم الأموال؛ فوافقُوه وانْطاعُوا له؛ فسار بهم نحو القاهرة. فنَدَب العادلُ لحَرْبِه سيف الدِّين حُسَيناً، صهره، ومعه جماعةٌ من الأمراء. فَرَاسَلَهم شاور واستمالَهم، وبذل لهم الأموالَ الجمّة، فمالُوا له فلمّا التقوْا انحازُوا إلى جماعَتِه وفارقوا مُقدَّمهم، فانْهزَمَ حُسَين واستجار بطَريف بن مَكنُون أمير جذام فأجَارَه، وحَملَه في البحر؛ فمضى إلى مدينة الرَّسُول ﷺ فمات هُناك فنَدب إليه العَادل عزّ الدِّين حُساماً، فانْهزَم منه أيضاً.

فعِنْدَ ذلك خرج العَادِلُ من القَاهرة وتوجّه إلى إطْفِيح[٢]، واستصحب أهله وذخائرهُ. واستجار بسُلَيْمان بن الفَيض اللّخمي، وكان من أصحاب أبيه الصَّالح، فأنزله عنده؛ ومضى مِنْ وقته إلى شاوَر وأخبره بخَبر العادل، فنَدَب إليه جماعةً فأخذُوه أسيراً هو ومن معه، ونَهب أصحابُ ابن الفيض ما كان مَعَه. وحُمِل إلى شاوَر فوصل إليه في ليلة الجُمعة لِثلاثٍ بقينَ من المحرَّم سنةَ ثمانٍ وخمسين وخمسمائة فأمَر شاوَر باعتقاله؛ وقال لسليمان بن الفيض: لقَدْ خَبأك الصّالح ذخيرةً لِوَلَدِه حين استجارَ بك فأسْلَمته لي، وأنا أُخَبئُك ذَخيرةً لولدي، ثمَّ أمَر به فشُنق. وسُمّيت فرقة ابن الفيض غمازة من ذلك اليوم، فهي تعرف الآن بهذا الاسم. فكانت أيام العادل سنةً واحدة وثلاثةَ أشْهر وأيّاماً. وجَميعُ دَوْلَة بني رُزّيك تِسعُ سنين تقريباً[٣].

ذكر وزارة شاور الأولى وخروجه منها

كانت وزارتُه في يوم الأحَد لثمانٍ بقَينَ من المحرَّم سنةَ ثمانٍ وخمسين وخمسمائة. وذلك أنّه لما انهزَمَت جُيوش العَادل بن رُزّيك وهرب هُوَ إلى إطْفِيح خَلَت

(١) تروجة: بالفتح ثم الضم وسكون الواو، وجيم؛ قرية بمصر من كورة البحيرة من أعمال الإسكندرية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧.

(٢) إطفيح: بالكسر في أوله، بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطىء النيل في شرقيه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢١٨.

(٣) «تسع سنين وشهراً وأيّاماً» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٢٩٠.

القاهرة منهم؛ فَدَخَلها شاوَر، وحضَر بين يَدَيْ الخليفة العَاضد لِدين الله، فخلع عليه خلَع الوزارة، وسَلْطَنَه، ولقَّبه بأمير الجُيوش، وأطلقَ شاور لأهل القُصور الإطْلاقاتِ الكثيرة، وزادَهُم على مقرَّراتهم في أيّام بني رُزّيك واستدعى أَمْوَال بني رُزّيك وودائِعَهُم. وبَسَط العَدْل أيّاماً، ثم شرع في ظُلْم النّاس؛ وبَسَط يدَه ويدَ أوْلاده في الدَّولة؛ وقَطَع أرزاق الأمراء والجُند واستخفَّ بهم وبالعَاضِد. وعَتَا ولدُه الكَامل وتجبَّر، ولَبِس رداء الكِبْر، وبذخ في الأموال، وصَرَفها في غير وجُوه مصارفها.

وسَاءَتْ سيرتُه في الأمراء فأجمعوا على إخراج العَادل من الاعْتقَال ونَصْبه في الوزارة. فاتَّصل ذلك بالكَامل بن شاور؛ فأشارَ على أبيه بقَتْل العادل. فامْتَنع مِن ذلك وقَال: إنّه أوْلاني خيراً فلا أقتلُه، فَقَتَله الكاملُ من غير إذْنِ أبيه، فعظُم ذَلك على شَاوَر وعلى الأُمَراء، وغَضب الأمراءُ لقَتْل العادِل، وخَرجُوا عن شاوَر، وافترقوا على فرقتين: فكان الضّرغام وإخوتُه وأهْلُه فرقة، والظَّهير عزّ الدين مرتفع وعين الزّمان وابن الزّبْد فرقة.

وَكان الضّرغام ومَنْ معهُ أظهرَ الفرقتين. فخرج على شاوَر وحَارَبه، فجمع شاوَر أموالَه وذَخائِر وغِلْمانَه، وخرجَ ليلاً من القاهرة، فَرَكِبَ الضّرغامُ في إثْرِه فلَحِقَه عند باب النصر؛ فقَاتَله طيٌّ بن شاوَر، فقُتِل طيّ، وأُسر أخوه الكَامِل؛ ومضَى شاوَر إلى الشّام. وذلك في صبيحة يوم الجُمعَة، لثَلاثٍ بقِينَ من شَهر رمضان من السّنة. فكانت وزارته ثمانيةَ أشهر وخمسة أيّام[1]. والله أعلم.

ذكر وزارة الضّرغام بن سوار

قال: ولمَّا توجَّه شاوَر إلى الشَّام عاد الضّرغام إلى القَصر وأرسل إلى العاضد بما كان من أمر شاور، ومضى إلى دَارِه بقيَّة ليلَتِه. وجاء إلى القُصور من بُكرة النَّهار، فاستَدْعاه العاضدُ لِدين الله وولاّه الوزارة، ولقَّبه بالملك المنصُور، واستحلف له الأمراء.

وأرسل علم الْمُلك بن النحاس إلى الملك العَادل نُور الدّين محمود بن زَنكي، صاحب الشَّام، يقبض على شاور. فأظهر نور الدّين الإجابةَ لذلك، وباطِنُه بخلاف ظاهِره[2].

قال: ولمَّا ولي الضّرغام الوزارة خرجَ عليه الأَمير علي بن الخوّاص، فظَفِر به الضّرغام، فأشهره بالقاهرة، وصلبه. وأحْضر جماعةً من الأمراء إلى دَارِه لدَعوةٍ عملها،

---

(١) «فكانت وزارته تسعة أشهر» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٦١.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٦٣.

فلما حَضرُوا إليه قَبَض عليهم وقتلهم[١].

ذكر قُدوم شاوَر مِنَ الشَّام وعوْدُه إلى الوزارة ثانياً وقَتْل الضّرغام

كان قدُومه في جُمادى الآخرة سنة تسعٍ وخمسين وخمسمائة.

وذلك أنّه لمَّا توجه إلى دمشق اجْتَمَع بالمِلِك العادل نُور الدّين محمود بن زنكي، وحسَّن له أن يُجهّز معه جيشاً يفتح به مصر؛ وَوَصَفَها له ورغَّبهُ فيها، والتزم أنَّهُ يحمل خزائنَها[٢] إليه يستعينُ بها على قِتَال الفرنج. فمال إلَيه. وجهَّزَ معه أسدَ الدّين شِيركُوه[٣] بعَسَاكر. فلمّا قاربُوا مصر ندب إليهم الضّرغام عسْكراً وقدّم عليه أخاه ناصر المسلمين، فلقيَهم على بلبيس، فانْهَزَم العسكر المِصريّ وعاد إلى القاهرة.

وسار شاوَر والعساكر الشّاميّة، فنَزل بظَاهر القَاهِرة في آخر الشّهر، واجتَمَعَ معَهُ خلقٌ كثيرٌ من العُربان. فعلم الضّرغامُ أنَّه لا قِبَل لهُ بما دَهَمَه؛ فركب إلى القصر، وطاف به، وجَعَل يُنادي العَاضد، وهُو يخاف أنْ ينزل إليه، فأرسَل إليه العاضدُ يقول: أُنْجُ بنفسك، فخَرَجَ من القاهرة يُريد مِصْر، ودَخَل شاوَر وشيركُوه إلى القاهرة، ونَدَب جماعةً في إثر الضرغامُ فأدركُوه عند مشهد السّيدة نَفيسة، فقتلُوه هناكَ في يوم الجُمعة، لِلَيْلَتَيْنِ بقيتا من جُمادى الآخرة. وطِيفَ برَأسه القاهرة على رُمْح، وبقيَتْ جُثّتُه مُلقاةً بين الآكام ثلاثةَ أيّام حتى أكلتها الكلاب. ودُفن ما بقيَ منه عند بِرْكَةِ الفيل، وعُمِل عليه قُبَّة، فكانت مدّة ملك الضرغام تسعة أشهر.

وكان فارساً بطلاً، كريماً، عاقلاً، أديباً، يحبّ العلمَاء ويقرِّبُهم؛ وله مجلسٌ يجتمع فيه أهلُ العلم والأدب دون غيرهم. وكان حسن الخَطّ. يُقال إنّه كَانَ يُحاكي ابنَ البوّاب[٤] في خَطِّه.

---

(١) المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٦٣.

(٢) انظر الروضتين لابن شامة، ج ١، ص ٣٣٢.

(٣) هو أبو الحارث شيركوه بن شاذي بن مروان الملقب الملك المنصور أسد الدين عم السلطان صلاح الدين. تولى الوزارة يوم الأربعاء سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م. وأقام بها شهرين وخمسة أيام ثم توفي فجأة يوم السبت الثاني والعشرين. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠، رقم ٢٩٨. ترجمة شيركوه وأخباره في صفحات متفرقة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥.

(٤) هو أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب المشهور، توفي سنة ثلاث وعشرين وقيل ثلاث عشرة أربعمائة ببغداد. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص:٣٤٢ رقم ٤٥٧. في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٧١، «ويكتب كتابة ابن مقلة». وابن مقلة: هو محمد بن علي بن الحسين بن مقلة الكاتب المشهور توفي سنة ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١١٣، رقم ٦٩٨.

قال: ودخل شاوَر إلى العَاضد لدين الله في مُسْتَهلِّ شهر رجَب، فعاتبه على مَا كَانَ منْهُ في إحْضَار العسْكَر الشّاميّ، وحذَّره عاقبَةَ ذلك؛ فوعده أنّه يَصْرفهم إلى بلادهم، فقَبِل ذلك منه، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة.

ذكر غدر شاور بشيركوه

قال: ولما انْتَصب شاوَر في الوزارة وتَمَّ له ما أَرَاد، أخذ في التَّدبير على العَسْكر الشّامي، وحلَّف الأمراء، وتخاذل عن شيركوه؛ وصارَ يخْرجُ إليه بوجْهٍ عليه آثار الغضب. ففَهم أسدُ الدّين شيركوه عَنه، وعَلِم شاوَر أنّه لا قِبَل له بشيركوه، فاستعان بالفرنج[1] واستَدْعاهم من السّاحل لنُصْرَته، وَوَعَدهم بالأموال. واتَّصل ذلك بأسَد الدِّين فحاصرَ القاهرة.

واتَّصل خبرُ شاوَر بالملك العادل نُور الدّين، فكتب إلى أسَد الدين وأعلمه بما بَلَغه من مُبَاطَنة الفرنج، وأمَرَه بالخُروج عن الدِّيار المصريَّة. فأبَى ذَلك وتوجَّه إلى بلبيس، واحْتَوَى على بلاد الحوف، وجَعَل مدينةَ بلبيس ظهْره، فاجْتمعَت العساكرُ المصريّة ومَنْ أتاهُم من الفرنج، ونَازَلُوا أسَدَ الدّين، وحصرُوه ببلبيس ثلاثة أشهر، وهو مُمْتنع بها لم يبرز إليهم، فبينما هُمْ كذلك إذْ وَرَدَ الخبر علَى الفرنج أنّ نورَ الدّين مَلَك حَارِمَ[2] وسار إلى بَانْياس، فَرَاسَلُوا شيركوه يسْأَلُونه الصُّلح؛ فأجابَهُم إلى ذلك؛ وخرجَ من مدينة بلبيس[3]، فلمّا صَار بظَاهِرها أشَار شاوَر على تلك الفرنج بمُهَاجَمَتِه وقَبْضِه فامْتَنَع مُرّي[4]، ملك الفرنج، وأبى إلاّ الوَفَاءَ بيَمينه لشيركوه.

وسار أَسَدُ الدّين إلى الشّام، وعادَ شاوَر إلى القَاهرة، ومعَهُ طائفةٌ من الفرنج يتقوَّى بهم. وكانَ قد بَذَل لهم على نُصْرته أربعمائة ألف دينار، ويهادنهم خمسَ سنين.

وكان دُخول شاوَر إلى القاهرة لسِتٍّ مضَيْن من ذي الحجة من السَّنة؛ واستمرَّ بمصر مِنْ غير مُنازع، إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة.

---

(١) المراد بالملك عموري الأول ملك مملكة بيت المقدس الصليبية. عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٦٨٤.

(٢) حارم: بكسر الراء: حصن حصين وكورة تجاه أنطاكية. وهي من أعمال حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٣) خرج من مدينة بلبيس في أول ذي الحجة. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٧٧.

(٤) ملك الإفرنج بالشام: ويعرف باسم آموري، تولى مملكة القدس سنة ٥٥٧ هـ. توفي ٥٦٩ هـ. الروضتين أبي شامة، ج ١، ص ٢٩٣.

ذكر عَوْد أسد الدّين شيركوه إلى الدّيار المصرية بالعَسَاكر الشاميَّة وانفصاله

قال المؤرخ: لمَّا انْفَصل أسدُ الدّين شيركوه عن الدِّيار المصريّة في سنَة تسع وخمسين، بقِيَ عندَه منها أمْرٌ عظيم. وكان إذا خلاَ بنُور الدّين الشَّهيد يرغِّبه فيها، فجهَّزَهُ بالعساكر والحُشُود، فسارَ من الشّام في شهر ربيع الأوّل سنَة اثنين وستين وخمسمائة، فاتَّصل ذلك بشاوَر، فراسَلَ الفرنج وانْتَصر بهم، فخرجَ الفرنج ووقفوا على الطَّريق الّتي يسلُكها شيركوه إلى الدّيار المصريّة، فعَدَل شيركوه عن تِلْك الطّريق وجَعَلها عن يمينه، وسَار حتى نزل إطفيح، في سادِس شهر رَبيع الآخر. وعَبَر النّيل إلى الجَانب الغَربيّ، ونزل الجيزة، وأقام عليها إلى العشرين من جُمادى الأولى، واسْتَولى على الغربية وغيرها. فأرسل شاور إلى الفرنج يَستَحثُّهم، فأتَوْه على الصَّعب والذَّلُول، وقد طَمِعوا في ملك الدّيار المصريّة(١).

فلما تكامَلُوا بالقاهرة توجَّه أسد الدّين شيركوه نحو الصَّعيد، وسارَ شاوَر وَالفرنج في آثارهم. فجمع أسدُ الدّين الأُمراء واستشَارَهُم [في](٢) العُبور إلى الجانب الشّرقي والعَوْد إلى الشّام. فوافَقُوه على ذلك؛ فنهض شرف الدّين بُزغش، أحد الأمراء المَماليك النُّوريّة، وكان شُجاعاً مِقْدَاماً. وأنكر ذلك كلَّ الإنْكار، وامتنع من الموافقة، وقال: مَنْ خاف من الأسر أو القَتْل فلا يخدُم الْمُلُوك(٣) ويأكل رزقهم، ويكون في بيته عند امرأته. وقال: والله لا نَزال نُقَاتل إلى أنْ نُقتل عن آخرنا أو نَنْتَصر. فوافَقَه أسدُ الدّين، وجمَعَ عسكره ورتَّبهم، وجَعَل أثْقَالَه في القَلب ليكثُر بها السَّواد ولِئَلاَّ ينهبَهَا أهلُ البلاد.

فبينما هُم في التَّعبئة إذَا بشاوَر والفرنج قد أَقْبَلُوا، ورتَّبهم واقتتلوا، فكانت الهزيمةُ على شاوَر والفرنج(٤) وتَوَالَت عليهم الحملاتُ من العَسْكر الشّامي، فتمادَتْ بهم الهزيمة إلى الجيزة، وشِيركوه في آثارهم. وقُتِل منهم خَلْقٌ وغَرِق كثيرٌ منهم. وأسر أسدُ الدّين صاحبَ قيسارية.

ودخل شاوَر والفرنج إلى القَاهرة. ومَلَك أسدُ الدّين البرَّ الغَربي بكَماله؛ وقَصَد الإسكندريَّة ليُحاصرها. فلمّا قرُب منْهَا خرج إليه أهلُها وسلَّمُوها إليه من غير مُمَانعة؛

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٢٤. والروضتين لأبي شامة، ج١، ص ٣٦٤.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٣) «الكرك» في الأصل والتصحيح من الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٣٦٥.

(٤) كانت الهزيمة في موضع معروف بالبابين بالقرب من الأشمونين. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٨٤.

وكان والي الثغر يوم ذاك نجم الدّين بن مصال. فدخل شيركُوه البلدَ، وأقامَ بها أيّاماً قلائل، واستناب بها صَلاحَ الدّين يوسف ابن أخيه نجم الدّين أيوب، وتركه بها ومعه ألفُ فارس. وتوجَّه هو إلى الصَّعيد، فاسْتَولى عليه، واستخرج أمواله؛ وصام شهرَ رمضان بمدينة قوص.

هذا وشَاوَر يتجهَّز للخُروج ويرتِّب أحْوالَه وأحوال الفرنج ويرمّ ما تلف لَهُم. فلمّا تكامَل ما يحتاجُ إليه قصد الإسكندريّة، فأخْرج أهْلُها الأموالَ وأنْفقُوها، واستَعدُّوا للحصَار؛ فكان في جُملة ما أخرجوه للحصار أربعة وعشرون ألف قوس زُنْبُورك وما يناسبُ ذلك من الآلات.

وسارَ شاوَر ومُرّي ملك الفرنج، فنازلوا الإسكندريَّة. فلما رأوْا شدّةَ أهلِها واجتماعَهم على الحصار، تقدَّم شاوَر إليهم وقال: سلِّموا إليّ صلاحَ الدّين ومَن معه وأضَعُ عنكم المَكُوس، وأعطيكم الأَخْماسَ. فامتنعوا وقالوا: معاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنج والإسْمَاعِيلِيَّة، فعنْد ذلك وقَع الحصار واشْتَدّ على أهل الإسكندريّة إلى أن قلَّت الأقوات.

وبلغ ذلك أسدَ الدّين فسار من الصّعيد وجدَّ في السّير إلى الإسكندرية، وكان شاور قد أفْسَد التّركمان الذين مع أسد الدين فصَارُوا معه؛ واجتمع لشيركوه طائفةٌ كبيرةٌ من العُربان، فلمّا علم شاور بقُربه خافَه ورَاسلَه في طلب الصُّلح، وبَذَلَ له خمسين ألف دينار، سوى ما أخذهُ من خراج البلاد، على أنْ يُفارق الدّيار المصريّة. فأجاب أسدُ الدّين إلى ذلك[1]، وشرط عليهم أن يرجعَ هو إلى الشّام ويرجع الفرنج إلى بلادهم، فاستَقرّت هذه القاعدة، وحلف الفرنج عليها.

ففُتِحت الإسكندريَّة عند ذلك، وخرج صلاحُ الدّين يوسُف إلى مرّي ملك الفرنج وجلس إلى جانبه. فدَخَل شاوَر عليهما، فقال المرّي: سَلِّمْهُ إلي وأعطيك في كلِّ سنةٍ خمسين ألف دينار. فقال مُرّي: نحن إذا حلفنا لا نغْدِر؛ ووَبَّخَه. وكان أسد الدّين قد شَرط على شاوَر أنّ الفرنج يرحَلون ولا يلتمسُون من البلاد دِرْهماً ولا ضيعةً ولا غير ذلك.

قال: وارْتحل أسدُ الدّين، ودَخَل مصر برِضَاء أهْلِها، وسارَ إلى بلبيس، وأرسْلَ

(١) ورد في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٨٥. «وأرسل شيركوه إلى صلاح الدين يأمره بتقرير الصلح، ورحل عن مصر إلى الشام». وذكر ابن ظافر في أخبار الدول المنقطعة، ص ١١٥ ما يأتي: «فصالحوا الملك الناصر على أن يسلم إليهم أسد الدين صاحب قيسارية». ونتيجة ذلك أن الصلح قد تم أولاً مع صلاح الدين في الاسكندرية.

إلى ابْن أخيه يوسُف أن يتوجّه في المراكب إلى عكّا، هُو ومَنْ مَعه من العسكر، وما مَعهُ من الأثقال؛ ففعَل ذلك، وركب منْ عكّا إلى دمشق.

هكذا حكى ابنُ جلب راغب في تاريخه. قال: وارْتحل أسدُ الدّين من بلبيس في نِصْف شوّال، ودخل شاوَر إلى الإسكندريّة، ثمّ خرجَ منها وعاد إلى القاهرة، فدَخَلَها في مُستهلّ ذي القعدة، وتلقّاه العاضد لدين الله.

وأمّا الفرنج، فاستقرَّ بينهم وبيْن شاوَر أنْ يكونَ لهم شِحْنةٌ[١] بالقاهرة وتكونَ أبوابُها بيد فرسانِهم، ويكون لهم في كلّ سنة مائة ألف دينار.

وفي سنة ثلاثٍ وستّين وخمسمائة خرج يحيى بن الخياط على شاوَر وطَلَب الوزارة؛ فندَبَ شاوَر عسكراً لحَرْبه، فانهزمَ ومَضى إلى بلاد الفرنج[٢].

ذكر وُصُول الفرنج إلى القاهرة وحصارها وحريق مصر

قال المؤرخ: وفي سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة عَادَ الفرنجَ إلى القاهرة. وذلك أنهم لمّا توجَّهوا في سنة اثنتين وستّين رتَّبوا في القاهرة جماعةً من أبطالهم وشجعانهم وفرسانهم ليحمُوها من عَسكر يأتي إليها من الشّام؛ فلما رأوْا خُلُوّ مصر من الأجناد راسَلُوا ملِكَهم مرّي واستَدعَوْه، وكان من الشّجَاعة والمكر على أمر عظيم. فامْتنع وقَال: الرّأيُ ألا نقصدها فإنّها طُعمةٌ لنا، وأموالُها تُحمل إلينا نتقوّى بها على قتَال نُور الدّين؛ وإنْ قصَدْناها حَمَل أصحابَها الخوفُ على تَسْلِيمها لنُور الدّين، وإن أخَذَها وجَعَلَ فيها مِثْل أسد الدّين شيركوه فهُو هلاكُ الفرنج وخروجُهم من الشام. فلمْ يقبلوا رأيه، وقالُوا: ما يَصِلُ عسكرُ نور الدّين إلينا إلا وقدْ ملكناها. وغَلبُوا على رأيه[٣].

فتجهّز الفرنج وسارُوا حتّى وصلوا إلى مدينة بلبيس ونازلُوها؛ فوقع الإرْجَافُ بمصْر؛ وشرعَ شاوَر في إنشاء حصن على مِصر واستعمل فيه النّاس، فلم يبْقَ أحدٌ إلا وعمل فيه؛ وحفر خَنْدقاً. وملك الفرنج بلبيس عَنْوَةً[٤] [مستهل صفر][٥] وقتلُوا خلقاً

---

(١) شِحنة: من فيهم الكفاية لضبط البلد وحمايتها، من رجال السلطان ورجال الأمن. ابن منظور: لسان العرب (شحن). والفيروزابادي: القاموس المحيط (شحن). والمقصود هنا عدد من الفرسان مهمتهم السهر على حسن تطبيق معاهدة الصلح (التحالف) التي كانت قد عقدت بين مري والعاضد وكان عرّابها شاور. ووظيفة هؤلاء الفرسان مراقبة أبواب المدينة وحماية الموظفين الذين يحصلون الجراية السنوية التي وعد شاور بدفعها إلى مملكة القدس. أمين معلوف: الحروب الصليبية كما رآها العرب، ص ٢١٣.

(٢) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٣٣٣.

(٣) «وحينئذٍ يتمنى نور الدين منا السلامة» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٣٦.

(٤) عَنْوة: قهراً، ابن منظور: لسان العرب (عنا).

(٥) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٣٦.

كثيراً[١]. وكان معهم بعضُ الأمراء المصريِّين مِمّن هرَب من شاور، منهم يحيى بن الخياط.

ثمّ سارُوا إلى القاهرة وأحاطوا بها، وذَلِك في العاشر من صَفر، فخاف أهلُها إن أهْملوا القتال أن يحلّ بهم ما حَلّ بأهل بلبيس فجدُّوا في القتال والاحتراز.

قال: ولمّا قرُب الفرنج من القاهرة أمر شاور بنهْب مصر وإحْراقها، فأحرقت في تاسع صفر، ونهبت؛ وأُمِر أهلُها بالانتقال إلى القاهرة[٢]، فانتقَل بعضُهم وتحصَّن البعض بالجزيرة، وتوجَّه آخرُون في المراكب إلى ثَغْري الإسكندريّة ودمياط، وطائفةٌ إلى الوَجْه القبلي؛ وتفرَّقوا وذهبت أموالهم. كلُّ ذلك قبل نُزول الفرنج على القاهرة بيوم.

قال: وبَقيت النّار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً؛ إلى حَادي عشر شهر ربيع الآخر.

قال: ولمَّا علم العاضدُ لدين الله عَجْز أهل القاهرة عن مُقَاوَمة الفرنج أرسل إلى الملك العادل نُور الدّين محمود بن زنكي يستغيثُ به، وسيّر إليه شعورَ نسائه في طيِّ الكتب[٣].

وقيل: إن شاوَراً أرسل إلى نور الدّين أيضاً.

وأرسل شاوَر إلى مرّي ملك الفرنج يُذَكّره بسابق الصحبة والعُهُود القديمة، وقرّر أنْ يحمل إليه ألفَ ألف دينار؛ فأجاب مرّي إلى ذلك وقال لأصحابه: نأخُذ المال ونتقوّى به ونَمْضي ثمّ نرجع فَلا نُبالي بعْدَ ذلك بنُور الدّين. فاستَوْثَق شاوَر منه بالأيمان وعجَّل له مائة ألف دينار، وماطَلَه بالبقِيَّة؛ وشرع يجمعُ له من أهل القاهرة المال، فلم يحصُل له من جِهَتهم غير خمسة آلاف دينار لِضَعْفهم.

هذا والرُّسُل تَتتابعُ إلى الملك العادل ويَسْتَغِيثُون به. وقرّر له ثلث الدّيار المصرية.

قال: ولما وصلت الكتب إلى طَلَب أسَد الدّين شيركُوه من حِمْص، فسارَ منها إلى

(١) ارتكب الفرنج في بلبيس مجزرة فظيعة، فقد ذبحوا الرجال والنساء، والأطفال وقتلوا خلقاً من مسلمين ومسيحيين. ولعل سلوكهم هذا هو الذي شجع شاور على إحراق القاهرة القديمة حتى لا يدخلها الفرنج. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٣٣٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٣٣. ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، ١١٥. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٩٣.

(٢) المراد بها القاهرة الفاطمية التي كانت تحتوي على القصور، والإدارات والثكنات وجامعة الأزهر الدينية. أمين معلوف: الحروب الصليبية، ص ٢١٤.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٣٧.

حَلَب في ليلةٍ واحدة، فجهّزه نُورُ الدّين وأعطاهُ مائتي ألف دينار سوَى الثّياب والسّلاح وغير ذلك. فاخْتَار أسدُ الدّين من العَسكر ألفَي فارس من الأقوياء، وستّةَ آلاف مِن بقيّة العسكر. وأنْفق نورُ الدّين لكلِّ فارس عشرين ديناراً. ثمّ سار شيركوه، فكان خروجُه من دمشق في مُنتصف شهر ربيع الأول؛ وأرْدَفه نُور الدين بجماعةٍ من الأمراء، منهم مملوكُه عز الدين جُرْدَيك، وشرف الدين بزغش وَعَين الدّولة اليارُوقي، وناصح الدّين خُمارتكين، وقطب الدين يَنَال بن حسّان المنبجي، وغيرهم[١]. والله أعلم.

ذكر قدوم أسد الدّين شيركوه إلى الدّيار المصرية ورحيل الفرنج عنها

قال: وقدِم أسد الدّين شيركُوه بالعَساكر، فكان وصُوله إلى مصر في يوم الثُّلاثاء لليلَةٍ بقيت من شهر ربيع الأول[٢] سنة أربع وستّين وخمسمائة. ولمّا بلغ الفرنج قربُه عادُوا عن القاهرة إلى بلادهم، وكان رُجوعهم في يوم السَّبت ثالث شهر ربيع الآخر، ومعهم من الأسرى اثنا عشر ألف نفس. ودخل أسدُ الدّين القاهرة في سَابع شهر ربيع الآخر، وخرج إليه العاضدُ لدين الله وتلقّاه. وحَضَر يوم الجمعة التاسع من الشهر إلى الإيوان وجَلَس إلى جانب العَاضد، وخلَع عَليه؛ وفرح النّاس بقُدومه. وعادَ أهلُ مصر إليها، وشرعُوا في إطفاء النّيران وإصْلاح ما تشعَّث. وكانت سُقُوفُ جامِع عمْرو ابن العَاص بمصر قد احْتَرقت فجدَّدَهُ الملك النّاصرُ صلاح الدّين يوسُف.

قال: وأمَر العاضدُ أسدَ الدّين بالنُّزول على شاطىء النّيل بالمقس، ورتّب له شاوَر ولِمن معه الإقامات الوافرة، وأظهرَ لهُ ودًّا كثيراً، وصار يتردَّد إليه في كلّ يوم. فطلب أسدُ الدّين من شاور ما لا يُنْفقه في عسكره، فمطَلَه فسيّر إليه شيركوه الفقيه عيسى الهكّاري[٣] يطالبُهُ بالنَّفقة ويقولُ له: إن العَسْكَر قدْ طال مُقامُهم وطالبُوا بالنّفقة وتغيّرت قلوبهم عَليْك، وإنّي أخشى عليك منهم. فلَمْ يكترِث شاور بذلك، وشرع في المُمَاطَلة فيما كان قرّره لنور الدّين.

وعزم شاور على أن يصْنَع دعوةً ويُحضر أسدَ الدّين وجماعةَ الأمراء الذين معه إلى دارِه، ويقبض عليهم، ويستخدم من معه من الجُند فيمتنع بهم من الفرنج. فنهاهُ عَن

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٣٨. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٩٤.

(٢) «منتصف ربيع الأول» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٣٨.

(٣) هو الفقيه أبو محمد ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري. أحد الأمراء بالدول الصلاحية، كان يشتغل بالفقه بمدينة حلب، ثم أصبح في صحبة الأمير أسد الدين شيركوه في الديار المصرية. توفي سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م. وبن خلكان: وفيات الأعيان:، ج ٣، ص ٤٩٧، رقم ٥١٦.

ذلك ولدُه الكَامل. وحلفَ أنَّه إنْ صمَّم على هذا الأمر عرَّف به شيركوه، فقالَ له أبوه: والله لئِن لم تَفعل هذا قُتِلنا عن آخرِنا. فقال الكاملُ لأبيه: صدَقْتَ، ولأَنْ نُقتل ونحنُ مسلمون خيرٌ من أنْ نُقتل وقد ملكها الفرنج، فإنّه ليس بيْنَك وبين [عود][1] الفرنج إلا أنْ يسمعوا أنّ أسد الدّين قد قُبض عليه، وحينئذٍ لَوْ مشى العاضدُ إلى نور الدّين ما أغاثه، ويملُكون البلاد، فتَرك ما عَزَم عليه، واتّصَل ذلك بالعاضد فأَعْلم شيركوه.

ذكر مقتل شاور

كان مقتلُه في يوم السّبت لثَلاثَ عشرة ليلةً بقيت من شهر ربيعُ الآخر من السنة.

وذلك أنّ الأُمراء النُّوريّة لمّا رأوْا مُماطَلَته بالنّفقة وبَلَغهم أنّه قد عمل على القبض عليهم اتَّفق صلاحُ الدّين يوسُف وعزّ الدّين جُرْدَيك، وغيرهما، على قَتلِه وأعلمُوا أسدَ الدّين بذلك؛ فنهاهم عنه. واتّفق أنّ شيركوه خَرج لزيارة قبر الإمام الشّافعي هذَا اليوم، وحضر شاوَر لَهُ على عادته، فَقيل: إنّه توجَّه للزّيارة؛ فقال: نتوجّه إليه، فتوجَّه ومعَهُ يوسُف وجُرْدَيك، وهما يُسايرانه، فأنْزَلاه عن فرسه، وكتَّفاه، فهرب عنه أصحابُه، فجَعَلاَه في خَيْمَةٍ، وأحاط بها جماعةٌ ولم يُمْكِنْهم قتلُه بغير أمر أسد الدّين[2]. فحضر من القصر جماعةٌ من قِبَل العاضد، يستحثّ على قَتله، وحضر أسدُ الدّين إلى المخيَّم ورُسُل العاضد تتَواتَر لأسد الدّين يأمره بقتله. فقُتل، وأُرسل رأسُه إلى العاضد على رُمْح [في السابع عشر من ربيع الآخر][3].

ومَضى أولادُه إلى القصور واستجارُوا بالعاضد، فقُتِلوا بعد العقوبة الشّديدة، في يوم الاثنين لأربعٍ خلَوْن من جمادى الأولى منها. وهم: الكامل؛ والمعظّم، وركن الإسلام. وتأسّف شيركوه بَعْد ذلك على الكامِل لأنه بلغَهُ ما جرى بينه وبين أبيه.

قال: ولما قُتل شاوَر استدْعَى العاضدُ أسدَ الدّين شيركُوه، فَدخلَ إلى القاهرة في السّاعة الّتي قُتل فيها شاوَر، فرأى العَوامّ وقد اجتمعُوا، فهالَهُ ذلك، فقال لهم: إنّ مَوْلانا العاضد لدين الله أمير المؤمنين يأمرُكم أن تنْهَبوا دُورَ شاور. فتفرَّق النَّاس عنه، ونهبوها. ودخل شيركوه إلى القصر. فتلقّاه العاضد، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة، ولقّبه الملك المنصُور أمير الجيوش[4]. ولم تطُلْ مدّته في الوزارة حتى تُوُفي إلى رحمة الله تعالى

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١١، ص ٣٣٩. واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣٠٠.

(٢) «نور الدين» في الأصل، والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٤٠.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٤٠.

(٤) بعث العاضد منشوراً بالوزارة لأسد الدين بخط القاضي الفاضل وعليه خط العاضد. وهذا نص =

بعْدَ خمسةٍ وستّين يوماً؛ وقام بالأمر بعدَه الملك النّاصر صلاحُ الدّين يوسف، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدّولة الأيُّوبيّة.

ذكر انقراض الدّولة العُبَيْديّة والخطبة للمستضيء بنُور الله العبّاسي

كان انقراضُ هذه الدّولة عند خَلْع العاضِد لدين الله، وذلك في يوم الجمعة لَسَبع مضَيْن من المحرّم سنة سبعٍ وستّين وخمسمائة.

وكان سببُ ذلك أنّ صلاحَ الدّين يوسف لمّا ثبتتْ قدمُه في ملك الدّيار المصريّة واسْتمال النّاس بالأموال قَتَل مؤتَمن الخلافة جوهراً، زمام القصور، ونصب مكانه قَراقوش الأسديّ الخصيّ خادم عمه، ثمّ كانت وقعةُ السّودان فأفناهم بالقَتل، على ما نذكرُه إن شاء الله مستوفًى في أخباره. ثمّ أسْقط من الأذان قولَهم: «حيَّ على خَيْر العملِ»؛ وأبْطَلَ مجلس الدّعوة؛ وضعُف أمْرُ العَاضد معه إلى الغاية فعند ذلك كتب الملكُ العادلُ نور الدّين إلى الملك النّاصر صلاح الدّين يأمرُه بالقبض على العاضد وأقاربه، والخُطْبة للخليفة المستضيء بنور الله[1]، وكان المستضيء قد رَاسَله في ذلك. فامْتنع صلاحُ الدّين، وكَره إزالَةَ هذه الدّولة. فكتب إلى الملك العادل يعتَذِرُ، وقال: إنْ فعلنا هذَا الأمْر لا نَأمَن من قيام أهلِ مصر علينا لميلهم إلى هذه الدّولة. وكان قَصْد صلاح الدّين أن يتقوَّى بالعاضد على نور الدّين إن هو أرادَ الدُّخول إلى الديار المصريّة[2].

فلما وَرَدَ جوابُه على نُور الدّين بالاعتذار انْزَعَج لذلك، ورَادَف رُسُلَه إليه يأمرُه بخَلْع العاضد والقَبْض عليه[3].

= المنشور: «هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقليد أمانة رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلاً لحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى نبوّة النبوّة، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً: ﴿وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: 91] القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٩، ص ٤٠٦، وأبو شامة في الروضتين، ج ١، ص ٤٠٢، وابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ١٦٥، وابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٣٥. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٣٦.

(١) هو أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفي محمد العباسي الهاشمي البغدادي المستضيء بأمر الله. توفي ببغداد في ثاني ذي القعدة عن ست وثلاثين سنة وكانت خلافته تسع سنين. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٧٨. في تاريخ الخلفاء للسيوطي، والكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير. كانت ولادته سنة ٥٣٦ هـ فيكون عمره حين وفاته تسعاً وثلاثين سنة. انظر: تاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ١٣.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٦٨.

(٣) انظر الروضتين لابي شامة، ج١، ص ٤٩٣.

فاسْتَدعى الملك الناصر الأمراءَ واستشارهم في ذلك، فمِنهُم مَن حذَّره، ومنهم مَنْ هَوَّنه عليه. فأحضر الفقيه اليَسع بن يحيى بن اليسع، وعرَّفه الحال. فلمّا كان في هذه الجمعة صعد إلى المنبر بجامعِ مصر قبل طُلوع الخطيب، ودَعَا للمستضيء بنُور الله؛ فلم يُنْكر عليه أحدٌ. فلمّا كان في الجمُعة الثّانية أمر الملكُ النّاصر الخطباءَ بمصر والقاهرة أن يخطبُوا للمستضيء بنُور الله أبي محمد الحسن، بن المستنجد بالله العباسي؛ فخطبوا له.

ثمّ تُوفي العاضدُ لدين الله إثْر هذا الخَلْع، في يوم عاشوراء من السّنة، بعدَ ثلاثةِ أيّامٍ مِن خَلعه. وكانَ ضعيفاً لما قُطِعت خطبته، فقال صلاحُ الدّين: لا تُعْلِموه، فإنْ عُوفي أعلَمْنَاه، وإن تُوفي فلا نفجعُه بهذه الحادثة.

وقال بعض المؤرخين: إنّ صلاح الدين لمّا قطع خُطبته دَخَل عليه وقَبض عليه واعتقله، فلمّا رأى ذلك كان في ذخائِره فصٌّ في خاتم، فمصَّه، فمات لِوَقته. فكان صلاح الدّين يقول: ندمت على كَوْني دخلتُ علَى العاضد وفَعلتُ به ما فعَلْت، وكان أجَلُه قدْ قُرب.

ولمّا ماتَ جلسَ الملكُ النّاصر للعَزاء به. فكانت مدَّة ولايته إحْدى عشرةَ سنة وخمسة أشهر وتسعة عشر يوماً، ومولدُه في يوم الثلاثاء لعشر بقِينَ من المحرّم سنةَ ستٍّ وأربعين وخمسائة؛ فعمرُه على هذا إحدى وعشرون سنة إلاّ أحد عشر يوماً.

وكان له من الأولاد ثلاثة عشر وهم عليّ؛ وموسى؛ وعبد الكريم؛ وأبو الحجّاج يوسف، وأبو الفتوح؛ وإبراهيم؛ وجعفر؛ ويحيى؛ وعبد القوي؛ وعبد الصمد؛ وأبو البشر؛ وعيسى. فاعْتقلهم الملكُ النّاصر بأجمعهم، واستمرُّوا في الاعتقال إلى سنة اثنتين وستّمائة، فكان من أمرهم ما نذكرُه في أخبار الدّولة الأيّوبية.

ووَزَرَ له مَن ذكرنا أخبارهم، وهم: الصّالح أبو الغارات طلائِع بن رُزّيك؛ ثم ولدُه العادل رُزّيك، ثمّ شاوَر؛ ثمّ الضرغام؛ ثم عاد شاور؛ ثمّ أسد الدّين شيركوه؛ ثمّ الملك النّاصر صلاح الدّين يوسف.

قضاته: أبو القاسم هبة الله بن كامل؛ وأبو الفتح عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوي؛ ثمّ الأعز أبو محمّد الحسن بن علي بن سلامة؛ ثم أعيد عبد الجبّار؛ ثم أعيد ابن كامل، ثمّ صرف على أيام الملك النّاصر بالقاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن درباس[1].

وكان العاضد شديدَ التشيُّع متغالياً في سبّ الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين. إذا رأى سُنّياً استحلّ دمه.

---

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١١٦ ـ ١١٧.

جامع أخبار الدّولة العُبَيديّة ومدّتها ومَنْ ملك من ملوكها

كانت مدّة تغلُّب ملوك هذه الدّولَة على البلاد منذ أَخْرجَ أبو عبد الله الشيعيّ عُبيدَ الله، المنعوت بالمهْديّ، من سجِلْمَاسَة، من سجن الْيَسَع بن مدرار إلى أن مات العاضد هذا مائتي سنَة وسبعين سنةَ وشهوراً[١]. منها ببلاد الغرب، منذُ دخل عُبيد الله المهدي رَقّاده إلى أنْ وصل المعزّ لدِين الله إلى القاهرة أربعُ وستون سنة وعشرة أشهر وخمسة وعشرُون يوماً[٢]. وباقي هذه المدّة بمصر والشّام إلى أن انقطعت دعوتُهم بخروج عسقلان عن يد المسلمين واستيلاء الفرنج عليها، في جُمادى الآخرة سنةَ ثمانٍ وأربعين وخمسمائة، في أيام الظافر بأعداء الله في وزارة عبّاس بن يَحيى بن تميم.

وعدّة من ملك منهم أربعة عشر ملكاً تَسَمُّوا كلُّهم بالخلافة؛ وهم: عبد الله المنعوت بالمهديّ؛ ثم ابنُه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد؛ ثمّ ابنُه المنصور بنَصر الله أبو الظاهر إسماعيل؛ ثم ابنه المعزّ لدِين الله أبو تميم معدّ، وهو أوّل من ملك الدّيار المصريّة والبلاد الشامية منهم، وإليه تُنْسَب القاهرة المعزّية؛ ثم ابنُه العزيزُ بالله أبو المنصُور نِزار؛ ثمّ ابنه الحاكم بأمْر الله أبو علي المنصور؛ ثمّ ابنُه الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم، وقيل أبو الحسن، عليّ؛ ثم ابنُه المستنصر بالله أبو تميم معدّ؛ ثم ابنه المستَعْلي بالله أبو القاسم أحمد؛ ثم ابنُه الآمر بأحكام الله أبو علي المنصُور؛ ثم ابن عمِّه الحافظُ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن محمّد بن المستنصر بالله؛ ثم ابنهُ الظّافر بأعداء الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ؛ ثم ابنُه الفائر بنَصر الله أبو القاسم عيسَى ابن الظافر؛ ثم ابنُ عمّه العاضدُ لدين الله أبو محمد عبد الله بن يُوسف بن الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر؛ وعليه انقرضت دولُتهم، وانتهت أيّامُهم، وباد مُلكهم، فلم يَعُد إلى وقتنا هذا.

قال المؤرخ: ولما خُلع العاضدُ ومات واعتَقَلَ الملكُ النّاصر صلاح الدّين يوسف أولادَه بالقُصور مرّ القاضي الأرشد عُمارة اليمني الشّاعر بالقصور، وهي مغَلَّقَة الأبواب، مهجورة الجناب، خاويةٌ على عروشها، خاليةٌ من أنِيسها؛ فأنشأ قصيدته المشهورة التي رَثَى بها القُصور وأهلها، وهي من عيون المراثي[٣] وأوّلها: [من البسيط]

---

(١) في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١١٧، ورد: مائتين وتسعة وستين سنة وثمانية أشهر وأحد وعشرين يوماً».

(٢) ورد في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١١٧، «خمسة وستون سنة وأربعة أشهر ونصف».

(٣) وردت هذه القصيدة في: صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٦ ـ ٥٢٨، والروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٧٠ ـ ٥٧١، ومفرج الكروب لابن شامة، ج١، ص ٢١٢ ـ ٢١٦، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٤.

رميتَ يا دهرُ كفَّ المجد بالشَّلَلِ ... وجِيدَهُ بَعْد حُسْنِ الحَلْي[١] بالعَطَلِ
سَعَيْتَ في مَنْهَج الرَّأي العثُورِ، فإن ... قَدَرْتَ من عَثَرَاتِ الدَّهرِ[٢] فاستَقِلِ
هَدَمْتَ قَاعدَةَ المَعْرُوف[٣] عَن عجلٍ ... سُقِيتَ مُهْلاً أَمَا تمشي على مَهَلِ
لَهْفِي ولَهْف بنى الآمالِ قاطبَةً ... على فجِيعَتِنَا[٤] في أكرَمِ الدُّوَل
قدِمتُ مِصرَ فأَوْلَتْني خَلائِفُها ... من المكَارِمِ ما أَرْبَى على الأمل[٥]
قَومٌ عرفتُ بهم[٦] كَسْبَ الأُلُوفِ ومِنْ ... جمالها[٧] أنَّها جاءَتْ ولَمْ أَسَلِ

منها: [من البسيط]

يا عاذلي في هوَى أبناءِ فاطمةٍ ... لك الملامَةُ إن قَصَّرْتَ في عَذلي
بالله زُرْ سَاحَة القَصْرَيْنِ، وابْكِ مَعِي ... عَلَيْهما، لا عَلى صِفِّينَ والجَمل
وقُل لأَهْلِهما: واللَّهِ ما الْتَحَمَتْ ... فيكُم جِراحي[٨]، ولا قرْحِي بمُنْدَمِلِ[٩]
ماذَا تُرى[١٠] كانت الإفْرَنجُ فاعِلةً ... في نَسْلِ آلِ أميرَ المؤمنينَ عَلي
هَلْ كان في الأمْر شيءٌ غيرَ قسْمَةِ ما ... ملَّكْتُمُ بين حُكم السَّبْي والنَّفلِ
وقد حَصَلتُم عليها واسمُ جَدِّكُمُ ... محمَّدُ، وأبيكم[١١] غيرُ مُنْتَقل
مرَرْتُ بالقَصْر، والأبوابُ[١٢] خاليةٌ ... من الوُفُودِ، وكانَتْ قِبْلَة القُبَل

---

(١) «بعد حلي الحسن» في الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٧١.
(٢) «من عثرات البغي» في الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٧١.
(٣) «قواعد المعروف» في الأصل. والتصحيح من الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٧١، وفي صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٦.
(٤) «شقيتَ، مَهْلاً» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٦.
(٥) «فجيعتها» في مفرج الكروب لابن واصل، ج ١، ص ٢١٦، وفي صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٦.
(٦) «على أملي» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٢١٦.
(٧) «عرفْتُ لهم» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٢١٦.
(٨) «كمالها» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٢١٦.
(٩) «جروحي ولا جرحي بمندمِل» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ٥٢٦. وفي مفرج الكروب لابن واصل، ج ١، ص ٢١٦. «فيكم جروحي ولا جرحي مندمل» في الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٧١.
(١٠) «ماذا عسى» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣٣٤.
(١١) «وأبوكم» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٧.
(١٢) «والأركان خالية» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٧.

فَمِلتُ عنها بوَجْهي[1] خوفَ مُنتقدٍ مِن الأعادي، ووَجْهُ الوُدّ لمْ يَمِلِ
أَسَلْتُ من أسَفِي[2] دمعي غَداةَ خلَتْ رحابُكم، وغدَتْ مهجُورَةَ السُّبل
أبْكي علَى مَأْثُراتٍ[3] من مَكارِمُكم حَالَ الزّمانُ علَيها، وهْيَ لم تَحُلِ

وهي قصيدة مشهورة مطوّلة.

ولمَّا انقرضت هذه الدّولة قامت الدّولةُ الأيوبيةُ على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار ملوكها والله أعلم.

(١) «بوجهِ» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٧.
(٢) «اسلبت من أسفي» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٧.
(٣) «أبكي على ما بدا لي» في الأصل، والتصحيح من صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٧.

ذكر أخبار الدولة الأيوبية

وهي دولَة السّلطان الْمَلك النّاصر صلاح الدّين يوسف بن أيوب وأولاده، ودولةُ أخيه الملك العادل سيف الدّين أبو بكر وأولاده، رحمهم الله تعالى.

ولْنَبدأ بذكر نَسَب نجم الدين أيّوب والد مُلُوك الدّولة الأيُّوبيّة وابتداءِ حالِه وحالِ أخيه أسد الدّين، وكيف تنَقّلتْ بهم الحال إلى أن ملك أسدُ الدّين شيركوه الدّيارَ المصريّة، وكيف انتقل المُلك مِن بعده إلى ابن أخيه الملك النّاصر صلاح الدّين يوسُف. ثمّ نذكر أخبار مَنْ ملك مِن أولاده وأخيه الملِك العادل وأولاده في حَرْبِهِم وسَلْمِهم إلى حين انْقراض دولتهم. وبالله التوفيق.

ذكر نسب الملك الأفضل نجم الدّين

هو [أبو][1] سعيد أيوب بن شادي بن مروان. هذا هو المقطوعُ به الذي لا نزاعَ فيه، ولا خلاف بين أحد من المؤرخين ونَقَلة أخبارهم.

وقال الملكُ الأمجد مجدُ الدّين أبو محمد الحَسن، ابن السلطان الملك النّاصر صلاح الدين أبي المفاخر داوُد، ابن السلطان الملك المعظّم شرف الدّين أبي المظفر عيسى ابن السلطان الملك العادل سيف الدّين أبي بكر محمد، ابن الملك الأفضل نجم الدّين أبي سعيد أيوب، رحمُهم الله تعالى، في كتابه المتَرْجَم بالفوائد الجليّة في الفَرائد النّاصرية: سمعتُ مَن يقول: مروان بن محمد؛ وقال بعضُ النّاس محمد بن يعقوب.

وقال شهابُ الدّين أبو شامة عبد الرحمٰن في كتابه المترجَم بالرّوضَتَين في أخبار الدّولتين سمعتُ مَن يقولُ: مروان بن يعقوب[2].

وقال الملك الأمجد: وقد اختُلِف في نَسبهم على ثلاثةِ أقوال:

القول الأول: ما قاله عزّ الدّين علي بن الأثير الجَزري المؤرخ أنّ نجم الدين

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح. وانظر ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ٢٥٥، رقم ١٠٧ حيث ورد «أبو الشكر». وانظر أيضاً الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٣٣ - ٥٣٥.

(٢) انظر الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٣٤.

أيوب من بلد دَوين[١] من أذرْبِيجَان، وأصله من الأكراد الرَّوَاديّة[٢]؛ وهذا القَبِيل هم أشرَف الأكراد[٣].

قال الملكُ الأمجد: وهذا شيءٌ يجري من ألسنة كثير من النّاس، ولمْ أرَ أحداً ممّن أدركه من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النَّسب، لكنّهم لا يُنكرون أنَ نجم الدّين كان بِدَوين.

قال: والمشهور عند بَيْتنا أنّ جدنا نزل على الأكراد وتزوَّج منهم، فصارت بيننا وبينهم خؤولة لا غيرُ. ويدلّ على ذلك أن السّلطان الملك النّاصر صلاحَ الدّين يوسف لمّا ملك البلاد تقدّم في دَوْلته جماعةٌ من الأكراد، فلم يبقَ أحدٌ منهم إلا جاء بنُو عمّه وأقاربُه، حتى صار في عُصْبةٍ من أهله؛ والسّلطان رحمه الله لم يأتِ إليه من يمُتّ بقَرابة إلا من جهة النّساء فقط، ولو كان من الرَّوَادِيّة لكان جمعُ القبيلة أولادَ عمه وإن لم يكُنْ له ابنُ عمّ قريب فيكون ابنَ عمٍّ بعيد قطعاً لأن القبيلة كلّها أولاد رجل واحد. ولا شكّ أنّ الدّواعي تتوفّر على الانتماء إلى الملك ما لا تتوفّر على الانتماء إلى الأمراء.

القول الثاني: إنهم من أولاد مروان بن محمد الأموي، آخر خلفاء الدولة الأموية.

قال الملكُ الأمجد: وهذا شيء ادَّعَاه الملك المعزّ فتحُ الدين أبو الفداء إسماعيل ابن الملك العزيز ظهير الدين أبي الفوارس سيف الإسلام طغتكين، ابن أيوب، باليمن، لما ملكه بعد أبيه، وتلقّب بالإمام الهادي ينور الله المعزّ لدين الله أمير المؤمنين. وقال يحيى بن حميد بن أبي طيّ: قد نقَّبت عن ذلك فأجمع الجماعة من بني أيوب على أنهم لا يعرفون جداً فوق شادي[٤].

القول الثالث: ما ذكره حسن بن عمران الجرشي فإنه جاء إلى الملك المعظم وعمل شجرةً لنسب بني أيوب، فوصله بعليّ بن أحمد المرّي[٥] ممدوح أبي الطيب المتنبي الذي يقول فيه: [من الخفيف]

شَرِقَ الجوُّ بالغُبار إذا سا ر عليُّ بنُ أحمدَ القمقامُ

---

(١) بلد دوين: بفتح أوله وكسر ثانيه، وياء مثناة من تحت ساكنة، وآخره نون: بلدة من نواحي أرّان في آخر حدود أذربيجان بقرب تفليس منها ملوك الشام بنو أيوب وينسب إليها أبو الفتوح نصر الله بن منصور بن سهل الدَّوين الجيزي. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٩١.

(٢) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٢٤١.

(٤) انظر الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٣٤ _ ٥٣٥.

(٥) «علي بن محمد» في الأصل، والتصحيح من كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ٧.

وقال أيضاً في مدحه: [من الخفيف]

إنــمــا بــن عــوف بــن ســعــد جــمــرات لا تــشــتــهــيــهــا الــنــعــام

ولم يُنْكر الملكُ المعظّم عليه ذلك بل قَبِل منه.

قال: وهذا سَردُ النّسب الذي عَمِله الجرشيّ، وهو أيوب بن شادي بن مروان بن أبي علي.

قال الملك الأمجد: قلت: ويُحتمل أن يكون أبو علي هذا هو محمد المقدم ذكره - وأبو على كنية له - ابن عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز بن هدية بن الحصين بن الحارث بن سفيان بن عمرو بن مرة بن شبة بن غيظ بن مُرَّة بن عوف بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النّضر بن كنانة بن خزيمة بن مدرسة بن إلياس بن مضر، وبقية النسب معروف. هذا ما قيل في نسبه. وأما ابتداء حاله:

ذكر ابتداء حال الملك الأفضل نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه

قال المؤرخ: قدم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدّين شيركوه من بلد دوِين إلى العراق في خلافة المسترشد بالله[1]، وخدما مجاهد الدين بهروز[2] شحنة بغداد. فرأى من نجم الدّين عقلاً ورأياً وحُسن سيرة، وكان أسَنَّ من أخيه أسد الدّين، فجعله مجاهدُ الدين دُزْداراً[3] بقلعة تكْرِيت[4]، وكانت له، فسار إليها ومعه أسد الدّين.

وقيل بل كان نجمُ الدّين قد خدم السّلطان محمد بن ملكشاه السّلجقي[5]، فرأى منه أمانةً وعقلاً، وسداداً وشهامة، فولاّه قلعة تكرِيت، فقام بها أحسن قيام. فلمّا وَلي

---

(١) هو أبو منصور الفضل أبي الخليفة المستظهر بالله أحمد الملقب بالخليفة أمير المؤمنين المسترشد بالله. بويع بالخلافة في شهر ربيع الآخر سنة ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م. ولد سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م، توفي سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٥٠.

(٢) كان رئيس الشرطة، أو محافظ المدينة أو الأمير المشرف على حراستها. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣، حاشية (٣).

(٣) دزدار: كلمة فارسية بمعنى حاكم حصن. «فجعله مستحفظاناً» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٤١.

(٤) تكريت: بفتح التاء: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، ولها قلعة حصينة غربي دجلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨.

(٥) توفي سنة ٥١١ هـ/ ١١١٧ م وعمره ٣٧ سنة ومدة ملكه بعد وفاة أخيه بركياروق ١٢ سنة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٠٩. انظر أيضاً: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٣٠، والكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٥٢٥.

السّلطان مسعود[١] أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدّين بهروز، فأقرّ نجمَ الدّين في الولاية. وكان أتابك عماد الدين زنكي بن آق سنقر، والد السّلطان الشّهيد نور الدّين لما انهزم من قراجا السّاقي في سنة ست وعشرين وخمسمائة، كما ذكرناه، بلغت به الهزيمة إلى تكريت، فقام نجم الدّين بخدمته أتمّ قيام، وأقام له السّفن إلى أنْ عَبَر دجلة، فكان ذلك سبب وُصلته بالبَيت الأتابكي وتقدّمه.

قال: ثمّ اتفق بين أسد الدّين وبين قوارص النّصراني، كاتب بهروز، مشاجرةٌ في بعض الأيام، فكلّمه النّصراني بكلمةٍ أمضّته[٢]، فضربَ عُنُقَه بيده، ورماه برجله[٣]، فلمّا اتصل الخبر ببهروز وحضر عنده مَنْ حذّره من جُرأة شيركوه وتمكين نجم الدّين واستِحْوازه على قُلوب الرّعايا خافَ عاقبةَ ذلك، وكتب بالإنكار عليه بسبب ما كان من أخيه، وعَزَله. فسار نجمُ الدّين أيوب وشيركوه إلى عماد الدين زنكي في الموصل، فلمّا وصلاَ إليه سُرَّ بهما وأحسن إليهما، فأقطعهما الإقطاعات الجليلة، وشهدَا معهُ حُروب الكفار وقتال الفرنج.

فلمّا ملَك زنكي قلعة بَعلبك، في سنة ثلاثٍ وخمسمائة جعل نجم الدّين دُزدَاراً بها؛ فأقام بها إلى أن قُتل عماد الدين زنكي، في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. وحَاصَر معينُ الدّين أنر، صاحب دمشق قلعةَ بعلبك، حتى ضاقَ الأمر على نجم الدّين، فاضْطُر إلى تَسليمها إليه، وتعوَّض عنها إقطاعاً وأملاكاً؛ وكان عندَهُ من الأكابر الأمراء. واتّصل أسد الدين شيركوه بخدمَةِ الملك العادل نُور الدّين محمود بن زنكي، فجعله مقدَّماً على عسكره، وجعل له حمص والرَّحبة وغيرهما.

فلما تعلقت همّة نور الدّين بمُلك دمشق أمر أسَد الدين بمكاتبة أخيه نجم الدّين أيوب في ذلك، فرَاسَله، فأعان نورَ الدّين على فتح دمشق؛ فعظُم محلُّهُما عند نور الدّين. فكان نجم الدين إذَا دخل عليه جلس من غير أن يُؤذن له في الجلُوس، ولم تكن هذه الرُّتبةُ لغيره من سَائر الأمراء. فلمّا كان من أمر شاوَر ما قدّمناه وقصَد نورَ الدّين

---

(١) هو أبو الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه الملقب غياث الدين. ولد سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٨م. وتوفي سنة ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ رقم ٧٢٠. ترجمته وأخباره في: تاريخ الدولة السلجوقية للحسيني. والكامل لابن الأثير، ج ١٠، ١١. وابن خلدون ج ٥، ص ٤٥، والسلوك، ج ١، ص ٣٤. والمنتظم لابن الجوزي، ج ١٠، ص ١٥١، وعبر الذهبي، ج ٤، ص ١٢٧. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ١٤٥. ونهاية الأرب للنويري، ج ٢٧.

(٢) أمضته: آلمته، أوجعته، ابن منظور: لسان العرب (مضض).

(٣) «فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني... وأخذ النصراني برجله فألقي من القلعة» في الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٣٧.

محمود أو استغاث به، أرسل معهُ أسد الدّين بالعساكر؛ وكان من أمره في المرّة الأولى، في سنة تسعٍ وخمسين وخمسمائة، والمرّة الثانية، في سنة اثنتين وستّين، والمرّة الثالثة في سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة على ما قدّمنا ذكره في أخبار الدّولة العُبَيْديّة في أيّام العاضدِ لدين الله.

ذكر وزارة الملك المنصور أسد الدّين شيركوه بالدّيار المصريّة ووفاته

كانت وزارتُه للعاضِد لدين الله في يوم السّبت لثلاثَ عشْرةَ ليلةً بقيت من شهر ربيع الآخر سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة.

وذلم أنّه لما كان من أمر شاور ومقْتَلِه ما ذكرناه آنفاً استَدْعى العاضدُ لدين الله أسدَ الدّين شيركوه، فدخل إلى القَاهِرة في السّاعة التي قُتِل فيها شاوِر، فرأى من اجتماع العوام ما هَالَهُ، فخاف على نفسه، فقال لهم: أميرُ المؤمنين يأمُركُم بنَهب دارِ شاور. فقصدَها النّاس ونهبُوها وتفرّقوا عنه. ولمّا نزل أسدَ الدّين بدَارِ شاوَر، وهي دارُ الوزارة، لم يجد فيها ما يجلس عليه[1].

قال: ولمَّا تفرق الناس للنهب دخل أسد الدّين على العاضد لدين الله، فتلقَّاه وخَلَع عليه خِلَع الوزارة، ولقَّبه بالملك المنصُور أمير الجيوش، وكتب له تقليدَ الوزارة، وكتب عليه العاضد بخطه عهداً: (عهدٌ لم يُعهد لوزير بمثله، وتقليدُ أمرِ رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله. والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مَرَاشِد سُبُله. فخُذْ كتاب أميرِ المؤمنين بقُوّة، واسحب ذَيْل الفخار بأن اعْتززت بخدمتك من النّبوّة[2]؛ واتّخذ الفوزَ سبيلاً: ﴿...وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[3] [النحل: ٩١].

وخرجَ من عند العَاضد وركب إلى دار الوزارة وسكنها، واستقلّ بالأمر. واستعمل على الأعْمال من يثقُ به كُفاةِ أصحابه، وأقْطَع البلاد لعساكره. وأرْسَلَ إلى ديوان الإنشاء بالقصر يطلُبْ منْ يكتُب بين يديه، فأَرْسل إليه متولي الديوان القاضيَ

---

(١) انظر ذكر مقتل شاور في هذا الجزء من نهاية الأرب.

(٢) «اتخذت خدمتك إلى بنوة البنوة» في الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٤٠٢. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣٠٢.

(٣) قارن هذا النص بما ورد في صبح الأعشى للقلقشندي ج ٩، ص ٤٠٦، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣٠٢، والروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٤٠٢، ومفرج الكروب لابن واصل، ج ١، ص ١٦٥. وتاريخ ابن الفرات لابن الفرات. المجلد الرابع، الجزء الأول، ص ٣٤ ـ ٤٤.

الفاضلَ عبدَ الرَّحيم البَيْسَاني؛ وظَن رؤساء ديوان المكاتبات أنّ هذا الأمر لا يتمّ، وأن[١] أسَد الدّين يُقْتَل عن قريب كما قُتِل غيره، فأرْسَلُوا إليه القاضي الفاضل وقالوا لعلَّه يُقتل معه. فكان من أمره ما كان.

ولم تطُلْ مدّة أسد الدّين في الوزارة بل انقَضَتْ أيامُه، وفاجأه حمامه، فتوفّي في يوم السَّبت لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة من السّنة.

واخْتُلِفَ في سبب وفاته، فقِيل إنّه مات فجأَةً، وقيل بعلّة الخوانيق، وقيل: بل سُمَّ. فكانت مدّةُ وزارته خمساً وستّين يوماً[٢]؛ وعُمل عزاؤه ثلاثةَ أيام، وحمل إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصّلاة والسّلام؛ ودُفن هناك برباط الوزير جمال الدّين وزير الموصل[٣].

ولمّا مات أسد الدّين شيركوه استقرّ في الوزارة بعْدَه الملك النّاصر صلاح الدّين يُوسف بن أيّوب.

ذكر أخبار الملك النّاصر صلاح الدّين يوسف[٤] ابن الملك الأفضل نجم الدّين أيّوب ووزارته بالدّيَار المصريّة

كانت وزارته بالدّيار المصرية عقب وفاة عمّه الملك المنصور أسد الدّين شيركوه وقد تطاول[٥] جماعةٌ من الأمراء النُّورية للوزارة؛ منهم عين الدولة اليَارُوقي، وقطب الدّين قايمازْ، وسيف الدّين المشطوب الهكّاري، وشهاب الدّين محمُود الحَارِمي، وهو خال صلاح الدّين؛ وخطبها كلٌّ منهم لنفسه. فأشار جماعةٌ من المصريّين وخواصّ

---

(١) «فان» في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) «ثلاثة وستين يوماً» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣٠٤.

(٣) هو محمد بن علي بن أبي منصور الوزير أبو جعفر جمال الدين الأصبهاني وزير الأتابك زنكي وسيف الدين غازي وقطب الدين مودود. توفي ٥٥٩ هـ/ ١١٦٣ م. أخباره: في المنتظم، ج ١، ص ٢٠٩، وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج ٥، ص ١٤٣ ـ ١٤٥، رقم ٧٠٤، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ١٨٥. التاريخ الباهر لابن الأثير. والكامل في التاريخ لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٠٦ ـ ٣١٠، والروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٣٤٣ ـ ٣٥٦.

(٤) مصادر أخبار صلاح الدين كثرة نذكر منها: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٧، ص ١٣٩ ـ ٢١٨. تاريخ ابن خلدون، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، دائرة المعارف الإسلامية. كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، الروضتين لأبي شامة. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) لابن شداد. الكامل في التاريخ لابن الأثير، الحروب الصليبية لأمين معلوف. وغيرها من المصادر العربية.

(٥) «تطاوله» في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.

العاضِد لدين الله على العاضد أنْ يَولِّيَ صلاحَ الدِّين، وقالُوا: إنه أصغر الجماعة سنًّا ولا يخرُج من تَحْتِ أمرِ أمير المؤمنين. فإذا استقرَّ وضَعْنا على العساكر مَن يَسْتَميلُهُم[١] إلينا، فيبقى عندنَا من الجُند مَنْ نتقوى به، ثم نأخذ يوسُف بعد ذَلك أو نُخرجُه فإنّ أمرَه أسهل من غيره، فاستدعَاهُ العاضدُ لدين الله، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة. ولقّبه بالملك النّاصر[٢]، فلم يُطِعْه أحدٌ من الأمراء الذين كانوا تطاوَلُوا للوزارة ولا خَدَمُوه.

وكان الفقيه عيسَى الهكّاري[٣] معه، فسعَى مع الأمير سيف الدّين علي بن أحمد المشطوب حتى استماله إليه، وقال له: إنّ هذا الأمرَ لا يصلُ إليك مع اليارُوقي الحارِمي وغيرِهما. ثمّ اجتمع بالحَارِمي وقال له مثلَ ذلك، وقال له: إن صلاحَ الدّين ولدُ أختك، وعزُّه وملكُه لك، وقد استقامَ لهُ الأمر، فلا تكُنْ أوّل من سعى في إخراج الأمر عنه. واجتمع بالأمراء واستمالَهُم. فأطاعهُ بعضُهم وعصى بعضهم.

فأما الياروقي فإنه قال: لا أخدُم يوسف أبداً، وعاد إلى الملك العادل نور الدّين هو وجماعة من الأمراء. وصار صلاحُ الدّين نائباً عن الملكِ العادلِ نور الدّين، والخطبة لنور الدّين ولا يكاتبه إلا: «بالأمير الاستفهسلار[٤] صلاح الدّين وكافة الأمراء بالدّيار المصرية. يفعَلُون كذَا وكَذَا». ويفعل علامته في الكُتُب، عظمةً أن يكْتُبَ اسمه.

ولمّا وزَر صلاح الدين ثبتَ قدمُه، واستمالَ قُلوبَ الناس بالأموال فمالُوا إليه فقوِي أمره، وضعف أمرُ العاضد.

ذكر مقتل مؤتمن الخلافة جوهر، زمام القصور وانتقال وظيفته إلى قراقوش الأسدي وحرب السّودان

كان مقتلُ مؤتمن الخلافة في يوم الأربعاء لخمسٍ بقِينَ من ذي القعدة، من سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة.

---

(١) «تسليمهم» في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) انظر صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٠، ص ٩١ ـ ٩٨. وفيه نص منشور تعيينه صلاح الدين وزيراً، وانظر أيضاً شفاء القلوب للحنبلي، ص ٦٨.

(٣) هو عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري توفي ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م، ابن خلكان وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٩٧ رقم ٥١٦.

(٤) الاسفهسلار: كلمة بمعنى مقدم العسكر أو قائد الجيش، وفيها لفظان فارسي، وتركي «أسفه» بالفارسية بمعنى «المقدم» و«سلار» بالتركية بمعنى العسكر، صاحب الوظيفة زمام كل زمام وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٩. وانظر أيضاً الألقاب الإسلامية لحسن باشا ص ١٥٦.

وسبب ذلك أن الملك الناصر شرع في نقض[(١)] إقطاع المصريين فاتفق هذا الخادمُ مع جماعةٍ من الأمراء المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى الديار المصرية، والاعْتِضَاد[(٢)] بهم على صلاح الدين ومَنْ معه؛ وأَرْسَل الكتب مع إنسان، فجعلها في نعلٍ ولبسه، وسار على أنه فقير رثُّ الهيئة. فلما وصل إلى البَيْضَاء[(٣)] وجده تُركُمَاني، فأنكَر حاله إذ هو رثُّ الهيئة جديدُ المَدَاس[(٤)]. فأخذ مَدَاسَه وفَتَقَه، فوجد الكتب فيه، فحمله بها إلى الملك النّاصر، فوقف عليها، وكتم الأمر، وقرَّر الرجل بالعُقوبة، فأقَرّ أنّ الكتب بخط رجُل يهودي، فاستحضره، فأقرّ بها. ثم قتل صلاح الدّين القاصد. واستشعر مؤتَمَنُ الخلافة من الملك النّاصر، فلزم القصُور واحترَزَ على نفسه، فكان لا يخرج منها. فلمّا طال ذلك عليه خرَج في هذا اليوم لِقصر[(٥)] له بالخرقانيّة، فأرسل إليه الملكُ النّاصر جماعةً فقتلُوه، وأتَوْه برأسِه، فرتَّب حينئذٍ على أزمَّة القُصور قراقوش الخصيّ، وكان من مماليك عمِّه أسد الدين ليطالِعه بما يتجدَّد بالقصور.

قال: ولما قُتل مؤتمن الخلافة ثار السّودان لذلك وأَخَذتهم الحميّة، وعظُم عليهم قتلُه، لأنَّه كان رأسهم ورئيسهم، فحشَدُوا واجتمعوا فزادت عدّتهم على خمسين ألف عبد؛ وكانوا أشد على الوزراء من العسكر. فندب الملك الناصر العسكر لقتالهم، وقدّم على العسكر أبا الهيجاء السّمين، فالتَقوْا بين القَصْرَيْن واقتتلوا، فقُتِل من الفريقين جمع كثير. فلمّا رأى الملكُ النّاصر قوّتَهم وشدّة بأسِهِم أرسل إلى محلّتهم المعروفة بالمنصورة[(٦)]، خارج باب زويلة فأحرقها: فاتّصل ذلك بهم، فضعُفَت نفُوسُهم، فانهزموا إلى محلّتهم فوجدُوا النّيران تُضْرَم فيها، واتّبعهم العسكر فمنعهم من إطفائها[(٧)]. ودام [القتال][(٨)] بينهم أربعة أيّام، نهاراً وليلاً، إلى يوم السّبت الثامن والعشرين من ذي القعدة؛ فخرجُوا بأجمعهم إلى الجيزة وقد أيقَنُوا بالهلاك، وخرج إليهم تورانشاه أخو الملك النّاصر فقَتَلهم، ولم يَنْجُ منهم إلا اليسير. وكتب الملك الناصر إلى وُلاة البلاد بقَتْلِ من يجدونه منهم، فقُتلوا من عند آخرهم.

---

(١) في الأصل «بعض» والتصحيح من الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٤٥٠.

(٢) الاعتضاد: الاستعانة. ابن منظور: لسان العرب (عضد).

(٣) البيضاء: مدينة قرب بلبيس وبين القاهرة وغزة. انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣١٢.

(٤) المداس: الحذاء، ابن منظور: لسان العرب (دوس).

(٥) بستان بناحية الخرقانية بالقرب من قليوب. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣١٢.

(٦) المنصورة: الحارة المنصورية، وفيها مساكن السودانيين وهي واسعة. جعلها الأمير خطاب بن موسى بأمر صلاح الدين بستاناً كبيراً. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٩ ـ ٢٠.

(٧) في الأصل «الطعن» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٨) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

وبقي الملك النّاصر يخشى من أهل القصرِ لِمَا فعله بمؤتمن الخلافة جوهر، فكان جوهر هذا سببَ زوالِ مُلك الدولة العُبَيْديّة وجوهر القائد سببَ مُلك المعزّ للبلاد؛ فَشتّانَ بين الجوهرين.

ذكر الحوادث في الأيام النّاصريّة غير الفتوحات والغزوات

لم نقدِّم هذه الحوادث التي نذكُرها الآن على الغزوات والفتوحات إلا أنها سابقةٌ على ذلك في التّاريخ، ولأنّا أردنا أنْ نُفردَ غزواتِه وفتوحاتِه ليأتي الكلامُ عليها سياقةً يتلُو بعضُه بعضاً، ولا ينقَطع بغيره، فكان ممّا نذكره:

ذكر وصول الملك الأفضل نجم الدّين أيّوب والد الملك النّاصر إلى الديار المصريّة

كان الملك النّاصر قد كتب في طلب والده، رحمهما الله تعالى، فوصل بأولاَده وأهله إلى القاهرة في السّابع والعشرين من شهر رجب سنة خمسٍ وستين وخمسمائة؛ ولمّا وصل تلقّاه الخليفةُ العاضد لدين الله بظاهر باب الفتوح عند شجرة الإهليلج[١]، ولم تجر بمثل ذلك عادة، فكان يوماً مشهوداً. وخَلَعَ العاضدُ عليه، ولقَّبه الملك الأفضل، وحمل إليه من أنواع التحف والألطاف شيئاً كثيراً؛ وأقطعه الإسكندريّة ودمياط والبحيرة، وأقطع ولده شمس الدولة، أخا النّاصر، قُوص[٢] وأسوان[٣] وعيذاب[٤]، وكانت عبرتها يوم ذاك مائتي ألف وستّةَ وستّين ألف دينار[٥].

ذكر أبطال الأذان بحيّ على خير العمل

قال المؤرخ: ولِعَشْرٍ مَضَيْنَ من ذي الحجّة سنة خمس وستّين وخمسمائة أمر

---

(١) صحراء الإهليلج: تقع شرقي الخندق في الرمل، وكان بها شجر الإهليلج الهندي فسميت باسمه. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٣٨.

(٢) قُوص: بالضم ثم السكون، وصاد مهملة، وهي قبطية، مدينة كبيرة واسعة قصبة صعيد مصر. وهي شرقي النيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤١٣.

(٣) أسوان: بالضم ثم السكون. وهي مدينة كبيرة وكورة في آخر صعيد مصر وأول بلاد النوبة على النيل في شرقيه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٩١.

(٤) عَيْذاب: بالفتح ثم السكون، بليدة على ضفة بحر القلزم، وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٧١.

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣١٧، أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٤٦٥. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٤ ـ ٣٥.

الملك النّاصر أنْ يسقط من الأذان قولُهم «حيّ على خير العمل، محمّد وعليّ خير البشر». وكانت أوّل وصْمةٍ دخلت على الشّيعة والدّولة العُبيديّة؛ ويئسوا بعْدها من خير يصلُ إليهم من الملك النّاصر. ثم أمر أنْ يُذكر في الخطبة بكلام مُجمَلٍ، ليُلْبِس على الشّيعة والعامّة: اللّهم أصلِحْ العاضدَ لدينك[١].

ذكر ما أنشأه الملك النّاصر صلاح الدّين بالقاهرة ومصر من المدارس والخوانق

قال المؤرخ: وفي أوّل سنة ستٍّ وستين وخمسمائة أمر الملك النّاصر بهَدْم دارِ المعونة[٢] المجاورة للجامع العتيق بمصر. ودارُ المعونة هي المكان الذي يعتقل فيه النّاس. وأمر ببنائها مدرسة لطائفة الفقهاء الشافعية، وتعرف هذه المدرسة بابن زين التجّار[٣]. وإنّما عُرفت به لأنه درس بها.

ثم عمر دار الغزل المجاورة لباب الجامع المعروف بباب الزكختة مدرسةً للطائفة المالكيّة[٤] ودرس فيها ابن أبي المنصور.

وفيها اشترى تقيّ الدّين عُمر بن شاهنشاه، ابن أخي صلاح الدّين، الدّار المعروفة بمنازل العزّ[٥] بمصر، وبناها مدرسةً للطائفة الشافعيّة.

وكانت هذه الدّار يسكنها الأمير ناصر الدولة بن حمدان في الأيّام المستنصرية؛ وقد تقدَّم ذكر ذلك.

ثم أمر الملك النّاصر ببناء مدرسةِ الشافعيّ والبيمارستان، وعمّر الخانقاه المعروفة بسعيد السعداء على ما يأتي ذكر ذلك.

وفي [هذه][٦] السّنة أيضاً أبطل الملك النّاصر مجلس الدّعوة من الجامع الأزهر وغيره، وكان من سُنَّة الدّولة العُبَيْديّة أن يقيموا لهم دُعاةً كالخطباء والله أعلم.

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

(٢) دار المعونة: وهو سجن المعونة بالفسطاط. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٨٧.

(٣) مدرسة ابن زين التجار: وهي المدرسة الناصرية وتسمى أيضاً المدرسة الشريفية. وهي أول مدرسة أنشئت بالفسطاط. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤. وابن زين التجار هو أحمد بن المظفر بن الحسين أحد أحيان الشافعية، الذي توفي سنة ٥١٩ هـ/ ١١٩٤ م. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٦٣.

(٤) المدرسة القمحية بالفسطاط: قرب الجامع العتيق. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٦٤.

(٥) انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٣٦٤.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة تتفق والسياق.

ذكر تفويض القضاء بالدّيار المصريّة للقاضي صدر الدّين بن درباس

وفي سنة ستٍّ وستّين وخمسمائة في ثامن عشري جمادى الآخرة فوّض السّلطان الملك النّاصر القضاء بالدّيار المصريّة إلى القاضي صدْر الدّين أبي القاسم عبد الملك ابن عيسى بن درباس المَارِدَاني، فاستمرّ إلى آخر الأيّام النّاصرية.

وفي سنة سبعٍ وستين وخمسمائة، في سابع المحرم قُطعت خُطبة العاضد لدين الله، ومات في يوم عاشوراء كما قدّمناه.

وفيها في الثّالث عشر من جمادى الأولى كُشِفَ حاصلُ الخزائن بالقصور، فوُجد فيها ما يزيد على مائة صندوق، ومن الذخائر النّفيسَة ما لا مزيد عليه.

وفيها في صفر أَمَرَ الملكُ النّاصر بإبطال المكُوس بالقاهرة والأعمال عن التّجار المتردِّدين إليها وإلى ساحل المقسم صادراً وواردًا، فكان مبلغُ ذلك مائةَ ألف دينار عيناً.

وفيها رُسم بتحويل سنة خمسٍ وستّين الخراجية إلى سنة سبعٍ وستين الهلاليّة، وكانت قد حُوّلت في سنة خمسمائة في أيام الأفضل أمير الجيوش.

ذكر وفاة الملك الأفضل نجم الدين أيوب

كانت وفاتُه رحمه الله تعالى في يوم الثلاثاء السّابع والعشرين[(١)] من ذي الحجة سنة ثمانٍ وستّين وخمسمائة. وذلك أنّه ركب من داره، فلمّا انتهى إلى باب القصر في وسط المحجة شبَّ به فرسُه فسقط عنه، فحُمل إلى منزله، فعاش ثمانية أيّام ومات فدُفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدّين في الدّار السّلطانية، ثم نُقلا إلى المدينة النبويّة، على ساكنها أفضل الصّلاة والسّلام، وقُبِرَا في تُربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل رحمه الله.

وفي سنة تسع وستّين وخمسمائة أمر الملك النّاصر ببيع الكتب التي بخزانة القصر[(٢)]، فكانت أكثر من مائة ألف كتاب من سائر المصنفات، فأبيعت بأخَسِّ الأثمان.

ذكر عمارة قلعة الجبل والسّور

وفي سنة تسعٍ وستين وخمسمائة أيضاً أمر الملك النّاصر بعمارة قلعة الجَبَل

---

(١) في كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ٥٠، «ثامن عشر ذي الحجة». وفي الروضتين لأبي شامة، ج، ص ٥٣٣ «وقع نجم الدين من على فرسه في ١٨ ذي الحجة، وتوفي في ٢٧ منه».

(٢) انظر الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٠٧، ومفرج الكروب لابن واصل، ج، ص ٢٠٣.

والسّور الدائر على القاهرة ومصر، وجعل مبدأه من شاطىء النّيل إلى شاطئه. فكان دَوْرُ السّور على القاهرة ومصر والقلعة تسعة وعشرين ألف ذراع، وثلاثمائة ذراع وذراعين. من ذلك ما بين قلعة المقسم والبرج بالكُوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع؛ ومن القلعة بالمقسم إلى حائط قلعة الجبل ثمانية آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع واثنان وتسعون ذراعاً؛ ومن حائط قلعة الجبل إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ودائرُ قلعة الجبل ثلاثة آلاف ومائتا ذراع وعشرة أذرع، كل ذلك بالذراع الهاشمي. وتولّى عمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، وحفر في رأس الجبل بئراً يُتَوصل إلى مائها المعين من دَرَج منحوتةٍ من الجبل؛ وتوفي الملك الناصر قبل أن تكمل عمارته[١].

وفيها أمر ببناء المدرسة عند تربة الإمام الشّافعي رحمه الله، وتولاها الفقيهُ الزاهد نجم الدين الخبُوشاني.

وأمر باتّخاذ دارٍ في القصر بيمارستاناً للمرضى، ووقَفَ على ذلك وقوفاً. وهذا البيمارستان[٢] يُسمَّى في وقتنا هذا البيمارستان العتيق.

وفيها أسقط مكوس مكّة، شرّفها الله تعالى، المقررة على الحاج وعوض أميرها عن ذلك في كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحاً تُحمل إلى ساحل جدة. وعَيَّنَ لذلك ضِياعاً بالدّيار المصريّة وقرّر أيضاً حَمْل غلاّتٍ إلى المجاورين بالحرمين الشريفين والفقراء؛ فقال الشيخ أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي[٣] في ذلك من قصيدة يمدح بها الملك الناصر: [من المتقارب]

رفَعْت مكارم مَكْسِ الحجازِ ... بإنْعامِك الشّامِل الغَامر

وأمّنْتَ أكنافَ تلكَ البلادِ ... فهان السَّبيلُ عَلى العَابر

وسُمت أياديك فيّاضَةً ... على وَارِدٍ وعَلى صَادِر

فكَمْ لكَ بالشّرق من حَامِدٍ ... وكمْ لكَ بالغَرْب من شاكر

(١) انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٢٠٣.

(٢) انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١، ص ٤٠٧، وصبح الأعشى للقلقشندي ج ٣، ص ٣٦٥، حيث جاء فيه أن البيمارستان كان أولاً بالقشاشين أي المكان المعروف الآن بالخراطين على القرب من الجامع الأزهر، ثم لما ملك السلطان صلاح الدين كان في القصر قاعة فجعلها بيمارستاناً.

(٣) هو ابن جبير الكناني البلنسي ولد سنة ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م، توفي بالإسكندرية في شعبان سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م، وله أربع وسبعون سنة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٩٥، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٦٠ ـ ٦٥.

ذكر قتل جماعةٍ من المصريين

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة أيضاً، في ثاني شهر رمضان صُلب جماعة مِمَّن أرادَ الوُثوب بمصر من أصحاب الخلفاء العُبيديّين. وسببُ ذلك أن جماعة من شيعتهم، منهم عمارة اليمني الشاعر، وعبد الصّمد الكاتب، والقاضي الأعزّ سلامة المعروف بالعوريس(١)، والقاضي ضياء الدّين نصر بن عبد الله بن كامل، وداعي الدعاة،وغيرهم من جند العُبَيديين ورجال السّودان وحاشية القَصْر ومَنْ وافقهم من الأمراء الصّلاَحية والجند ـ اتَّفق رأيُهم على استدعاء الفرنج من جزيرة صقليَّة ومن سواحل الشّام إلى الدّيار المصريّة على شيء بذلُوه لهم من المال والبلاد، وقرّروا أنّ الملك الناصر إذا خرج إليهم بنفسه ثار هؤلاء بالقاهرة ومِصر وأعادُوا الدولة العُبَيْديّة، العلوية بزعمهم، ويعود مَنْ معه من العساكر الذين وافقُوهم عنْهُ فلا يَبْقَى له مُقام بالبلاد. وإنْ أقام هو وأرسل العساكر إليهم ثارُوا به فأخذُوه باليد. وقال لهم عمارة: وأنا فقد أبْعَدتُ أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسدَّ مسدّه، وتجتمع الكلمة عليه بعده. وأرسلوا إلى الفرنج وتقرّرت هذه القاعدة بينهم.

قال: وكان ممن أدخلُوا معهم في هذا الأمْر زَين الدّين عليّ(٢) بنُ نجا الواعظ، وهو القاضي ابنُ نجيّة. ثم اختلفُوا في وزارة الخليفة؛ فقال بنو رُزّيك: يكون الوزير منّا. والقاضي؛ وقال بنو شاور: بل يكُون الوزير منّا فحضر ابنُ نجا إلى الملك النّاصر وأعْلَمه بصُورة الحال، فأمره بمُباطَنتهم وموافقتهم، ومطالعته بأحوالهم. ففعل ذلك.

ثم وصل رسولٌ من مَلِك الفرنج إلى الملك النّاصر بهدَايا، وهو في الظّاهر لهُ وفي الباطن لهؤلاء، فوضع الملكُ النّاصر عليه من النَّصَارى من داخله وباطنه؛ فذكر له الحال على جليّته، فأعلم به الملك النّاصر، فلما تحقّقه قبض على هؤلاء وصَلَبهم، فكان ممن صُلِب عمارة اليمني، وعبد الصّمد الكاتب، والقاضي الأعز العوريس، وغيرهم(٣).

---

(١) في الكامل لابن الأثير ج ١١، ص ٣٩٨ ورد اسمه «العُوَيرِس».

(٢) هو علي بن إبراهيم بن نجا بن غنايم الأنصاري الدمشقي الفقيه الحنبلي الواعظ المفسر المعروف بابن نجية نزيل مصر، ولد بدمشق سنة ٥٠٨ هـ/ ١١١٤ م، وقال ابن الحنبلي ستة عشرة وخمسمائة. توفي في شهر رمضان سنة ٥٩٩ هـ/ ١١٦٣ م. وله إحدى وستون سنة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٦٤، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١.

(٣) انظر تفاصيل سبب صلب عُمارة الشاعر اليمني وغيره في الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٦٠ ـ ٥٧٧، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥ ـ ٥٧، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٢، ص ٢٨٧، والكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٩٨ ـ ٤٠١ ومفرج الكروب لابن واصل، ج ١، ص ٢٤٣ ـ ٢٥٩.

وجاء عمارة إلى باب القاضي الفاضل لمَّا مُسك، فاحتجب عنه، فقال عمارة: [من مجزوء الكامل]

عـبدُ الـرَّحـيـم قـد احـتَـجـبْ إن الـخَـلاصَ مـن الـعَـجـبْ[١]

ونُودي في أجناد المصريين بالرّحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصي الصّعيد، واحتاط الملكُ النّاصر على مَنْ بالقصر من سُلالة العَاضِد وأهله. وأمَّا مَن كان قد وَافَقهم من أصحابه فلم يُخاطبهم في ذلك ولا أوْهمهم أنَّه عَلِم به. وبَلَغ ذلك فرنج السّاحل فلم يتحركُوا من أماكنهم، وأما فرنج صقليّة فإنهم قصدُوا ثغر الإسكندريّة على ما نذكره.

وفي سنة سبعين وخمسمائة، في أوائلها، خالف الكنزُ[٢]، أمير العرب، على الملك النّاصر بصعيد مصر، واجتمع معه جماعةٌ كبيرة من رعَايا البلاد والعُربان والسّودان وغيرهم، وقَتَل أخا الأمير أبي الهيجاء السّمين، وكان قد توجّه لإقطاعه بالصّعيد. فعظُم قتلُه على أخيه، وكان من أكابر الأمراء النّاصريّة، فَسَارَ إلى قتال الكنز. ونَدَب معه الملك الناصر جماعةً من الأمراء والعسكر، فوصلُوا إلى مدينة طُود، وهي على مسافةِ يومٍ من مدينة قوص إلى جهة الصّعيد، فامْتنَع مَنْ بها عليهم، فقاتلُوهم وظفرُوا بهم وقتلُوا كثيراً منهم، وأخْرَبوا بالبلد، فهي إلى وقتنا هذا تُعرف بطُود الخَراب، وغيطانُها[٣] عامرة، ثمّ سار العسكر منها إلى الكنز، فقاتلُوه، فقُتِل هو ومَن مَعَه من الأعراب، وأمِنَت البلاد واستقرّ أهلها[٤].

وفي سنة سبعٍ وسبعين وخمسمائة ظهر بالدّيار المصرية فأرٌ كثيرٌ جدًّا. قال القاضي الفاضل عبْدُ الرَّحيم: حدّثني مَنْ شاهد هذا الفأر وهو يرحَلُ من بقعة إلى أخرى فيُغطي الأرض بكمالها حتى لا يظهر منها شيءٌ ألبتّة وأنه شاهده يمرُّ بأماكن فلا يُلِمُّ بها ولا يخرجُ عليها والزُّروع بها محصورة، ويمرّ بأُخرى فلا يلبثُ أن يُفسِد جميعَ ما فيها ولا يرتحلُ عنها وبها شيءٌ من الزّرع ولا المقات بالجملة.

---

(١) «هو العجب» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٠٠ وفي الروضتين لابن شامة، ج ١، ص ٥٧٧.

(٢) في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٧، ص ١٦٥. ورد ما يأتي: «وبلغ صلاح الدين أن إنساناً يقال له «الكنز» جمع بأسوان خلقاً عظيماً من السودان وزعم أنه يعيد الدولة المصرية. وقتله سنة ٥٧٠ وذلك في السابع من صفر».

(٣) الغيطان: جمع. والغائط: المتسع من الأرض جمعها أغواط وغيطان. ابن منظور: لسان العرب (غوط).

(٤) انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ١٦ ـ ١٧، والروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٦٠٠ ـ ٦٠١.

وفي سنة تسع وسبعين وخمسمائة ظهر بأبي صير السدر[١] من أعمال الجيزة بيت أشاع النّاس أنَّه بيت هرمس، ففُتح بحضُور القاضي نظام الدّين بن الشَّهْرزوري وأُخْرِجَ منه أشياء، من جملتها صُور كِبَاشٍ وضفادع بأَزهرُ، وقوارير دهنج[٢]، وفلوس من فضّة ونحاس، وأصنام نحاس وياقوت، وغير ذلك من الذّهب والفضّة والتّحف القديمة ووُجِد فيه خلقٌ كثير من الأموات.

وفي سنة ثمانين وخمسمائة في يوم الاثنين مستهلُّ المحرمُ دُرِّس في المدرسَة الفاضلية[٣] الّتي أنشأها القاضي الفاضل عبدُ الرّحيم بالقاهرة بدرب مُلوخيّا؛ ورُتِّب فيها لإقراء كتاب الله تعالى الشيخ الإمام العالمُ الزّكي أبو [محمد][٤] القاسم بن فيره الرُّعَيْني الشّاطبي؛ وفي التدريس على مذهبي الشّافعي ومالك الفقيه أبو القاسم عبد الرحيم بن سلامة الإِسكندري، رحمهما الله تعالى.

وحيث ذكرنا هذه النّبْذَة من الحوادث الّتي اتّفقت في خلال دولته، فلنَذْكر ما استولى عليه من البلاد الإِسلاميّة.

ذكر ما استَوْلى عليه الملكُ الناصر من البلاد الإِسلامية بنفسه وأتباعه

كان من البلاد التي خُطب بها للملك النّاصر صلاح الدّين يوسف طرابلس الغرب وبعض بلاد إفريقية، منها مدينة قَابِس[٥].

وسبب ذلك أن شرف الدين قراقوش مملوكُ تقيّ الدين عمر[٦]، ابن أخي الملك

---

(١) أبو صير السدر: قرية قديمة تابعة لمركز الجيزة. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ٣، ص ٣.

(٢) الدَّهَنَج: جوهر كالزمرد، ابن منظور: لسان العرب (دهمج).

(٣) انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٣٦٦.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة لتصحيح الاسم. هو القاسم بن فِيُّره أبو محمد الشاطبي الضرير المقرىء صاحب القصيدة التي سماها «حرز الأماني ووجه التهاني» في القراءات ولد سنة ٥٣٨ هـ/١١٤٣ م. توفي سنة ٥٩٠ هـ/١١٩٣ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٧١ ـ ٧٣، رقم ٥٣٧. ترجمته في معجم البلدان لياقوت الحموي، ج ١٦، ص ٢٩٣. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٣٠١، وعبر الذهبي، ج ٤، ص ٢٧٣. وبغية الوعاة للسيوطي، ص ٣٧٩. طبقات السبكي، ج ٤، ص ٢٩٧.

(٥) قابس: بكسر الباء الموحدة. مدينة بين طرابلس وسفاقس. ثم المهدية على ساحل البحر غربي طرابلس الغرب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٨٩.

(٦) هو الملك المظفر تقي الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة الشاهنشاه بن أيوب صاحب حماه. له =

الناصر، توجَّه في سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة في طائفةٍ من الأتراك إلى جبال نَفُوسَة[١]، واجتمع به مسعُود بن زِمام المعروف بالبَلاط، وهو من أعيان أُمراء تلك النّاحية، وكان خارجاً عن طاعة[ابن][٢] عبد المؤمن. فاتّفقا وكثُر جمعهما، ونزَلاَ على طرابُلس الغرب، فحاصراهَا مدَّةً وضيَّقا على أهلها، ثمَّ فتحاها، فاستوْلَى قراقوش عليها، وأسْكنَ أهلَه بقصرها. ثمّ ملك كثيراً من بلاد إفريقية إلا المهديّة وسَفَاقُس وقَفْصَة وتُونس وما والاها مِن القُرى والمواضع. وكَثُر جمع قراقوش، فحكم على تلك البلاد، وجمع أموالاً عظيمة وجعلها بمدينة قَابِس، وقَوِيت نفسُه، وطمع أنّه يستولي على جميع أفريقيّة لبعد ابن عبد المؤمن عنها واشتغاله بجهاد الفرنج. ثم جاء نورابه مملوك تقيّ الدين أيضاً، بطائفة من التُّرك فزَاد بهم قوَّةً إلى قوّته. ثم اجتمع الأتراك وعليّ بن إسحاق الملَثّم [المعروف بابن غانية][٣] وملكوا بِجَاية[٤] في سنة ثمانين، وانقَادُوا إلى المَلثّم واستعانوا به، لأنّه من بيت المملكة والرئاسة القديمة، ولقّبوه بأمير المسلمين، وقصدُوا بلاد إفريقية فملكوها شرقاً وغرباً إلا تونس والمهديّة فإنّ الموحّدين حفظوها.

ولمَّا حصل استيلاؤهم على بلاد إفريقية قُطِعت خطبة أولاد عبد المؤمن وخُطب للنّاصر لدين الله العبّاسي؛ وقصدُوا مدينة قَفْصة[٥] فتسلّموها في سنة اثنتين وثمانين، وأقام بها طائفةٌ من الملثمين والأتراك.

فلمّا اتّصلت هذه الأخبار بالأمير يَعقوب بن يُوسف بن عبد المؤمن[٦] اختار مِن

= مدرسة منازل العز بمصر. توفي يوم الجمعة ١٩ من شهر رمضان سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م. ترجمته وأخباره في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٠٣، وعبر الذهبي: ج ٤، ص ٢٦٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٢٨٩.

(١) جبال نفوسة: بالفتح ثم الضم والسكون وسين مهملة، جبال في المغرب بين مدينتي طرابلس والقيروان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح الاسم.
وهو صاحب المغرب أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. توفي سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٩٠.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٠٧ انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٧، ص ٤.

(٤) بجاية: بالكسر، وتخفيف الجيم، مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٣٩.

(٥) قفْصة: بالفتح ثم السكون وصاد مهملة. بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٨٢.

(٦) بويع سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م، وتوفي سنة ٥٩٥ هـ/ ١١٩٩ م. وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣٢١. وانظر أيضاً تاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ٥٤.

عسكره عشرين ألفَ فارس من الموحِّدين، وسار بهم في صفر سنةَ ثلاثٍ وثمانين، فوصل إلى مدينة تونس. وأرسل ستَّة آلاف مع ابن أخيه فسارُوا إلى الملثم والأتراك بقَفْصة، فهزمهم الملثَم ومَنْ معه في شهر ربيع الأول من السّنة. فجاء يعقوبُ بن يوسف بِمَن معه في نصف شهر رجب منها، والتَقَوْا على مدينة قَابِس، فانهزم الأتراك والملثم، وقُتل كثير منهم. وفتح يعقوب قَابِس، وأخذ أموال قَراقوش وأهله وحَملهم عَلَى مراكش. وحَصَرَ مدينة قَفْصة ثلاثَة أشهر وبها التُّرك، فطلبوا الأمانَ لهم ولأهلِ البلد. فأمّنَهم وسيّر الأتراك إلى الثُّغور لِمَا رأى من شجاعتهم.

هذا ما اتَّفق لهذه الطائفة، وإن كانت هذه الفتُوحاتُ لا تختَصّ كلّها بالدّولة الأيوبية، إلا أنهم كانوا سبباً، وهم الّذين استولَوْا على البلاد كما ذكرنا فأوردنَاها في أخبارهم.

ذكر استيلائه على اليمن

وفي سنة تسع وستّين وخمسمائة جهَّز الملك النّاصرُ أخاه الملك المعظّم شمس الدّولة تُورَانْشاه[1] إلى اليمن، فسار في مستهلّ شهر رجب. وكان عُمارة اليمني الشّاعر يذكُر له البلاد ويحسّنُها له ويحثه على قصدها، ويعظّم مملكتها. فسار ووصل إلى مكة شرّفها الله تعالَى، ومنها إلى زَبِيد[2] وبها صاحبها عبد النبيّ المتغلب عليها[3]. فلمّا قرُب منها ورأى أهلها انهزموا، فوصل المصريون إلى سُور زَبِيد فلم يَجدُوا عليه مَنْ يمانع عنه، فنصبوا السَّلالِيم وصعدُوا عليها إلى السّور فملكوا البلد عَنْوةً ونهبُوه، وأسِر المتغلب عليها عبد النّبيّ وزوجتُه المدعوة بالخيرة، وكانت امرأةً صالحةً كثيرة الصدقة. وسلّم شمسُ الدّولة عبدَ النبيّ إلى سَيف الدّولة مبارك بن كامل بن منقذ، وهو من أمرائه، وأمره أن يستخرج منه الأموال، فاستخرج منه شيئاً كثيراً وأظهر دفائن كانت له. ودَلّتهم الخيّرة على ودائعَ لها كثيرة. ثم أصلح أمر زَبِيد وخطب بها النّاصر لدين الله[4].

---

(١) كان أكبر من أخيه السلطان صلاح الدين، وكان يرى في نفسه أنه أحق بالملك من أخيه. توفي سنة ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٨٠، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٥٥. وابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٠٦ رقم ١٢٧.

(٢) زبيد: بفتح أوله وكسر ثانيه، مدينة مشهورة باليمن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٣١ - ١٣٢.

(٣) هو عبد النبي بن مهدي من أصحاب المصريين توفي سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٦٢ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٦٣.

(٤) هو الخليفة الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد ابن الخليفة المستضيء بالله. ولد يوم الاثنين عاشر شهر رجب سنة ٥٥٣ هـ/ ١١٥٩ م وبويع بالخلافة بعد موت أبيه في أول ذي القعدة =

ثم سار إلى ثغر عدن، وهي فُرْضَة[١] الهند والزّنج والحبشة وعُمَان وكِرمان وكشّ وفارس وغير ذلك، وهي من جهة البرّ من أمنع البلاد وأحْصَنها. وصاحبُها يومئذ رجل اسمه يَاسر[٢]، فخرج إليه وقاتَلَه فانهزم هُو ومَنْ معه؛ فسَبقَه بعضُ عسكر الدّولة فدخلوا البلد قبل أهله وملكوه، وأُسِر صاحبه. وقَصَد العسكرُ نَهْبَ البلدِ، فمنعهم شمسُ الدّولة، وقال: ما جئنا لنخرب البلاد، وإنّما جئنا لنملكها ونعمّرها وننتفع بها، ثمّ عاد إلى زبيد وحصر ما في الجبل من الحصون فملك قلعة تَعِزّ واسمها الدّمولة، وهي من أحصن القلاع، وبها تكون خزائن صاحب اليمن. ومَلَك غيرها من الحصون والمعاقل، واستناب بثغر عدن عزّ الدين عثمان الزّنجيلي، ويزيد سيف الدّين مبارك بن كامل بن منقذ. وجعل في كلّ حصنٍ نائباً من أصحابه.

وأحْسَن شمسُ الدّولة إلى أهل البلاد؛ وعادت زبِيدُ إلى أحسن ما كانت عليه من العمارة والأمن. ثمّ عاد شمس الدولة من اليمن، وقدم إلى دمشق بعد أن ملكها الملك الناصر، فوصل إليها في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة.

ذكر ملكه مدينة دمشق

قال المؤرخ: لمّا توفي الملك العادلُ نور الدّين الشهيد محمُود[٣] بن زنكي رحمه الله، كما قدّمناه في أخباره، ووَلِيَ بعدَه ولدُه الملك الصّالح إسماعيل أقرّ الملكُ النّاصر الخطبةَ باسمه بعد أبيه، ولم يخطُبْ لنفسه. ثم اتّفق ما ذكرناه من نُقْلَة الملك الصّالح من دمشق إلى حلب، ولم يُستأذن الملكَ النّاصر في ذلك ولا كتَب لهُ فيه؛ فسارَ [الملك الناصر][٤] من الدّيار المصريّة إلى الشام في شهر ربيع الأول سنةَ سبعين وخمسمائة، ووَصَل إلى دمشق في يوم الاثنين سلخ الشهر ـ وقال ابن شدّاد في سلخ شهر ربيع الآخر[٥] ـ وتسلّم دمشق من الأمير شمس الدّين بن المقدّم ونزل بدار العَقيقي، وكانت

= سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠ م. وتوفي سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٣١.

(١) فُرْضة: طريق، ابن منظور: لسان العرب (فرض).

(٢) في عهد محمد بن عمران الذي تولى حكم عدن سنة ٥٦٠ هـ/ ١١٦٤ م. فتحكم في البلد ياسر بن بلال. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٢٠٤.

(٣) عن ترجمة نور الدين محمود بن زنكي انظر: الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٠٢، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٦٥. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٢٢٨.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٥) «في سلخ ربيع الأول» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤١٥. انظر أيضاً النوادر السلطانية لابن شداد، ص ٥٠، والروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٦٠٢.

سكن أبيه، وأَحْسَن إلى الأُمَراء وأَكْرمَهم، وأظهر أنّه إنّما حضر إلى الشّام نُصرةً للملك الصّالح، ولِيُعيد عليه ما أخذه ابنُ عمه سيف الدّين غازي[1] من بلاده، وأقرّ خُطبته ولم يَقْطعها ولا خَطَب لنفسه.

ذكر ملكه مدينة حمص وحماه

قال المؤرخ: ولمّا ملك دمشق استَخْلف بها أخاه سيف الإِسلام[2] طغزطكين بن أيوب، وتوجّه إلى مدينة حمص في مستهلّ جمادى الأُولى، فنازَلَها، فملك المدينة ولم يشتغِلْ بالقَلعة؛ وتَرَك بالمدينة من يحفَظُها ويمنعُ مَنْ [في][3] القلعة من التصرّف.

وسار منْها فوصل إلى مَدِينة حماه في مستهلِّ جُمادى الآخرة، وكان بقَلْعَتها الأمير عزّ الدّين جُرْدَيك، وهو من المماليك النوريّة، فامتنع مِنْ تسليمها. فأرْسَل إليه يعرّفه ما هُو عليه من الطّاعة للملك الصّالح، فاستحْلَفه جرديك على ذلك، وخرج إليه، وترك أخاه بالقلعة ليحْفَظَها. وتوجّه عزّ الدّين جُرديك إلى حلب ليكون سفيراً بين الملك الناصر وبين كُمُشْتَكين فاعتقل بحلب فلما بلغ أخاه ذلك سلم القلعة إلى الملك الناصر فملكها.

ذكر حصره حلب وعوده عنها وملكه قلعة حمص وبعلبك

قال: ولمّا بلغ الملكَ النّاصر خبرُ عزّ الدين جُرْدَيك والقَبْض عليه، توجّه إلى حلب وحَصَرها في جُمادى الآخرة من السّنة، فقاتله أهلُها، وركب الملكُ الصّالح وهو صبيّ وعمره اثنتا عشرة سنة وجَمَع أهلَ حلب، وذكَّرَهم بإحسان والده إليهم، واستَنْصَر بِهم في دَفْع صلاح الدّين، فبكَوْا وحَلَفُوا له على بَذْل النُّفوس والأموال، وقاتلوا أشدّ قتال. وأرسل سَعد الدّين كُمُشْتَكين إلى سنان، مقدّم الإِسماعيلية، مالاً كثيراً على قَتْل الملك النّاصر؛ فسيَّر إليه جماعةً، فظفر صلاحُ الدّين بهم وقتلهم. ورَحَل عن حلب في مستهلّ شهر رجب من السنة.

وكان سبب رحيله أنّ كُمُشْتكين أرسل إلى القومض رِيمُنْد[4] الصْنجيلي، صاحب

---

(١) هو سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل، وابن أخي السلطان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد. تولى الحكم سنة ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م. وتوفي سنة ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٨٠.

(٢) «سيف الدين» في الأصل والتصحيح من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ٢٠ ـ ٢٢.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٤) هو ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبي. عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧٤٤. ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ٤١٩.

طرابلس، أن يجهّز إلى بلاد صلاح الدّين من الفرنج مَن يمنَعُه من الوُصول إليها. فلمّا بلغهُ ذلك فارقَ حلب وعاد إلى حماه في ثامن الشهر، بعدَ نُزول الفرنج على حمص بيوم. فلمّا سمع الفرنج بقُرْبه رحَلوا عن حمص، ووَصَل صلاح الدّين إلى حمص، ومَلَك القلعة بعد حصار. وكان ملكه لها في الحادي والعشرين من شعبان من السّنة.

ثمّ سار منها إلى بعلبك، وكان بها يمن الخادم متوليها من أيّام نور الدّين، فحصرَها الملكُ النّاصر، فطلب يمن الأمَان، فأمّنه وتسلَّم القلعة في رابع شهر رمضان.

ذكر انهزام عسكر سيف الدين غازي من الملك الناصر وحصره حلب ثانياً

قال المؤرخ: كان الملك الصّالح كتب إلى عمه سيْف الدّين غازي يستنجدُه على قتال صلاحِ الدّين ودَفْعِه فجهَّز العسْكر صُحبةَ أخيه عزّ الدين مسعود، وتأخّر هو لِمَا وقع بينه وبين أخيه عماد الدّين من الاختلاف الذي قدمناه في أخبارِ الدولة الأتابكية فسارت العساكرُ السَّيفيّة، واجتَمَعَ معَها العسكرُ الحلبيّ، وسارُوا كلُّهم لقتال الملك النّاصر فأرسل إلى سيْف الدّين يبذل لهُ تَسْليم حمص وحماه وأن يُقِرّ بيده مدينةَ دمشق نيابةَ عن الملك الصالح؛ فلم يُجِب إلى ذلك وقال: لا بُدَّ من تَسليم جميع ما أخذه من بلاد الشام ويعود إلى مصر.

فلما امتنع سيفُ الدّين من إجابته تجهّزَ عند ذلك للقاء عزّ الدّين مسعُود ومَنْ معه وقتالهم، فالتَقَوْا في تَاسع عشر شهر رمضان بقُرون حماه[1]، فلم تثبُتْ عساكر سيْف الدّين وانهزموا لا يَلْوِي بعضُهم على بعض. وتبعهم الملكُ النّاصر وغَنِم مُعَسكرهم، ووصل إلى حلب وحاصَرها، وقَطَع خُطبة الملك الصالح، وأزَال اسمْه.

فلمّا طال الحصار على مَنْ بحلب راسَلُوه في الصلح على أن يكون له ما بِيده من بلاد الشّام ولهُمْ ما بأيْديهم منها؛ فأجابهم إلى ذلك، وانتظَمَ الصّلح. فَرحل عن حلب في العشر الأول من شوال ووصَلَ إلى حماه، ووصَلَتْ إليه بها رُسل الخليفة المستضيء بنُور الله، ومعهم الخِلَع والأعلام السُّود وتوقيعٌ من الدّيوان العزيز بالسّلطنة ببلاد مصر والشام.

وفيها ملك قَلْعَة بَعْرِين[2] في العشر الأول من شوال من صاحبها فخر الدين

(١) قرون حماة: منطقة جبلية تشرف على مدينة حماه، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(٢) بعرين: بارين: مدينة وقلعة بين حماه وحلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٠ - ٣٢١.

مسعود بن الزّعفراني، وكان من أكابر الأمَراء النُّورية، فجاء إلى خدْمَة الملك النّاصر، وظن أنَّه يكرّمه ويقرّبه، فلمْ يَرَ من ذلك شيئاً، ففارَقَه وعاد إلى قلعته. فلما استقرّ الصُّلح بين المَلِكين النّاصر والصّالح نَازَل [الناصر][1] بعرين ونَصَب عليها المَجَانِيق ومَلَكها.

ذكر الحرب بين الملك النّاصر وسيف الدين غازي وانهزام غازي

قد قدَّمنا انهزامَ عزّ الدين مسعُود بالعسكر السّيفي من الملك النّاصر في سنَة سبعين وخمسمائة، فلمّا كان في سنة إحدى وسبعين جَمع سيْف الدّين غازي جميعَ عساكره وفرّق فيهم الأموال، واستنجد بصاحب حصن كَيْفا[2] وصاحب مَارِدِين[3] وغيرهما، وسار إلى حلب، واستَصْحَب سعدَ الدّين كُمُشْتَكين مدبّر دوْلةِ الملك الصّالح والعسكرَ الحلبيّ.

وكان صلاح الدّين في قِلَّةٍ من العسكر لأنّه جهَّز أكثر عساكره إلى الدّيار المصريّة فلمّا بلغه ذلك أرْسَل يستَدْعي عساكرَه، فلم تَلْحَقْه؛ وأعْجَلَتْهُ الحركةُ، فسَار من دمشق إلى حلب للقاء غازي ومَنْ معه، فالتقى العسكران بتَلّ السّلْطان بالقُرب من حَلب، في عاشر شوال من السّنة.

وكان عزّ الدّين زلفندار مقدّم العسكر الموصلي قليلَ المعْرِفة بالحُروب، فجعل أعْلام صاحِبه في وَهدَةٍ[4] من الأرض لا يراها إلا مَن هو بالقُرب منها فلما لم يَرَها النّاس ظنُّوا أن سَيف الدّين غازي قد انْهَزم، وانهزموا لا يَلْوي الأخُ على أخيه. ولم يُقْتل من العسكر على كَثرته غيرُ رجل واحدٍ. وانهزم سيف الدّولة إلى الموْصِل وترك أخاه عزّ الدّين [مسعوداً][5] بحلب[6].

قال العماد الأصفهاني: إن سيف الدّين غازي كان في عشرين ألف فارس؛ وخطَّأَه ابنُ الأثير الجزري في ذلك وقال إن أخاه مجدَ الدّين أبا السّعادات المبارَك كان يتولّى كتابة الجيش، وأنه وقَف على جريدة العَرْض فكانت ستّة آلاف[7].

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) حصن كيفا: بلدة وقلعة مشرفة على دجلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٦٥.

(٣) ماردين: بكسر الراء، والدال، قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٩.

(٤) وهدة: هوة في الأرض. ابن منظور: لسان العرب (وهد).

(٥) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح الاسم من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٢٩.

(٦) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

(٧) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٢٩.

وإنْ جَمعنا بين قوليْهما فنقول: إنّ الجريدة الّتي وقف عليها ابنُ الأثير كانت للجيش المختصّ بسَيْف الدّين غازي خاصّةً، والّذي نقله العماد الأصفهاني عن جميع ما صَحِبه من سائر الجيوش الحلبيّة وَالحِصْفِية، والمَارِدِينيّة، والله أعلم.

ذكر ما ملكه الملك الناصر من بلاد الملك الصالح بعد هذه الوقعة

قال المؤرّخ: لمّا استولى الملكُ النّاصر على أثْقَال العسكر الموصِليّ وغنمها، واتّسع هو وعسكره بها، سارَ إلى بُزَاعَة[١] فحصَرها وملكَها[٢] بعْد قتالٍ مَنْ بقَلْعَتها، وجعل بها من يحفَظُها. ثمّ سار إلى مَنْبج[٣] فحصرها في آخر شوّال، وبها صاحبُها قطب الدّين يَنال بن حسّان المنْبِجي، وكانَ شديدَ الْعَدَاوَةِ للملك النّاصر والتَّحْرِيض عليه؛ فمَلَك المدينة وحاصَر القلعة وملكَها عنوةً، وأسر صاحبَها يَنال، ثم أطلقه، فسارَ إلى الموصل، فأقطعه سيْف الدّين غازي مدينة الرّقة.

ثم سار إلى قلعة عَزَاز[٤] فنازلها في ثالث ذي القَعدَة ونصب عليها المجانيق، ولازم الحصَار ثمانيةً وثلاثين يوماً وتسلَّمها في حادي عشَر ذي الحجّة من السّنة[٥].

ووثب عليه في مدّة الحصار باطنيٌّ[٦] فضربه بسكّين في رأسه[٧]، فرَدَّ عنه المِغْفَرُ[٨]، وضربَه عدّةَ ضربات وقعت في زيق كزاغنده[٩].

ذكر حصره مدينة حلب والصلح عليها

قال: ثمّ رحل الملكُ النّاصر عن أعْزَاز ونَازل حلب في نصْفِ ذي الحجة،

---

(١) بزاعة: بلدة من أعمال حلب بين منبج وحلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٠٩.

(٢) «وذلك في الثاني والعشرين من شوال»، أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٦٥٥.

(٣) منبج: بالفتح ثم السكون، بلد قديم قريبة من حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

(٤) عزاز: اعزاز: قلعة شمالي حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٨.

(٥) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٣٠.

(٦) هو من إسماعيلية الشام المعروفين بالحشاشين. أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٦٥٨.

(٧) «فضربه بسكين في رأسه فجرحه» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٣٠.

(٨) المغفر: زرد ينسج من الدروع يلبس تحت القلنسوة في الحرب لحماية الرأس. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤٤، حاشية (٣). ورد في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ٤٣٠. «فلولا أن المغفر الزرد كان تحت القلنسوة لقتله».

(٩) كزاغندة: لفظ فارسي معناه المعطف القصير، ويلبس فوق الزردية، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤٤، حاشية (٥).

وحَصَرها إلى العشرين من المحرَّم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة. وتردَّدَت الرّسائل بينهم في الصّلح، فاستقرّت القاعدةُ بينَ الملك النّاصر وسَيْف الدّين غازي والملِك الصّالح وصاحب مَارِدين وصاحب حِصْن كَيْفَا، وتحالفوا أن يكونُوا كلُّهم عوناً على النّاكِث منهم. فتمّ الصّلح، وأعاد الملكُ النّاصر إليهم قلعة أعْزاز، ورجع عن حلب.

ذكر نهبه بلاد الإسماعيلية

قال: لمَّا عاد الملك النّاصرُ من حلب قصَد بلاد الإسماعيليّة في شهر المحرَّم سنة اثنتين وسبعين لقتالهم، لأنّهم أرادُوا قَتله؛ فنهَب بلادَهم وخرَّبها؛ ونازل قلعة مَصْيَاف[1]. فأرسل سنانٌ مقدّم الإسماعيليّة إلى الأمير شهاب الدّين الحارمي صاحب حماه، وهو خال الملك النّاصر، يطلبُ منه الدّخول بينهما في الصّلح والشّفاعة، وتَهَدَّده بالقتل إن لم يفعل. ففعَل ذَلك، وتمّ الصلح. وتوجَّه الملكُ النَّاصر إلى دمشق، ثم رحل منها إلى الدّيار المصريّة لأربعٍ خلَوْن من شهر ربيع الأول، ووصل إلى القاهرة لأربعٍ بقين منه.

ذكر عبوره الفرات وملكه الديار الجزيرية

وفي سنة ثمانٍ وسبعين[2] وخمسمائة كان الملك الناصر يحاصر بيروت، فأتَتْه كتب مظفَّر الدّين كوكبري بن زين الدّين علي بن تكين[3] مُقْطَع حرَّان يطلبه إلى البلاد ويَعِده المساعدة. فسارَ وعَبَر الفرات، وكاتَب ملوكَ الأطراف ووعَدَهم، وبذَل لهم البُذول على نَصْرتِه، فأجابه نُور الدّين مُحمد صاحب حصن كيفا. فسار الملكُ النّاصر إلى مدينة الرُّها فحصَرها في جُمادى الأولى، ودَاوَم الحصار، فطلب صاحبُها فخر الدّين مسعُود الزّعفراني الأمان، فأمّنه وتسلّم البلد، وصار صاحبُها في خدمته؛ وتسلّم القَلْعة. فلما ملكها سلّمها لمظَفّر الدّين صاحب حرّان. ثم سار عَنْها إلى الرّقّة وكان بها مُقْطَعَها قطبُ الدّين يَنال بن حسان المنْبجي، فملكها، وسار صاحبُها إلى عزّ الدّين أتابك. وسار إلى الخابُور فملكَه. بكَمَاله. ثمّ سار إلى نَصيبين، فملك المدينة لِوَقْتِه، وحصَر الْقَلْعَة عدَّة أيّام، فملكها؛ وأقْطَعها للأمير أبي الهيجاء السّمين، وهو من أكَابر الأمراء، وسارَ عنها، ومعه نورُ الدّين صاحب الحصن، فحاصر الموصل فلم يظفر منها بشيء لحصانتها وكثرة مَنْ بها.

---

(١) مصياف: مصياب: مصيات: حصن للإسماعيلية بساحل الشام قرب طرابلس، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤٤.

(٢) «ثمانين وسبعين» في الأصل، والتصحيح في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٨٢.

(٣) ورد في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ١١٦، «علي كوجك» وورد في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٨٢ «علي بن بُكْتُكين».

ذكر ملكه مدينة سنجار

قال: ثم سار الملك النَّاصر من الموصل إلى سِنْجار، فسيّر مجاهدُ الدّين قايماز إليها نجدةً من العسكر، فمنعهُم الملك النّاصر الوصول إليها، وأوْقَع بهم وأخذَ سلاحَهم ودَوابَّهُم، وسار إليها ونَازلها وبها شرفُ الدّين أمير أميران أخو عزّ الدّين صاحب الموصل، فملكها بأمانٍ بعْدَ حصارٍ عظيم. وسار شرفُ الدّين ومَنْ معه إلى الموصل.

واستقرَّ للْملِك النّاصر جميعُ ما ملَكه في هذه الوقعة بملك سنجار واسْتَنَابَ بها سعد الدّين بن معين الدّين أنر، وهو من أكابِر الأمراء، وأحْسنِهم صورةً ومعنًى. وعاد إلى نصيبين، فلقِيَه أهْلُها وشكَوْا إليه من أبي الهيجاء السّمين فأنكر عليه وعزَلَه.

وسار إلى حرّان فوصلَ إليها في أوائِل ذي القَعدة، فكاتب عزُّ الدّين صاحبُ الموصل صاحبَ خلاط، وهو شاه أرمن[1]، واستنجد به على حَرْب الملك النّاصر. فلمّا بلغهُ اجتماعُهما سار إلى بَحْرزَم[2] بالقرب من مارِدِين.

ذكر ملكه مدينة آمد وتسليمها إلى صاحب حصن كيفا

قال: ثم سار من هذه الجهة إلى آمد فوصل إليها في سابع عشر ذي الحجة[3] فنازَلَها وحاصَرَها، ونصب عليها المجانيق، وهي من أحْصَن البلاد، يُضرب المثل بحَصَانتها، وكان صاحبها ابن نيسان في غاية الشحّ يبخل ببذل المال، فملَّه أصحابُه وتخاذَلُوا عنه. فأخرج نساءً إلى القاضي الفاضل[4] وسأله أن يأخذ له الأمان ولِأهله، وأنْ يُؤخِّر ثلاثة أيام حتى ينقل ما لَهُ بالبلد من الأموال والذّخائر.

فأجابه الملكُ النّاصر إلى ذلك، وتسلَّم البلد في العشر الأول من المحرّم سنة تسعٍ وسبعين وخمسمائة. وانْقَضَت الأيّام الثّلاثةُ قبل فراغه من نَقْل أمواله، فمُنِع ممَا بقيَ. وسلّم الملكُ النّاصر البلَدَ بما فيه إلى نُور الدّين صاحب الحصن، وكان فيه من الذخائر ما تزيد قيمته على ألف ألف دينار[5].

ذكر ملكه تل خالد وعين تاب

قال: ثمّ سار الملك النّاصر إلى تلّ خالد من أعمال حلب فحصرها ورمَاها

(١) في الأصل «شاهر من» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٨٩.
(٢) بحرزم: بلدة في وادٍ من أعمال الجزيرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٤٣.
(٣) «لثلاث بقين من ذي الحجة» في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ١٣٤.
(٤) في الأصل: «الأفضل» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٤.
(٥) في الأصل «ألف دينار» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٤.

بالمجانيق، فطلب أهلُها الأمان، فأمَّنهم، وتسلَّمها في المحرّم أيضاً.

وسار منها إلى عَيْن تاب، وبها ناصرُ الدّين محمد [بن خمارتكين](١) من أيّام نور الدّين الشّهيد، فحصرَها، فَراسَلَهُ في طلبِ الأمان على أن يكون الحصنُ بِيَدِه ويكون في خِدْمته. فأجابُه إلى ذلكَ وحلفَ لهُ عليه، فنزل إليه واتصَلَ بخدمته(٢).

ذكر ملكه حلب

قال: ثمّ سار من عَيْن تاب إلى حَلَب في المحرّم أيضاً ونزل بالميْدان [الأخضر](٣) [وأقام به عدة أيام](٤)، وعدّة أيّام ثم انتقل إلى جبل جَوْشَن(٥)؛ فنزل بأعلاه وأظهر أنّه يريد [أن](٦) يبنيَ مساكِنَ لنفْسِه ولأصْحابه وعَسَاكره، وأقام أيّاماً والقتالُ بين العَسكَرَيْن في كلّ يوم.

وكان صاحبُها عماد الدّين زَنكي بن مَوْدُود بن زنكي مجدًّا في القتال، فطالبه بعضُ الجند بأرْزَاقِهِم، فاعتذر بقلّة المال عنده؛ وكان قد شحص بإخْراجه، فقال له مَنْ يريدُ حِفْظ حَلَب يُخرج الأموال وَلَوْ باع حليَّ نسائه، فجَنحَ إلى تسليمها، فراسَلَ الملكَ النّاصر في طَلَب العِوَض عنها: سنجار ونصيبين والخابور والرَّقَّة وسَرُوج. فَسَلَّمَ(٧) مثل حلب وأعمالها وتعَوَّض عنها قرًى ومزارِعَ، وجرت الأيمان على ذلك، وتسلَّمها الملكُ النّاصر في ثامن عشر صفر.

فسبَّ النَّاس عمَاد الدّين زنكي وأسمعُوه المكرُوه على فعْله.

واستقرّت الحالُ بينهما أنّ عمادَ الدّين يحضُر إلى خدمة الملك النّاصِر متى استدعاه بِنَفسه وعسكره ولا يحتجّ بحجة.

قال: ولما تسلّم الملك النّاصِر حلب امتدحه الْقَاضِي محيي الدين بن الزّكي، قاضي دمشق بقصيدةٍ جاء منها:

وفتحُكُمْ(٨) حَلباً بالسّيف في صفر   مبشّر بفُتُوح القُدْس في رجب(٩)

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الروضتين لأبي شامة، ج ٢، ص ٤٢.
(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٥.
(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٦.
(٤) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٦.
(٥) جبل جوشن: يطل على غربي حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٨٦.
(٦) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.
(٧) في الأصل: «فتسلم» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٧.
(٨) «وفتحُه حلبا بالسيف في صفر» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٨٧.
(٩) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٧.

فكان كذلك.

ونقل الملكُ النّاصر أخاه الملكَ العادل من نيابة الدِّيار المصرية إلى حَلَب، في سنة تسع وسبعين، وأعطاه حَلب وقَلْعتها وأعمالها ومَنْبِج وما يتعلّق بها؛ وسيّره في شهر رمضان.

ذكر فتح الملك النّاصر حارم

قال: ولـمَّا فتح الملكُ النّاصر حلب كان بقَلْعة حَارِم[١] سرخك، وهو من المماليك النُّورية، فامتنع من تَسْليمها، فرَاسَلَه في ذلك وخيّره فيما يُريد من القلاع، ووعَدَه الإِحسان؛ فاشْتطَّ في الطّلب، فتردَّدَت الرّسائل بينهم، فراسل سَرْخَك الفرنج ليحتمي بهم، فبلغ ذلك مَنْ معه من الأجناد فخافُوا أن يسلّمها للفرنج، فقبضُوا عليه واعتقلوه، ورَاسَلُوا الملكَ النّاصر في طلب الأمان، فأجابهم وتسلّم الحِصْن ورتَّب فيه دُزْدَاراً من بعض خوَاصّه[٢]، وأقام الملك النّاصر بحلَب إلى أن قرّر قواعدَها وأقْطع أعمالَها.

ذكر حصار الموصل

وفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة حاصر الملكُ النّاصر الموصل. وذلك أنَّه سار من دمشق في ذي القعدة سنة ثمانين لقَصْد حصَارها فلمّا وصلَ إلى مدينة بلد[٣] سيّر إليه عز الدّين صاحب الموصل والدته وابنة عمه[٤] الملك العادل نور الدّين الشهيد وغيرهما من النّساء في جماعةٍ من أعيان الدولة يسألُونه المصالحة، وبذلُوا موافَقَته وإنْجَاده بالعساكر مَتَى طَلَبها، ليعُود عن قَصْد الموصل. وإنّما أرسلهنَّ ظنًّا منه أنّه لو سيّر ابْنَة نُور الدّين إلى الملك النّاصر في طلب الشّام أعطاه لأنّها ابنةُ مخدومه. فتلقَّاهُنَّ بالإكرام، وأحسن إليهن، واستشار أصحابَه في ذلك، فكلٌّ أشارَ عليه بمُوافَقَتِهنّ.

فقال له الفقيه عيسى الهكّاري وعليّ المشطوب: مثل الموصلِ لا تترك لامرأة، وإنّ عزّ الدّين ما أرسلهُنّ إلاّ وقَدْ عجز عن الحرب. فوافَقَ ذلك هواه فردّهن خائباتٍ،

---

(١) حارِم: بكسر الراء. حصن وكورة جليلة تجاه أنطاكية وهي من أعمال حلب: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٢) انظر المختصر لأبي الفدا، ج ٣، ص ٦٧. والكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩.

(٣) بلد: مدينة على نهر دجلة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٨١ ـ ٤٨٢.

(٤) في الأصل «والده وابن عمه» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥١٢. والنويري يتفق مع ابن الأثير فيما أورداه.

واعْتَذَر بأعذارٍ غير مقبولة، وقَصَد الموصل وحاصَرها، وكان بينهم مناوشاتٌ فلم يتمكّن منها، فندم حيثُ لم يخْبِس النّساء. ففي أثناء ذلك توفي شاه أرمن صاحبُ خلاط، فأشار عليه أصحابه بمُفَارقَةِ الموصل وقَصْد خِلاط، ففارقها.

ذكر ملكه ميّافارِقين

قال: ولمَّا سار الملكُ النّاصر إلى خِلاَط جعل طريقه مَيَّافَارِقِين[١]، وكان صاحبُها قطب الدّين صاحب مَارِدِين قد توفي[٢] وملك بعده ابنه وهو طفل، وكان حكمُها إلى شاه أرمن وعسكرُه بها؛ فتوفي شاه أرمن أيضاً، فطمِع في أخذها ونَازَلها. فرآها مشحونةً بالرّجال، وفيها زوجة قطب الدّين المتوفّي وبناته، والمقدّم على جيشها أسد الدّين بُرتُقش[٣]، وكان فيه شجاعةٌ وشهامة. فحصَرَها الملكُ النّاصر من أوّل جُمادى الأولى، ونصب عليها المجانيق والعَرّادات؛ واشتدّ القتالُ فلم يظفَرْ منها بشيء؛ فرجع عن القوّة إلى أعْمال الحيلة. فراسل امرأةَ قطب الدّين المقيمة بالبلد يقول أن أسد الدّين قدْ مَال إلينا في تَسْليم البلد، ونحن نَرْعى حقّ أخيك نور الدّين فيك بعد وفاته، ونريد أن يكون لكِ نصيبٌ، وأنا أزوِّج بناتك بأولادي، وتكون مَيَّافَارِقين وغيرُها لكِ وبِحُكْمِك، ووضع من أرْسل إلى أسد الدّين يعرّفه أنّ الخاتون قد مَالَتْ للانقياد إلى تَسْليمها، وأنّ مَنْ بخلاط قد كاتَبُوه ليسلّموها إليه. فسُقَط في يده، وضعُفَت نفسُه، وأرسل إلى الملك النّاصر يقترحُ إقطاعاً ومالاً، فأجيب إلى ذلك، وسلّم البلد في سلْخ جُمادى الأولى، وعقَد نِكاح بَعْض أولادِه على بَعْض البنات.

ذكر عوده إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين صاحبها

قال: ولمَّا تسلَّم الملكُ الناصر مَيّافَارِقِين وفرغ من أمرها وتدبير أحوالها، عاد إلى الموصل لحصارها. فتردَّدت الرَّسائل بينه وبين عزّ الدين صاحبها،ووقع الاتّفاق على أن يسلِّم للملك النّاصر شَهْرزُور وأعمالها، وولاية القرابلي، وجميع ما وراء الزّاب، وأن يَخطُب له على منابر بلاده، ويَضرب السِّكّة باسمه؛ وتحالفا على ذلك. فتسلَّم الملكُ النّاصر البلادَ، وسكنت الدَّهماء[٤].

---

(١) ميافارقين: أهم مدن ديار بكر بإقليم الجزيرة: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٣٥ - ٢٣٨.

(٢) هو قطب الدين إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش إيلغازي بن أرتق. صاحب ماردين توفي في جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م. وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٦٨.

(٣) «يرنقش» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥١٥.

(٤) الدهماء: جماعة من الناس، ابن منظور: لسان العرب (دهم).

ورحل إلى حرّان فمرض بها وطال مرضه حتى أُيِسَ منه؛ ثمّ عُوفي. وعاد إلى دمشق في المحرّم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة.

قال: ولمّا كان الملكُ النّاصر مريضاً بحرّان كان عنده ابنُ عمه ناصرُ الدّين محمد [بن][(١)] شيركوه، وله من الإقطاع حمص والرّحبة، فسار إلى حمص واجتاز بحَلب، وأحضر جماعة من أَحْدَاثِها، ووعَدَهم، وأعطاهُم مالاً؛ ثمّ وصل إلى حمص وراَسَل جماعةً من الدَّماشِقَة على تسليم البلد إذا مات الملكُ النّاصر. وأقام ينْتَظر مَوْتَه؛ فتُوفّي ناصرُ الدّين ليلة عيد الأضحى سنة إحدى وثمانين، وعوفي الملك الناصرُ.

[وكان الملك الناصر][(٢)] لما بلَغَهُ ما اعتمده ناصرُ الدّين بحلب ومُراسَلتُه للدَّماشِقة، وضَع عليه النَّاصح بن العميد سقاهُ سُمًّا فمات، وطُلب ابنُ العميد من الغد فلم يُوجد؛ وسَارَ من ليلته إلى الملك النّاصر؛ فقَوِيت الظِّنَّة[(٣)] بذلك.

ولمَّا تُوفي أَعْطى الملكُ النّاصر إقطاعَه لولده شيركوه، وعمره اثنتا عشرة سنة. وخَلَّف ناصرُ الدّين من الأموال والخيول والآلات شيئاً كثيراً، فحضر الملك النّاصر إلى حمص وعرض تركته، وأخذ أكثرَها واستعان به على الجهاد، ولم يتْرك إلا ما لا خير فيه.

وحضر شيركُوه عند الملك النّاصر [بعد موت أبيه بسنة][(٤)]، فأجلسه في حجره وسأله إلى أين انتهى من القرآن، فقال إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠]، فاضطرب الملكُ النّاصر لذلك وظنّ أنّه عرّض بفِعله[(٥)] وطَلَب مُؤَدِّبَه ولَوْحه فوجده كذلك.

فعوّضه عمّا أخذه من مال أبيه الضّياعَ الخرابَ بالشّام في ذلك الوقت، وهو الذي يُعرف إلى زَمَانِنا هذا بالخراب الأسديّ: وورثَتُه إلى هذا التّاريخ يبيعُون خرابَ ضياع الشّام والسّواد والبَلْقَاء وغير ذلك. واستولَوْا من الخراب على ما لَيس في كِتابِهم، وأباعُوا ما لاَ هُوَ لَهُمْ، فإنّه قيل إن الذي اشتمل عليه كتابُ المبايعة أربعمائة ضيعة، وهي الّتي كانَتْ قد استَوْلَى عليها الخرابُ في ذلك الوقت، فأباع ورثتُه جميعَ ما خَرِب بعد ذلك مِمَّا لم يتضمَّنه كتابُهم وأعانهم على ذلك أنّهم يبيعُونه لأرباب الجاهات

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ١٧٤.
(٢) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.
(٣) «فكان هذا مما قوّى الظن» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥١٨.
(٤) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥١٨.
(٥) «فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥١٨.

بأحسن الأثمان. وأعرف بلداً يسمّى رمدان من بلاد البلقاء بالقرب من الرّقيم والجادية وسنجاب[1] اشتراها الملك المنْصُور حسام الدين لاجين المنصوري[2] لمَّا كانَ ينُوب عن السَّلطنة بالشام، من الورثة الأسديّة بسبعمائة درهم؛ فلما مات وانتقل بعضُ ميراثه إلى السلطان الملك النّاصر[3] بالولاء الشَّرعي. وكنت أباشر ديوانه بالشام، حَصَّلْتُ من مُغَلّ هذه البلدة في سنة إحدى وسبعمائة ما أُبيع بنيّف وعشرين ألف درهم. فانظُر إلى هذا التَّفاوُت العظيم.

ذكر غزوات الملك النّاصر وما افتتحه من بلاد الفرنج

وقد رأيت أنْ أُفْرِد غَزَوات الملك النّاصر وفتوحاتهِ ونِكَايَاته في الفرنج، ولا أضمّ ذلك إلى غيْره من أخباره، لأنّ فيه ما يدُلّ على قوّة الإسلام، وأنّ الله تعالى لمْ يزل يؤيّد هذا الدّين مِنْ عباده بمَنْ يُناضل عنه، ويَحْمِي حَوْزته، ويذُبّ عن أهله، ويستأصل شأْفَةَ[4] عدوهم.

ونذكر ذلك على التّرتيب.

فكان أول ذلك وصولُ الفرنج إلى ثَغْر دمياط ورُجُوعهم عنه.

وكان وصُول الفرنج، خذلهم الله تعالى، إلى ثغر دمياط في صفر سنة خمس وستين وخمسمائة، فحاصرُوا الثّغر. وكان سببُ ذلك أنّ أسدَ الدّين شيركوه لمّا وَلِيَ الوزارة للخَليفة العَاضد لدِين الله خافَهُ فرنج السّاحل، فكاتبوا أهْلَ صقِليّة والأندلس من الفرنج يستمدُّونهم ويخبرُونهم أن أسدَ الدّين قد مَلَك الدّيار المصرية، وأنهم لا يأمنونه على البيت المقدّس. فأمدُّوهم بالمال والرّجال والسّلاح، فنازلوا دمياط وضيّقوا على أهلها. فأرسل الملك النّاصر إليهم العساكر برًّا وبحراً، وكتب إلى الملك العادل نُور

(١) قرى شرقي نهر الأردن بالقرب من عمان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٠ ـ ٦٢.

(٢) هو السلطان الملك المنصور حُسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري سلطان الديار المصرية، ولي السلطة سنة ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٧ م. قتل سنة ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٩ م ترجمته وأخباره في: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٧٠ ـ ٩٢. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٤٤٠. وخطط المقريزي، ج ٢، ص ٢٣٩.

(٣) هو الملك الناصر محمد بن قلاوون، ولد بالقاهرة في سنة ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م. ولي عرض السلطة المملوكية ثلاث مرات. وتوفي سنة ٧٤١ هـ/ ١٣٤٠ م. ترجمته وأخباره في: السلوك للمقريزي، ج ١/ ٣/ ص ٧٩٣، وخطط المقريزي، ج ٢ ص ٢٣٩. وفوات الوفيات للكتبي، ج ٤، ص ٣٥. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٣٥، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٦، ص ١٣٤.

(٤) الشأفة: ورم يكوى ويذهب. والشأفة العداوة. وهنا الأصل. ابن منظور: لسان العرب (شأف).

الدّين الشّهيد بذلك، ويعرّفه أنّه لا يمكِنُه الخروج من القاهرة لأنه لا يأمَنُ أمر الشّيعة وأنّهم يثورون بعده، فيبقى الفرنج أمامه والمصريُّون خلفه، فأمدّه نُور الدّين بعسكر، وخرج نورُ الدّين بنفسه إلى بلاد الفرنج للإغارة عليها؛ فاسْتَبَاحَ أمْوَالها لخلُوّ البلاد السّاحلية منهم فلمّا بلَغَهم ذلك رجعُوا إلى بلادهم بسَاحل الشام بعد مُقامهم على دمياط نيّفاً وخمسين يوماً، ولم يظفرُوا منها بشيء. وأخرج العاضدُ للملك النّاصر في هذه الغَزَاة ألف ألف دينار مصريّة، سوى الثّياب والأَسْلحة.

ذكر غزوة بلاد الفرنج وفتح أيلة

وفي سنَة ستّ وستّين وخمسمائة سار الملكُ النّاصر عن القاهرة وأغار على أعمال عسقلان والرّملة، وهجم على رَبَض غزّة فنهبه. وأتاه ملك الفرنج في قلَّةٍ من العسكر ليردَّه، فهزمهُ الملك النّاصر بعد أنْ أشرف على أسْرِه، وعاد إلى القاهرة، وعمل مراكبَ مفصَّلةً ونقلها على الجمال إلى البحر، فجمع قِطَعها وشدَّها، وألقاها في الماء. وحصر أيلة برًّا وبحراً، وفتحها في العشر الأول من شهر ربيع الآخر، واستباح أهلها وما فيها؛ وعاد إلى الدّيار المصريّة[1].

ذكر محاصرة الشوبك وعوده عنها

قال المؤرخ: وفي صفر سنة سبع[2] وستين توجَّه الملكُ النّاصر إلى حصن الشَّوْبَك ونازله، وحَصَره، وضيّق على مَنْ به من الفرنج. ودام القتال، فطلب أهله الأمان، واستَمهلُوه إلى عشرة أيّام فأجابهم إلى ذلك. ثمّ بلغه أنّ الملك العادل نورَ الدّين جاء من دمشق إلى الشوبك من الجَانب الآخر، فخاف أنّ نور الدّين مَتَى ملك الشوبك قَبَضَ عليه، فعاد إلى الدّيار المصريّة، وكتب إلى نور الدّين يعتذرُ بمرض أبيه بمصر، فقبل عُذره ظاهراً، ووقعت الوحشة بينهما باطناً.

ذكر وصول [أسطول][3] صقلية إلى ثغر الإسكندرية وانهزامه

كانت هذه الحادثة في سنة سبعين وخمسمائة، ولم يكُن للملك النّاصر بها غزاةٌ بنفسه ولا مباشرةٌ للحرب. وكان سببُ وصول هذا الأسطول إلى الثّغر ما قدَّمناه من

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٦٥.

(٢) في الأصل: «ست» والتصحيح يقتضيه سير الأحداث، وجاء من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٧١.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤١٢.

مُكاتبة المصريِّين الذين صلبهم صلاحُ الدين الفرنجَ. فوصل من صقلية مائتا شيني تحمل الرجال، وستّ وثلاثون طريدةً[١] تحمل الخيل، وستّ مراكبَ تحمل آلة الحرب، وأربعُون مركباً تحمل الأزواد. وفي المراكب من الرجال: خمسُون ألفاً ومن الفُرسان ألف فارس وخمسمائة فارس. وكان المقدَّمُ عليهم ابنُ عمّ صاحب صِقليّة. فوصلُوا إلى الثّغر في السّادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستّين على حين غفلة، فخرَج إليهم أهْلُ الثّغر بعُدَدهم وأسلحتهم، فمنعهم المتَولّي عليهم، وأمرهُم أنْ يقاتِلُوا مِنْ وراء السّور. وطلع الفرنج إلى البرّ نَصَبُوا الدَّبابات[٢] وقارَبُوا السّور؛ وقاتَلَهم أهلُ البلد قتالاً شديداً. وجاء إلى الإسكندريّة مَنْ كان إقطاعُه بالقُرب منها.

وكتب إلى الملك النّاصِر بذلك؛ فتجهّزَ بنَفْسه؛ وقدَّم من يُعْلِم أهل الثَّغر بوُصوله، وكان أهل الثّغر قد أنْكَوْا في الفرنج، وقتلُوا وجَرحوا كثيراً منهم، وحرقوا الدّبّابات.

ولمَّا علم الفرنج بمَقْدَم الملِك النّاصر جنَحوا إلى الهرب، وأخذتهم سُيوف أهل الثّغر، وحرَقُوا بعضَ مراكبهم، ونهبُوا خيامَهم، وأخذوا سلاحهم؛ وكثُر القتلُ فيهم، وهرَب مَنْ بَقِيَ واحتَمى ثلاثمائة من الفرسان على تلٍّ، فقاتَلَهم المسلمُون طوال الليل إلى ضُحى الغد، فأُخِذُوا بين أسيرٍ وقتيل.

ذكر مسيره إلى عسقلان وغيرها وانهزام عسكره وعوده

وفي سَنة ثلاثٍ وسبعين وخمسمائة خرَج الملكُ النّاصر إلى غزّة وعسقلان.

وكان رحيله من القاهرة بعد صلاةَ الجُمعة لثلاثِ ليالٍ خلَوْن من جُمادى الأولى من السنة، فوصَل إلى عَسْقَلان في يوم الأربعاء للَيْلَةٍ بقيت من الشهر[٣]، فسَبَى وسَلب، وضرب أعناقَ الأسرى؛ وتفرَّق عسكرُه للإِغَارَةِ على الأعمال.

ثمَّ سار إلى الرَّملة في يوم الجُمعة مستهلَّ جُمادى الآخرة، فاعترضَه الفرنج وقد جمعُوا جُموعاً كثيرة؛ فكانَ بينهما وقعَةٌ عظيمة استُشْهِد فيها أحمد ولدُ الملك المظفّر تقي الدين [عمر بن محمد][٤]، وأسر ولدُه الثّاني شاهنشاه، وأقام في الأسر سبع سنين حتى افْتَكّه السّلطان بمال كثير. وأُسر الفقيه عيسى الهكّاري.

ثم كانت على المسلمين. وذلك أنّ العساكر كانَت قد تعبَّت للحَرْب، فلما قارَبَهم

---

(١) طريدة: سفينة حربية تحمل الخيول، النخيلي: معجم السفن الإسلامية.
(٢) الدبابات: تستخدم لمهاجمة الحصون. انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ١٤.
(٣) «الرابع والعشرين من الشهر» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٤٢.
(٤) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح الاسم من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٤٢.

العدُوّ أراد بعضُ الأمراء أن ينقل المَيْمَنة إلى الميسَرة والمَيْسرة إلى القَلْب، فلمّا اشتغلوا بهذه التَّعبئة هجَم عليهم الفرنج، فانكسروا وطلبُوا الدّيار المصرية، وضلُّوا في الطّريق. وعادَ السّلطان[١] ومَنْ معهُ إلى القاهرة في يوم الخميس منْتَصَف الشهر.

ذكر وقعة مرج عيون وانهزام الفرنج وأسر ملوكهم

كانت هذه الوقعةُ في يوم الأحد لثمانٍ خلَوْن من شهر المحرّم سنة خمسٍ وسَبعين وخمسمائة؛ وكان الفرنج من عشرة آلاف مقاتل. فلمّا التَقَوْا مع المسلمين انهزم ملكُهم[٢] مجروحاً عند اللقاء وأُسِر منهم جماعةٌ، منهم: مقدَّم الدَّاوِية[٣]. ومقدَّم الأشْبِتَارية[٤]، وصاحب طبريَّة[٥] وأخو صاحب جبيل، وابن القومصيّة[٦]، وابن بارزان[٧] صاحب الرّملة، وصاحب جِينين، وقَسْطلان يافا، وابن صاحب مَرقيّة وعدّة من خيّالة القدس وعكّا، وغيرهم من المقدَّمين الأكابر زادت عدّتُهم على مائتَين وسَبْعين، سوى غيرهم، فنقلهم السّلطان إلى دمشق.

فأمّا ابنُ بارزان فإنَّه بذَل في نفسه مائةَ ألف دينار وخمسين ألف دينار صوريّة، وإطلاق ألف أسير من المسلمين، والْتَزم بفكاك الفقيه عيسى الهكّاري. وأما ابنُ القومصية فافتكَّتْه أمُّه بخمسة وخمسين ألف دينار صوريَّة. وأما مقدّم الداوِيّة فإنّه هلَك، فطُلِبت جُثّته بإطلاق ألف أسير من مقدَّمي المسلمين[٨].

---

(١) ذكر ابن الأثير: «أن السلطان صلاح الدين قد افتدى الفقيه بستين ألف دينار وجماعة كثيرة من الأسرى» الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٤٣.

(٢) هو ملك مملكة بيت المقدس الصليبية واسمه بلدوين الرابع، عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧٦٠.

(٣) هو أودو سانت أماند، رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٦٧٨. والداوية أو فرسان المسيح الفقراء أو فرسان الهيكل Les templiers وسماهم العرب الداوية أو الديوية. واشتهروا بتعصبهم وشراستهم في الحرب، وهذه المؤسسة غنية بسبب تدفق الأموال عليها من الغرب. رئيسها الأعلى جاك دي مولاي. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٠، حاشية ٦.

(٤) الاستبارية أو الاسبتارية: هو تعريب لكلمة Les Hospitaliers الفرنسية وكان فيها ثلاث منظمات رهبانية عسكرية هو فيها إيواء، ومداواة المرضى، والجرحى من الجنود والحجاج المسيحيين، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٠، حاشية (٦).

(٥) «ابن صاحب طبرية» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٩. ولعله ابن ريمند بن ريمند الصنجيلي.

(٦) المراد ابن كونتيسة طرابلس «هيو» رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية ج ٢، ص ٦٧٨.

(٧) «هو بلدوين «بلين» رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٦٧٨.

(٨) انظر مضمار الحقائق لابن شاهنشاه الأيوبي ص ١٦ ـ ١٨. وتاريخ الحروب الصليبية لرنسمان ج ٢، ص ٦٧٦.

قال: وفي هذا اليوم ظَفِر الأسطول المِصري ببَطْشَةٍ[1] كبيرة للفرنج، فاستَوْلى عليها وعلى أُخرى، وعاد إلى الثغر بألف أسير. والله أعلم.

ذكر هدم بيت الأحزان

كان الفرنج قد عمروا حصن بيت الأحزان في مدّة مُقام الملك النّاصر على بعلبك واشتغاله بأمرها؛ فبنَوْه على مخاضة بيت الأحزان، وبينه وبين صَفَد وطبريّة نصفُ يوم.

وكان في بنائه ضررٌ عظيمٌ على المسلمين، فبذَل لهُم الملك النّاصر في هَدْمه مائة ألف دينار، فأبَوْا ذلك. فجهَّزَ إليه الجيش، فوصل إلى المخاضةَ يومَ السّبت لإحدى عشرةَ ليلةَ بقِيَت من شهر ربيع الأول سنة خمس وسَبْعين، والحِصْنُ مبنيٌّ دُونَها من الغرب، فنَصَبُوا عليه المجانيق بعْدَ العصر من يَوْم الأحد. فما جَاءَ اللّيل إلاَّ وقد استَوْلَوْا على البَاشُورة[2]. ثم أدار حَوله النُّقُوب، فاستمرَّت إلى يوم الخميس، لِسِت بقين من الشهر، فهُدِم الجدار، ودَخَل العسكر الحِصْن وغَنِمُوا ما فيه؛ فكان ما غنِمُوه من أنواع السّلاح الجديدة مائَةَ ألف قطعة؛ وأسروا سبعمائة أسير، ومن أسْرَى المسلمين مائة. ثم هُدِم الحصن إلى الأَسَاس، وكان سمكُه عشرة أذرع[3].

قال: ولمَّا عمر الفرنج بيت الأحزان قال النشو أحمد الدّمَشقي:

هَلاكُ الفَرَنجِ أَتَى عاجِلاً ... وَقَد آنَ تكسيرُ صُلْبانِها

وَلَوْ لم يَكُنْ قدْ دَنَا حَتفُها ... لما عَمَّرتْ بيتَ أَحْزَانِها[4]

ذكر مسير الملك الناصر إلى بلاد الأرمن

وفي سنة ستّ وسبعين وخمسمائة، توجَّه الملكُ النّاصر إلى بلاد الأرمن. وذلك أن ابن لاوون[5] ملك الأرمن كان قد اسْتَمَال قوماً من التُّركمان، فلمّا أتوه وهم آمنون أَسَرهم. فدخل الملكُ النَّاصر إلى بلاده استَوْلَى على قلعةٍ تُعرف بالمانقير[6]. وهَدَمها

(١) بطشة أو بطسة: مركب يستعمل في الحرب. النخيلي: معجم السفن الإسلامية (بطش).

(٢) الباشورة: الحائط الخارجي للحصن. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٨١، حاشية (١).

(٣) «تسعة أذرع» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٥٧.

(٤) «النشو بن نفاذه» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٥٧.

(٥) «ابن ليون» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٦٦. هو روبين الثالث. انظر الشرق الأوسط: الحروب الصليبية لباز العريني، ص ٧٧٨.

(٦) «المناقير» في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ٨٩٩.

إلى الأساس، وأخذ ما فيها من الآلات. ووجَدَ المسلمون في أرْضها صهريجاً مملوءاً من الآلات الذّهب والفضّة والنّحاس. فبذل ابنُ لاوون جُملة من المال، وأنّه يُطلق الأسرى، ويشتري خَمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويطلقهم. فأجابه السّلطان إلى ذلك، وأخذ رهينةً عليه. ثمّ عاد إلى الدّيار المصريّة، وأقام بها إلى سنةِ ثمانٍ وسبعين وخمسمائة[١].

ذكر مسيره إلى الشام والإغارة على طبرية وبيسان وما كان من الظفر بمراكب الفرنج ببحر عيذاب

وفي سنة ثمانٍ وسَبعين وخمسمائة توجّه السّلطان الملكُ النّاصر لقَصد الشام عند وفاة الملك الصّالح ابن الملك العَادل نور الدّين. فأغار على طبريّة وبَيْسان في العشر الأوْسَط من شهر ربيع الأوّل. فانتصرَ بَعْدَ قتال.

وفيها كان الظفر بالفرنج ببحر عَيْذَاب. وذلك أنّ البرنس صاحب الكرك[٢] عملَ أسْطُولاً بالكرك، ونَقَل قِطَعه إلى بحر أيْلة، وجمعها وألْقَاها في البحر، وشَحَنها بالمُقاتلة، فسارُوا في البحر وافْترقُوا فرقَتَين: فرقة حصلت أيلة، وفرقة توجَّهت إلى عيذاب. وأفْسَدوا السّواحل، ونهبوا، وأخذوا أيلة ما وجَدُوه من المراكب الإسْلامية ومَنْ فيها من التّجار. وجاؤُوا على حِين غَفْلة، فرأى النّاس ما لم يعهدُوه، فإنّ هذا البحر لم يَرَ النّاسُ فيه فرنجيًّا قط، لا تاجراً ولا مقاتلاً قبل هذا الوقت.

وكان الملكُ العَادِل ينوب عن أخيه الملك النّاصر بالدّيار المصريّة، فعمر أسطولاً وجَهّز فيه جماعَةً من المسْلمين، ومقدَّمهُم حُسَام الدّين لؤلؤ الخاص، فسار في طلبهم. وابْتَدأ بالمركب التي على أيلة، فظفر بهَا، وقَتَل بعْضَ من فيها وأسرَ بعضهم. وتوجَّه لوقته بعد ظَفَره بهم إلى الذين توجَّهوا إلى عيذاب، وكانوا قد عَزَموا على الدّخول إلى الحجَاز وأَخْذِ الحاج، والدُّخول بعد ذلك إلى اليمن، فوصل لؤلؤ إلى عيذاب فوجَدَهم قد نهبوا ما وجدُوه بها وتوجَّهوا، فسارَ في أثرهم، فبلغ رَابغ والحوراء فأدركهم بها، وأوقع بهم. فلمّا تحقّقوا العَطَب خرجُوا إلى البرّ واعتَصمُوا ببَعْض تلك الشّعاب، فنزَل من مراكبه وقاتَلهم في البرّ أشدّ قتال، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هُناك فركبها،

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٦٦، ومفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ٩٨ ـ ٩٩، والنوادر السلطانية لابن شداد، ص ٥٤.

(٢) يعرف باسم أرناط في المصادر العربية وباسم ريجنالد شاتيون في المصادر والمراجع الأوروبية. الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص ٧٨٠.

وقاتلهم، فظَفِر بهم وقَتَل أكثرهم؛ وأسَر مَنْ بقي، وأرسل بَعْضهم إلى مِنًى ليُنْحَرُوا بها عُقوبةً لهم على قَصْدِهم البَيْتَ الحرام. وعاد إلى مصر ببقية الأسرى، فقُتلوا[١].

ذكر الإغارة على الغور

قال: ولمّا ملك الملكُ النّاصر حلب وعاد إلى دِمَشق ثم رحل منْها في ثامن جُمادى الآخرة، سنةَ تسعٍ وسبعين وخمسمائة نزل على بَيْسان فوجد أَهْلَها قد ارتَحلُوا عنها، فنهبهَا العسكر النّاصري وتقوَّوْا بما فيها، وحرقوا ما لم يمكنهم أخذُه. وسار بهم حتى أتى الْجَالوت، وهي قريةٌ عامِرةٌ وعندها عينٌ جارية، فعبأ أصحابَه عندها للقتال، ورحَل إلى الفُولة[٢]، ووقع القتال بينه وبين الفرنج، وَكان الظَّفر له، ثمّ عاد إلى دمشق، فوصل إليها في يوم الخميس الرّابع والعشرين من جُمادى الآخرة من السّنة.

وتوجّه إلى الكرك في هذه السَّنة، وعاد.

ثمّ جمع العساكر المصرِيّة والحلبيّة وغيرها وقَصد الكركَ في سنةَ ثمانين وخمسمائة، وهي الدّفعة الثانية؛ فجمع الفرنجُ فارِسَهم وراجِلَهم للذَّبِّ عنها، ففارقَها السّلطان، وجهَّز طائفةً إلى نابلس فنهبوها وعادوا إليه[٣].

ذكر غزوة الكرك والشوبك وفتح طبرية ومجدل يابا ويافا

قال العمادُ الأصفهاني[٤] في البرْقِ الشامي: وفي سنةِ ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة بَرَز الملك النّاصر من دمشق في أوّل المحرّم، في العسكر العرمرم، ومضى بأهل الجنّة لجهَاد أهل جهنم. فلمّا وصل إلى رأس الماء[٥] أمَر ولدَه الأفضل بالمُقَام عندَها ليَجْتَمع عندَه الأمراء الواصلون من الجهات. وسار السّلطان إلى بُصْرى، ثمّ منها إلى الكرك ورَعَى الزُّروع وقَطَع الأشجار. ثمّ سار إلى الشّوبك وفَعَل مثلَ ذلك. ووصل إليه العسكر المصريّ ففرَّقه على قلْعَتَي الكرك والشّوبك. وأقام إلى أن انْقَضَى من السّنة شهران. والملكُ الأفضل مقيمٌ برأس الماء، وقد اجتمعت عنده العساكر، فتقدّم إلى

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٠ ـ ٤٩١.

(٢) الفولة: بلدة بالقرب من عين جالوت، وهي بفلسطين من نواحي الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٨٠.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٠٢.

(٤) هو محمد بن محمد بن حامد المعروف بالإمام العلامة عماد الدين الأصفهاني. يقال له «العماد الكاتب» توفي سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٥٨.

(٥) رأس الماء: موضع في حوران. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٤.

سريّة منهم بالغارة على أعمال طبريّة، فانتهَوْا إلى صَفّوريّة[١] فخرج إليهم الفرنج فقاتلُوهم، فكان الظّفر للمسلمين، وهلك مقدّم الأسْبتار؛ وعادُوا إليه فكانت مقدّمة النّصر المبين.

وانتهت البشائر إلى الملك النّاصر وهو بنَواحِي الكرك والشّوبك، فسار بمن معَه في يوم الجُمعة سابع عشَر ربيع الأوّل، وعَرَضهم في اثْني عشر ألف فارس. وعَزم على دُخول السّاحل، فانْتهى إلى ثغْر الأقْحُوانَة[٢] فاجتمعت الفرنج في زُهاء خمسين ألفاً، ونزلُوا على مَرْج صَفُّوريّة بأرض عكّا، فلم يتقدّموا عنها. فتقدّم السُّلطان إلى الأمراءِ أن يُقيموا في مُقَابلتهم، ونزل هو بمَنْ معَه من خوَاصّه على طبريّة وشرع في نَقْب سُورها، فهدَمُوه في ساعةٍ من نهار، وامْتنعت القلعةَ بمَن فيها.

فلمّا اتّصل بالفرنج فتحُ طبريّة تقدّمُوا، وذلك في يوم الخميس ثالث شهر ربيع الآخر، فتركَ السّلطان على طبَريّة من يحفظُ قلعتَها، وتقدّم بالعسكَر، فالْتَقيا على سَطْح جَبل طبريّة الغربيّ منها. وحالَ بينهُما اللّيل، فباتَا إلى صبيحةَ يوم الجُمعة، فتصادَمَا بأرض قرية اللّوبيا؛ واستمرّت الحرب بينهما إلى الليل فكانت من أعظم الحُروب. ثمّ باتا إلى صبيحَة يوْم السّبت، فالْتَقيا.

فلمّا عاين القومص[٣] أنّ الدائرة تكونُ على طائفتِه هربَ في أوائل الأمر قبل اشتداده، وسار نحو صُور، فتبعَهُ جماعةٌ من المسلمين، فنجا بمفرده. ثمّ انهزَمت طائفةٌ أخرى فتبعها أبطالُ المسلمين، فلم ينجُ منها واحد. واعتصَمت الطّائفة الأخرى بِتل حطّين[٤]، فضايقهم المسلمون وأشْعَلُوا حولَهم النّيران، فقَتَلهم العطش، فأُسِر مقدَّمُهم[٥]، وقتل الباقون وأسِروا، وألقى الله عليهم الخِذلان.

قال القاضي أبو المحاسن بن شداد: لقَد حكى لي مَن أثِق به أنّه لقي بحَوْرَان شخصاً واحداً، ومعه طُنُبُ خيمة فيه نَيّفٌ وثلاثون أسيراً[٦].

وأمّا القومص الذي هرب فإنّه وصل إلى طرابلس، وأصابه ذات الجنب، فأهلكه الله.

---

(١) صفورية: قرب طبرية. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤١٤.

(٢) ثغر الأقحوانة: على شاطىء بحيرة طبرية، ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٤.

(٣) القومص: Comes: هو ريمند صاحب طرابلس. أمين المعلوف: الحروب الصليبية كما رآها المعرب: ص ٢٣٢، ٢٣٧، ٢٣٩.

(٤) وهي قرية عندها قبر النبي شعيب عليه السلام، انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٩.

(٥) «مقدموهم» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٩.

(٦) انظر النوادر السلطانية لابن شداد، ص ٧٧.

قال: وبَات السُّلطان بالمنزلة، ونَزل يوم الأحد على طبريّة وتسلّم قلعتَها في بقيّة يوْمه، وأقام بها إلى يوم الثّلاثاء.

قال: ولمّا يسر الله هذا الفتح كتب السّلطان إلى أخيه الملك العادل سيْف الدّين بمصر يُبشّره به، وأمَره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جِهَة مصر بمَنْ بقيَ عنده من العساكر، ومحاصَرَةِ ما يليه منها؛ فسارع إلى ذلك، وسار ونازل حِصْن مجدليابة[1] وفتحه، وغنم ما فيه، ثم سار إلى يافا وفتحها عنوةً، وقتل وسبى، وأَسَر وغنم..

ذكر فتح عكا ونابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والنّاصرة ومعليا والفولة والطور والشَّقيف وغير ذلك

قال ابن شدّاد: ثمّ رحل السّلطان طالباً عكّا. وكان نزولُه عليها في يوم الأربعاء سَلْخ شهر ربيع الآخر سنة ثلاثٍ وثمانين، وقاتلها بُكرةَ الخميس مستهلّ جُمادى الأولى، فأخذها، واستَنْقَذ من كان فيها من الأسارى، وكانوا زهاء أربعة آلاف؛ واستوْلَى على ما فيها من الأموال والذّخائر.

ثم تفرّقت العساكر في بلاد السّاحل فأخذُوا نابلس، وحَيفا، وقيْسارِيّة، وصفُّوريّة، والنَّاصِرة، ومَعْلَيَا، والفُولة، والطُّور، والشّقيف وقلاعاً تَلي هذه كثيرة؛ وكان ذلك لخلُوّها من الرّجال فإنّهم عمّهم القتل والأسر[2].

ذكر فتح تبنين وصيدا وصرفند وبيروت وجبيل

قال: ثم أرسل السلطان ابن[3] أخيه تقي الدين إلى تِبْنين، فضايقها، وكتب إلى السلطان أنْ يأتيَه بنفسه، فوصَل إليها ونازَلها يوم الأحد الحادي عشر من جُمادى الأولى، فسأل مَنْ بها الأمَان واستُمْهلوا خَمسة أيام لينزلوا بأموالهم[4]، وأطلقوا الأسارى، فخرجوا إليه، فسُرَّ بهم وكَساهُم. وخلص في تلك السنة من الأسرى أكثر من عشرين ألف أسير، ووقع في أسْره من الكفار مائة ألف.

قال: ثم رحل السّلطان من تبنين[5] إلى صَيْدا، فاجتاز في طَريقه بصَرَفَنْد فأخذَها بَعْد قتال.

---

(١) في الأصل «يافا» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٤٠.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٣٩ ـ ٥٤٠.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٤١.

(٤) «أخذها في يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى من السنة» انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢.

(٥) تبنين: من بلدات جبل عامل في لبنان الجنوبي، وهي قائمة على تلة مرتفعة، وفيها قلعة من بناء =

ثم سار إلى صَيْدا، ففارقَها صاحبُها وتركَها خالية، فتسلَّمها ساعة وصُوله إليها لِتِسْعٍ بقينَ من جُمادى الأولى سنةَ ثلاثٍ وثمانين.

وسارَ من يَوْمه نحو بيروت فقاتل أهلُها على سُورها وظنُّوا أنهم قد قَدَروا على حفظه، فدخلها المسلمون من الجانب الآخر، فسألوا الأمان فأمَّنهم على أنفُسهم وأمْوالهم، وتسلَّمها في التاسع والعشرين من الشهر.

وأمّا جُبَيْل فكان صاحبُها في جملة الأسرى الذين نُقِلوا إلى دمشق، فسأل إطلاقه وتَسْليمها، فأحضره مقيَّداً، فسلَّم البلد وأطلق أسرى المسلمين، وأطلقه السّلطان.

ذكر فتح عسقلان وما يجاورها

قال: وسَار السّلطان إلى عَسْقلان والرملة وغزة والدّارُوم وغير ذلك.

فنزَلَ على عَسْقلان في يوم الأحد سادسَ عشر جُمادى الآخرة، ونصبَ عليها المجانيق، فسلَّمُوها على خروجهم بأموالهم سالمين؛ وذلك في يوم السبت سلخ جمادى الآخرة[1].

ثم تسلَّم حصُون الدَّاوِيّة وهي غزّة، والدّارُوم، والرّملة، وتُبْنَى، وبيت لحم، ومشهد الخليل، ولدّ، وبيت جبريل[2].

قال: وكان بين فَتْح عسقلان وأخذ الفرنج لَها من المسلمين خمسٌ وثلاثون سنة، فإنّ العدُوّ استولى عليها في السّابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة.

قال العماد: وفوّض السّلطان القضَاء والحُكم والخَطابة وجميعَ المناصب الدينيّة بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدّين عبْد الله بن عمر الدّمشقي، وهو المعروف بقاضي اليمن.

ذكر فتح البيت المقدس

قال المؤرخ: لمّا فرغ السّلطان الملك النّاصر من أمْر عسْقلان وما يجاورُها سَار

= الصليبيين. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦. وانظر أيضاً: معجم البلدان لياقوت الحموي، ج ٢، ص ١٤.

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٤٦. ومفرج الكروب: لابن واصل، ج ٢، ص ٢٠٩. والنوادر السلطانية لابن شداد، ص ٨٠.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٤٦.

إلى البيت المقدّس[١]، فكان وصوله إليه في يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب سنةَ ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة[٢]. وكان به البَطْرك المعظّم عندَهم، وهو أعظم شأناً من مَلِكهم، وبه أيضاً باليان بن بارزان صاحب الرّملة ومَنْ خلص من فرسان الفرنج من حطّين، واجتمع به أهلُ عَسْقلان وغيرها، كلُّهم يَرى الموْت عليه أهون من أن يُملك البيتُ المقدّس.

فنزل السّلطان بالجانب الغربي وأقام خمسة أيّام يطُوف حوْلَ البلد لينظُر مِن أين يقاتلُه. ثمّ انتقل إلى الجانب الشّماليّ يوم الجمعة، العشرين من الشهر، وكانت عدّة من به من المقاتلة ستّين ألفاً غير النّساء والصّبيان فنصَب السّلطان المجانيق في تلك اللّيلة، ونصب الفرنج على السُّور مجانيق أيضاً، وقاتلُوا أشد قتالٍ رآهٓ النّاس لأنّ كلًّا من الفريقين يرى ذلك عليه من الواجبات لا يُحتاج فيه إلى سُلطان. وكانت خيّالة الفرنج يخرجُون في كلّ يوم إلى ظاهِر البلد فيقاتلون ويُبارزون. وتوالَى الزّحف، ونقب المسلمون السّور مما يلي وادي جهَنَّم.

فلما رأى الفرنج ذلك أخلَدُوا إلى طلَب الأمان، وبعثوا جماعةً من أكابرهم في ذلك؛ فامْتَنَع الملكُ النّاصر من ذلك وقال: لا أفعلُ بكم إلاّ كما فعلتُم بأهله حينَ ملكتُموه في سنة إحدَى وسبعون وأربعمائة من القَتْل والسّبي. فلما رجع الرّسُل إليهم، أرسلَ باليان بن بارزان يطلب الأمان لنفسه ليحضُر إلى الملك النّاصر، فأمّنه، فحضر إليه وسَألَه الأمان، فلم يُجِبْه، واستعطفَه فلم يتعطَّف، واستَرْحَمه فلم يرحمه. فلمّا أيسَ منه قال لهُ ما معناه: أيها السّلطان، اعْلَم أنّنا في هذه المدينة في خَلْقٍ كثير لا يعلمهم إلاّ الله تعالى، وإنما يفتُرون عن القتال رجاءَ الأمان، وهم يكرهون الموت ويرغبُون في الحياة؛ فإذا رأينا أنّ الموت لا بُدّ منه والله لنقتُلَنَّ أبناءنا ونِساءنا، ونُحرق أمْوالنَا وأمتِعَتَنا، فلا نترككم تغنَمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً، ولا تَسْبون ولا تأسِرُون رجلاً ولا امرأة. فإذا فرَغْنا من ذلك أخْرَبْنا الصّخرة والمسجد الأقصى؛ وغير ذلك من المواضع الشّريفة؛ ثم نقتل مَنْ عندنا من أسرى المسلمين، وهم خمسة آلاف، ولا نترك لنا دابَّةً ولا حيواناً إلا قتلناه. ثمّ نخرج إليكم، كلُّنا، فنقاتلكم قتالَ مَنْ يريد يحمِي دمَه ونفسَهُ، فلا يُقْتَل الرّجُل منا حتى يَقْتُل؛ فإمّا أن نموتَ أعزاء أو نظْفَر كراماً.

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٤٦.

(٢) ذكر ابن تغري بردي: في النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٣، أن وصول السلطان إلى بيت المقدس كان: «في السادس والعشرين» في الأصل. وما أثبته أي «في الخامس عشر من شهر رجب» هو عن خلكان والسيرة والروضتين.

فلمّا سمع الملكُ النّاصر كلامه استشار عنْد ذلك أصحابه، فأشاروا عليه بمُوَافَقَتهم.

ووقع الصّلح على أن يسلّموا أسْرَى المسلمين، ويبْذُلُوا عن كلِّ رجلٍ من الفرنج عشرة دنانير، وعن كل امْرأة خمسة، وعن كلّ طفلٍ وطفلةً دينارين، يستوي في ذلك الغنيّ والفقير. وبذَل ابن بارزان في الفُقَراء ثلاثين ألْف دينار من مَاله، وعلى أنْ تكون المدّة أربعين يوماً؛ فمن أدّى ذلك قبل المدّة خلص ومن تأخّر استُرِقّ.

وتسلّم السّلطانُ المدينةَ في يوم الجُمعة السّابع والعشرين من شهر رجب. وكان يوماً مشهوداً، ورُفعت الأعلام الإسْلامية على الأسوار[1]، ورتّب السّلطان على أبواب البلد أُمناء من الأمراء يأخذون من أهله ما استقرّ عليهم، فخانُوا، ولو أدَّوْا الأمانة لامتلأت الخزائن.

قال: وصلّى الملكُ النّاصر الجمعة الثّانية في رَابع شعْبان في قبّة الصّخرة، وكان الخطيبُ والإمَامُ القاضي محيي الدّين ابن الزّكي قاضي دمشق[2].

ثم رتّب له خطيباً وإماماً ونقل إليه المِنْبر الذي كان عَمِله الملكُ العادل نورُ الدّين بحلب برَسم البَيْت المقدّس إذا فتحه. وكان بين عَمَله وفَتْح البيت المقدّس ما يزيدُ على عشرينَ سنة.

ثمّ تقدّم أمر السّلطان بعمارة المسجد الأقصى ومَحْوِ ما كان الفرنج صنعُوه من الصُّوَر على عادتهم، ونقل إليه المصَاحِف، وطهّره من أدْنَاس الكُفر، رحمه الله تعالى، وتقدّم بعمل الرُّبُط والمَدارس، وجَعَل دار الأسْبتار مدرسةً للشافعيّة[3].

ذكر رحيله ومحاصرة صور

قال المؤرّخ: وأقام السّلطان الملك النّاصر بالبيت المقدّس إلى الخامس والعشرين من شعْبَان من السّنة، ثمّ سار لقَصْد محاصرة صُور وقد اجتمع فيها خلقٌ كثير من الفرنج. وقدِم إليها المَرْكِيس[4] في البحر بأموال عظيمة؛ وكانت عادتُه أن يحضر إلى البَيْت المقدّس بأموالٍ يفرّقُها، فلمّا حضر في هذا الوقت وَوَصل عكّا فرآها قدْ خرجَت

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٤٦.

(٢) هو أبو المعالي محمد بن أبي الحسن علي بن محمد محيي الدين بن زكي الدين توفي سنة ٥٩٨ هـ/ ١٢٠١ م. وكانت ولادته سنة ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م. بدمشق. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٢٩، رقم ٥٩٤.

(٣) انظر مفرج الكروب: لابن واصل، ج ٢، ص ٢٣٠.

(٤) هو كنراد ابن ماركيز مونتيغرات. رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية ج ٢، ص ٧٦٢ ـ ٧٦٣.

عن أيدي الفرنج سار إلى صُور فملكها، وأنْفَقَ ما مَعهُ على مَنْ بها، فقَوِي أمرُه وانحاز إليه جميعُ مَنْ خلص بالأمان من سائِر البلاد. فأنفق على سور صُور وخَنَادقها، وعمَّقها، فصَارت كالجزيرة في البحر لا يُمْكنُ الوصول إليها.

فوصَل الملكُ النّاصر إلى عكّا في مستهل شهر رمضان، فأصْلَح من شأنها، ثم رحل عنها ونَازَل صور في تاسع شهر رمضان ونزل على نهر بالقرب من البلد؛ ثمّ نزل على تلٍّ يقارِبُ صور في الثّاني والعشرين من الشّهر، وقسّم القتال على العَسْكَر لكلِّ جَمْع منهم وقتٌ معلوم. واستدعى الأسطول المِصريّ، وكان بعكّا، فجاءته عشر شوانٍ[١]، وكان للفرنج في البحر مراكب فيها رماة الجروخ[٢] والزنبوركات[٣] يرمُون مَنْ دنا من البحر. فاسْتَطال الأسطول عليها، وأحاط بهم المسلمون وقاتلُوا برًّا وبحراً؛ ثمّ أغفَلوا أمْرَهم فملك الفرنج من الشواني خمسةً وأسرُوا مقدَّمها[٤].

ثمّ كانت حروبٌ ووقائع.

ثمّ رحل السّلطان عنها في آخر شوّال، وهو أول كانون [الأول][٥]، وسار إلى عكّا، وأذِن للعساكر بالعَوْد إلى أوطانهم للرّاحة في الشتاء والعَوْد في الربيع، فعادت عساكرُ الشّرق والمَوْصِل، والشّام ومِصر، وبقي السّلطان في عكّا في حَلْقَته وخاصّته، وردّ أمرها إلى الأمير عزّ الدّين جُرْدَيك[٦].

ذكر فتح هُونِين

قال المؤرخ: كان السّلطان لمّا فتَح تِبْنِين امتنع مَنْ بهُونِين من تسليمها، وهي من أحْصَن القلاع وأمْنَعَها، فرتّب عليها من يَحْصُرها؛ فطَلب مَنْ بها الأمان لمّا كان السُّلطان يحاصر صُور، فأمَّنَهم، ونزلُوا منها وتسلّمها[٧].

واتفق أن فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة إلى سرمينية[٨]، مع كثرتها،

---

(١) شوانٍ: جماعة يكثرون من الغارات. ابن منظور: لسان العرب (شنن).

(٢) الجرخ: الجروخ: أنواع من السهام: ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٤٢، حاشية (٤).

(٣) الزنبورك: نوع من السهام. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٤٤.

(٤) هو عبد السلام المغربي الموصوف بشجاعته والحذق بصناعته، ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ٥٥٤.

(٥) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح الشهر من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٥٦.

(٦) «هو من أكابر المماليك النوريّة، جمع الديانة والشجاعة وحسن السيرة». ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ٥٥٧.

(٧) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٥٧.

(٨) المدن والحصون هي:

=

كان في ست جمع مع أنها في أيدي أشجع الناس وأشدهم عداوة للمسلمين، فيسر الله فتحها في أيسر مدة.

ذكر فتح حصن برزية

قال: ولما رحل السلطان من قلعة الثغر سار إلى قلعة برزية[١]، وبحصانتها يضرب المثل، وهي تقابل حصن أفامية[٢] وتناصفها في أعمالها، وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصي، ومن عيون تنفجر من جبل برزية وغيره.

وكان أهلها أضر شيء على المسلمين يقطعون الطّريق ويبلُغُون في الأذى.

فنزَل السّلطان شرقيَّها في رابع عِشْرِي الشّهر[٣]، وركب من الغَد وطاف عليها لينظُر موضعاً يقاتِلُها منه، فلم يجده إلا من جهة الغرب. وهذه القلعة لا يمكن أنْ تُقاتَل من جهتي الجنوب والشّمال ألبتَّة، فإنّ جبلَها لا يُصعد إليه من هاتين الجهتين؛ وأمّا الجانب الشرقيّ فيمكن الصُّعود منه لغَيرِ مقاتِل لصُعوبته وارتفاعه؛ وأما جهةُ الغرب فإنّ

=
- ذكر فتح جبلة. انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٧.
- ذكر فتح بكسرائيل. انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٨.
- ذكر فتح اللاذقية. الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٩.
- ذكر فتح صهيون: الكامل لابن الأثير ج ١٢، ص ١٠، والنجوم الزاهرة ج ٦، ص ٣٧، وصهيون حصن منيع من أعمال سواحل بحر الشام. من أعمال حمص. قال ياقوت: كانت بيد الفرنج ثم استرجعها الملك الناصر سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م. معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٣٦.
- ذكر فتح الشغر وبكاس: الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٢، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٧.

الشغر وبكاس: قلعتان قريبتان يعبر من إحداهما إلى الأخرى بجسر ولذلك يقترن اسماهما عادة ببعضهما البعض. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٧، حاشية (٥). وانظر أيضاً: الدر المنتخب لابن الشحنة، ص ١٧٥.
- ذكر فتح سرمانية، الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٣. ومفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ٢٦٤.

(١) برزية: قلعة صغيرة. مستطيلة منيعة في ذيل الجبل الذي يعرف بالخيط من شرقيه، مطلة على بحيرات فامية. أثبته ياقوت الحموي باسم برزويه. ويفضل الكتاب المحدثون اسم بورزي، ويطلق عليه الأهالي قلعة مرزة. ولا تزال أطلال هذه القلعة قائمة على المنحدر الشرقي لجبل العلويين وتشرف على منخفض القاب المتبطح (دائرة المعارف الإسلامية).

(٢) أفامية: حصن على سواحل حمص في مواجهة برزية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٢٧.

(٣) هو شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٤ هـ. انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٤.

الوادي المُطِيف بجَبَلها قد ارْتَفَع هناك ارتفاعاً كثيراً حتّى قاربَ القلعة بحيث يصلُ منه حجر المنجنيق والسّهام. فنَزَله المسلمُون ونصبُوا المجانيق، ونصبَ أهلُ القلعة منجنيقاً، فرأى السُّلطان المجانيق لا تُفيدُ، فتركها وعزم على الزَّحف ومُكاثَرتِها بالرّجال؛ فقسَّم العسكر ثلاثةَ أقسام، يزحفون بالنَّوبة، فطالَ ذلك على أهْلِها وعجزُوا عن مُقَاتلتهم فملَكها المسلمون عنْوةً ونهبُوا وأسرُوا وسبَوْا، وأخذوا صاحبها وأهْلَه، وأمْسَتْ خاليةً خاوية. وألقى المسلمُون النّار في بعْض البيُوت فاحترقت[1].

ذكر فتح قلعة دَرْبَسَاك[2]

قال: ثمّ رحَل السّلطان بعد فُتوح برزيّة من الغَد فأتى جسر الحديد، وهو على العاصي بالقرب من أنْطاكيّة، فأقام هناك حتّى وافاهُ من تخلَّف عنْه من عسكره ثمّ سار إلى قلعة دَرْبَسَاك، فنزَل عليها في ثامن شهر رجب سنة أربعٍ وثمانين وخمسمائة، وهي من أحْصَن معاقل الدّاوِيّة وقلاعهم التي يدَّخرُونها عند نُزول الشدائد بهم. فنصَب عليها المجانيق، وتابَعَ الرَّمْيَ بالحجارة، فهدم قطعةً يسيرة من سُورِها؛ ثمّ أمَرَ بالزّحْف عليها ومُهَاجمتها؛ فتوالى الزّحفُ والقتال، وتقدَّم النَّقّابون فنقبوا منها بُرْجاً وعلقوه فسقَط، وطلبَ أهله الأمان فأمَّنهم على ألا يخرجُوا منها بغير ثيابهم خاصّةً، فخرجوا كذلك، وتوجهوا إلى أنطاكيّة، وتسلّمه في تاسع عشر شهر رجب[3].

ذكر فتح قلعة بَغْرَاس

قال: ثمّ سار عن دَرْبَسَاك إلى قلعة بَغْرَاس، فحصَرَها بعد أن اختلف أصحابُه في حَصْرها، فمنهم مَن أشار به، ومنهم من نهى عنه وقال هُو حِصْنٌ حصينٌ، وقلعةٌ منيعةٌ، وهو بالقرب من أنطاكية. فسار إليها وجَعَل أكثر عَسْكره مُقابل أنطاكية يُغيرون على ضِيَاعِها، وبقي هو في بَعْض أصحابه على القَلْعَة ونصب عليها المجانيق فلم يؤثّر فيها، فغلَب على الظُّنون تعذّر فَتْحها. فبينما هُم في ذلك إذ جاءَ رجلٌ من القلعة يطلب الأمان لرسُولٍ، فأعْطِيَه، وجاء رسولٌ يطلب الأمان لأهلها، وسلّموها على قاعدة دربساك، فأجَابهم إلى ما طلبوا. وعاد الرّسُول ومعه الأعلام السُّلطانيّة فرُفِعَت على رأس

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٤ ـ ١٧.

(٢) «دربساك» في الأصل. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٨، حاشية (٢). «ودرب سال» في الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٧.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٧ ـ ١٨. ومفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨، والنوادر السلطانية لابن شداد، ص ٩٣.

القلعة، وتسلّمها السّلطان وأمَرَ بتخريبها فخربت[١].

ذكر الهدنة بين المسلمين وبين صاحب أنطاكية

قال: ولمَّا فتح السُّلطان بغراس قصد حصار أنطاكيّة فجاءته رسُل بيمند تسأله الهدنة ثمانيةَ أشهر بحيث يُطْلِق جميع مَن عنده من أسْرى المسلمين. فاستشار السّلطان أصحابه، فأشار أكْثرهُم بذلك ليستريحَ العسكرُ ويجدِّدوا ما يحتاجون إليه، فأجاب إلى ذلك ووُقّعت الهدنة ثمانيةَ أشهر أولها تشرين الأول وآخرها: آخر أيار[٢].

وتوجَّه السّلطان إلى حلب فوصل إليها في ثالث شعبان، وفرَّق العساكر الشّرقية: عمادَ الدّين زنكي بن مودُود صاحب سنجار، وعَسْكَر الموصل، وغيرهما، ثمّ رحل إلى دمشق فدخلها في أول شهر رمضان من السّنة.

ذكر فتح الكرك والشوبك وما يجاورهما

قد ذكرْنا أنّ السّلطان كان قد جَعَل على الكرك من يحصُره، وهو سعدُ الدّين كمشبه، في أوّل سنةِ أربعٍ وثمانين؛ فلازَمَ الحصار هذه المدَّة الطويلة حتى نفذَت ذَخائرُ الفرنج، وأكلوا دوابَّهم، فراسَلوا الملكَ العادلَ أخا السّلطان، وكان السّلطان قد جعله بتلك النّواحي في جَمْعٍ من العسكر، وسألُوه الأمان، فأجابهم إلى ذلك، وأرسل إلى سَعْد الدّين مقدّم العسكر فتسلّم القلعة منهم وأمَّنَهم.

وتسلّم أيضاً ما قَارَب هذا الحصن من الحُصُون وهو الشوبك، وهرمز، والوعيرة، والسلع فأمِنت القُلوبُ من تلك الجهة.

ذكر فتح قلعة صفد

قال: ولمَّا وصل السّلطان إلى دمشق أُشير عليه أن يفرّق العساكر، فقال: إنّ العمر قصير والأجل غير مأمون، وقدْ بقِيَ بيد الفرنج هذه الحصون: صفد والكوكب، ولا بدّ من الفَرَاغ من ذلك فإنّهما في وَسَط بلاد الإسلام. وأقامَ بدمشق إلى منْتَصَف شهر رمضان من السّنة، وسار إلى قلعة صفد، فحصَرها ونصب عليها المجانيق، وداوَمَ الرَّمْيَ ليلاً ونهاراً، فَسألوا الأمان، فأمّنهم وتسلّمها[٣]، وخرج أهلها إلى صور.

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٨ ـ ١٩.

(٢) شهر أكتوبر ١١٨٨ م، شعبان ٥٨٤ هـ وما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٩ ـ ٢٠.

(٣) «وتسلمها بالأمان في رابع عشر شوال». ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٩.

ذكر فتح كوكب

قد قدّمنا أنّ السلطان كان قد جعل على كوكب الأمير قايماز النّجْمي[(١)]، فلمّا حصر السّلطان صَفَد أرسل منْ بصُور مِنْ الفرنج نجدةً من جِهاتهم إلى كوكب، وهم مائتا رجُل من الشُّجعان، فظَفِر بهم قَايماز فقتلهم عن آخرهم، وأرْسلِ إلى السلطان المقدَّمَيْن عليهم، وهما رجلان من فرسان الأسْبتار، فأَمر بقتلهما، فقال أَحَدُهما ما أطن أنّنا ينالُنا سوءٌ بعد أنْ رأينا وجهَك الصّبيح. فعفَا عنهُما واعتقلهما.

ولما مَلك صَفَد سار عنها إلى كوكب وشدّد الحصار ووَالَى الزّحف، وأشْرف على أخذها، فسأل الفرنجُ الأمان فأمّنهم وأطلقهم، وتسلّم الحِصْن في منتصف ذي القعدة سنة أربعٍ وثمانين وخمسمائة.

فالْتَحَق مَنْ كان به بصُور فقويَت شوكتهم وكثرُوا، لأنّه اجتمع عندَهُم شُجعان الفرنج وكُمَاتُهم، وتَابعُوا الرّسل إلى مُلوك الفرنج بالأندلُس وصِقِلِيّة والجزائر يستغيثُون بهم ويسألون الأمداد، فكان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: ثمّ سار السّلطان إلى البيت المقدَّس فعيَّد فيه عِيدَ الأضحى. ثمّ سار منه إلى عكّا وأقام بها إلى أن انسلخت السنة[(٢)].

وفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثارَ بالقاهرة اثنا عشَر رجلاً من الشّيعة، ونادوا بشعار العلويّين، وصاحوا: يا لَعَلِيّ[(٣)] وسلكوا الدُّرُوب يُنادون، ظنًّا منهم أن أهل البلد يُلبُّون دعوتهم ويخرجون معهم، فيعيدون الدولة العُبَيْديّة ويملكون البلد ويُخْرِجون مَن بالقصر من العلويين؛ فلم يُجبهم أحد من الناس.

فلمّا خاب سعيُهم تفرّقُوا فأُخِذوا. وكُتب بذلك إلى السّلطان فأهمّه وأزعجه.

فقال له القاضي الفاضل عبْد الرّحيم: ينبغي أن يَفْرح السّلطان بذلك ولا يحزن، حيث عَلِم مِن بَوَاطن رعيّته المحبَّةَ له والنَّصِيحة، وتَرْك المَيْل إلى عدُوّه. ولو وَضَع السُّلطان جماعةً يفعلُون مثلَ هذه الحالة ليَعْلَم بوَاطن أصحابه ورعيّته وخَسر الأموال[(٤)]

---

(١) هو قايماز بن عبد الله النجمي، صارم الدين، المتوفى سنة ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩ م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٣. النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٥٧٢ ـ ٥٧٣.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٢٢ ـ ٢٣، ومفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٦، والنوادر السلطانية لابن شداد ص ٩٦.

(٣) ورد في الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٢٤ «يال علي».

(٤) في الأصل «وخبر الأموال» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٢٤.

الجلية لكانَ قليلاً فسُرِّيَ عنه[١].

ذكر فتح شقيف أرنوم

وفي شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وخمسمائة سارَ السُّلطان إلى شقيف أرنوم[٢]، وهو من أمْنَع الحصون ليحصره، ونزل بمرج عُيون فنزل صاحبُ الشّقيف، وهو أرناط[٣] صاحب صَيْدا، إلى السّلطان؛ وكان من أكثر النّاس دَهاء ومكراً فقال: أنَا محبٌّ لك ولدَوْلتك، ومعترف بإحسانك، وأخاف أن يطّلِع المركيس على ما بَيْني وبَيْنَك فينال أوْلادي وأهلي منْه أذًى، فإنّهم عندَه بصُور؛ وأحبّ أنْ تمهلَني حتى أتوصّل إلى تخليصهم من عنده، وحينئذٍ أحضر أنا وهم إلى عندك ونسلّم الحصن إليك، ونكون في خدمتك، نقنع بما تعطينا من الإقطاع. فأجابه السلطان إلى ذلك وظنّ صدقه، واستقرّ الأمر بينهما أن يسلّمَ الشّقيف في جمادى الآخرة.

وأقام السّلطان بمَرْج عُيون ينتظر الأجل وهو قلقٌ مفكرٌ لقُرب انقضاء الهدنة بينه وبين صَاحب أنطاكية فأمر تقيّ الدّين ابن أخيه أن يسير فيمن مَعَهُ من عساكره ومَنْ يأتيه من بلاد الشّرق ويكون مقابل أنطاكيّة لئلا يُغِير صاحِبها على ما يجاورُه من بلاد الإِسْلام عنْد انقضاءِ الأجل.

وكان السّلطان أيضاً منزعِجَ الخاطر لِمَا بلَغه من اجْتماع الفرنج بصُور وَمَا يصلُ إليهم من الأمداد، وأنّهم اجتمعوا في خلْقٍ كثيرٍ وخرجُوا من مدينة صُور إلى ظاهِرها؛ فخاف أنْ يترُكَ الشَّقيفَ وراء ظَهره. وكان أرْنَاط في هذه المدّة يشتري الأقوات من سُوق العسكر، والسّلاح، وغيرَ ذلك مما يحصّن به شقيفه، فيبلُغ السّلطان فلا يُنكره بحُسن ظنّه. وكان قصْدُ أرناط المطَاوَلة إلى أن يظهر الفرنج من صور.

فلما قاربَ الأجل تقدّم السلطان إلى الشَّقيف، واستدعى أرناط وقد بقي من الأجل ثلاثة أيّامٍ، فجاءه، فتحدّث معه في تَسْليم الحصن، فاعتذر بأولاده وأهله وأنّ المركيس لم يمكنهم من المجيء إليه، وطلَب المهلة مدّةً أخرى. فحينئذٍ تحقق السّلطان مَكْرَه وخداعه، فأخذَه وحَبَسه، وأمره بتَسْليم الشّقيف فَطَلب قسّيساً وحمَّله رسالةً سرًّا، وأظهر أنّه أمره بتَسْليمه؛ فامْتنع مَنْ بالحصن من تَسْليمه: فسيَّر أرناط إلى دمشق وسَجَنه،

---

(١) سرِّي عنه: أي كشف: ابن منظور: لسان العرب (سرا).

(٢) شقيف أرنون: قرب بلدة النبطية بجنوب لبنان، ويعرف الحصن بقلعة الشقيف ويعرف أيضاً باسم قلعة بوفور أطلقه الفرنج في أيامهم. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٩، حاشية (٣). وفي ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٥٦ «قلعة حصينة بين بانياس والساحل.

(٣) ويعرف بريجنالد صاحب صيدا. الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص ٨٧٠.

وتقدّم إلى الشّقيف وضَيَّق على مَنْ به، وتَرَك عليه من يحفظُه ويمنعُ مِن الوصول إليه. فتسلّمه في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين، وأطلق صاحبه[١].

ذكر مسير السلطان من مرج عيون إلى صور وما كان عليها من الوقائع

قال: وجاءت السُّلطانَ كتبُ أصحابه الذين جعلهم يَزَكاً[٢] في مقَابَلَة الفرنج على مدينة صُور يخبرونه أنّ الفرنج قد اجتمعُوا على عُبور الجسر الذي لصُور، وعزَمُوا على حصار صَيْدا. فسار جريدةً في شجعان أصحابه، فوَصَل إليهم بعد أنْ كانت الوقعَةُ بين الفرنج وبين اليَزَك.

وذلك أنّ الفرنج خرجُوا من مدينة صُور، فلقيَهم اليزكُ على مضيقٍ وقاتلُوهم ومنعُوهم، وكانت حرباً شديداً، وأُسِر من الفرنج جماعةٌ، منهم سبعةُ رجال من فرسانهم المشهورين، وقُتل من المسلمين جماعةٌ، ثم عجز الفرنج عن الوصول إلى صَيْدا فعادوا إلى صُور والله أعلم[٣].

ثم كانت لهم وقعة ثانية بعد وصول السّلطان مع المتطوّعة.

وذلك أنّ السّلطان لما جاء إلى صور أقام مع اليَزَك في خَيْمةٍ صغيرة ينتظرُ عودة الفرنج للخُروج؛ فرَكِب في بعض الأيام في عدَّةٍ يسيرة لينظُر إلى مخيّم الفرنج من الجبل، فظَنَّ مَنْ هناك من المتطوّعة أنّه قصد الغَزَاة، فسارُوا مجدِّين وأوْغَلُوا في أرض العدوّ وبَعُدُوا عن العسكر، وخلَّفوا السّلطان وراءَ ظُهورهم؛ فبَعَث مَنْ يردُّهم فلم يَرْجعوا. وظنّ الفرنج أنّ وراءَهم مَنْ يحميهم فأحجموا عنهم؛ فلمّا علمُوا بانفرَادِهم حملُوا عليهم حمْلةَ رَجلٍ واحد، فقُتل منْهُم جماعةٌ من المعروفين؛ فشقَّ ذلك على السُّلطان والمسلمين. وكانت هذه الوقعة في تاسع جُمادى الأولى.

فلمَّا رأى السّلطان ذلك انحدر من الجَبَل بمَن معه، وحمل على الفرنج فردَّهم إلى الجسر، فرمَوْا بأنفسهم في الماء، فغَرِق منهم مائة دَارِع سوى مَنْ قُتِل. وعادُوا إلى مدينة صُور، فعادا السّلطان إلى تِبْنِين ثم إلى عكا.

ثم كانت وقعةٌ ثالثة في يومَ الاثنين ثامن جمادى الآخرة صبر فيها الفريقان[٤].

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٢٧ ـ ٢٨، وقارن ذلك مع مفرج الكروب ج ٢، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٤، والنوادر السلطانية لابن شداد، ص ٩٧.

(٢) اليزك: وردت في صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٠، ص ١١٠، وفي طلائع الجيش أو الجند.

(٣) في الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٢٩. «فعادوا إلى مكانهم».

(٤) انظر ما جرى في هذه الوقعة في الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٣٠ ـ ٣١.

ذكر مسير الفرنج إلى عكّا ومحاصَرَتها

قال المؤرخ: لما كثُر جمع الفرنج بصُور، على ما ذكرناه مِنْ أنّ السّلطان كان كلما فتح حصناً أو مدينة بالأمان، سار أهلُها إلى صُور بأموالهم وأهليهم، اجتمع بها منهم عالَمٌ كثير لا يُحْصَوْن، وأموالٌ كثيرة، ثمّ إنّ الرّهبان والقُسُوس لبِسوا السواد وأظهرُوا الحزن على خروج البَيت المقدّس عنهم، وتابَعَهم جماعةٌ من المشهورين. فأخذهم البطرك[1] ودخَل بهم إلى بلاد الفرنج يطُوفُها بهم ويستَنْجِدُون أهْلَها ويستجِيرُون بهم، ويحثّونهم على الأخذ بثأر البيت المقدّس.

وصوَّرُوا صُورةَ المسيح عليه السّلام وصُورة رجل أعرابي والعَربيّ يضربُه بين جَماعةٍ، وقالوا: هذا المسيحُ يضربُه محمّد نبي المسلمين، وقد جَرَحَه وقتَلَه[2].

فعظُم ذلك على الفرنج وحشدُوا، حتّى النساء، فإنّهم كانَ معهم على عكّا عدَّةٌ من النسَاء يبارِزْن الأقران. ومَنْ لم يستطع أن يَخرج استأجَر عنه أو يعطيهم مالاً. فاجتمع لهم من الرّجال والأموال ما لا يُحصى كثرة.

واجتمعوا بصُور والبَحْر يُمِدُّهم بالأموال والأقوات والعُدد والذّخائر، فضاقت عليهم مدينة صُور، باطنُها وظاهرها؛ فأرادُوا قَصْد صَيْدا، فكان من ردِّهم ما ذكرناه.

فاتّفقوا على قَصْدِ عكّا ومُحَاصَرَتها؛ فسارُوا إليها بفَارِسهم ورَاجِلهم، ولزِمُوا البحْر في مسيرهم، لا يفارقونه، في السَّهل والوعر، ومراكبُهم تُسايِرُهم وفيها السّلاح والذّخائر. فكان رحيلُهم من مدينة صُور في ثاني شهر رجب سنةَ خمس وثمانين وخمسمائة، ونُزُولهم على عكّا في مُنْتَصَف الشّهر، فتخطَّف المسلمون مِنْهم في مسيرهم وأخذوا مَن انفرد.

وجاء الخبر إلى السُّلطان برحِيلهم، فَسار حتى قارَبَهم. ثمّ نزلوا على عكّا قبل وُصُوله إليها، ونَازَلُوها من سَائر جهاتِها برًّا وبحراً، فلم يَبْق للمسلمين إليها طريق. ونَزَلَ السُّلطان عليهم وضرب خَيْمته على تلِّ كيسان[3]، وامتدّت ميمنتُه إلى تلّ العياضِيّة

---

(١) «البرك» في الأصل. والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٣٢. والمراد رئيس أساقفة صور واسمه جوسيوس. الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٨٨٣.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٣٢، والروضتين لأبي شامة، ج ٢، ص ١٤١، ومفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ٢٨٨.

(٣) تل كيسان: بفتح الكاف وياء ساكنة، موضع من سواحل الشام في مرج عكا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٣.

وميسرَتُه إلى النّهر الجاري، ونزلت الأثقال بصَفُّوريّة[١]. وسيَّر الكتب إلى الأطراف يستَدْعِي العساكر، فأتاه عسكر المَوْصل، ودِيار بكر، وسِنْجار، وغيرها من بلاد الجزيرة. وأتاه تقيّ الدّين ابنُ أخيه، ومظفّر الدّين بن زين الدين صاحب حَرَّان والرّها. فكانت الأمداد تأتي المسلمين في البرّ وتأتي الفرنج في البحر.

وكان بين الفريقين مدّةَ مُقامهم على عكّا حروبٌ كثيرة.

نحن نذكر المشهورَ منها على سبيل الاختصار؛ وأمّا الحرُوب التي تكون بَيْن بعْض هؤلاء وبعْض هؤلاء، والمناوشات، فلو شَرَحْنَاها لطَالَ بها الكتَاب لأن مُدّة هذا الحصار، كانَتْ ثلاث سنين وشهراً.

وكان ابتداءُ القتال في مُسْتَهلّ شعبان من السّنة، فقاتَلَهم السّلطان في ذلك اليوم ولم يَبْلُغ منهم غرضاً؛ ثم باكَرَهم القتالَ واسْتَدَارَ عليهم من سائر جهاتهم إلى أنْ انتَصَف النّهار، وصَبَر الفريقان أعظم صبر. فحَمل تقيّ الدّين من الميمنة على مَنْ يَلِيه مِنهم وأزاحهُم عن مَوَاقفهم، فركِبَ بعضُهم بعضاً لا يُلوي الأخ على أخيه، والتجؤوُا إلى مَنْ يَليهم من أصحابهم. وانْكَشَف نصفُ البَلَد، وملَك تقيّ الدّين مكانهم، ودَخَل المسلمُون البلد وخرجُوا منه، واتصَلت الطريق وزال الحصار. وأدخل السّلطان إلى البلد مَنْ أراد من الرّجال، وما أرادَ من الذَّخائر، والأموال، والسّلاح؛ فكان من جُمْلة من أمره السلطان بالدُّخول إليها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السّمين. وقُتِل من الفرنج في هَذا اليَوْم خلقٌ كثير.

ثم كانت بينهم وقعات في ثامن شعبان، وتَاسِعِه، وعَاشِرِه، وحادي عَشَره، ثمّ كانت وَقْعَةٌ في تاسع عشر شعبان بين أهْل عكّا والعدُوّ فَقُتِل مَن في الطَّائفتين وجُرح.

ثم كانت الوقعة الكبرى في الحَادي والعشرين من شعبانَ وذلك أن الفرنج اجتمعُوا وتشاوَروا، وقالوا إن العسكر المصريّ إلى الآن ما قَدِم وهذا فِعْلُ السّلطان، فكَيْفَ إذَا قدِمت عساكِرُه فأجْمعُوا رأيَهم على مُناجَزَة الحرب. وكانت عساكِرُ السّلطان متفرِّقَةً: منها طائفةٌ من مُقَابلَة أنطاكية تمنعُ صاحبَها من الإغارة على الأعمال الحلبيّة؛ وطائفةٌ على حمص في مُقَابلَة طرابلس؛ وطائفةٌ تقاتِل مَنْ بقي بصُور؛ وطائفةٌ بالدّيار المصرية لحماية ثَغْرَي الإسكندريّة ودمياط، ومَنْ بقِيَ من العسكر المصري إلى الآن لم يَصل؛ وهذا ممّا أطمَع الفرنج في الظّهور.

قال: وأصبح المسلمونَ في هذا اليوم على عادتِهم، منهُم من يتقدَّم إلى القتال

---

(١) صفورية: بفتح أوله وتشديد ثانيه، وواو وراء مهملة، ثم ياء مخففة. كورة وبلدة من نواحي الأردن بالشام وهي قرب طبرية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤١٤.

ومنهم مَنْ هو في خَيْمته، ومنهم من قَدْ توجه في حاجته. فخرج الفرنج مِنْ معَسْكرهم كالجراد المنْتَشِر قد ملؤوا الأرض، فكانت وقعةٌ عظيمة ابتدؤوها على المسلمين، ثم أنزل الله نصره علَيهم، فهزَموا الفرنج أقْبحَ هزيمة، وقُتل منهم من رؤسائِهم عشرة آلاف، وقتل من المسلمين في هَذِه الموقعَة من الغِلْمان ومَنْ لم يعرف مائةٌ وخمسون، ومن المعْروفين الأمير مجلى بن مروان، والظّهير أخو الفقيه عيسى [الهكاري][1]، وكانَ وَالي البيت المقدّس، جَمَعَ العِلْم والدّين والشجاعة، والحاجب خليل الهكّاري، وجمال الدّين بن رَوَاحة الحمويّ، ولم يكن بالمصافّ، وأسِر منَ الفرنج مقدّم الدَّاويّة وكان السّلطان قد أسَره فيما تقدَّم وأطلقه، فقتله الآن.

قال: وأمر السّلطان بجَمْع القَتلى وإلْقَائِهم في النّهر الذي يشرَب منه الفرنج.

قال العمادُ الأصفهاني رحمه الله: ومن العَجب أنّ الذين ثَبتُوا في هذه الوقعة لم يبلغوا ألفاً، ردُّوا مائة ألف، وآتاهم الله قوةً بعد ضعف.

قال ابن الأثير: وأُخِذ في جُملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيّات كنّ يقاتِلْن على الخيل، فلما أُسِرن وأُلقِي عنهنّ السلاح عُرِفن [أنهنّ نساء][2].

ذكر رَحيل السّلطان عَن مَنزلته وتمكّن الفرنج من حصار عكّا

كان رحيلُه في رابع شهْر رمضان من السّنة، وسَبب ذلك أنه لما قُتِل من الفرنج هذه المقتَلَةُ العظيمة جافَت الأرض منهم وتغيُّر الهواء، وحدث للأمزجة فسادٌ، وحصَل للسّلطان مرض القُولَنْج، وكان يَعْتَريه، فأشار عليه الأمراء والأطباء بالانتقال، وقالوا لو أراد الفرنج أن ينصرفوا لما قدَرُوا فإنّا قدْ ضيقنا عليهم؛ والرأي أنْ يَنْتقل عن هذه المنْزِلة، فإن رحَلوا فقد كُفِينا شرَّهم، وإن أقاموا عُدْنا إلى القتال، فوافَقَهم. وكان بئْس الرّأي.

ورحل السّلطان إلى منزلة الخرّوبَة[3]، وكتب إلى أهل عكّا يُعْلِمُهم بسبَب رحيله ويحثّهم على حِفظ البلد وغَلْق أبوابها.

قال: ولما رَحَل السلطان بعسَاكره عن تلك المنْزلة أمِن الفرنج وانْبَسَطُوا وانْبَثُّوا، وعادُوا إلى حصار عكّا في البرّ والبحر، وشرعوا في حَفْر خندقٍ عليهم يكونُ بينهم

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.
(٢) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.
(٣) الخروبة: حصن بسواحل بحر الشام مشرف على عكا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٦٢.

وبين المسلمين إن قَصَدُوهم وعَمِلُوا سُوراً من تُراب، وجاؤوا بما لم يكن في الحُسْبان. هذا والسّلطان قد اشتدَّ به المرض فلم يستَقِل منه إلى أن تكامَل حَفْر الخَنْدق وعمل السّور من ترابه.

ذكر وصول العسكر المصريّ في البر والأسطول في البحر

قال: وفي مُنْتصف شوال سنة خمس وثمانين وصلت العَساكر المصرية ومقدَّمُها الملك العادل سَيْف الدّين. فلما وصلت قويت قلوبُ النَّاس، وأحضر من آلات الحصار شيئاً كثيراً. ثم وصل بعْدَه الأسطول المصري في خَمسين قطعة ومقدَّمهم الأمير حُسَام الدّين لؤلؤ، وكان شَهْماً شجاعاً، مِقْداماً ميمونَ النقيبة، خبيراً بقتال البحر؛ فوصل بغتةً، فوقع على بَطْشَةٍ[١] كبيرة للفرنج، فغَنِمها وأخذَ ما فيها من الأموال الكثيرة والمِيرة، وعَبَر بذلك إلى عكّا؛ فسكنت نفُوس النّاس بذلك. وقال العماد: إنه ظفر ببطشتين[٢].

ذكر خبر ملك الألمان وما كان من أمره إلى نهايته

قال العماد الأصفهاني؛ ونُمِي الخبر بوُصول ملك الألمان[٣] إلى قسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل على قَصْد العُبور إلى بلاد الإسلام. فاستَنْفَر الملكُ الناصر الجيوشَ والعساكر من كلّ جهة، وجهَّز القاضي بهاءَ الدّين شدّاد وأمره بالمسير إلى الدّيوان العزيز ببغداد[٤] وأن يمُرَّ على صاحب سنجار[٥]، وصاحب الموصل[٦]، وصاحب إربل[٧]، ويستدعِيهُم بأنفُسِهم وعساكِرهم.

قال ابن شدّاد: فَسرتُ في حَادي عشر شهر رمضان سنةَ خمس وثمانين

---

(١) بطشة: سطوة. ابن منظور: لسان العرب (بطش).

(٢) انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج٢، ص ٣٠٥.

(٣) هو الامبراطور فردريك بربروسا، الباز العريني: الشرق الأوسط، والحروب الصليبية، ص ٨٨٦.

(٤) كان الناصر لدين الله أبو العباس المتوفى سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ هو الخليفة في تلك الأيام. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٣.

(٥) هو عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود ابن أتابك زنكي تملك حلب بعد ابن عمه الصالح إسماعيل فسار السلطان صلاح الدين فنازله ثم أخذ منه حلب وعوضه بسنجار، توفي سنة ٥٩٤ هـ/ ١١٩٧ م. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣١٦.

(٦) هو السلطان عز الدين مسعود بن مودود بن أتابك زنكي بن أقسنقر، توفي عام ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م. وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٩٧.

(٧) هو زين الدين يوسف بن علي الذي حكم إربل في الفترة من ٥٦٣ ـ ٥٨٦ هـ/ ١١٦٨ ـ ١١٩٠ م. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٣٤٩.

وخمسمائة، وأبلغت الرّسائل، فأجابوا إلى ذلك، فعُدْت في خامس شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين، وسبقت العساكر[١].

ثم وصلت العساكر عند انقضاءَ الشتاء في شهر ربيع الأول وأمده الخليفة بحِمْل من النّفْط الطّيَّار وحِمْلين من القنا، وتَوْقِيعٍ بعشرين ألف دينار يُقْبَض على الدّيوان العزيز من التجار، وخمسةٍ من الزَّرَّاقين.

وكان العدُوُّ قد اصْطَنَع ثلاثة أبرجَة من الخَشَب والحديد كالجبال وألبَسَها الجلود المسْقَاة بالخل، فيسّر الله تعالى على المسلمين إحْراقها، وذلك في الثَّامن والعشرين من شهر ربيع الأول.

قال: وكان السّلطان قد كَتب إلى مصْر بعمارة الأسطول وإحْضاره إلى عكّا، فوصل في يوم الخميس ثامن الشهر، فكانت الحرْبُ في هذا اليوم في ثلاثة مواضع في البحر، والحصار في البر، وكان النّصر بحَمد الله للمسلمين.

هذا ما كان من أمْر السّلطان لَمَّا بلغه خبرُ ملك الألمان.

وأما ملك الألمان فقال ابنُ الأثير في تاريخه الكامل:

وفي سنة ست وثمانين وخمسمائة خرج ملك الألمان من بلاده، وهم طائفةٌ من الفرنج من أكثرهم عدَداً وأشدّهم بأساً، وكان قد أزعَجَهُ ملك المسلمين البيْت المقدّس، فجمعَ عسَاكِره وسارَ بهم، وطريقُه في مسيره على القسطَنْطِينِيّة. فأرْسل ملكُ الرّوم[٢] بخبره إلى السّلطان، ووعده أنّه لا يمكّنُه من العبُور إلى بلاده. فلمّا وصل ملك الألمان إلى القسْطَنْطَينيّة عَجَزَ ملكُها عن مَنْعه من العُبور لكثرة جُموعه، لكنّه مَنَع عنهم المِيرة، فقلَّت أزْوادُه؛ وسارُوا حَتّى عبروا خليج القسطنطينيّة، وصارُوا على أرض بلاد الإسلام، وهي مملكةُ الملك قِلِج أرسلان بن مَسْعُود السلجقي[٣]. فلمّا وصلُوا إلى أوائلها ثارَ عليهم التُّرْكمان [فما زالوا][٤] يسايِرُونَهم، فيقتلون من انْفَرد منهم ويَسْرقون ما قَدَروا عليه؛ فنالهم لذلك مشقّةٌ عظيمة، وهلك كثير منهم من الجُوع والبَرْد وكثرة الثّلوج.

فلمّا قارَبُوا مدينة قُونْيَة خرج إليهم الملك قُطْب الدين ملكشَاه بن قِلِج أرسلان

(١) انظر النوادر السلطانية لسليمان، ص ١١٥.

(٢) هو إسحاق الثاني أنجليوس تولى عرش الدولة البيزنطية سنة ١١٨٥ م وبقي إلى سنة ١١٩٥ م. رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٨٥١.

(٣) هو قليج أرسلان بن مسعود عز الدين، توفي سنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م، سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٣٢١.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق من الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٤٨.

[ليمنعهم][(١)] فعَجَز عن ذلك، فعاد إلى قُونيةَ، فأسرعُوا السّير في أثرِه فنَازَلُوا قونية وأرسلوا إليه هدية وطلبوا منه أنْ يأذَن للرّعية في بَيْع الأقوات عليهم، فأذِن في ذلك.

وطلَبُوا من الملك قطب الدّين أنْ يأمُر رعيَّته بالكَفِّ عنهم وأنْ يجهِّز معَهُم جماعةً من أمرائه رهائنَ، فخافهم، وسلّم إليهم نيّفاً وعشرين أميراً كان يكرهُهم. فسارُوا بهم مَعَهُم، ولم يَمتنع اللّصُوص وغيرُهم من أذاهم؛ فقَبَض ملكُ الألمان على مَنْ معه من الأمراء وقيَّدهم، فمنهم مَنْ مات في أسره ومنهم من فَدَى نفسه[(٢)].

قال ابنُ شدّاد: وأعْوَزَهم الزّاد وعَراهم جُوعٌ عظيم، وعَجِزوا عن حمل أقْمِشَتهم، فجمعوا عُدَداً كثيرةً وسِلاحاً وجعَلُوا ذلك بَيْدَراً[(٣)] وأضْرمُوا فيه النّار، لعجزهم عن حَمْله، ولئَلاّ ينتفع به غيرهم.

قال: وبقيت بَعْد ذلك رابيةٌ من حديد[(٤)].

قال ابن الأثير: ثمّ سار إلى أن أتى إلى بلاد الأرمن، وصاحبها يومئذ لافون[(٥)] ابن اصطفانة بن ليون الأرمني، فأمدّهم بالأقوات والعُلُوفات، وحَكَّمهُم في بلاده، وأظْهر الطّاعة لهم. ثمّ سار إلى أنطاكيّة، وكان في طَريقهم نهرٌ فنزلوا عندَهُ، وعَبَر ملكُهم إليه ليغْتَسِل فيه، فغرق في مكان لا يَبْلُغ الماءُ وسطَ الرّجل فيه. وكفَى الله شرّه[(٦)].

وقال ابنُ شدّاد: إنّه لمَّا وصل إلى طرسوس سَبَح في النّهر فمرِض من شدَّة بَرْد الماء فمات؛ ولمَّا مات سَلَقُوه في خلٍّ وجمَعُوا عِظامَه في كيس ليحملوها إلى القُدْس ويدفنوها به[(٧)].

قال ابن الأثير: وكان معه ولدٌ كبير فملك بعْدَه وسار إلى أنطاكية، فاختلف أصحابُه عليه؛ وأحبّ بعضُهم العَوْد إلى بلادهه فتخلّف عنه، ومال بعضُهم إلى تمليك أخٍ له فعاد أيضاً. وسارَ هُو فيمَنْ بَقِيَ معَهُ، فعرَضهُم، وكانوا نيّفاً وأربعين ألفاً وقع فيهم الوَباء والموت، فوصَلُوا إلى أنطاكية وكأنّهم قد نُبِشُوا من القبور فتبرَّم بهم صاحبُها وحسَّن لهم المسير إلى عكّا. فسارُوا على اللاذقيّة وجَبَلَة وغيرهما من البلاد التي ملكها

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٤٨.
(٢) التفصيل في الكامل لابن الأثير، ج ١٢ ص ٤٨ ـ ٤٩.
(٣) البيدر: الجرن. ابن منظور: لسان العرب (بدر).
(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢٣.
(٥) هو ليو الثاني بن سديفاني بن ليو الأول، رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.
(٦) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٤٩.
(٧) انظر: النوادر السلطانية لابن شداد، ص ١١٣ ـ ١٢٤.

المسلمون؛ وخرج أهل حلب وغيرها إليهم وأَسَرُوا منهم خلقاً كثيراً، ومات أكثر مِمّن أسر[١].

قال: وبلغوا إلى طرابلس وأقاموا بها أيّاماً فكثُر فيهم الموتُ، فلم يَبْقَ منهم إلاّ نحو ألف رجل، فركبوا في البحر إلى الفرنج الذين على عكّا.

ولمَّا وصلُوا ورَأوْا ما نالهم في طرِيقِهم وما هُمْ فيه من الاخْتلاف عادوا إلى بلادهم، فغَرِقت بهم المرَاكب، فلم ينْجُ منهم أحد[٢].

وقال ابن شدّاد: إنّهم لمَّا وصلوا إلى أنطاكية طلب ابنُ ملِكهم من صاحِبها قَلْعتها لينقل إليها أموالَه وخزائنه وأثقاله، فسلّمها إليه طمعاً في ماله، وكان كذلك؛ فإنّه لم يعُدْ إليه واستولَى الإبرنس على ما فيها[٣].

قال: وجاءت فرقةٌ منهم إلى حصن بغراس وظنُّوا أنَّه للفرنج، ففتح لهم وَالِي الحِصْن الباب وتسلّم منهم الأموال، وأسَرَ جماعةً منهم وقتل. وخرج إليهم العسْكر الحلبيّ فقَتَلَ منهم وأسر. ثمّ أخَذَ مَنْ بقي منهم على طرِيق طرابلس فخرج عليهم مَنْ باللاذقية وجبلة، فقتلوا منهم وأسروا.

ثم ركب ملك الألمان في البحر من طرابلس بمَنْ بقي معه لِقَصْد عكّا، في أواخر شعبان، فثارت عليهم ريحٌ كسرت منهم ثلاثَ مراكب، ووصل الباقون إلى صُور ثمّ إلى عكا في سادس شهر رمضان سنة ستٍّ وثمانين؛ وكان لِقُدومهم وقْعٌ عظيم[٤].

وسيأتي ذكرُ ما تجدّد بعد وصولهم إلى عكّا إن شاء الله تعالى. فلنذكر ما كان قبل وُصُولهم من الوقائِع.

ذكر الوقْعَة العادليّة على عكّا

كانت هذه الوقعة في يَوْم الأربعاء العشرين من جُمادى الأولى سنةَ ستٍّ وثمانين.

قال ابن شدّاد: لمَّا بلغ السّلطان وُصُول ملك الألمان إلى بلاد الأرْمنِ جهَّز بعض العساكر إلى البلاد المُتَاخمة لطريق عَسْكَر العدوّ، وتقدَّم أمْرُه بهَدْم سور طبريّة وهدْم يَافا وأرْسُوف وقيْساريّة، وهَدْم سور صَيْدا وجُبَيْل ونَقْل أهلها إلى بيروت. فلمّا علِم الفرنج أنّ العساكر قد تفرَّقت نهضُوا لِلْقتال بغتَةً وهجموا على المَيْمَنة وفيها مخيَّم

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٤٩.
(٢) انظر التفاصيل في الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٥٠.
(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٣٦.
(٤) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

الملك العادل، فلما بَصُرَ بهم ركب فيمن معه، وتلاحَقَت به العَساكر، واقْتَتلوا، فكانت من أعْظم الوقَائِع، قُتل فيها خلقٌ كثير من الفرنج.

قال: ولقد خُضْت في الدّماء بدابّتي واجتهدت أن أعدّهم فما قدرت على ذلك لكَثْرتهم وتفرُّقهم؛ وشاهدتُ منهم امرأتين مقتولتين. وكانت هذه الوَقْعَة فيما بين الظّهر والعصر في الميمنة وبَعْضِ القلب، ولم نفقد من المسلمين فيها غير عشرة غير معروفين[١].

قال: ولمَّا أخبر من بعكّا من المسلمين بهذه الوقعة خرجوا إلى مخيَّم العدوّ من البلد، وجَرَى بينهم مقتَلَةٌ عظيمة انتصرَ فيها المسلمون، ونهبّوا ما كان بخيام الفرنج من الأقمشة وغيرها، حتى الطّعام الذي في القُدُور، وسَبوا النّساء.

قال: واختلف النّاس في عَدَد من قُتِل من الفرنج في هذه الوَقْعة، فقيل ثمانية آلاف، وقيل سبعة آلاف، ولم ينقصهم حَازِرٌ عن خمسة آلاف[٢].

ذكر وصول الكندهري إلى عكّا نجدة للفرنج وما جدّده من آلة الحصار

قال: ثمّ وصل الكندهري[٣] في البحر نجدةً للفرنج في عَددٍ كثير أضعاف ما نقص منهم، ففرّق الأموال واستخدم؛ ونَصب المجانيق على عكا فحرَقها المسلمون؛ ثمّ نصب منجنيقين فأُحْرِقا في أوّل شعبان، وكان قد أُنْفِق عليهما ألفُ دينار وخَمسمائة دينار، وأُسِر من الفرنج سبعون في هذا اليوم ومن جُمْلَتهم فارس كبير عندهم فقتله المسلمون.

ثمّ جهّز الفرنج بُطَشاً لمحاصرة بُرْج الذبان[٤]، وهو برج في وسَطِ البحر على باب ميناء عكّا، فعمدُوا إلى بَطْشة من البُطش وعملوا بُرْجاً على صَارِيها وملؤوه حطَباً ونَفطاً على أنهم يُلْحقون البطشة ببُرج الذّبان، ثمّ يُحرقون البرج الذي على الصّاري. وجعلوا في البطشة وَقُوداً كثيراً حتّى يُلْقُوه في البرج إذا اشتَعلت فيه النّيران. وعبؤوا

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢٩.
(٢) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ١٣٠.
(٣) هو ابن أخي ملك فرنسا، هنري تروي كونت شامبانيا. الباز العريني الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص ٩١٢.
(٤) برج الذبان: في وسط البحر على صخر، على باب مينا عكا لحراسة المينا من الأعداء. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٣٥.

بطشةً ثانيةً وملؤوها حطباً على أنّها تدخل بين المراكب الإسلاميّة ثم يلهبونها فتحترق هي والبطش الإسلاميّة وجعلوا في بطشةٍ ثالثة جماعةً من المُقَاتلة. وقدّموا البطشة نحو البرج، وكان الهواء مُسْعداً لهم، فلمّا أحرقوا البطشة والبُرج الذّي قصدوا بهما إحراق بُطش المسلمين وبُرج الذّبان انعكس الهواء عليهم بإذن الله تعالى، فاحترقت البَطْشتان، وانتقلت الثالثة بِمَنْ فيها من المقاتِلة. والله أعلم[١].

ذكر ما كان من أمر الفرنج بعد وُصول ابن ملك الألمان إلى عكّا وما اتّخذوه من آلات الحصار

قال: ولمَّا وصَل ابنُ ملك الألمان القائم في الملك بعد أبيه إلى عكّا كان وصُوله إليها في سادس شهر رَمضان سنةَ ستّ وثمانين وخمسمائة. فكان أول من بدأ به أنَّه خرج إلى يَزَكِيَّةِ السّلطان، وقاتَلهم، فقُتل من أصحابه وجُرح خلقٌ كثير، وانكَسَروا ورَجَعُوا إلى المخيَّم غروبَ الشّمس من ذلك اليوم؛ وقُتل من المسلمين اثنان وجُرح جماعة. فلمّا عايَنَ ذلك رجع إلى قتال مَنْ في البلد، واتَّخذ من آلات الحصار ما لم يُرَ قبل ذلك مثله، فكان ممَّا أحدثه آلة عظيمة تسمّى دبّابة يَدْخُل من تحتها المقاتِلَة، وهي من الخشب الملبَّس بصفائِح الحديد، ولها مِنْ تحتها عجلٌ يحرَّكُ من داخلها حتى تَنْطَح السُّور بشدّةٍ عظيمة فتهدمه بتكْرَار نَطْحها، وآلة آخرى وهي قبو فيه رجالٌ تسحَبُه وفيه كَبْشٌ، ورأس تلك الآلة ممدة شبه سكَّة المحراث، ورأس الكبش مدَوَّر، هذا يهدِم بثِقَلِه، وتِلك تهدم بحدَّتها وثِقَلها، وهي تسمَّى سفوداً، وأعد السّتائِر[٢] والسّلاليم وغير ذلك؛ وأعدّ في البحر بَطشةً عظيمةً وصنع فيها بُرْجاً بخُرطوم إذا أرَادُوا قلبه على السّور بحرَكَةٍ انقلب بحِركات ويُبْقي طريقاً إلى المكان الذي ينقلبُ عليه تَمْشِي عليها المُقَاتَلة، ونصب المجانيق وحكّمها على السّور، وتوالت حِجارَتُها حتى أثّرت فيها أثراً بَيِّناً فأخذ المسلمون سهْمَيْن عظيمين من سِهام الجُروحْ وأحْرَقُوا نِصَالهما حتَّى بقيَا كالشُّعلة من النّار ثم رُمِيا في منجنيق الفرنج فاحترق، واتّصل لهبُه بالآخر فأحْرَقه.

ثمّ زحف العدوّ على البلد في شهر رَمَضان في خلْق كثير، فأمهلهم أهل البلد حتى سحبوا آلتهم المذكُورَة وقارَبُوا أنْ يُلصقُوها بالسّور ويَحصُل منهم في الخَندق جماعةٌ كثيرة، فأطلقوا عليهم الجُروخ والمجانيق والسِّهام والنيران، وفتحوا الأبواب

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٣٥.

(٢) ستارة: وهي من الجلود واللباد. وتحمي السفن قذائف النفط. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٠٣، حاشية (٥).

وهجموا على العدوّ من كل مكان، وكبسُوهم في الخَنْدق، فانْهزَموا؛ ووَقَع السّيف فيمَن بَقِي في الخَنْدق منهُم. ثم ألْقَوْا النّار في كَبْشِهم، فاحترقَ، وسَرَت نارُه إلى السّفود فاحترق أيضاً، وعلّق المسلمُون في الكَبْش الكَلاَلِيب الحديد فسحبُوه وهو يَشْتَعِل، فحصل عندهم، فأطفؤوه بالماء، ووُزِن ما كان عليه من الحديد فكان مائةَ قنطار بالشّامي فكان هذا اليومُ من أحْسَن أيام الإسلام.

قال: واستأنَفَ الفرنج عَمَل دبابة أخرى وفي رأسِها شكْلٌ عظيم يُقال له الكَبْش، وله قَرْنَان في طُول الرُّمح كالعُمُد الغلاظ، وسقّوفها هي والكبش بأعمدة الحديد، ولَبَّسُوا رأس الكَبْش بعد الحَدِيد بالنّحاس، فلم يَبْق للنار عليها سبيل؛ وشحنُوها بالرّجال. فنصَب المسلمون عليها المجَانيق ورمَوْها بالحجارة، فأبعدت الرّجال من حولها، ثمَّ رمَوْها بحُزَم الحَطب فأحرَقوا ما بين القرْنَين، وخَسَفَها المنجنيق، وخرج أهل عكّا فقطعُوا رأس الكبشين.

قال: وفي العشر الأوسَط من شهر رَمَضان ألقَتْ الرّيح بَطْشَتين فيهمَا رجَالٌ ونساءٌ وصبيانٌ، وميرَةٌ عظيمة وأغنام، فغنِمهما المسْلمون[1].

وكان في إحداهما امرأةٌ محتَشِمةٌ كثيرةُ الأموال؛ واجْتَهَد الفرنج في اسْتِنْقَاذها فلم يُجَابُوا لِذلك.

وكان بينهُم في بقيَّة السّنة عدّةُ وقائع يطول شرحها.

وفي سابع ذي الحجَّة هُدِمَت قطعةٌ عظيمةٌ من سُور عكَّا فسدَّها المسلمون وقاتلُوا عليها قتالاً شديداً حتى أحْكَموا بناءَها.

وفي ثاني ذي الحجّة هلك ابنُ ملك الألمان وكند كبيرٌ، ومرض الكندهري، ووقع فيهم فناءٌ عظيم. والله أعلم.

ذكر وصول ملك افرنسيس

كان وصولُه في ثاني عشر شهر ربيع الأوّل سنةَ سبع وثمانين وخمسمائة في ستّ بُطَش عظام مشحُونة بالمقاتلة؛ وكان مَلِكاً مُطَاعاً فيهم، ووَعَدهم بالأمداد خلفه، وكان معه بَاز عظَيمُ الخَلق أبيضُ اللّون، فطَار مِنْ يَدِه وسَقَط على سُور عكّا، فأخذَه المسلمون وأنْفَذُوه إلى السّلطان؛ فبَذَل الفرنج فيه ألفَ دينار فلم يُجَابوا لذلك.

قال: وزحف الفرنج على عكّا في يوم الخميس الرّابع من جُمادى الأولى سنةَ

---

(١) ما زال النويري يأخذ عن ابن شداد في النوادر السلطانية، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

سبع وثمانين، ونصبُوا عليها سبْعَةَ مجانيق. وبلغ من مُضَايقتهم لها أنّهم كانوا يُلْقُون في خنْدَقِها ما يموت من دوابّهم وما يُؤْيَس منه ممّن أثْخنَتْه الجراح. وانْقسَم أهلُ البلد أقساماً: قسم يَنْزلون إلى الخَندق ويقطعُون الدّواب ليسهُل نقلُها، وقسمٌ ينقلون ذلك إلى البحر، وقسم يذبُّون عنهم، وقسمٌ من المنجنيقّات وحراسَة الأسوار.

قال: وكانوا قد صنَعوا دبَّابَةً عظيمةً أربع طبقات، الأولى من الخَشب، والثّانية من الرّصاص، والثّالثة من الحديد، والرّابعة من النّحاس؛ فكانت تعلُو على السُّور وتركَبُ فيها المقاتلَةُ؛ وقرَّبُوها من السّور فكَادَ أهلُ البلد يطلبُون الأمان؛ فأعَانَ الله على حرْقها.

وكان في جُمادى الأولى عدَّة وقَعَات.

قال: ولمَّا حُرِقت دبَّابات الفرنج وكِبَاشُهم وأبرجَتهم الخشب وستائرُهم أقامُوا أمَام خيامهم ممّا يلي عكَّا تلاً مُستيطلاً عالياً من التُّراب، فكانُوا يقفون وراءَه ويحوّلونه ليقرّبُوه من السّور؛ إلى أنّ صارَ بينه وبين السُّور مقدارُ نصف غلْوَة سهم. فلَمْ تعْمَل فيه النّار.

ذكر وصول ملك الإنكلتير

كان وصولُه إلى عكّا في ثالث عشَر جمادى الأولى من السّنَة[1] بعد أن ملك في مسيره قبرص عنوةً؛ ووَصَل في أربعين قطعة. ولمَّا قدِم توالَى الزّحفُ والقتال. ثمّ مَرِضَ مرضاً شديداً وجُرِح الإفرنسيس، وهم مع ذلك لا يَدَعُون القتالَ. هذا واللُّصُوصُ يَدخلون عليهم في خِيامهم ويَسْرقون أقمشتهم ويخطَفونهم، فكانُوا يَدْخلون على الرَّجُل من الفرنج وهو نائم فيُوقظونه، ويُشيرون إليه بالسِّلاح: إنْ تكلّمت ذبحناك، ويحملُونه ويخرجُون به إلى عسكر المسلمين. فعلُوا ذلك مراراً كثيرةً.

قال: ثمّ تردَّدت الرّسائل من الفرنج إلى السُّلطان مدافعةً بسبب مَرَض الإنكلتير؛ ثم استأذن في إهْدَاءِ جوارح، وقال إنّها قد ضعُفَت وتغيَّرت من البحر، وطلب أن يُسيَّر لها دجاجٌ وطيْرٌ تأكله لتَقْوَى به ثمّ يهدى للسّلطان. ففَهِم السُّلطان أنّه يحتاجُ ذلك لنَفسه لأنّه حديثُ عَهدٍ بمَرض، فسيّرَ إليه ذلك. ثمّ أرسل في طَلَب فاكهةٍ وثَلْج، فأرسل إليه. وهم مع ذَلك يُحَاصرون البَلَد أشدّ حصار[2].

---

(١) وصل الملك رتشارد قلب الأسد في ٧ يونيه ١١٩١ م. الباز العريني الشرق الأوسط، والحروب الصليبية، ص ٩٢٢.

(٢) انظر مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٥٥.

ذكر استيلاء الفرنج على عكّا

قال: ثمّ اشتدّ الحصارُ في سابع جُمادى الآخرة، فركب السّلطان بالعَسْكَر وجرَى قتالٌ عظيم إلى اللّيل، ولم يَطْعَم في ذلك اليوم؛ ولمَّا حَالَ بينهُما اللّيل عادَ إلى خيامه. ثمّ بَاكَرَ القِتال، فوصَلت مُطالَعَةٌ مَنْ بالبلد يذكُرون أنّ العَجز قد بلَغ بهم الغاية، وأنّهم في الغد مَتَى لم يُعْمَل ما يمنعُ العدوَّ طلبُوا الأمان وسلّموا البلد. فرأى السّلطان مهاجمة العدُوّ، فلم يساعِدْهُ العسكر. فضعُفَت نفوسُ أهل البلد، وتمكّن العدوُّ من الخنادق فملكوها، ونقَبوا السّور وأحْرقُوه، فوقعت بدَنَةٌ من البَاشورة، ودخلَ العدوّ إليها، فقتل منها زهاء مائةٍ وخمسين نفساً؛ وكان منهمُ ستّة من أكابرهم، فقال أحدُهم: لا تقتُلوني حتى أرحِّل الفرنج عنكم فقُتل رجلٌ من الأكراد، وقُتل الخمسة، فناداهُم الفرنج من الغَد احْفَظُوا السّتَّة فإنّا نطلقُكم كلُّكم بهم. فقالوا: قدْ قتلناهم. فقَوي عزمُ الفرنج على عَدم المصَالحة وأنّهم لا يُطلِقون مَنْ في البلد إلا بإطْلاق جميع الأسرى الذين في أيدي المسلمين، وتُعادُ إليهم البلاد السّاحِليّة.

فصالحهم مَنْ بالبلد على أنّهم يسلّمون إليهم البلد وجميعَ ما فيه من الآلات والعُدَد والمراكب، ومائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير مَجَاهيل الأحوال، ومائة أسير مُعَيَّنين، وصليب الصَّلَبُوت؛ على أنهم يخرجون بأنفسهم ونِسائهم وذَرَاريهم، ومَا مَعَهم من أموالهم وأقمشتهم.

فكتبوا في ذلك إلى السُّلطان، فأنكر هذا الأمْر واستَعْظَمه؛ وعزم على أنْ يكتُب بالإنكَار عَلى مَنْ بعكّا، وجمع أمراءه وأصحاب المشُورة، فما شعَر المسلمون إلا وقدْ ارتفعت أعلامُ الكُفر وصُلْبانُه على أسوار البلد؛ وذلك ظُهر نهار الجمعة السّابع عشر من جُمادى الآخرة، سنة سبعٍ وثمانين وخمسمائة.

فعظُمت المصيبةُ على المسلمين وتحيَّز المسلمون إلى بعض أطراف البلد. ثم تردّدت الرّسائل بينهُما على تقرير القاعدة في خَلاصِ مَنْ بعكّا من المسلمين، فاستقَرَّت الحالُ على مائة ألف دينار وستّمائة أسير وصَليب الصّلبوت. وأنْفذُوا ثقاتِهم وعاينُوا الصّليب في ثامن عشر شهر رجَب؛ ثم طلبوا أن يسلّم ذلك إليهم فإذا صار عنْدَهم أطلقوا الأسرى؛ فامتنع السّلطانُ من ذلك إلا بعد تسْليم الأسْرى.

فلمّا رأوه قد امتنع منهُ أخرجُوا خيامَهم إلى ظاهر الخنَادق في الحادي والعشرين منَ الشّهرِ؛ ثمّ ركِبُوا في وَقت العَصْر في اليوم[1] السّابع والعشرين من شهر رجَب سنةَ

---

(١) «الثلاثاء السابع والعشرين من شهر رجب» في الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٦٨.

سبع وثمانين، وجمعُوا الأسْرى، وحملُوا عليهم حَمْلة الرّجل الواحد، فقتلُوهم صبراً، ولعناً بالرّمح وضرباً بالسّيف، رحمة الله عليهم؛ ولم يُبْقوا من المسلمين إلاّ أكابرهم. فلمّا اتّصل الخبر بالسّلطان حَمل المسلمُون عليهم. وجَرَت بينهم حربٌ عظيمةٌ دام القتالُ فيها طول النّهار. وتصرّف السّلطان فيما كان قد حصّله من المال، وأعاد الأسرى إلى أماكنهم، وردّ صَليب الصَّلبُوت إلى مكانه[(١)].

ذكر ما كان بعد أخْذِهم عكّا

قال: ثمّ سار الفرنج إلى صَوْب عسقلان في مستهل شعبان، وسار السّلطان في عراضهم، والمسلمون يتخطَّفُونهم ويقتلون منهم ويأسرون؛ وكلّ أسير جيءَ به إلى السّلطان أمر بقتله. ثمّ كانت وقعةٌ عظيمة في تاسعِ شعبان عند رَحيلهم من قَيْسَاريّة، انتصر فيها المسلمون. ثمّ رحل السّلطان فنزل شعراء أرْسُوف. وطلب ملكُ الإنكلتير الاجتماع بالمَلك العَادل خلوةً، فاجتمعا، فأشار بالصُّلح. وكان حاصلُ كلامه أنّه قد طال بيننا القتال ونحن في نُصرة فرنج السّاحل، ورأيي الصّلح ويرجعُ كلٌّ منا إلى مكانه. فقال له الملك العادل: على ماذا يكون الصُّلح؟ قال: على أن تسلّموا لأهل السّاحل ما أُخذ منهم من البلاد. فأبى الملكُ العادل[(٢)].

ثم كانت وقعة أرْسُوف في يوم السّبت رابع عشر شعبان؛ وكانت الدائرة فيها على الفرنج[(٣)].

ذكر هدم عسقلان

قال: ثمّ رحل السّلطان بعد وَقْعة أرسُوف في تاسع عشر شعبان، ونزل بالرّملة، واستشار أصحابه في أمْر عسقلان، فأشاروا عليه بتَخْريبها خشْيَة أنْ يستوليَ العدوُّ عليها وهي عامرة، فتكونَ سبَباً لأخْذ البَيْت المقدّس وقَطْعِ طريق مصر. فعَلِم السّلطان عجْزَ المُسْلِمين عن حِفْظها لِقُرب عهدِهِم بقتال عكّا؛ فسارَ حتى أتى عَسْقلان، وأمر بتخريبها، وكان هُوَ وَوَلَدُه الملك الأفضل يستعملان النَّاس في الخَراب خشية من حُضور العدُوّ فيتعذّر هدمُها، ثمَّ حَرَقها بالنّار؛ والأخبار تَتواتَرُ من جهة العدوِّ بِعمارة يَافا، واستمرَّ الخرابُ والحريقُ إلى سَلْخ شعبان[(٤)].

---

(١) «إلى دمشق» في الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٦٨.
(٢) انظر النوادر السلطانية لابن شداد، ص ١٨٢.
(٣) انظر تفاصيل ذلك في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ٣٦٧.
(٤) عن الخراب الذي حصل في عسقلان انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٤٢ ـ ٤٣.

ثمّ رحل السّلطان عنها يومَ الثّلاثاء، ثاني شهر رمضان فنزل على الرَّملة يوم الأربعاء، وأمَرَ بتخريب حِصْنها وتخريب كنيسة لدّ. وركَب جريدةً إلى القُدس الشريف، فوصل إليه في يَوْم الخميس.

وفي يوم الجمعة ثاني عشر شهر رَمضان من السّنة كانت بينَهُم وقعةٌ انتصر فيها المسلمُون.

قال: ثمّ سار السّلطان إلى الرّملة في سابع شوّال وأقام بها عشرين يوماً، فجرت وقعاتٌ: منها وَقْعَةٌ في ثامن شوّال، وفي سادس عشره، والدّائرة فيها على العدو.

وفي ثامن عشر شوّال اجتَمع الملكُ العادل والإنكلتير على طعامٍ وانْفَصَلا[١] على توادُد، وسأله الاجتماعَ بالسّلطان فامْتَنَعَ السّلطان من ذلك.

ثمّ رحل الفرنج في ثالث ذي القَعدة إلى الرَّملة، وأظهرُوا قَصْد بيت المقْدِس والحربُ مستمرَّةٌ بين المسلمين وبينهم، ورَحَل السّلطان إلى القُدس في الثّالث والعشرين من ذي القَعدة بنيّة المقام به، وشرع في تحصينه.

ذكر وقوع الصُّلح والهُدْنة العامّة بين المسلمين والفرنج

قال: ولم تزل الحربُ قائمةً والمراسلاتُ متّصلةً بينهُم على طلب الصُّلح، والسّلطان لا يرضى بما يختارُونه، وهم لا يُوافِقون على ما يُريدُه السّلطان، إلى الحَادي والعشرين من شَعبان سنةَ ثمانٍ وثمانين وخمسمائة، فوُقِّعَت هدنةٌ عامّة في البرّ والبحر، وجُعِل لهم من يَافَا إلى قَيْسَارِية إلى عكّا إلى صُور، وأدخَلوا في الصُّلح طرابلس وأنطاكية. وأُخْرِج من عمل يافا الرَّملة ومَجْدَل يَابَا[٢] من عَمل عكّا الناصرة وصفُّورِيّة واشْتُرِط خرابُ عسقلان. ووقعت المصالحة مدَّةَ ثلاثِ سنين وثلاثةِ أشهر[٣]، أوّلها مُبتدأ أيلُول الموافق لهذا التّاريخ، وذلك بعد سؤال ملك الإنكلتير وتكرار رَسَائله.

قال: ثمّ أمر السُّلطان أنْ يُنادَى في الطُّرقات والأَسْواق: ألاَ إنّ الصّلح قد انتظَم[٤]،

(١) «وانفصلوا» في الأصل والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) مجدليابة: بعد اللام ياء مثناة من تحتها، وبعد الألف باء موحدة، قرية قرب الرملة فيها حصن محكم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٥٧.

(٣) في الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٨٥ «وثمانية أشهر». وكانت مدة الهدنة ثلاثة سنوات، وقيل ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، وقيل ثلاث سنوات وثمانية أشهر وقيل خمس سنوات. انظر شفاء القلوب لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، ص ١٧٧. والحروب الصليبية كما رآها العرب لأمين المعلوف ص ٢٩٨.

(٤) تتضمن الصلح أن تكون البلاد الجبلية للمسلمين والساحلية للفرنجة فيما عدا صيدا وبيروت وجبيل =

فمَن شاء مِنْ بلادنا يدخُل بلادَهم ومَن شاء من بلادِهم يدخل بلادَنا فليفعل.

وَوَقع له عزمُ الحجّ في ذلك المجلس.

ثمّ أمرَ بإرْسَال مائة نقَّاب لتخريب سُور عسْقَلان وإخْرَاج الفرنج منها، فخرّبت. وكان يومُ الصّلح يوماً مشهوداً واختلطَ العسكران.

ثمّ اشتَدّ المرضُ بالإنكلتير فرحل ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شعْبَان وسار معه الكندهري إلى جهَة عكّا، ولم يبْق بيافا إلا مريضٌ أو عاجز. ثم أُذِن السّلطان للنّاس في الرُّجوع إلى أوطانهم، فسار عسكرُ إرْبِل والموْصِل وسِنجَار؛ وقوي عزمُه على الحج.

ثم عاد السّلطان إلى القُدْس ورتّب أحواله وعَيَّن الكنيسة التي في شارع قمامة للبيمارسْتان ونقل إليه العقاقير والأدوية؛ وأدار سُور القدس. وأقام بالقُدس إلى يَوم الأربعاء رابعِ شوال، وخرجَ في يوم الخميس خامس الشهر قاصداً دمشق. فلمّا انتهى إلى طبريَّة وصل إليه بهاءُ الدين قراقوش الأسدي[(١)] وقَدْ خلص من الأسْر، فاستَصْحَبه معه وكَشَف القلاعَ والحصُون، ودخل إلى دمشق في يوم الاثنين السادس عشر من شوَّال سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة؛ وجَلَس النّاس يوم الخميس؛ وأنشده الشّعراء؛ وكان مجلساً عامًّا، وعمّ النَّاس فيه بعَدْله. ولم يَزَلْ كذلك إلى أن مات، رحمه الله تعالى.

ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب

كانت وفاتُه رحمه الله تعالى بعدَ صلاة الصُّبح يومَ الأربعاء لثلاثٍ بقِين من صَفَر سنة تسعٍ وثمانين وخمسمائة[(٢)].

وكان مولدُه بقلعة تكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة؛ فكان عمرُه سبعاً وخمسين سنةً تقريباً. ومدّةُ ملكه منذ وَلِيَ وزَارة العاضد لدِين الله ولُقّب بالملك النّاصر لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة سنة أربعٍ وستين وخمسمائة وإلى هذا التّاريخ أربعاً وعشرين سنة وثمانيةَ أشهر وخمسة أيام؛ ومَنذُ خُلع العاضِدُ في سابع المحرّم سنة سبعٍ وستّين وخمسمائة اثنتين وعشرين سنةً وشهراً واحداً وعشرين يوماً.

= وأصبحت عكا قاعدة مملكة أورشليم. وبقيت المقدس في أيدي المسلمين. وانتهت مدة الهدنة بين المسلمين والفرنجة عام ١١٩٥ م. انظر الحروب الصليبية لسيد علي الحريري ص ١٧١ ـ ١٩٦.

(١) هو الأمير بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدي الخادم الخصي المنسوب إليه حارة بهاء الدين بالقاهرة داخل باب الفتوح، والذي بنى قلعة الجبل بالقاهرة، والسور على مصر والقاهرة. توفي سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م.

(٢) انظر قصة وفاته في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٤٨.

وكان ابتداءُ مرضه يومَ السّبت سادس عشر صفر؛ ونالَ المسلمون لوفاته من الألم ما لا يُعبَّر عنه. ولمَّا مات دُفن بقَلْعة دمشق في منزله؛ وما زال ابنهُ الأفضل يتروَّى في مَوضع ينقلُه إليه، فشرع في بِناء تربته عند مسجد الْقَدَم[١] وبنى عنْدَها مدرسَةً للشّافعيّة. وأمر ببناء التّربَة في سنةِ تسعين وخمسمائة؛ فاتّفَقَ وصُولُ ابنه العزيز تلك السّنة من الدِّيار المصريّة للحصار، فخرب ما كان قد ارتفع من البناء. ثمّ أمر بعمارة القبّة في حَدّ جامِع دمشق، فعمرت ونُقل إليها يومَ عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة؛ ومشى الأفضل أمام تابوته وأخرج مِنْ باب القلعة على دَار الحدِيث إلى بَاب البَرِيد[٢]، وأدخل منه إلى الجامع، وصُلِّي عليه قُدّام باب السر، صلّى عليه القاضي محيي الدّين محمّد بن علي بإذن الأفضل. ثم حمل إلى لَحْدِه، وألحدَه الأفضلُ وجلَس في الجامع ثلاثة أيام.

وكان الملكُ النّاصر رحمهُ الله كريماً جواداً شجاعاً، حسن الأخلاق، مضت أكثر أيّامه في الجهاد في سَبيل الله تعالى.

قال ابن شدّاد: لمَّا مات السُّلطان لم يُخَلِّف في خزائنه من الذّهب والفضّة إلا سبعةً وأربعين درهماً ناصريّة وجراماً[٣] واحداً ذهباً صوريًّا، ولم يخلِّف ملكاً في سائر أنواع الأملاك. وحُسِب ما وَهَبه من الخيل في مُدَّة مُقامه على عكًّا فكان تقديرُه اثني عشر ألف رأس؛ ولم يكُنْ لهُ فرسٌ يركبه إلا وهو مَوْهُوب أو موعودٌ به، وصاحبُه يلازمُه في طلبه؛ وما حضَر اللقاء إلا اسْتَعَار فرساً فركبه. وكان لا يلْبسُ إلا ما يحلّ كالكِتان والقُطن والصّوف. وكان له ركعاتٌ يصلِّيها من الليل[٤].

وخلف رحمه الله من الأولاد، على ما نقله العماد الأصفهاني وغيرُه سبعةَ عشر ولداً[٥]: الملك الأفضل نورُ الدّين أبو الحسن علي[٦]، وهو أكبرهم؛ والملك العزيز

---

(١) مسجد القدم: جنوبي الحصباء بدمشق، وهو من الآثار التي في مدينة دمشق وغوطتها، ويقال: إن هناك قبر موسى بن عمران ومسجد الباب الشرقي. انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر للشيخ عبد القادر بدران. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١١٤، حاشية (٣).

(٢) باب البريد: أحد أبواب دمشق. يقال إن جيرون وبريدا كانا أخوين وهما ابنا سعد بن لقمان بن عاد. وهما اللذان بنيا دمشق وبهما يعرف باب جيرون وباب بريد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩٢.

(٣) «جرماً واجداً» في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ٤٢٦. انظر أيضاً الفتح القسي في الفتح المقدسي للأصفهاني، ص ٦٢٩ حيث ذكر «ولم يخلف في خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهماً.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٧.

(٥) في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٥٧: كانوا ستة عشر ذكراً وابنة واحدة. في الروضتين لأبي شامة «سبعة عشر ذكراً وبنتاً»، وفي شفاء القلوب للحنبلي «ثمانية عشر وبنتاً».

(٦) ولد بمصر سنة ٥٦٥ هـ يوم عيد الفطر وهو أكبر الأولاد. النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٥٧.

عمادُ الدّين أبُو الفتح عثمان؛ والملك الظاهر غيّاث الدّين، وقيل شهاب الدّين، أبو منصور غازي؛ والملك الظّافر مظفّر الدّين أبو العباس خضر؛ والملك المعز فتح الدّين أبو يعقوب يوسف؛ والملك الأعزّ شرف الدّين أبو يوسف يعقوب والملك المؤيّد نجم الدين أبو الفتح مسعُود؛ والملك الزّاهر مجير الدين أبو سليمان داود؛ والملك الفضّل قطب الدّين أبو محمد موسى؛ والملك الأشرف عزّ الدّين محمد؛ والملك المحسن شهاب الدّين أبو العباس أحمد؛ والملك الجواد ركن الدّين أبو سعيد أيوب؛ والملك المظفّر فخر الدّين أبو منصور تُورَانشاه؛ والملك العادل نور الدّين أبو المظفّر ملكشاه؛ والملك المنصور نُصرة الدّين مروان؛ والملك الصالح معين الدين إسماعيل؛ وعماد الدين شادي، ويسمى عمر(١)؛ وابنة صغيرة(٢).

ذكر من ملك الممالك التي كانت جارية في ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف رحمه الله تعالى من أولاده وإخوته وأقاربه وألزامه بعد وفاته

استَقَرّ ملكُ دمشق وما معَها للملك الأفضل نور الدّين أبي الحسن علي، وهو أكبر أولاده ووليّ عهده، وعنده أخواه شقيقاه الملك الظّافر خضر والملكُ المفضّل مُوسى.

واستقرّ ملكُ الدّيار المصريّة للملك العزيز عماد الدّين أبي الفتح عثمان.

واستقرّ ملكُ حلب وما يَليها للملك الظّاهر غياث الدّين غَازي، وعنده أخوه الملك الزاهر داود، فجعله من قِبَله على البيرة.

واستقرّ ملك حمص والرّحبة وتدمر للملك المجاهد أسَد الدّين شيركُوه بن محمّد بن شيركوه، وهو ولد ابن عمّ السلطان الملك النّاصر.

واستقر ملك حماه وسَلْميّة والمعرّة ومَنْبِج للملك المَنْصُور ناصر الدّين محمّد ابن تقيّ الدين عُمر بن شاهنشاه بن أيّوب.

واستقرّ ملك حرّان والرُّها ومَيَّافَارِقِين والرّقة وقلعة جعبر والكرك والشّوبك للملك العادل سيف الدّين أبي بكر بن أيوب، وهو أخو السّلطان.

---

(١) عن تاريخ ميلاد كل واحد من أولاد السلطان صلاح الدين. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٥٧.

(٢) البنت هي مؤنسة خاتون تزوجها ابن عمها الملك الكامل ابن الملك العادل. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٥٧.

واستقرّ ملك بعلبك للملك الأمجد [بَهْرَامشاه][(١)] بن فَرُّخْشاه بن شاهنشاه بن أيوب.

واستقر ببعْرين وأفامية وكَفَرْطَاب عزّ الدّين [إبراهيم][(٢)] بن شمس الدّين بن المقدّم.

واستقرّ بصهْيُون ناصر الدّين منكورس بن [خمارتكين][(٣)] غلام أبي قبيس.

واستقرّ بتلّ باشر بدر الدّين دُلْدُرم بن ياروق.

واستقرّ بعَيْنْتاب ناصر الدّين شحنة حلب.

هذه الممالك التي كانت جاريةً في ملك السّلطان الملك النّاصر رحمه الله.

فلنذكر الآن أخبار الدّيار المصريّة ومَنْ ملكها بعْدَ وَفاة السّلطان الملك النّاصر، ونجعل ما يقع لهؤلاء المُلوك، أوْ في ممالكهم، من الحَوادث في ضِمْن أخبار مُلوك الدّيار المصريّة؛ وننبّه عليها بالتراجم، على ما نقفُ عليه إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار الملك العزيز عماد الدّين أبي الفتْح عثمان[(٤)] ابن الملك النّاصر صلاح الدّين يوسُف بن أيوب

وهو الثاني من ملوك الدّولة الأيوبية بالدّيار المصريّة ملك الدِّيار المصريّة عندما وصل إليه الخبرُ بوَفاة والدة السّلطان الملك النّاصر، رحمه الله تعالى، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

ولما ملك أحْسَن السيرة وأطلق جميع ما كان يُؤْخذ من التُّجار وغيرهم من المكوس على اسْم الزّكاة. وجهّز إلى البيْت المقدّس عشرة آلاف دينار لتُصْرَفَ في مَصَالحه؛ وأكرمَ أصحابَ أبيه وعامَلَهُم الأفضَل أخوه صاحبُ دمشق بخلاَف ذلك، فمالَت القُلوب إلى الملك العزيز ونَفَرت عن الملك الأفضل، فاستَشْعَر الأفضَلُ من أمرائه، وعَزَم على القَبْض عليهم؛ فبلَغهُم الخبرُ ففارقُوه، واتَّصلُوا بخدمة أخيه الملك العزيز بالدّيَار المصريّة في بقيّة السّنة، فأكرمهم وقرَّبهم، وكان منه ما نذكُره إن شاءَ الله تعالى.

(١) و(٢) و(٣) مما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٤.

(٤) أخباره في: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٥١، ومفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٨٢، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٨، والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، ج ١، ص ٣٧٨ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٣١٩، وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٢٥٠. وخطط المقريزي، ج ٢، ص ٢٣٥. والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ١١٤.

ذكر استيلاء الفرنج على جبيل

كان استيلاؤهم على حصن جُبَيل في مستهَلّ صَفَر سنةَ تِسْعين وخمسمائة بمُواطَأة ممَّنْ كان فيه. وذلك أنّ الحصن كانَ عدَّةُ مَن فيه خمسةَ عشَر رجلاً، فندب متولّي البلد منهُم عشرةً لجباية الجزْيَة، وخرج متولّي الحصن إلى الحمام، فاستصحب أحد الخمْسَة الذين تأخروا بالحِصْن معه، وبقي به أربعةٌ من الأكراد، فأغلقُوا بابَ الحصْن. وتوجّه أحدُهم إلى الفرنج الذين بالتّيرون فأخبرهم بخلُو الحِصْن، وكان به حدَّادٌ نَصراني، فصعد هو والثلاثة إلى أعلى الحصن. فلمّا عادَ الوالي منعُوه من الدّخول ورَمَوْه بالحِجَارة، فكَسَرُوا يده، وقالُوا هذه القلعة قد صارت للقَوْمَص. وجاء أهل التيرون بالليل فطرَدُوا من كان بالباشُورة من المسلمين.

ووصل ابن ريمون أخو صاحب جُبَيل وتحدَّثُوا مع الأكراد، فنزل أحدهم إليهم وقرّر معهم أن يُعطَوا نِصفَ ما بالحصن من سائر الحَواصل وغيرها، وأن تكون لهم ثلاثة ضياع من عَمَل طرابُلس؛ واستحلفهم على ذلك. وتسلّموا الحصْنَ، فرَتَّب الفرنج فيه من الجَرْخيّة[1] ألفاً وخمسين جرخياً[2].

فلما اتّصل الخبرُ بالسّلطان الملك العزيز عظُم عليه، وأخرَجَ خيامه في يوم الأحد العشرين من شهر ربيع الأول، وأمر بالاستعداد للخروج إلى الشام لاستنقاذ جُبَيل من الفرنج، وأرسل شمس الخلافة رسولاً إلى الفرنج بسبب إعادة جبيل فتوجّه في سادس عشر شهر ربيع الآخر.

في سنة تسعين وخمسمائة، لسبع بقينَ من شهر ربيع الأول، عُزل القاضي صدر الدّين بن دِرْبَاس وفُوّضَ القَضاء بالدّيار المصرية للقاضي زين الدّين أبي الحسن علي بن يُوسف بن عبد الله بن رمضان الدّمشقي؛ فوَلِيَ سنةً وعُزل في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، وأعيد القاضي صدر الدّين. وقيل بل وَلِي القاضي محيي الدّين محمّد بن عبد الله بن أبي عصرون، وعُزل في يوم الأحد سادس عشر المحرم سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة. وأعيد القاضي زين الدّين الدّمشقي فولي سنَةً، ثم عزل، وأعيد القاضي صدر الدّين إلى أن توفي في سنة خمس وستمائة والله أعلم.

ذكر مسير الملك العزيز إلى الشام والصّلح بينه وبين أخيه الملك الأفضل وعوده إلى القاهرة

قال: وفي تاسع عشر شهر ربيع الآخر سنةَ تسعين وخمسمائة توجَّه الملكُ العزيز

---

(١) المقصود رماة السلاح.

(٢) رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٧٠، ص ١٧٧.

إلى الشام وترك بالقاهرة من الأمراء بَهاء الدّين قراقوش وصيرهم، وجَهّز ثلاثة عشَر لواءً إلى ثَغْرَي الإسكنْدَريّة ودمياط ومعهُم سبعمائة فارس. واستصْحَبَ معه من الأمراء سبعةً وعشرين أميراً عدتهم تقدير ألفي فارس، ومن الحَلْقة ألف فارس. فلمّا اتصل بالأفضل خروجُه استَعَدّ وأنفق النّفقات الوافرة، وخرج إلى رأس الماء في سبعمائة فارس، ولمّا وصَل الملكُ العزيز إلى الغَوْر احْتاط على الخَاصِّ الأفضل به، وشَرَع في إقْطاع أعمال الشام. وجهّز من أمرائه: قايْمَاز، وعشرين أميراً، منهم جَهَارَكس، وميمون القَصْري، وسُنْقُر الكبير، والشجاع الخادم، والجناح، وجُرْدَيك. فتقدَّمُوا ووقعُوا على أطراف العسْكَر الشّامي، فرجعَ الأفضل إلى دِمَشْق، وغُلِّقت أبوابُ البلد لمّا قربَ العسكر المصريّ منها.

وتقدّم العزيز وترك ثِقَله بمسجد القصب بظاهر دمشق، ونزل هو بالكُسْوة[(١)]؛ فاستَنْجَد الأفضل بعمه الملك العادل فحضر إلى دِمَشق، وحضَر الظّاهر من حَلب، وناصرُ الدّين صاحبُ حماه، وأسد الدّين صاحب حمص، وعسكرُ الموصل وغيره. فلمّا رأى العزيز اجتماعهم علم أنّ لا قُدْرَةَ له بهذا الجمع، وكَتب إلى عمّه العادل يقُول: أنا ما خرَجْتُ من الدّيار المصريّة إلا لاسْتنْقَاذ جُبَيل من الفرنج، فبلغني أنّ الملكَ الأفضل حالف الفرنج عليَّ، واستنْصَر بهم، ووعَدَهم أن يُعيد البلاد إليهم، فاقْتَضَى ذلك سَوْقَنَا إليه. وبَلَغَنَا أنك تدخل بيْنَنَا وبيْنَه، وحُوشِيتَ من ذلك، وأنَا خيرٌ لكَ مِنْ غيري. وإنْ أرَدْت أنْ تكُونَ السّلطان ورئيسَ الجماعة فأنَا راضٍ بذَلك.

وكتب لأخيه الملك الظّاهر وغيره من [حكام][(٢)] الممالك وتردّدت الرّسائل بيْنهم.

وتقرَّرت الحال على أن يكُون للملك العزيز البيْتَ المقدّس وما جاوَرَه من أعمال فلسطين؛ وأن تكون دمشق وطبريّة وأعمال الغور للملك الأفضل؛ وأن يُعْطي الأفضلُ لأخيه الملك الظّاهر جَبَلة واللاذقيّة؛ وأن يكون للملك العادل بالدِّيار المصريّة إقطاعُه الأوّل، وأنْ يُخطَب للملك العزيز ببلاده وتُنْقَش السِّكّة باسمه؛ وأنّ الملك العزيز يمُدُّه بألف فارسٍ إعانةً له على فتح خِلاط.

واجتمع الملكُ العادلُ بالملك العزيز، وتزوَّج العزيزُ ابْنَته، وجاء الملكُ الظّاهر صاحبُ حلب إلى أخيه الملك العزيز، وتقرَّرَت قواعد الصلح.

---

(١) الكُسْوَة: قرية هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦١.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

وتأخّر الملكُ العزيز إلى الكُسْوة ثم إلى مَرْج الصُّفَّر[١]، ومرض به ثم أفاق.

ولمَّا عزم على العَوْد إلى الدّيار المصريّة خرج لوَدَاعه سائرُ الملوك الذين حضَرُوا لنُصْرة الأفضل، ثم خرج إليه الأفضلُ في سابع شعبان وأدركه بنيق، وهي أعلى الغور، فأكرمه الملك العزيز، وبالَغَ في احْترامه وسأله الأفضل أن يرجع إلى دمشق ليزُورَ قبر أبيه، فأجاب إلى ذلك؛ ثم أشارَ عليه أصحابُه ألاَّ يفعل، فامتنع. وعاد الأفضل، وسار العَزيزُ إلى الدّيار المصريّة فدخلها في أواخر شعبان.

وفي مستهلّ جماد سنة تسعين وخمسمائة هبَّت رياحٌ عاصفةٌ بالقاهرة مِنْ وَقْت العَصْر، وسقَطَ في ثالث الشهر بَرَدٌ كثير أكْبَرُه قدر البيض وأصغَرُه قدر النَّبق، وصار على جبل المقطم منه شيء كثيرٌ كالجبل الثّاني، ونقَل النّاس منه مدّةَ أربعة أيام؛ ثم سَالَ حتّى ملأه الخندق، ودخل الماءُ من المرامي الّتي في السّور إلى القاهرة، وعَلاَ، حتّى خِيف على البلد.

ذكر خروج الملك العَزيز لقَصْد الشّام ثانياً ورجوعه وقصْد العادل والأفضل الدّيار المصريّة وما تقرر من القواعد

كان سبب ذلك أن الملك الأفضل قَلّد وزارة دمشق لِضياء الدّين ابن الأثير الجزَري وحكّمه في البلاد، فقَصَد الأُمراء بالأذى والاطّراح، وتشَاغَل الأفضلُ عنهم. ففَارَقَ خدمة الأفضل فارس الدين ميمون القصري وشمس الدين وسنقر الكبير وعز الدّين سامة، وغيرهم. وحضر بعضُ هؤلاء إلى الدّيار المصْريّة وانضموا إلى الملك العَزيز، وقالوا له: إن الأفضل مسلُوب الاختيار؛ وحَرَّضُوه على قَصْد دمشق؛ فخَرج إليها في سَنَة إحْدَى وتسْعين وخمسمائة.

فلمّا اتَّصل خبرُ خُروجِه بالأفضل ركبَ من دمَشق في رابع جُمادى الأولى وتوجّه إلى عمّه الملك العادل، وهو بقلعة جَعْبَر، واستنجد به، وسار إلى أخيه الملك الظّاهر بحلب، واستنجَد به أيضاً، فركبَ الملكُ العادلُ وجَدّ في السّير إلى دمشق خوْفاً أنْ يسبقَه العزيز إليها، وكاتَب الملكُ العادل الأمراءَ الذين صُحْبَة العزيز، وكان العزيز قد نَزَل بمنزلة الفَوَّار على مرحلتين مِنْ دِمَشق، واستمالَهُم وحذّرهم من العزيز، فمالُوا إليه، واستمالوا أبا الهَيْجَاء السّمين، وفارقُوا العزيز وقَصَدُوا دمشق؛ وذلك في يوم الاثنين رابعِ شوال من السّنة.

(١) مرج الصُّفَّر: من نواحي دمشق إلى الجنوب الغربي منها، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٠١.

فلمّا وَصلُوا إلى دمَشق اتّفق العادلُ والأفضل، وتحالَفَا على قَصْد العزيز وانْتزاع الدّيار المصريّة منه، على أن يكونَ ثُلُثُ الدّيار المصريّة للمَلِك العادل إقطاعاً والثُّلُثان للملك الأفضل. وسارُوا في طلب الْعَزيز، فَرجَع إلى الدّيار المصريّة وجَدّ في السّيْر ودخلَ القاهرة[١].

قال: ولـمَّا وَصَلَ العادل والأفضلُ إلى القُدس سلَّماه وأعمالَه وما يجاورُه من أعْمَال السّاحل لأبي الهيجاء السّمين، فرتَّب فيه نُوّابه، وسار معهُما إلى الدّيار المصريّة. فنَزَل الملكُ العادل على بلبيس، وكان السعر ماشياً[٢] فاستظهر العزيز عليهم.

قال: ولـم يكن غرضُ العادل قَصْدَ مِصْر وإنما خَشِي على الملك العزيز من الأمراء أنْ يقتُلوه ويستَوْلُوا على الدّيار المصريّة، فقصدها لهذا السبب.

ولمَّا ضاقَت الميرَةُ على العسكر الشّامي وقلَّت أزوادُهم ندِمُوا على وصُولهم إلى الدّيار المصريّة؛ فأرْسَل الملك العادل إلى القَاضي الفاضل عبْد الرَّحيم في الاجتماع به، فأذِنَ له العزيزُ في ذلك، فخرج إليه فاسْتَبْشَر النّاس بخُروجه رَجَاء وقُوع الصّلح. ورَكِب العادلُ وتلقَّاه على فَرَاسِخ[٣]، فاجتمعا، واستقرّت القواعدُ على أن يكون إقْطاعُ العادل بمصر على عَادَتِه، وأن تكون إقامتُه عِنْد الملك العزيز بالقاهرة، وأن يعفُو [العزيز][٤] عن الأسَدِيّة والأكراد.

واجتَمَعَ العادلُ بالأفضل وأمَرهُ بالرُّجوع إلى دمشق، ثـمّ اجتمع الأفضَلُ بالعزيز، واستقرّ الصلح بينهما، وأهدى العزيز إليه هدايَا جليلَة المقدار. ورَجَعَ الأفضل إلى دمشق ومعه أبو الهَيْجَاء السّمين، فدَخَلَها في المحرّم سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة.

ولـم تَطُل المدّة إلى أن بلغ الملك العادل عن الأفضل ما استوغَرَ خاطرَه، فعنْد ذلك قرَّر، مَعَ الملك العزيز، أن يُجهّز العساكر لتمهّد قواعدَ المُلك بالشّام وسائر البلاد، واتَّفَقَا على أن يكون العزيزُ بدمشق والعادل ينوبُ عنه بالدّيَارِ المصريّة.

ذكر ملك الملك العزيز دمشق وخروج الأفضل إلى صرخد

قال: ولـمَّا اتفقَ الملكُ العادل والملكُ العزيز على ما قرَّراه تجهَّز [الملك العادل][٥]

---

(١) انظر تفصيل ذلك في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١١٢ ـ ١١٣.

(٢) «وكانت أيام زيادة النيل، والأسعار غالية، والعلف متعذر» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٢٦.

(٣) سار عدة أميال لاستقباله.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٥) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

للمسير إلى دمشق وبرز بخيَامه من القاهرة في يوم السّبت مستهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة [في][١] ثلاثة آلاف فارس. ثمّ بَرَز الملكُ العزيز في يوم الثلاثاء، رابع الشهر، وظاهرُ خُروجه وداعُه لعمّه الملك العادل، وحث العساكر المجرَّدَة على الخروج. وأقام ببركة الجُبّ.

فلمّا كان في العشرين من الشّهر اتّصَل بالملك العادل عن الملك الأفضل أنّه كاتَب الأسَديّة، وأنّه قبض على أموالٍ كانَتْ للعادِل بدمَشق، وأطلَقَ رهائن كانت عند نُوّابه، وأنّه وافق الظاهرَ صاحبَ حلب؛ فقرّر مع الملك العزيز أنْ يتوجَّهَا جميعاً ويأخُذَا دمَشْق من الأفضل وحَلَب من الظّاهر، فاتَّفَقَا على ذلك وعَقَدا بينهُما يميناً.

وشرع الملكُ العزيزُ في تَجهيز رِجَال الحلقة والأعيان، ورَحَل هو وعمَّه الملك العادل من البركة في يَوم الثلاثاء ثامن جُمادى الأولى، فحَصَل لِلْعَادل ضعفٌ في هذا النَّهار مَنعهُ عن الحركة. وكان وُصُولهما إلى بلبيس في سَابع عشَر الشَّهر، وكمُلَت صحّة العَادل في العشرين من الشهر، وسَارَ إلى الشام علَى مَهَلٍ ورِفق.

فلمّا تحقّق الملكُ الأفضل قَصْدَهما لبلاده اسْتَشَار شيوخ دولته، فأشارُوا عليه أنْ يستقْبل أخاه وعمه ويسلِّم لهُما الأمر؛ وأشار وزيرُه ضياءُ الدّين ابن الأثير الجَزري بالتَّصميم والمخَالَفَة، فرَجع إلى رأيه، وحصَّنَ البلد، وفرّق الأمراء على الأسوار. فلمّا رأى شيُوخ الدولة وأكابرُها أنَّه لم يرجع إليهم واعتمد على رأي وزيره راسلُوا الملكَ العزيز والملكَ العادل في انْتهاز الفُرصة؛ فركبَا بعساكرهما وتأهّبَا في يوم الأربعاء السادِس والعشرين من شهر رجب وخَرَج أهلُ دمشق لِقتالهم؛ والْتَقَوْا في السّابع والعشرينِ من الشهر. فلم يكُن بأسْرع من انهزام العَسْكر الشامي، وتبِعَهم العزيز والعادل حتى ألْجأوهم إلى سُور البلد، ودخلوا دمشق[٢]، وتبعَهم العسكر، فمُلكت البلد.

فعِندما ركبَ الملكُ الأفضل إلى خَيمة أخيه الملك العَزيز، واجتمع به بظاهر دمشق.

قالَ: ودخل الملكُ العادل ومَنْ معه باب تُوما والباب الشّرقي، ونَزَل بالدّار الأسدية، ودَخَلَ الملكُ العزيز من باب الفَرج وباب في دار عمّته الحساميّة[٣]. ومَلَك العزيز دمشق وأقيمت لهُ الخُطْبَة في يوم الجمعة الثَّامن والعشرين من الشهر.

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) في الأصل «من دمشق» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) اسمها ست الشام وهي معروفة بالحسامية. وهي والدة حسام الدين بن لامين. وتنسب إليها مدرسة ست الشام بدمشق. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٦٣.

قال: ولمَّا ملك الملكُ العزيز دِمَشق ندم على ما كان قرر من إقامَته بالشام وتَمْكين عمه الملك العادل من الدّيار المصريّة واعْتَذَر إلى أخيه الملك الأفضل في السّر. فأظْهَرَ الأفْضَل سِرَّهُ لمن مَعه فظَنُّوا أن هذه خديعَة. فأرسل إلى العَادل وأعْلَمه بمُرسَلة العزيز، فعتَبَه العادل، فأنكر الحال. وخَرَجَ الأفضل إلى صَرْخد[1] وقُرِّر لَهُ في كلّ سنة مائتي ألف درهم من صرخد وغيرها، وهو كارهٌ لذلك. وسألَ أن يكون بمكّة؛ وينقَطع إلى الله تعالى، وينزل عن المُلك، فلم يُجِبْه العزيز.

وكان خروج الأفضل من دمشق إلى صَرْخد يوم الاثنين، ثاني شعبان سنة اثنتين وتسعين، فكانت مدّة ملكه لدمشق[2]، منذ وفاة والده إلى أن ملكها العزيز، ثلاثَ سنين وخمسة أشهر.

ودَخَلَ الملكُ العزيز قلعَةَ دمشق واستقر بها في يوم الأربعاء رابع شَعْبان من السّنة المذكورة، وجَلَس يوم الجمعة بدَارِ العَدْل وأسقط مِن المكُوس بدمشق ما هو مقَرّرٌ على سُوق الرّقيق وسُوق الدّواب ودَارِ البطّيخ، والملاهي، والعصير، والفَحْم، والحديد، وسَبْكى الفولاذ والزّجاج.

قال: وهرب ضياءُ الدّين ابن الأثير ونُهبت داره.

ونُودي في دمشق أن يلْبَس أهل الذِّمَّة العمائم الغيار ليُعرفوا من المسلمين وكان سببُ ذلك أنّ الملك العزيز لمَّا جَلَس بدَار العَدْل دخلَ عليه رجلٌ له هيئَةٌ حسنة، فما شكّ العزيز أنّه من الأشْراف، فلمّا عَلم أنّه ذمّيٌّ أمر بذلك.

قال: ولاطَفَ الملكُ العزيز عمَّه الملك العادل إلى أن قام بدمشق في النّيابة، فأجاب إلى ذلك بَعْد امتناع. وسلّم ديوان دمشق لصفيّ الدّين بن شُكر[3] كاتب العادل.

وفارقَ الملكُ العزيزُ دمشق في العَشْرِ الأوسط من شعبان، وعادَ إلى الدّيار المصريّة بعد أنْ استَخْلَفَ الملك العادل وسلَّم إليه دمشق وما هو مضافٌ إليها من القلاع والحصُون والأعمال؛ والخُطْبة والسّكّة باسم الملك العزيز.

ودخل العزيز إلى القاهرة جريدةً في رابع شهر رمضان؛ وفَوّض شدّ الأمْوال والخطاب عليها للأمير فخر الدّين إيَاز جهارَكس؛ وضمّن الخُمور في كلّ سنة بسبعَة

(١) صرخد: قلعة حصينة من أعمال دمشق بجوار بلاد حوران. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠١.

(٢) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١١٤.

(٣) هو عبد الله بن علي صفي الدين بن شكر، وزير الملك العادل الأيوبي، ثم وزير الكامل الأيوبي، كانت وفاته سنة ٦٢١ هـ/ ١٢٢٥ م. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٢٠.

عشر ألف دينار، فتجاهَر النّاسُ بها وظهر الفَساد وفشا في النّاس؛ واجتمع الرّجال والنّساء في شهر رمضان من غَيْر اسْتِتَار، سيّما في الخَليج وساحِل مصر؛ ورتّب ضمان الخمر في النّفَقَة على طعام السّلطان؛ وهذه من البَلايا التي لم يُسْمع بمثلها، فإنّ عادَة الملوك والأكابر [أن][1] يجتهدوا أن يكون مأكَلُهم من أجَلّ الجهات كالجَوالي[2] وما يُنَاسِبُها. وبسبب إطلاق الخُمور كَثُر القتل بالقاهرة والجراحات، وخَطْف العمائم والأمتعة والمآكل من الأسواق.

قال المؤرخ: وغَلَت الأسعار في هذه السّنة بالدّيَار المصريّة، واشتَدَّ الأمرُ على النّاس، وكثُر الوباء، وبلغ القمح كلَّ أردبّ بدينارَين، وأظنُّ الدّينار ثلاثةَ عشر درهماً وثُلُث درهم، وهذا كان نهايَة الغَلاء في ذلك العَصر.

ولقد وصف[3] الفَاضل من عظم ما حَلَّ بالنّاس غلوّ السّعر أمراً عظيماً فكيف لو أدرَكَ الفاضل الديار المصريّة في سنَة خمسٍ وتسعين وستّمائة، وقد أبيع القَمح سعر الأردب ثلاثةَ عشر ديناراً ونصفَ دينار وأبيعَ الفرُّوج بخمسين درهماً، ورطل البطّيخ الأخضر بأربعة دراهم، والسَّفَرْجلة بثلاثين درهماً.

قال المؤرخ: وفي سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة كانت وفاة الشيخ السّيد الشريف عبد الرّحيم[4]، قدّس الله رُوحه ونوَّر ضريحه، بقنا من أعمال قُوص ودُفن بجبّانتها، وضريحُه معروفٌ هناك من أعظم مزارات أهل الصّلاح بالدُّنيا.

وممَّا نُقِل من كلامه، قدّس الله روحه، وقَدْ سمِع المؤذِّن يقول: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، فقال الشيخ شهدنا بمَا شَاهَدْنا. ومِن كلامه: لا يستطيع العارِفُ أنْ يوصِّل إلى مَنْ لا يعرفُ حقيقةَ ما عَرف، كما لا يستطيع البصيرُ أن يوصل إلى الأكْمَهِ[5] حقيقة الألوان. وعُرض هذا الكلامُ على الشّيخ عزّ الدّين عَبْد العزيز[6] بن عبد السّلام، رحمه الله ونفع به، فقالَ هَذَا كَلامُ مَنْ غرِق في الحقيقة.

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة تتفق والسياق.

(٢) الجوالي: بمعنى الجزية. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٩١.

(٣) «وصل» في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) هو عبد الرحيم بن أحمد بن حجون القنائي. توفي سنة ٥٩٢ هـ/ ١١٩٦ م. الأدفوي: الطالع السعيد ص ٢٩٧، رقم ٢٣٠.

(٥) الأكمه: الأعمى. ابن منظور: لسان العرب (كمه).

(٦) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القسم بن الحسن، سلطان العلماء السلمي الدمشقي ثم المصري الشافعي ولد سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م أو ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م. توفي ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٠١. والسبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٨، ص ٢٠٩، رقم ١١٨٣.

ذكر استيلاء الفرنج على بيروت

وفي يوم الجمعة عاشر ذي الحجّة سنة ثلاثٍ وتسعين وخمسمائة مَلَك الفرنج مدينةَ بيروت من المسلمين وسببُ ذلك أنَّ فرنج السّاحل راسَلُوا مَلِك الألمان[١] في سنة اثنتين وتِسْعين وخمسمائة، وكان قد مَلَك جزيرة صقلية، وعرَّفُوه أنّ المسلمين قد اشْتَغَلُوا بحرب بعضهم بعضاً؛ فأقبل في مراكبه[٢] إلى عكّا. وصادَفَ ذلك سقُوط الكُنْدهري[٣] ملك عكا من شُبَّاك فهَلك، فملَكَ مِلكُ قبرص[٤] عكّا، وخرج إلى بيرُوت فملَكها من المسلمين، وكان بها عزّ الدين أسَامة. فعمّرها الفرنج ولَمْ تَزل بأيْديهم إلى أنْ فتحها الملك الأشْرفُ[٥] في سنة تسعين وستّمائة، على ما نذكرهُ إن شاء الله تعالى في أخبار دولة التُّرك.

وفيها خَرَجَت المراكبُ الحربية لقَصْد بلاد الفرنج. فوجَدُوا بُطَشاً للفرنج فملكوها، فوجد المسْلمون فيها أموالاً جليلة.

وفيها أنشأ الأمير فخر الدين إياز جهارَكس النّاصري القيْسَاريّة المعروفة به بالقَاهرة المحروسة، وجاءت من أحسن الأبنية[٦].

ذكر وفاة سيف الإسلام بن أيّوب ملك اليمن وملك ولده شمس الملوك

وفي يوم الأربعاء الثالث من شوّال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة توفي الملك العزيز سيف الإسلام طُغْتكين بن أيّوب، أخو السّلطان الملك النّاصر [صلاح الدين][٧] بالمنصُورة التي أنشأها باليمن. وكان قد طَرَد ولدَه شمس الملُوك [إسماعيل][٨] إلى

(١) هو الامبراطور هنري السادس، رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٦٩.
(٢) انظر رنسمان: المرجع السابق، ج ٣، ص ١٦٩.
(٣) هو هنري كونت ـ شامبانيا ـ قتل سنة ١١٩٧ م. رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٧٢.
(٤) «ملك الألمان» في الأصل، والتصحيح من تاريخ الحروب الصليبية لرنسمان ج ٣، ص ١٧٤.
(٥) هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي. تولى الحكم سنة ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م. وكانت مدة ولايته على مصر ٣ سنوات وشهرين وخمسة أيام. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٢٢.
(٦) انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٨٧.
(٧) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح الاسم.
(٨) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح الاسم. ورد في مفرج الكروب، لابن واصل أن أباه أبعده إلى الشام، ج ٣، ص ٧٣.

الحجاز. فلمّا سمِع بوفاة والده سار إلى اليَمن وملَكَ بعْدَه.

وإلى سيْف الإسلام هذا يُنْسَب البستان[١] الذي كان بظَاهر القاهِرة، وهو الآن عمائر تُعْرفُ أرضها بحِكر سَيْف الإسلام.

ذكر وفاة الملك العزيز وشيء من أخباره

كانت وفاتُه في ليلة الأحد العشرينَ[٢] من المحرّم سنة خمس وتسْعين وخَمسمائة بداره بالقاهرة.

وكانَ قد خرجَ إلى الفيُّوم لقَصْد الصّيد إلى ذات الصّفا، فحُمَّ، فعاد إلى القاهرة، واشتدّ مرضُه، فمات. وقيل إنّه ساق خَلْف الصّيد فكَبا به فرسُه مرّةً بعد أخرى، فماتَ بعد ثلاثٍ، ودُفن بداره بالقاهرة [وكان مولده بالقاهرة][٣] في ثامن جُمادى الأولى سنةَ سبع وستّين، وقال الفَاضِل في جُمادى الآخرة. فكانت مدّة عمره سبْعاً وعشرين سنةً وثمانية أشهر واثني عشر يوماً؛ ومدّة ملكه خمس سنين وعشرة أشهر وعشرين يَوْماً.

وكان رحمهُ الله عادلاً كريماً بالمال، بخيلاً على طعامه شجاعاً حسَن الأخلاق.

وخَلَّفَ من الأولاد أحد عشر ولداً، وهم الملكُ المنصُور محّمد، القائمُ بعْده؛ وعلي، وعمر، وإبراهيم؛ وعيسى؛ ومحمود؛ ورعاه؛ ويوسف؛ ويونس؛ وولدان صغيران. ولم يخلِّف في خزانته ذهباً ولا دراهم إلاّ بعض قماش ليْسَ بالطّائل.

ذكر سلطنة الملك المنصُور محمد ابن الملك العزيز[٤] ابن الملك الناصر وهو الثالث من ملوك الدولة الأيّوبية بالديار المصريّة

ملَك الدّيار المصريّة بعدَ وفاة أبيه في يَومِ الأحد العشرين من المحرّم سنَةَ خمس وتسعين وخمسمائة بوصية منه. ولمَّا مَات الملكُ العزيز كان عَمُّه الملك العادل يُحاصِر

---

(١) بستان سيف الإسلام: واقع شرقي بركة الفيل، المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٣٣. وابن دقماق: الانتصار، ق ٥، ص ٤٥.

(٢) «توفي في الساعة السابعة من ليلة الأربعاء الحادي والعشرين من المحرم» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١١٦. و«السابع والعشرين» في مفرج الكروب لابن شامة، ج ٣، ص ٨٣. والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٤٤.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٤) أخباره وترجمته في: مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٨٧، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٧٦. وخطط المقريزي، ج ٢، ص ٢٣٥، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ٢٠، والكامل لابن الأثير، أخبار سنتي ٥٩٥ و٥٩٦ هـ. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٣١.

مَارِدِين فاجتمعت الأمراء الصَّلاحية وعَقَدُوا الأمر لولدِه ولقَّبُوه بالملك المنصور، وكانَ قبل ذلك يُلقَّب بالنَّاصر وإنما تركُوا النّاصر لموافَقَته لَقَب الخليفة[١] وركبَ في يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرم، وشقّ القاهرة من باب زَويلة إلى باب النّصر، والأمراء في خِدمته. وكتب الأمراء إلى الملك العَادل يعزُّونه في ابْن أخِيه الملك العزيز، ويذكُرون اتفاقهم على تنصيب[٢] ولَده في السَّلطنة بعْده، وأنهم على طَاعة الملك العادل.

ثم اجتمع الأُمراء الأسَدية والصَّلاحية بظَاهِر القَاهرة وقالوا: إن الذي فعَلنَاه من حِفظ الملك العَزيز في وَلَدِه هو نِعْم الرأي، وإنما هُو صَغير السِّن لا يفهم ما يُقال له، ولا يقُوم بأعباء المُلك، ولا بد لنا من كبير مِنْ هَذا البيت يُربِّيه ويكْفُلُهُ ويدبّر أحوال الدَّولة، ولَيْس لها مثلُ الملك العادل، وهو الآن مشغول ببلاد الشّرق وقصَدُوا أن يكتُبوا إليه ويَستدعوه فكره بعضُهم شِدّة أخلاقه ومُمَاقَتَتَهُ[٣] للجند فعَدلوا عنه واتفقوا على استِدْعاء الملك الأفضل من صَرخد.

وأن يتولَّى أتابكيَّة الملك المنصور وأن ينوب عن الأفضل إلى حين وصوله، أخوه الملكُ الظافر خِضْر، فاستَقرّ ذلك.

وكتبوا إلى الأفضل وذَلك في يوم الخميس سَادس عشَر صفَر من السّنة ونزل الملك الظّافر بدَارِ السّلطَنَة في القاعة العزيزيّة، وقام بنيابة السلطنة.

قال: ولـمَّا وصل كِتابُ الأمراء إلى الأفضل خرجَ من صَرْخَد في ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر، وسلك البرِّيَّة إلى البيت المقدَّس.

ذكر وصول الملك الأفضل إلى القاهرة واستقراره في تدبير دولة المنصور

كان وصولُه إلى القاهرة في يوم الخميس السّابع من شَهر ربيع الأول سنةَ خمسٍ وتسعين وخمسمائة؛ فبرزَ الناس لِلِقائه، وزُيِّنَت المدينةُ لقُدومه. ولـمَّا دخل أقرَّ الخُطبة باسم الملك المنصُور ابنِ أخيه، ونَقَش السّكّة باسمه، وكان الأفضل يُذكر بعده. وكَتَب إلى عمّه الملك العادِل يبذُل له الطَّاعة والانْقِياد إلى أمره.

---

(١) هو العباس أحمد الناصر لدين الله. تولى الخلافة من سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠ م إلى سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٣.

(٢) في الأصل: «نصب» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) المماقتة: البغض، ابن منظور: لسان العرب (مقت).

قال: ولمَّا وصَل الملكُ الأفضل إلى بلبيس خرج فخر الدّين إيازجهارَكس وزين الدين قراجا على أنهما يلتقيَانه، فتوجها إلى الملك العادل. ثم خرج في يَوْم وصُوله الأمير شمس الدّين(١) سراسُنْقر بمماليكه وجماعة من أصحابه والتحق بالملك العادل، وسَار إليه، إلى مَارِدِين.

ذكر مسير الملك الأفضل إلى الشام وحصَار دمشق وعوده عنها وخروجه عن الدّيار المصريّة

قال: ولمّا استَقرَّ الأفضل في تدْبير الدّولة بالدِّيار المصريَّة، ولم يَبْقَ للملك المنصُور معه إلا الشّركة في الخُطْبة، حملَه أصحابُه على قَصد دمشق وحَصْرها، وقالوا: هي لك بوصِيّة أبيك الملك النَّاصر. فعزَم على المسير إليها، وأمر العَسَاكر بالاسْتعداد لذلك. وبَرَزَ إلى المخيّم ببركة الجُبِّ، هو وابن أخيه الملك المنصُور، في يوم السّبت العشرين من جُمادى الأولى من السّنة واستحثَّ العسكر على الخروج.

ووصل إليه في يوم الأربعاء، السّادس من جُمادى الآخرة، رسولٌ من أخيه الملك الظّاهر صَاحب حَلب وهو يَلُومُهُ على إنْفَاذ الرُّسل بالطَّاعة للعادل، ويقول: إن أكثر الناس كانوا منْصَرِفين عنه فانصَرفوا إليه، وحثّه على سُرعة قَصْد دِمشق؛ ويقول: اغْتَنم الفُرصة ما دام العَادِل في حصَار مارِدِين؛ ووَعَدَه بالوُصول إليه فأكَّدَ ذلك ما عنده، وأقام ببركة الجُبّ وهو يحثُّ العسْكر على سُرعة الحركة، إلى ثاني شهر رَجب، فرحل عنها.

وفي مدّة مقامه ببركة الجُبّ أحضر قاضي القضاة والشُّهود، وأشهدهم على نفسه أنه وقف المطريَّة(٢) ومُنْية الباسل(٣) والرّباع المسوّغة والمستمرّة بيد الدّيوان على عِمارة سُور القاهرة ومِصْر والبيمارِستان بالقاهرة.

قال: ولمَّا وصل الأفضل إلى بلبيس احْتاطَ على ما كان بِاسْم العَادل وإلْزَامه بالدّيار المصريّة؛ وأقْطَعَه، ثم قَبَض على أخيه الملك المؤيّد وقَيّده وأعاده إلى القاهرة، فاعتُقل بالقَلْعة. وتَمادَى الملك الأفضل في سَيْره إلى دمشق. هذا ما كان منه.

وإمَّا الملك العادل فإن سراسُنقر النَّاصري وصَل إليه بمارِدِين واستحثَّه على العَوْد

(١) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٤٧، وفي مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٩٢ ورد «أسد الدين».

(٢) المَطَرِيّة: من قرى مصر، عندها الموضع الذي به شجر البلسان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤٩.

(٣) منية الباسل أو منية الباسك أو منيا: تابعة لمحافظة الجيزة. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ٣، ص ٣١.

إلى دمشق، فأوصَى ولدَه الملكَ الكامل بمُحاصَرتها. وفارقَها العادلُ لخمسٍ بقينَ من شهر رجب. ووصل إلى دمَشْق في يوم الاثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحْصين البلد. ووصلت العساكرُ المصرية في يوم الخميس، ورتَّب الأطْلاَب وسارَ الملكُ المنصُور بنُ الملك العزيز في الْقَلْب وزحَفَ على الْبَلد فأخَذ قصْر حجَّاج والشَّاغور. وكان العادلُ لما شاهدَ إقبال العَساكر أمر بإحراق قصْر حجّاج، فأُحرق، واحترق فيه عدَّة مساجد وأطفال. وأحاطت العَساكر المصريَّة بدمشق، ودَخَلها جماعة منهم من باب السَّلامة، وانتَهوْا إلى السُّوق الكبير، وخرجُوا من باب الفرَاديس. وقدم الأفضل الميدان الأخضر[١] ثمّ تأخّر إلى مَيدان الحصى؛ واستقر بهذه المنزِلة أكثر من ستَّة أشْهُر.

وكاتب الملكُ العادل جماعةً من الأمراء المصريّين، ففارَقُوه ودَخَلُوا إلى دمشق فأكرمهم.

ثم وصل الملكُ الظّاهر صاحبُ حلب ومعه أخواه الظّافر والمعزّ وجاءهُم الملكُ المجاهدُ صاحب حمص، وعسكر حماه دُون سُلطانها، وحسام الدّين بشارة صاحب حمص بانياس، كان من أكابر الدّولة، فأشار بالصلح.

قال ولمّا حاصَر الملكُ الأفضل دمشق وَمَنَعَ مَنْ يدخُل إليها بشيء من الميرة، وقطع عنها الأنهار؛ فاشتدَّ الأمر على أهلِ دمشق، واستغاثَت الرَّعايا على العادل، وتسلَّطوا عليه، وحملوه على تَسْليم البلَد. وانْتَقل أكثر مَنْ في البلد إلى العَسْكر، ونصبوا به أخْصَاصاً ومساكن؛ وأُقيمت الأسواقُ به.

فلمَّا اشتدَّ الأمر على العَادل كتب إلى الظّاهر يَستَمِيلُه وقال: أنا أسلّم البلَد إليكَ دونَ غيرك، فنُمِي الخبرُ إلى الأفضل، فاضطَربَ رأيُهما، وقيل بل كتب إليهما يقول: أنا أسلم البلَد إليكُما بعد سَبْعَة أشهر فأجَابَاهُ إلى ذلك. وقيل إنه كان يكتب إلى الأفضل يقولُ الظّاهر قد صَالَحني، وإلى الظّاهر بمثل ذلك.

واتّفقَ في فَسَادِ حال الأفضل أن جماعة الأمراء كان بأيديهم إقطاعاتٌ بالدّيار المصريَّة جليلَةُ المقدار، فحَسدَهم آخرون عليها، فكانوا يأْتُون إلى الملك الأفْضل ويقولُون: إنَّ فلاناً قد عزَم على قَصْد عَمّكَ العَادل والانضمام إليه، ويأتون لذلك الأمير فيقولون: إنّ الأفضل قَدْ عَزم القَبضَ عليك، ويأتي ذلك الأمير إلى الأفضل

---

(١) في الأصل: «وسير الأفضل بالديوان الأخضر» والتصحيح من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٩٥.

فَيَرى في وجْهِه أثر التغيُّر لِمَا نُقل عنه، فلا يشكّ ذلك الأميرُ في صِدْق النّاقل فالْتَحَق به جماعةٌ من الأمراء.

فبينما الأفضل كذلك إذ قَدِم الملكُ الكامل ابن المِلك العَادل من الشَّرق، في تاسع عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة، بالعساكر والتُّركمان فاشْتَدّ به عضُد أبيه. وتأخر الأفضل بمن معه إلى سَفح جَبل العَقَبة، ثم انتقل إلى مَرْج الصُّفَّر في يوم الاثنين ثاني عشري صفر؛ وعَادَ الظّاهر والمجاهد[1].

واشتدّ البرْد في العَسْكر المِصري فعاد الأفضلُ إلى الدّيار المصريّة، وسَاقَ العَادل بعسَاكره في أثره. فكان وُصُول الأفضل إلى بلبيس في حَادي عشري شهر ربيع الأول فأشار عليه أصحابه بالإقامة بها.

قال: ولَمَّا وصَلَ المَلكُ العادِل إلى تلّ العُجول، أقام به حتى اجتمع إليه أصحابه، ورَاسَل الأفضل، فعاد جوابه أنه لا يصالحُه حتى يفارق الأمراء الصلاحية.

فلما اتصل ذلك بالصلاحية غضبوا وعزموا على المسير إليه.

هذا والأفضل على بلبيس، وقد تفرق معظم أصحابه إلى إقطاعاتهم وجماعة منهم باطنوا الملك [العادل][2].

[ومضى الملك العادل يطوي المراحل إلى أن دخل الرمل وبلغ الملك الأفضل ذلك، فرام جمع عساكره، فتعذر ذلك عليه لتفرقهم في أخبارهم، وتشتتهم في الأماكن التي يربعون فيها خيلهم، فخرج في جمع قليل، ونزل السانح.

ووصل الملك العادل، وضرب معه مصافاً، فانكسر عسكر الملك الأفضل، وولوا منهزمين لا يلوون على شيء.

ثـم سار الملك العادل بالعساكر، ونزل بركة الجب، وسير إلى الملك الأفضل يقول له: «أنا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة، لأنها أعظم معاقل الإسلام، ولا تحوجني إلى أخذها بالسيف، واذهب إلى صرخد وأنت آمن على نفسك».

فاستشار الملك الأفضل الأمراء فرأى منهم تخاذلاً، فأرسل إلى عمه يطلب منه أن يعوضه عن الديار المصرية بالشام، فامتنع من ذلك، فطلب أن يعوضه حران والرها

---

(١) هو المنصور محمد بن تقي الدين عمر. تولى الحكم على حماه في سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م وبقي إلى سنة ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٤٧.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

فامتنع، فطلب منه جافي وجبل جور وميافارقين وسميساط، فأجابه إلى ذلك، وتسلم القاهرة منه][١].

[انتهى الجزء الثامن والعشرون من كتاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع والعشرون، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل][٢].

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة لربط أحداث نهاية هذا الجزء بالأحداث القادمة. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) ما بين حاصرتين خاتمة للجزء.

فهرس المصادر والمراجع

ـ أولاً: القرآن الكريم.

١ ـ الأئمة الاثنا عشر لابن طولون، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، بيروت ١٩٥٨.

٢ ـ اتعاظ الحنفا: المقريزي. أحمد بن علي. (٣ أجزاء) تحقيق جمال الدين الشيال... محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣.

٣ ـ أخبار الدول المنقطعة: ابن ظافر (جمال الدين بن علي) تحقيق أندريه فريه المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة، ١٩٧٢.

٤ ـ أخبار مصر: المسبحي (محمد بن عبيد الله بن أحمد) تحقيق أيمن فؤاد سيد دنياري بيانكي، المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩٧٨.

٥ ـ أخبار مصر لابن المأمون، تحقيق أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٣.

٦ ـ أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم تأليف محمد بن علي بن حمادة، تحقيق م فوند هايدن، باريس، الجزائر، ١٩٢٧.

٧ ـ الإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي، تحقيق عبد الله مخلص، مصر ١٩٢٤.

٨ ـ الاعتبار لأسامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد)، نشره فيليب حتي برنستون ١٩٣٠.

٩ ـ أعلام الإسكندرية: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٧.

١٠ ـ افتتاح الدعوة للقاضي النعمان (النعمان بن محمد بن منصور بن حيون) تحقيق فرحات الدشراوي، تونس ١٩٧٥.

١١ ـ الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار لحسن باشا، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧.

١٢ ـ القاموس المحيط للفيروزابادي دمشق.

١٣ ـ الانتصار: ابن دقماق (إبراهيم بن محمد) نشر فولرز، بولاق ١٣٠٩ هـ/ ١٨٩٣ م.

١٤ ـ الإمام المستنصر بالله الفاطمي: الدكتور عبد المنعم ماجد القاهرة، ١٩٦١.

١٥ ـ البداية والنهاية: ابن كثير (إسماعيل بن عمر) دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.

١٦ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس، سلسلة النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية، فيسبادن ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣.

١٧ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: السيوطي (الحافظ جلال الدين) الطبعة الأولى ١٩٢٦.

١٨ ـ البيان المضرب لابن عذاري المراكشي (١ ـ ٢) تحقيق الأستاذين كولان وليفي بروفنسال (ليدن ـ ١٩٤٨).

١٩ ـ تاريخ الحروب الصليبية. رنسمان ترجمة السيد الباز العريني، ٣ أجزاء، بيروت ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩.

٢٠ ـ تاريخ الدول الإسلامية: سليمان (أحمد السعيد) جزءان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩.

٢١ ـ تاريخ دولة الكنوز الإسلامية: عطية القوص، القاهرة، ١٩٧٦.

٢٢ ـ تاريخ ابن الفرات: ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم المصري، تاريخ الدول والملوك، المجلد الرابع: البصرة، ١٩٦٧ والمجلد ٧ ـ ٩ بيروت، ١٩٣٦ - ١٩٤٢.

٢٣ ـ تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي: جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٧.

٢٤ ـ تاريخ ووصف قلعة القاهرة، كازانوفا. ترجمة أحمد دراج، القاهرة، ١٩٧٤.

٢٥ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، ١٩٦٩.

٢٦ ـ تاريخ الدولة السلجوقية لصدر الدين أبي الحسن علي الحسيني، تحقيق محمد إقبال (لاهور، ١٩٣٣).

٢٧ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لعز الدين ابن الأثير، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣.

٢٨ ـ تاريخ دمشق لابن عساكر (١ ـ ٢) تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥١ ـ١٩٥٤.

٢٩ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١ ـ ١٤)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

٣٠ ـ تاريخ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (١ ـ ٧) بولاق ١٢٨٤.

٣١ ـ تاريخ يحيى الأنطاكي، نشره لويس شيخو، بيروت، ١٩٠٩.
٣٢ ـ تكملة تاريخ ابن البطريق: يحيى بن سعيد الأنطاكي. نشر كراتشكوفسكي، ١٩٢٤.
٣٣ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر للشيخ عبد القادر بدران، دمشق ١٣٥١ هـ.
٣٤ ـ الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية: محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٣٧.
٣٥ ـ الحركة الصليبية: سعيد عبد الفتاح عاشور (١ ـ ٢)، القاهرة، ١٩٦٢.
٣٦ ـ الحروب الصليبية كما رآها العرب لأمين معلوف ـ تعريف الدكتور عفيف دمشقية، دار الفارابي للنشر، بيروت، ١٩٨٩.
٣٧ ـ الحروب الصليبية لسيد علي الحريري، تحقيق عصام محمد شبارو، دار التضامن، ومؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، ١٩٨٨.
٣٨ ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي، مطبعة إدارة الوطن القاهرة، ١٢٩٩ هـ.
٣٩ ـ الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، عبد القادر بن محمد (١ ـ ٢)، القاهرة، ١٩٨٨، ودار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.
٤٠ ـ الدرة المضية في أخبار الدول الفاطمية، للدواداري (أبي بكر بن عبد الله بن أيبك) تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٦١.
٤١ ـ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٩٨٤.
٤٢ ـ ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السقا، ط ٢، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٦ (١ ـ ٤).
٤٣ ـ ذيل تاريخ دمشق: ابن القلانسي، نشر أمدروز، بيروت، ١٩٠٨.
٤٤ ـ رحلة ابن جبير: محمد بن أحمد بن جبير، بيروت، ١٩٦٤ م.
٤٥ ـ الروضتين، أبو شامة، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢.
٤٦ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار، للحميري (محمد بن عبد المنعم)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، ١٩٧٥ ـ ١٩٨٤.
٤٧ ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم (١ ـ ٢) تحقيق الدكتور سامي الدهان، دمشق، ١٩٥١ ـ ١٩٥٤.
٤٨ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريزي (أحمد بن علي) (١ ـ ٢)، تحقيق د.

مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٥٨.

٤٩ ـ سيرة ابن طولون: البلوي (عبد الله بن محمد بن عمير)، تحقيق محمد كرد علي، دمشق، ١٣٥٨ هـ.

٥٠ ـ شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي (عبد الحي بن أحمد)، ٨ أجزاء، بيروت.

٥١ ـ الشرق الأوسط والحروب الصليبية: السيد الباز العريني، القاهرة، ١٩٦٣.

٥٢ ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، تحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٧٨.

٥٣ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: القلقشندي (أحمد بن علي)، ١٤ جزء، القاهرة، ١٩١٩ ـ ١٩٢٢.

٥٤ ـ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد: الأدفوي (جعفر بن ثعلب)، تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة، ١٩٦٦.

٥٥ ـ طبقات الشافعية الكبرى: السبكي (عبد الوهاب بن علي) ١٠ أجزاء، القاهرة، ١٩٧٦.

٥٦ ـ العبر في خبر من غبر: الذهبي (محمد بن أحمد)، نشر صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد، ٥ أجزاء، الكويت، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦.

٥٧ ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين المكي، تحقيق الأستاذين فؤاد سيد ومحمد طاهر الطناجي، القاهرة، ١٩٥٩ ـ ١٩٦٩.

٥٨ ـ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: العيني (محمد بن أحمد، بدر الدين).

٥٩ ـ غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (١ ـ ٣) تحقيق برحشتراسر، القاهرة، ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣.

٦٠ ـ الفتح القسي في الفتح المقدسي للأصفهاني (عماد الدين بن محمد) وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦٥.

٦١ ـ فلسطين في العهد الإسلامي: لي سترانج، وزارة الثقافة والإعلام، الأردن، ١٩٧٠.

٦٢ ـ القاموس الجغرافي للبلاد المصرية: محمد رمزي. قسمان في ٥ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٣ ـ ١٩٦٣.

٦٣ ـ القاموس المحيط: الفيروزابادي (محمد بن يعقوب الشيرازي)، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٢.

٦٤ ـ قوانين الدواوين: ابن مماتي (الأسعد شرف الدين أبو المكارم).

٦٥ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير (علي بن أبي الكرم)، ١٣ جزء، بيروت، ١٩٨٣.

٦٦ ـ كنز الدرر وجامع الغرر: ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله)، تحقيق صلاح الدين المنجد (الجزء السادس) وتحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (الجزء السابع)، القاهرة، ١٩٧٢.

٦٧ ـ الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة: ابن الزيات (محمد الأنصاري) بولاق، ١٣٢٥ هـ.

٦٨ ـ لسان العرب: ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري)، ١٥ جزء، دار صادر بيروت.

٦٩ ـ مجموعة الوثائق الفاطمية لجمال الدين الشيال، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٥٨.

٧٠ ـ المختصر في أخبار البشر: أبو الفدا (إسماعيل بن علي) ٤ أجزاء، استانبول، ١٩٣٨.

٧١ ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي، المجلد الثامن (١ ـ ٢)، حيدر أباد الدكن، ١٩٥١ ـ ١٩٥٢.

٧٢ ـ المسلمون والبيزنطيون في شرقي البحر المتوسط. أحمد عبد الكريم سليمان، القاهرة، ١٩٨٢.

٧٣ ـ مصر في عصر الإخشيديين، سيدة إسماعيل كاشف، القاهرة، ١٩٧٠.

٧٤ ـ مضمار الحقائق وسر الخلائق: محمد بن عمر بن شاهنشاه الأيوبي، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٨.

٧٥ ـ معجم الأباء لياقوت الحموي (١ ـ ٢٠)، القاهرة، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨.

٧٦ ـ معجم الأسر الحاكمة لزنبارو.

٧٧ ـ معجم البلدان: ياقوت الحموي، ٥ مجلدات، بيروت.

٧٨ ـ معجم البلدان الليبية: الطاهر أحمد الزاوي، طرابلس، ١٩٦٨.

٧٩ ـ معجم السفن الإسلامية: درويش النخيلي، القاهرة، ١٩٧٩.

٨٠ ـ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكري. نشر دي سلان، الجزائر، ١٨٥٧.

٨١ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) (١ ـ ٣) نشر جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣ ـ ١٩٦٠.

٨٢ ـ الملل والنحل: الشهرستاني (محمد عبد الكريم) تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل (٣ أجزاء) القاهرة، ١٩٦٨.

٨٣ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (٥ ـ ١٠)، حيدر آباد الدكن، ١٣٥٨ هـ.

٨٤ ـ المنتقى من أخبار مصر: ابن ميسّر، تحقيق أيمن فؤاد سيد. المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة، ١٩٨١.

٨٥ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المقريزي (أحمد بن علي)، (١ ـ ٢)، بولاق، ١٢٧٠/ ١٨٥٤.

٨٦ ـ الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ١٩٨٤.

٨٧ ـ النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)، ١٦ جزء. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢ م.

٨٨ ـ نصوص من أخبار مصر: ابن المأمون (موسى بن المأمون البطائحي)، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي، بالقاهرة، ١٩٨٣.

٨٩ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني (١ ـ ٨)، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨.

٩٠ ـ النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية: عمارة اليمني (أبو الحسن نجم الدين)، باريس ١٨٩٧ م.

٩١ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ٢٧ جزء، القاهرة ١٩٢٣ ـ ١٩٨٥.

٩٢ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: ابن شداد (يوسف بن رافع بهاء الدين)، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤.

٩٣ ـ الوافي بالوفيات للصفدي (١ ـ ٩) مطبوعات دار صادر، بيروت، ١٩٦١.

٩٤ ـ الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي: محمد حمدي المناوي، دار المعارف بمصر ١٩٧٠.

٩٥ ـ وصف قلعة الجبل: كريزويل، ترجمة جمال محمد محرز، القاهرة، ١٩٧٤.

٩٦ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان (أحمد بن محمد)، ٨ أجزاء، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢.

٩٧ ـ الولاة والقضاة: الكندي (محمد بن يوسف) صححه، رفن كست، بيروت، ١٩٠٨.

٩٨ ـ هدية العارفين: إسماعيل باشا البغدادي، استنبول، ١٩٥١، (١ ـ ٢) في مجلد واحد.

فهرس المحتويات